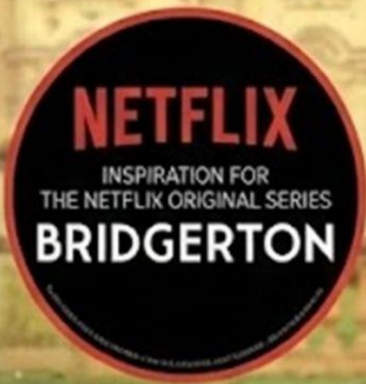


السلسلة الأكثر مبيعاً في نيويورك تايمز

بريدجيرتون

في الطريق إلى حفل الزفاف

قصة غريغوري

جوليا كوين

ترجمة / كاميليا

في الطريق إلى حفل الزفاف

ON THE WAY TO THE



WEDDING

للمزيد من الترجمات

t.me/wadistreambooks



ترجمة / كاميليا

جوليا كوين

JULIA QUINN

في الطريق إلى حفل الزفاف

ON THE WAY TO THE WEDDING



عائلة بريدجرتون
فايوليت ليدجر (1766-) إدموند (1764-1803)
هياسينث (1803-)
غاريث سانت كلير (1797-)
- السر في قبلته، كتاب 7
غريغوري (1801-)
فرانشيسكا (1797-)
م.1 جون ستيرلينغ (إيرل كيلمارتين الثامن، 1792-1820)،
م.2 مايكل ستيرلينغ (إيرل كيلمارتين التاسع، 1791-)
- حينما كان آثماً، كتاب 6
إلويز (1796-)
م. سير فيليب كرين (1794-)
- إلى سير فيليب، مع حبي، كتاب 5
تظهر مارينا طومسون (1794-1823)
أوليفر (1816-)
أماندا (1816-)
بينيلوب (1825-)
دافني (1792-)
م. سيمون باسيت (1784-)، دوق هاستينغز
- الدوق وأنا، كتاب 1
أميليا (1814-)
بيليندا (1815-)
كارولين (1816-)
ديفيد (1817-)
بينيديكت (1786-)
م. صوفيا بيكيت (1794-)
عرض من سيد نبيل، كتاب 3
تشارلز (1818-)
ألكسندر (1820-)
ويليام (1822-)
فايوليت (1824-)
كولين (1791-)
م. بينيلوب فيذرينغتون (1796-)
مراودة السيد بريدجبرتون، كتاب 4
أغاثا (1825-)
أنتوني (1784-)
م. كيت شيفيلد (1793-)
- الفيكونت الذي أحبني، كتاب 2
إدموند (1815-)
مايلز (1817-)
شارلوت (1822-)





مقدمة



لندن، على مقربة من كنيسة سانت جورج، ميدان هانوفر

صيف عام 1827

اشتعلت النيران في رئتيه.

كان غريغوري بريدجيرتون ينهب الأرض ركضًا عبر شوارع لندن، غير عابئ بنظرات الفضول التي رمقه بها المارة. تحكّم في خطواته إيقاع غريب وقوي—واحد اثنان ثلاثة أربعة، واحد اثنان ثلاثة أربعة—يدفعه قُدمًا بقوة، بينما انصبّ تفكيره بالكامل على غاية وحيدة، ووجهة لا بديل لها.

الكنيسة.

كان عليه أن يصل إلى الكنيسة بأي ثمن.

كان لزامًا عليه أن يوقف حفل الزفاف.

منذ متى وهو يركض؟ دقيقة واحدة؟ أم خمس دقائق؟ لم يكن بوسعه أن يعرف، ولم يستطع التركيز على شيء سوى وجهته.

الكنيسة. لا بد أن يبلغ الكنيسة.

كانت المراسم قد بدأت في الحادية عشرة. ذلك الشيء.. ذلك الاحتفال.. ذلك الحدث الذي ما كان ينبغي له أن يحدث أبدًا. لكنها فعلتها رغم كل شيء، وصار لزامًا عليه أن يوقفها. لم يكن يعرف كيف، ولم يدرك السبب بوضوح، لكنها كانت تمضي في الأمر، وكان الأمر خطأً فادحًا.

كان عليها أن تدرك فداحة هذا الخطأ.

فهي له، وهما ينتميان لبعضهما البعض. هي تعلم ذلك.. اللعنة، إنها تعلم ذلك جيدًا.

كم تستغرق مراسم الزفاف عادة؟ خمس دقائق؟ عشرًا؟ عشرين؟ لم ينتبه لهذا الأمر من قبل قط، ولم يطرأ بباله يومًا أن ينظر في ساعته ليعرف متى يبدأ الزفاف ومتى ينتهي.

لم يتخيل أبدًا أنه سيحتاج إلى هذه المعلومة، أو أن الأمر سيعنيه إلى هذا الحد.

منذ متى وهو يركض الآن؟ دقيقتين؟ عشرًا؟

انحرف عند الزاوية بسرعة جعلته ينزلق قليلًا وهو ينعطف نحو شارع ريجنت، وتمتم بكلمات غير مفهومة بديلًا عن الاعتذار حين اصطدم برجل مهندم الثياب، مسقطًا حقيبته أرضًا.

في الظروف العادية، كان غريغوري سيتوقف لمساعدة الرجل، وينحني ليلتقط الحقيبة، لكن ليس اليوم، وليس هذا الصباح.

ليس الآن.

الكنيسة. عليه أن يصل إلى الكنيسة. لم يعد قادرًا على التفكير في أي شيء آخر. لا يجب عليه ذلك. يجب أن—

تجان!

توقف فجأة وكعباه يحتكان بالأرض حين قطعت عربة خيول الطريق أمامه. استند بكفيه على فخذيه—لا رغبةً منه في الراحة، بل لأن جسده المنهك فرض عليه ذلك—وراح يزدرد الهواء جرعة إثر جرعة، محاولًا تخفيف ذلك الضغط الصارخ في صدره، وذلك الشعور المروع بالحرق والتمزق بينما—

عبرت العربة، فانطلق هو مجددًا. صار قريبًا الآن. يمكنه فعلها. لم يمضِ أكثر من خمس دقائق منذ غادر المنزل. ربما ست دقائق. بدا الوقت وكأنه ثلاثون دقيقة، لكنه لا يمكن أن يتجاوز السبع.

لا بد أن أوقف هذه المهزلة. هذا خطأ. لا بد أن أوقفها.

رأى الكنيسة تلوح في الأفق، ببرجها الرمادي الذي يعانق زرقة السماء الصافية. ثمة زهور تتدلى من الفوانيس؛ لم يتبين نوعها—صفراء وبيضاء، والأصفر هو الغالب. كانت تفيض من السلال بجموح، مبتهجة واحتفالية، وهذا كله خطأ. هذا ليس يومًا بهيجًا. هذا ليس حدثًا يستحق الاحتفال.

وسوف يوقفه.

أبطأ من سرعته قليلًا ليتمكن من صعود الدرجات دون أن يتعثر ويسقط على وجهه، ثم دفع الباب بقوة ليفتحه على مصراعيه، وبالكاد سمع صوت ارتطامه بالجدار الخارجي. ربما كان عليه أن يتريث ليلتقط أنفاسه. ربما كان الأجدر به أن يدخل بهدوء، ليمنح نفسه لحظة يقيّم فيها الموقف، ويدرك إلى أي مرحلة وصلوا في المراسم.

خيم الصمت على الكنيسة. توقف القس عن تلاوته الرتيبة، والتفتت الأعناق في كل المقاعد، لتتوجه كل الوجوه نحو الخلف.

نحوه هو.

لهث غريغوري قائلًا:

– "لا."

كان صوته مخنوقًا من شدة الإعياء حتى إنه بالكاد سُمع. ثم تشبث بحافة المقاعد وهو يترنح إلى الأمام، وكرر بصوت أعلى:

– "لا.. لا تفعلوا."

لم تنطق بكلمة، لكنه رآها. رأى فمها مفتوحًا من الصدمة، ورأى باقة الزهور تنزلق من بين يديها، وعرف—والله يشهد—أن أنفاسها قد توقفت.

بدت فائقة الجمال؛ إذ عكس شعرها الذهبي الضوء ببريق ملأه قوةً. اعتدل في وقفته، ورغم أن أنفاسه ظلت تتلاحق، بات قادرًا على المشي دون استناد، فأفلت حافة المقعد.

قال مجددًا:

– "لا تفعلي ذلك."

وتقدم نحوها بتلك الأناقة الهادئة لرجل يعرف تمامًا ما يريد.

ويعرف ما يجب أن يكون.

ظلت صامتة، وكذلك الجميع. كان مشهدًا غريبًا؛ ثلاثمائة من أكثر الفضوليين ثرثرة في لندن يجتمعون تحت سقف واحد، ولا ينبس أحدهم ببنت شفة. لم يستطع أحد أن يزيح نظره عنه وهو يقطع الممر.

قال وهو يقف هناك، أمام الجميع مباشرة:

– "أنا أحبك."

من يهتم؟ لن يبقي هذا الأمر سرًا بعد الآن. لن يدعها تتزوج بآخر دون أن يُشهدِ العالم أجمع على أنها مالكة قلبه.

كرر قوله:

– "أحبك."

ولمح بطرف عينه أمه وشقيقته تجلسان بوقار في أحد المقاعد، وقد فغرت الصدمة فاهيهما.

واصل سيره عبر الممر، وكانت كل خطوة يخطوها تزداد ثقة ويقينًا. خرج من الممر إلى ساحة المذبح، وقال:

– "لا تفعليها. لا تتزوجيه."

همست:

– "غريغوري.. لماذا تفعل هذا؟"

أجابها:

– "أنا أحبك."

لأنها الكلمات الوحيدة التي يمكن قولها، والوحيدة التي تعني شيئًا.

لمعت عيناها، ورأى أنفاسها تحتبس في حلقها. نظرت إلى الرجل الذي كانت تحاول الزواج منه، فرفع ذاك الرجل حاجبيه ومنحها هزّة كتف صغيرة، وكأنه يقول لها: الخيار خيارك.

جثا غريغوري على ركبة واحدة، وسكب روحه في كلماته وهو يقول:

– "تزوجيني.. تزوجيني أنا."

توقفت أنفاسه. وتوقفت أنفاس الكنيسة بأسرها.

ثبتت عينيها في عينيه؛ كانت عيناها واسعتين، صافيتين، تجسدان كل ما آمن يومًا بأنه خير وطيب وحقيقي.

همس للمرة الأخيرة:

– "تزوجيني."

ارتجفت شفتاها، لكن صوتها كان صافيًا حين قالت: ________

يتبع__





الفصل الأول

وفيه يقع بطلنا في الحب.



قبل شهرين.

على النقيض من غالبية الرجال الذين عرفهم، كان غريغوري بريدجيرتون يؤمن بالحب الحقيقي؛ إذ لم يكن أمامه خيار آخر سوى أن يكون أحمق لو لم يفعل.

يكفي أن تنظر إلى محيطه لتدرك السبب: شقيقه الأكبر أنتوني، وشقيقته الكبرى دافني، وأخوه الآخر بنديكت وكولن، ناهيك عن أخواته إلويس وفرانشيسكا، وهياسنث (وهي حقيقة مُرّة لكنها تظل حقيقة)؛ فجميعهم – بلا استثناء – كانوا غارقين في سعادة زوجية يحسدون عليها، ووالهين بشركاء حياتهم حد الهيام.

بالنسبة لمعظم الرجال، قد يثير هذا المشهد العائلي شعورًا بالمرارة والغثيان، لكن الأمر اختلف مع غريغوري، الذي حُبي بروح مرحة نادرة، وإن كانت تثير حفيظة شقيقته الصغرى أحيانًا. بالنسبة له، كان الأمر يعني ببساطة أنه لا مفر من التسليم بالحقيقة الواضحة: الحب موجود.

لم يكن الحب في نظره محض خيال واهٍ اختلقه الشعراء ليقوا أنفسهم شر الموت جوعًا. ربما لم يكن شيئًا يمكن للمرء رؤيته أو شمه أو لمسه، لكنه كان هناك، حقيقة ماثلة في الأفق، ومسألة وقت فقط قبل أن يعثر هو أيضًا على فتاة

أحلامه، ويستقر ليبني أسرة، وينجب أطفالًا، ويمارس تلك الهوايات المحيرة للعقل مثل تشكيل الورق المعجّن أو جمع مباشر جوزة الطيب.

ومع ذلك، وإن شئنا الدقة – وهو أمر يبدو محددًا أكثر مما ينبغي لمفهوم مجرد كهذا – فإن أحلامه لم تتجسد في امرأة بعينها. حسنًا، لم تكن هناك امرأة ذات ملامح محددة ومعروفة. لم يكن يعرف شيئًا عن تلك المرأة المجهولة التي كان من المفترض أن تقلب حياته رأسًا على عقب، وتحوله إلى ركن ركين من أركان الاحترام والملل السعيد. لم يكن يعلم إن كانت ستكون قصيرة أم طويلة، سمراء أم شقراء. كان يود الاعتقاد بأنها ستكون ذكية وتتمتع بحس فكاهي رفيع، لكن ما عدا ذلك، كيف له أن يعرف؟ قد تكون خجولة أو جريئة في الحديث. ربما تحب الغناء، وربما لا. وقد تكون فارسة ماهرة، اكتسبت بشرتها حمرة صحية من كثرة البقاء في الهواء الطلق.

لم يكن يعلم. ولكن عندما يتعلق الأمر بهذه المرأة – تلك المرأة المستحيلة، الرائعة، والتي لا وجود لها حاليًا – كان كل ما يعرفه حقًا هو أنه عندما يجدها...

سيعرفها.

لم يكن يعلم كيف سيعرف، لكنه كان موقنًا بأنه سيفعل.

إن أمرًا بهذا الزخم، وبهذه القدرة على زلزلة الكيان وتغيير مسار الحياة... حسنًا، لن يتسلل إلى الوجود همسًا. بل سيأتي كاسحًا قويًا، كمن يسقط عليه طن من الطوب كما في الأمثال. كان السؤال الوحيد هو: متى؟

وفي غضون ذلك، لم يرَ غريغوري بأسًا في الاستمتاع بوقته ريثما تصل "هي". فليس على المرء أن يعيش حياة الرهبان وهو ينتظر حب حياته، على أية حال.

كان غريغوري، بكل المقاييس، نموذجًا للشاب اللندني التقليدي، يتمتع بمخصص مالي مريح – وإن لم يكن باذخًا بأي حال – ولديه وفرة من الأصدقاء، ورجاحة عقل تكفيه ليعرف متى ينسحب من طاولة القمار. كان يُعد صيدًا مقبولًا في "سوق الزواج"، وإن لم يكن الخيار الأول (فالابن الرابع لا

يحظى عادة باهتمام كبير)، وكان مطلوبًا دائمًا عندما تحتاج سيدات المجتمع إلى رجل أعزب لضبط أعداد المدعوين في حفلات العشاء.

وهو أمر ساعد في جعل مخصصه المالي المذكور آنفًا يكفي لفترة أطول – وتلك ميزة دائمًا.

ربما كان عليه أن يجد لحياته غاية أكثر وضوحًا. نوعًا من التوجيه، أو حتى مجرد مهمة ذات معنى لينجزها. لكن ذلك يمكن أن ينتظر، أليس كذلك؟ كان واثقًا أن كل شيء سيتضح قريبًا. سيعرف بالضبط ما الذي يرغب في فعله، ومع من يرغب في فعله، أما في الوقت الراهن، فإنه...

لم يكن يقضي وقتًا ممتعًا. ليس في هذه اللحظة تحديدًا.

ولتوضيح الأمر:

كان غريغوري يجلس حاليًا على مقعد جلدي وثير للغاية، ولا علاقة لذلك بالموضوع سوى أن غياب الشعور بعدم الراحة كان محفزًا لأحلام اليقظة، والتي بدورها كانت محفزة لعدم الاستماع إلى شقيقه، الذي – وتجب الإشارة هنا – كان يقف على بعد أربعة أقدام تقريبًا، يطن بحديث ممل حول موضوع ما، يرتبط بشكل شبه مؤكد بتنويعات مختلفة لكلمتي "الواجب" و"المسؤولية".

لم يكن غريغوري منتبهًا حقًا. ونادرًا ما كان يفعل.

حسنًا، لا، كان ينتبه أحيانًا، ولكن...

صاح صوت قاطعًا حبل أفكاره:

– "غريغوري؟ غريغوري!"

رفع بصره وهو يطرف بعينيه. كان أنتوني يقف عاقدًا ذراعيه، وهذه ليست علامة جيدة أبدًا. كان أنتوني هو "الفيكونت بريدجيرتون" منذ أكثر من عشرين عامًا. ورغم كونه – كما سيصر غريغوري دائمًا – خير الإخوة وأفضلهم، إلا أنه كان يصلح تمامًا لأداء دور الإقطاعي الصارم.

قال أنتوني بنبرة جافة:

– "أعتذر عن اقتحام أفكارك، أيًا كانت طبيعتها، ولكن هل سمعت – ربما، مجرد ربما – أي شيء مما قلته؟"

رد غريغوري مرددًا كالببغاء، وهو يهز رأسه بوقار مصطنع:

– "المثابرة... وتحديد الوجهة."

أجاب أنتوني:

– "بالفعل."

هنأ غريغوري نفسه على ما بدا بوضوح أداءً ملهمًا.

تابع أنتوني:

– "لقد حان الوقت منذ أمد بعيد لكي تبحث عن وجهة لحياتك."

تمتم غريغوري:

– "بالطبع."

قالها في الغالب لأنه فوّت طعام العشاء، وكان يتضور جوعًا، وقد تناهى إلى سمعه أن زوجة أخيه تقدم وجبات خفيفة في الحديقة. علاوة على ذلك، لم يكن من المنطقي أبدًا مجادلة أنتوني. أبدًا.

– "يجب أن تُحدث تغييرًا. اختر مسارًا جديدًا."

– "بالفعل."

ربما تكون هناك شطائر. يمكنني التهام نحو أربعين شطيرة من تلك الشطائر الصغيرة السخيفة منزوعة الأطراف الآن.

– "غريغوري."

كان صوت أنتوني يحمل تلك النبرة. النبرة التي، وإن كان من المستحيل وصفها، إلا أنه من السهل جدًا التعرف عليها. وعرف غريغوري أن وقت الانتباه قد حان.

قال غريغوري:

– "حسنًا."

لأنه، وحقًا، كان من المدهش كيف يمكن لمقطع صوتي واحد أن يؤخر جملة كاملة.

– "أظنني سأنخرط في سلك الكهنوت."

أوقف ذلك أنتوني تمامًا. تجمّد، وتصلّب في مكانه. توقف غريغوري ليتلذذ باللحظة. من المؤسف أنه اضطر لأن يصبح كاهنًا لعينًا ليحقق ذلك.

تمتم أنتوني أخيرًا:

– "عفوًا؟"

قال غريغوري:

– "ليس الأمر وكأن أمامي خيارات كثيرة."

وبينما كانت الكلمات تخرج من فمه، أدرك أنها المرة الأولى التي ينطق بها. وبدا أن نطقها جعلها أكثر واقعية، وأكثر ديمومة.

تابع قائلاً:

– "إما الجيش أو الكهنوت، و... حسنًا، يجب أن أقولها: أنا رامٍ فاشل بشكل مريع."

لم يقل أنتوني شيئًا. فجميعهم كانوا يعلمون أن هذا صحيح.

بعد لحظة من الصمت المحرج، تمتم أنتوني:

– "هناك السيوف."

– "أجل، ولكن بحظي العاثر، سيتم إرسالي إلى السودان."

ارتعد غريغوري وهو يكمل:

– "لا أريد أن أبدو شديد التدليل، ولكن بصراحة... الحر هناك لا يطاق. هل ترغب أنت في الذهاب؟"

اعترض أنتوني فورًا:

– "لا، بالطبع لا."

أضاف غريغوري، وقد بدأ يستمتع بالأمر:

– "وهناك أيضًا الوالدة."

ساد صمت قصير. ثم قال أنتوني:

– "وما علاقتها بالسودان... وتحديدًا؟"

– "لن يسعدها ذهابي، وأنت تعلم جيدًا أنك ستكون الشخص الذي عليه أن يمسك بيدها كلما قلقت، أو كلما حلمت بكابوس مروع عن..."

قاطعه أنتوني:

- "لا تكمل."

سمح غريغوري لنفسه بابتسامة داخلية. لم يكن هذا منصفاً بحق والدته، التي – ومن باب الأمانة – لم تدعِ يومًا أنها تتنبأ بالمستقبل عبر شيء واهٍ كالأحلام. لكنها ستكره ذهابه للسودان، وسيكون على أنتوني الاستماع لقلقها حيال ذلك.

وبما أن غريغوري لم يكن راغبًا بشكل خاص في مغادرة شواطئ إنجلترا الضبابية، فقد كانت النقطة غير ذات موضوع على أية حال.

قال أنتوني:

- "حسنًا. حسنًا. أنا سعيد إذن لأننا تمكنا أخيرًا من إجراء هذه المحادثة."

رمق غريغوري الساعة بنظرة خاطفة.

تنحنح أنتوني، وعندما تحدث، كانت نبرة نفاد الصبر تشوب صوته:

- "وأنك تفكر أخيرًا في مستقبلك."

شعر غريغوري بشد في عضلات فكه.

ذكّره قائلاً:

- "أنا لم أتجاوز السادسة والعشرين. وبالتأكيد ما زلت صغيرًا جدًا على تكرار استخدام كلمة (أخيرًا) بهذا الشكل."

رفع أنتوني حاجبًا واحدًا فقط وقال:

- "هل أتصل برئيس الأساقفة؟ لأبحث لك عن رعية؟"

تلوى صدر غريغوري في نوبة سعال غير متوقعة. وعندما تمكن من الكلام، قال:

- "آه، لا. ليس بعد، على الأقل."

تحركت إحدى زوايا فم أنتوني. لكن ليس كثيرًا، ولم تتحول، بأي تعريف للكلمة، إلى ابتسامة.

قال بصوت خافت:

– "يمكنك أن تتزوج."

وافق غريغوري:

– "يمكنني ذلك. وسأفعل. في الواقع، أنا أخطط لذلك."

– "حقًا؟"

– "عندما أجد المرأة المناسبة."

وعندما رأى تعبير الشك على وجه أنتوني، أضاف غريغوري:

– "بالتأكيد أنت، من بين كل الناس، ستنصح بزواج الحب على زواج المصلحة."

كان أنتوني مشهورًا بعشقه لزوجته، التي كانت بدورها مغرمة به بشكل لا يقل شهرة. وكان أنتوني أيضًا معروفًا بتفانيه تجاه أشقائه السبعة الأصغر منه، لذا لم يكن ينبغي لـ غريغوري أن يشعر بذلك التدفق المفاجئ للمشاعر عندما قال أخوه بهدوء:

– "أتمنى لك كل السعادة التي أنعم بها أنا."

أُنقذ غريغوري من ضرورة الرد بصوت قرقرة عالية صدرت من معدته.

رمق أخاه بنظرة خجولة وقال:

– "آسف. لقد فوتّ العشاء."

– "أعرف. توقعنا وصولك أبكر من ذلك."

تجنب غريغوري أن يجفل. بالكاد.

– "كيت كانت منزعجة بعض الشيء."

تلك كانت الطامة الكبرى. عندما يشعر أنتوني بخيبة أمل فهذا شيء. لكن عندما يزعم أن زوجته قد تألمت بطريقة ما... حسنًا، عندها يعرف غريغوري أنه في ورطة.

تمتم قائلاً:

– "تأخرت في التحرك من لندن."

كانت تلك الحقيقة، لكنها لم تكن عذرًا للتصرف غير اللائق. كان يُتوقع حضوره للحفل المنزلي في وقت العشاء، لكنه لم يفِ بذلك. كاد أن يقول:

"سأعوضها عن ذلك"، لكنه عضّ على لسانه في اللحظة الأخيرة. كان يعلم أن ذلك سيجعل الأمر أسوأ، وكأنه يستخف بتأخره، مفترضًا أنه يستطيع تلطيف أي زلة بابتسامة وتعليق لبق. وهو ما كان ينجح فيه غالبًا، لكن لسبب ما هذه المرة...

لم يرغب في ذلك.

لذا قال ببساطة:

– "أنا آسف."

وكان يعنيها حقًا.

قال أنتوني بفظاظة:

– "إنها في الحديقة. أظنها تنوي إقامة حفل راقص... في الفناء، إن كنت تصدق ذلك."

كان غريغوري يصدق. بدا الأمر شيئًا تفعله زوجة أخيه تمامًا. لم تكن من النوع الذي يترك أي لحظة سعيدة تمر دون استغلالها، ومع الطقس الجميل بشكل غير معتاد، لمَ لا تنظم رقصًا عفويًا في الهواء الطلق؟

قال أنتوني:

– "احرص على الرقص مع من ترغب هي في أن ترقص معهن. كيت لن تحب أن تشعر أي من الشابات بالإقصاء."

تمتم غريغوري:

– "بالطبع لا."

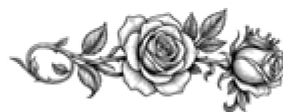
قال أنتوني وهو يعود إلى مكتبه، حيث كانت تنتظره أكوام من الأوراق:

– "سأنضم إليكم خلال ربع ساعة. لا تزال لدي بعض الأمور لأنجزها."

وقف غريغوري.

– "سأنقل ذلك إلى كيت."

ثم، ومع انتهاء المقابلة بوضوح، غادر الغرفة وتوجه إلى الحديقة.



لقد مر بعض الوقت منذ زار أوبري هول، منزل عائلة بريدجيرتون العريق. كانت العائلة تجتمع هنا في "كينت" لأجل الكريسماس بالطبع، لكن في الحقيقة، لم يكن المكان يمثل وطنًا لـ غريغوري، ولم يكن كذلك أبدًا. بعد وفاة والده، قامت والدته بأمر غير تقليدي واقتلعت عائلتها، مختارة قضاء معظم العام في لندن. لم تصرح بذلك قط، لكن غريغوري كان يشك دائمًا في أن المنزل القديم الأنيق يحمل ذكريات أكثر مما يُحتمل.

ونتيجة لذلك، كان غريغوري يشعر دائمًا بالانتماء للمدينة أكثر من الريف. بريدجيرتون هاوس في لندن كان منزل طفولته، وليس أوبري هول. ومع ذلك، كان يستمتع بزياراته، وكان دائمًا مستعدًا للأنشطة الريفية، كالركوب والسباحة (عندما تكون البحيرة دافئة بما يكفي)، وبشكل غريب، كان يحب تغيير الوتيرة. كان يحب كيف يبدو الهواء هادئًا ونظيفًا بعد شهور في المدينة.

وكان يحب الطريقة التي يستطيع بها ترك كل ذلك وراءه عندما يصبح المكان هادئًا ونظيفًا أكثر من اللازم.

كانت احتفالات الليلة تقام في المرج الجنوبي، أو هكذا أخبره كبير الخدم عندما وصل في وقت سابق من المساء. بدا المكان موقعًا جيدًا لحفل خارجي؛ أرض مستوية، إطلالة على البحيرة، وفناء واسع بمقاعد وفيرة لمن هم أقل نشاطًا.

وبينما كان يقترب من الصالون الطويل الذي يفتح على الخارج، تناهى إلى سمعه همهمة الأصوات المنخفضة المتسللة عبر الأبواب الفرنسية. لم يكن متأكدًا من عدد الأشخاص الذين دعتهم زوجة أخيه لحفلها المنزلي – ربما ما بين عشرين وثلاثين شخصًا. عدد صغير بما يكفي ليكون حميميًا، لكنه كبير بما يكفي ليتمكن المرء من التسلل بحثًا عن بعض الهدوء دون أن يترك فراغًا ملحوظًا في التجمع.

بينما كان غريغوري يعبر الصالون، أخذ نفسًا عميقًا، محاولًا تحديد نوع الطعام الذي قررت كيت تقديمه. لن يكون هناك الكثير بالطبع؛ فلقد أتخمت ضيوفها بالفعل في العشاء.

حلويات، هكذا قرر غريغوري، وهو يشم رائحة قرفة خفيفة عند وصوله إلى الحجر الرمادي الفاتح للفناء. أطلق زفرة خيبة أمل. كان يتضور جوعًا، وكانت شريحة لحم ضخمة تبدو كالنعيم في تلك اللحظة. لكنه كان متأخرًا، ولم يكن الخطأ خطأ أحد سواه، وسوف يقطف أنتوني رأسه إن لم ينضم للحفل فورًا، لذا، فليكن الكعك والبسكويت.

داعب نسيم دافئ بشرته وهو يخطو للخارج. كان الطقس حارًا بشكل لافت بالنسبة لشهر مايو؛ وكان الجميع يتحدثون عن ذلك. إنه نوع الطقس الذي يرفع المعنويات – لطيف بشكل مفاجئ لدرجة أن المرء لا يملك إلا أن يبتسم. وبالفعل، بدا الضيوف المتجولون في أرجاء المكان في حالة معنوية سعيدة؛ وكانت همهمة الأحاديث تتخللها ضحكات متكررة وعالية.

جال غريغوري ببصره، باحثًا عن المرطبات وعن أي شخص يعرفه، ويفضل أن تكون زوجة أخيه كيت، التي تقتضي اللباقة أن يحييها أولًا. ولكن بينما كانت عيناه تمسحان المشهد، رأى بدلًا من ذلك...

رآها.

هي.

وعرف ذلك. عرف أنها "هي". وقف متجمدًا، مذهولًا. لم يندفع الهواء من جسده؛ بل بدا وكأنه يتسرب ببطء حتى لم يبقَ شيء، ووقف هناك، أجوف، يتوق للمزيد.

لم يستطع رؤية وجهها، ولا حتى ملامحها الجانبية. لم يكن هناك سوى ظهرها، وذلك الانحناء المذهل لعنقها، وخصلة من شعر أشقر تلتف على كتفها.

وكل ما استطاع التفكير فيه هو: لقد تحطمت.

بالنسبة لجميع النساء الأخريات، فقد انتهى الأمر. هذه الكثافة، هذه النار، هذا الشعور الطاغي بالصواب... لم يسبق له أن شعر بشيء كهذا. ربما كان الأمر سخيفًا. ربما كان جنونًا. وعلى الأرجح كان كلا الأمرين. لكنه كان ينتظر. لهذه اللحظة، ومنذ زمن طويل، كان ينتظر. وفجأة أصبح الأمر واضحًا:

لماذا لم ينضم للجيش أو الكهنوت، أو يقبل أحد عروض أخيه المتكررة لإدارة إحدى عزب بريدجيرتون الصغيرة.

لقد كان ينتظر. هذا كل ما في الأمر. تباً، لم يدرك حتى كم كان لا يفعل شيئًا سوى انتظار هذه اللحظة.

وها هي ذي.

ها هي هناك.

وعرف.

لقد عرف.

تحرك ببطء عبر المرج، ناسيًا الطعام وكيت. تمكن من تمتمة التحيات لشخص أو شخصين مر بهما في طريقه، محافظًا على وتيرة سيره. كان عليه الوصول إليها. كان عليه رؤية وجهها، تنفس عطرها، معرفة صوتها.

ثم أصبح هناك، يقف على بعد أقدام قليلة. كان لاهثًا، مأخوذًا، يشعر بالاكتمال لمجرد وقوفه في حضرتها.

كانت تتحدث مع شابة أخرى، بحيوية تكفي لوسمهما كصديقتين مقربتين. وقف هناك للحظة، يراقبهما فقط حتى استدارتا ببطء وأدركتا وجوده.

ابتسم. برفق، قليلًا فقط. وقال...

- "كيف حالكما؟"

كتمت لوسيندا أبيرناثي - المعروفة للجميع باسم لوسي - أنينًا متململاً وهي تستدير نحو السيد الذي تسلل خلفها، ليتغزل بـ هيرميون على الأرجح، كما يفعل كل من يقابل هيرميون.

كانت تلك إحدى المخاطر المهنية لمصادقة هيرميون واتسون. كانت تجمع القلوب المحطمة كما يجمع القس العجوز قرب الدير الفراشات.

الفارق الوحيد، بالطبع، هو أن هيرميون لم تكن تغرز دبابيس صغيرة بغيضة في مجموعتها. وللإنصاف، لم تكن هيرميون ترغب في الفوز بقلوب الرجال، وبالتأكيد لم تسعَ أبدًا لكسر أي منها. الأمر مجرد... يحدث. كانت

لوسي معتادة على ذلك الآن. هيرميون هي هيرميون، بشعر أشقر باهت كلون الزبدة، ووجه على شكل قلب، وعينين واسعتين بلون أخضر مذهل.

أما لوسي، من ناحية أخرى، فكانت... حسنًا، لم تكن هيرميون، هذا كان واضحًا. كانت ببساطة نفسها، وفي معظم الأوقات، كان ذلك كافيًا.

كانت لوسي، في كل جانب مرئي تقريبًا، "أقل" قليلًا من هيرميون. أقل شقرة. أقل نحافة. أقل طولًا. عيناها كانتا أقل حدة في اللون – رمادية مائلة للزرقة، في الواقع، وجذابة جدًا عند مقارنتها بأي شخص آخر غير هيرميون، لكن ذلك لم ينفعها كثيرًا، لأنها لم تكن تذهب لأي مكان دون هيرميون.

لقد توصلت إلى هذا الاستنتاج المذهل ذات يوم بينما لم تكن منتبهة لدروس الإنشاء والأدب الإنجليزي في "مدرسة الآنسة موس للشابات الاستثنائيات"، حيث كانت هي وهيرميون طالبتين لثلاث سنوات.

كانت لوسي "أقل" قليلًا. أو ربما، إن أراد المرء تجميل الأمر، كانت ببساطة "ليست تمامًا".

كانت، كما تفترض، جذابة بشكل معقول، بذلك الأسلوب الصحي التقليدي للوردة الإنجليزية، لكن الرجال نادرًا (حسنًا، أبدًا) ما يصابون بالخرس في حضرتها.

أما هيرميون... حسنًا، كان من حسن الحظ أنها شخص لطيف للغاية. وإلا لكانت مصادقتها مستحيلة. حسنًا، ذلك إضافة إلى حقيقة أنها ببساطة لا تستطيع الرقص. فالس، كوادريل، مينويت – لا يهم حقًا. إذا تضمن الأمر موسيقى وحركة، فـ هيرميون عاجزة عنه.

وكان ذلك رائعًا.

لم تكن لوسي تعتبر نفسها شخصًا سطحيًا، وكانت لتصر، لو سألها أحد، أنها ستلقي بنفسها طواعية أمام عربة لإنقاذ صديقتها العزيزة، لكن كان هناك نوع من العدالة المُرضية في حقيقة أن أجمل فتاة في إنجلترا تملك قدمين يسراوين، وإحداهما على الأقل مشوهة.

مجازيًا بالطبع.

والآن ها هو ذا واحد آخر. -رجل، بالطبع، لا قدم- وسيم أيضًا. طويل، وإن لم يكن مفرط الطول، بشعر بني دافئ وابتسامة جذابة. وبريق في عينيه أيضًا، لم تستطع تحديد لونه تمامًا في ضوء الليل الخافت.

ناهيك عن أنها لم تستطع رؤية عينيه فعليًا، لأنه لم يكن ينظر إليها. كان ينظر إلى هيرميون، كما يفعل الرجال دائمًا.

ابتسمت لوسي بأدب، رغم أنها لم تتخيل أنه سيلاحظ، وانتظرت منه أن ينحني ويقدم نفسه.

وعندها فعل الشيء الأكثر إدهاشًا. فبعد أن أفصح عن اسمه – كان يجب أن تعرف أنه من عائلة بريدجيرتون من هيئته – انحنى وقبّل يدها هي أولًا.

حبست لوسي أنفاسها.

ثم، بالطبع، أدركت ما يفعله.

يا له من داهية! إنه بارع حقًا. لا شيء، لا شيء سيُحبّب رجلاً إلى هيرميون أسرع من توجيه مجاملة لـ لوسي.

سوء حظ له أن قلب هيرميون مشغول بغيره.

حسنًا. سيكون من المسلي مشاهدة فصول المسرحية على الأقل.

كانت هيرميون تقول:

– "أنا الآنسة هيرميون واتسون."

وأدركت لوسي أن تكتيكات السيد بريدجيرتون كانت ذكية بشكل مزدوج. بتقبيل يد هيرميون ثانيًا، يمكنه التمهل فوقها، وفوقها هي شخصيًا في الواقع، ثم ستكون هي المطالَبة بإجراء التعارف.

كادت لوسي أن تعجب به. إن لم يكن لشيء، فهذا يميزه كشخص أذكى قليلًا من الرجل العادي.

تابعت هيرميون:

– "وهذه أعز صديقاتي، الليدي لوسيندا أبيرناثي."

قالتها بالطريقة التي تقولها بها دائمًا، بحب وتفانٍ، وربما بلمسة خفيفة جدًا من اليأس، وكأنها تقول: بحق السماء، امنحوا لوسي نظرة أيضًا.

لكنهم بالطبع لا يفعلون أبدًا. إلا عندما يريدون نصيحة بخصوص هيرميون، وقلبها، وكيفية الفوز به. وعندما يحدث ذلك، تكون لوسي مطلوبة بشدة.

استدار السيد بريدجيرتون – السيد غريغوري بريدجيرتون، صححت لوسي لنفسها عقليًا، إذ كان هناك، حسب علمها، ثلاثة سادة من آل بريدجيرتون إجمالًا، دون احتساب الفيكونت بالطبع – وفاجأها بابتسامة فاتنة وعينين دافئتين. تمتم قائلاً:

– "كيف حالك، يا ليدي لوسيندا."

– "بخير، شكرًا لك."

وكادت تركل نفسها لأنها تلعثمت فعليًا قبل كلمة "بخير"، لكن بحق السماء، إنهم لا ينظرون إليها أبدًا بعد التحديق في هيرميون، أبدًا.

هل يُعقل أنه مهتم بها؟

لا، مستحيل. إنهم ليسوا كذلك أبدًا.

وحقًا، هل يهم الأمر؟ بالطبع سيكون من الساحر أن يقع رجل في حبها بجنون وشغف على سبيل التغيير. حقًا، لن تمانع الاهتمام. لكن الحقيقة هي أن لوسي كانت مخطوبة عمليًا للورد هاسيلبي منذ سنوات وسنوات، لذا لا جدوى من وجود معجب ولهان خاص بها. الأمر ليس وكأنه قد يؤدي لشيء مفيد.

وإلى جانب ذلك، لم يكن خطأ هيرميون أنها ولدت بوجه ملاك.

إذن، هيرميون هي الحورية الفاتنة، ولوسي هي الصديقة الوفية، وكل شيء يسير على ما يرام في العالم. أو إن لم يكن على ما يرام، فهو على الأقل متوقع تمامًا.

سألت لوسي أخيرًا، بما أن أحدًا لم يقل شيئًا بعد أن انتهوا جميعًا من عبارات "سُررت بلقائك" التقليدية:

– "هل نعدّك من بين مضيفينا؟"

أجاب السيد بريدجيرتون:

– "أخشى ألا. بقدر ما أود أن أنسب الفضل لنفسي في هذه الاحتفالات، إلا أنني أقيم في لندن."

قالت هيرميون بأدب:

– "أنت محظوظ جدًا بوجود أوبري هول في عائلتك، حتى وإن كان ملكًا لأخيك."

وعند تلك اللحظة عرفت لوسي. السيد بريدجيرتون مغرم بـ هيرميون. دعك من أنه قبّل يدها هي أولًا، أو أنه نظر إليها فعليًا عندما تحدثت، وهو ما لا يكلف معظم الرجال أنفسهم عناء فعله. كان يكفي للمرء أن يرى الطريقة التي ينظر بها إلى هيرميون عندما تتحدث ليعرف أنه، هو أيضًا، قد انضم للقطيع.

كانت عيناه تحملان تلك النظرة الزجاجية قليلًا. شفتاه مفترقتان. وكان هناك توتر، وكأنه يود أن ينتشل هيرميون ويمشي بها بخطوات واسعة أسفل التل، وليذهب الحشد واللياقة للجحيم.

على عكس الطريقة التي نظر بها إليها هي، والتي يمكن تصنيفها بسهولة كعدم اهتمام مهذب. أو ربما كانت نظرة تعني: لماذا تسدين طريقي، وتمنعينني بذلك من انتشال هيرميون بين ذراعي والمشي بها أسفل التل، وليذهب الحشد واللياقة للجحيم؟

لم يكن الأمر مخيبًا للآمال، بالضبط. مجرد... ليس... غير مخيب للآمال. يجب أن تكون هناك كلمة تصف هذا الشعور. حقًا، يجب.

– "لوسي؟ لوسي؟"

أدركت لوسي بشيء من الإحراج أنها لم تكن منتبهة للمحادثة. كانت هيرميون تنظر إليها بفضول، ورأسها مائل بتلك الطريقة الخاصة بها التي يبدو أن الرجال يجدونها فاتنة دائمًا. جربتها لوسي مرة، فأصابتها بالدوار.

تمتمت قائلة، بما أن نوعًا من التعبير اللفظي بدا مطلوبًا:

– "نعم؟"

قالت هيرميون:

– "السيد بريدجيرتون طلب مني الرقص، لكنني أخبرته أنني لا أستطيع."

كانت هيرميون دائمًا تدعي التواء كاحلها أو إصابتها بنزلة برد لتبقي نفسها بعيدة عن حلبة الرقص. وهو أمر جيد ومقبول، لولا أنها كانت تحيل كل معجبيها إلى لوسي. وهو ما كان جيدًا ومقبولًا في البداية، لكنه أصبح شائعًا لدرجة أن لوسي شكت في أن السادة باتوا يعتقدون أنه يتم دفعهم في اتجاهها شفقةً، وهو ما لا يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة.

كانت لوسي، وإن جاز لها القول، راقصة بارعة إلى حد ما. ومحاورة ممتازة أيضًا.

قال السيد بريدجيرتون، لأنه، وحقًا، ماذا عساه يقول غير ذلك؟

– "إنه لمن دواعي سروري أن أحظى برقصة مع الليدي لوسيندا."

وهكذا ابتسمت لوسي، ابتسامة ليست نابعة من القلب تمامًا، لكنها ابتسامة على أية حال، وسمحت له باقتيادها إلى الفناء.





الفصل الثاني

حيث تُبدي بطلتنا عدم اكتراث واضح

بكل ما يمت للرومانسية بصلة.



كان غريغوري نبيلًا حتى النخاع، لذا أخفى خيبته ببراعة حين قدم ذراعه لليدي لوسيندا ورافقها إلى ساحة الرقص المؤقتة. كان واثقًا من أنها شابة ساحرة ولطيفة للغاية، لكنها لم تكن الآنسة هيرميون واتسون.

وهو قد انتظر طوال حياته ليلتقي بالآنسة هيرميون واتسون.

ومع ذلك، يمكن اعتبار هذا الأمر مفيدًا لقضيته؛ فالليدي لوسيندا هي الصديقة المقربة للآنسة واتسون بلا شك—إذ لم تتوقف الآنسة واتسون عن الثناء عليها بحماس خلال محادثتهما القصيرة، في حين كانت الليدي لوسيندا حينها تحدق في شيء ما خلف كتفه، وكأنها لا تسمع كلمة مما يقال. وبحكم نشأته مع أربع شقيقات، كان غريغوري يعرف شيئًا أو شيئين عن النساء، وأهم ما عرفه هو أن مصادقة "الصديقة" فكرة سديدة دائمًا، شريطة أن تكونا صديقتين حقًا، وليست تلك العلاقة الغريبة التي تتصنع فيها النساء الصداقة بينما ينتظرن اللحظة المثالية ليطعنّ بعضهن في الخاصرة.

النساء كائنات غامضة. لو تعلمن فقط أن يقلن ما يعنينه، لصار العالم مكانًا أبسط بكثير.

لكن الآنسة واتسون والليدي لوسيندا بدتا وكأنهما مثال للصداقة والإخلاص، بصرف النظر عن شرود ذهن الليدي لوسيندا. وإذا أراد غريغوري

معرفة المزيد عن الآنسة واتسون، فإن الليدي لوسيندا أبيرناثي هي نقطة البداية البديهية.

سأل غريغوري بتهذيب وهما ينتظران بدء الموسيقى:

– "هل أنتِ ضيفة في أوبري هول منذ وقت طويل؟"

أجابت:

– "منذ الأمس فقط. وأنت؟ لم نركَ في أي من التجمعات حتى الآن."

قال:

– "لقد وصلتُ هذا المساء فقط.. بعد العشاء."

ثم امتعض وجهه قليلًا؛ فالآن، وبعد أن كف عن التحديق في الآنسة واتسون، تذكر أنه جائع للغاية.

صاحت الليدي لوسيندا:

– "لا بد أنك تتضور جوعًا! هل تفضل أن نأخذ جولة حول الفناء بدلًا من الرقص؟ أعدك بأننا قد نمرّ بطاولة المشروبات والأطعمة."

كاد غريغوري أن يعانقها، وقال:

– "أنتِ يا ليدي لوسيندا، فتاة لا تُقدّر بثمن."

ابتسمت، لكن ابتسامتها كانت من نوع غريب لم يستطع تحديد معناه تمامًا. كان واثقًا من أنها سُرّت بمديحه، لكن ثمة شيئًا آخر كان يلوح هناك، شيئًا يشبه الأسف قليلًا، أو ربما الاستسلام.

قال:

– "لا بد أن لكِ أخًا."

أكدت قائلة وهي تبتسم لاستنتاجه:

– "أجل، لدي. يكبرني بأربعة أعوام، وهو دائم الجوع. سأظل مندهشة للأبد من بقاء أي طعام في خزانة المؤن حين كان يعود من المدرسة."

شبك غريغوري يدها في مرفقه، وتحركا معًا نحو محيط الفناء.

قالت الليدي لوسيندا وهي تجذب ذراعه قليلًا حين حاول توجيههما عكس اتجاه عقارب الساعة:

– "من هذا الطريق.. إلا إذا كنت تفضل الحلويات."

شعر غريغوري بوجهه يشرق:

– "هل هناك معجنات مالحة؟"

– "شطائر. إنها صغيرة، لكنها لذيذة جدًا، خاصة تلك المحشوة بالبيض."

أومأ برأسه شاردًا بعض الشيء؛ فقد لمح الآنسة واتسون بطرف عينه، وكان من الصعب عليه التركيز على أي شيء آخر، خاصة أنها كانت محاطة بالرجال. كان غريغوري واثقًا من أنهم كانوا ينتظرون فقط أن يُبعد أحدهم الليدي لوسيندا عن جانبها قبل أن ينقضوا للهجوم.

سأل محاولًا ألا يبدو اهتمامه واضحًا للغاية:

– "إم، هل تعرفين الآنسة واتسون منذ وقت طويل؟"

ساد صمت قصير جدًا، ثم قالت:

– "ثلاث سنوات. نحن طالبتان معًا في مدرسة الآنسة موس. أو بالأحرى كنا طالبتين معًا؛ فقد أنهينا دراستنا في وقت سابق من هذا العام."

– "هل لي أن أفترض أنكما تخططان لظهوركما الأول في مجتمع لندن في وقت لاحق من هذا الربيع؟"

أجابت وهي تومئ نحو طاولة مثقلة بالوجبات الخفيفة:

– "نعم. قضينا الأشهر القليلة الماضية في التحضير، كما تحب والدة هيرميون أن تسمي ذلك، عبر حضور الحفلات المنزلية والتجمعات الصغيرة."

سأل بابتسامة:

– "لصقل شخصياتكما؟"

تقوست شفتاها في رد صامت، ثم قالت:

– "هذا بالضبط. يُفترض أنني أصلح لأن أكون شمعدانًا ممتازًا الآن."

وجد نفسه مستمتعًا بحديثها، فقال:

– "مجرد شمعدان يا ليدي لوسيندا؟ أرجوكِ، لا تبخسي نفسك قدرها. أنتِ على الأقل واحدة من تلك المزهريات الفضية الفاخرة التي يبدو أن الجميع بحاجة إليها في غرف جلوسهم مؤخرًا."

قالت وكأنها تفكر في الفكرة بجدية:

– "أنا مزهرية إذن.. أتساءل، ماذا يجعل ذلك من هيرميون؟"

جوهرة. *ألماسة. ألماسة مرصعة بالذهب. ألماسة مرصعة بالذهب ومحاطة بـ...*

أوقف سيل أفكاره قسرًا. يمكنه ممارسة هوايته في الشِعر لاحقًا حين لا يكون مطالبًا بمواصلة طرف حديث مع شابة أخرى. قال بخفة وهو يقدم لها طبقًا:

– "أنا واثق من أنني لا أعرف، فأنا بالكاد تعرفت على الآنسة واتسون بعد كل شيء."

لم تقل شيئًا، لكن حاجبيها ارتفعا قليلًا جدًا. وتلك كانت اللحظة التي أدرك فيها غريغوري بالطبع أنه كان يختلس النظر من فوق كتفها ليحظى برؤية أفضل للآنسة واتسون.

أطلقت الليدي لوسيندا تنهيدة صغيرة، وقالت:

– "ربما ينبغي أن تعلم أنها مغرمة بشخص آخر."

سحب غريغوري نظره بصعوبة ليعود به إلى المرأة التي كان من المفترض أن يوليها اهتمامه، وقال:

– "عفوًا؟"

هزت كتفيها برقة وهي تضع بضع شطائر صغيرة في طبقها:

– "هيرميون.. إنها مغرمة بشخص آخر. ظننت أنك تود أن تعرف."

فغر غريغوري فاه ناظرًا إليها، ثم—ضاربًا بكل ذرة من حكمته عرض الحائط—نظر مرة أخرى إلى الآنسة واتسون. كانت حركة مفضوحة ومثيرة للشفقة، لكنه لم يستطع تمالك نفسه. هو فقط... يا إلهي، كان يريد فقط أن

ينظر إليها وينظر إليها ولا يتوقف أبدًا. إذا لم يكن هذا هو الحب، فلا يمكنه تخيل ما هو.

– "لحم؟"

– "ماذا؟"

كانت الليدي لوسيندا تمد يدها بقطعة صغيرة من الشطيرة باستخدام ملقط التقديم، وعلى وجهها تعبير هادئ يثير الغيظ. سألت:

– "لحم.. هل ترغب في واحدة؟"

دمدم بصوت غير مفهوم ومد طبقه. ثم، ولأنه لم يستطع ترك الأمر معلقًا هكذا، قال بتصلب:

– "أنا متأكد من أن هذا ليس من شأني."

– "تقصد الشطيرة؟"

صرّ على أسنانه قائلًا:

– "أقصد الآنسة واتسون."

رغم أنه، بالطبع، لم يكن يعني ذلك على الإطلاق. فبالنسبة له، كانت هيرميون واتسون من شأنه وصميم اهتمامه، أو على الأقل ستكون كذلك قريبًا جدًا.

كان من المربك بعض الشيء أنها لم تُصَب بصاعقة الحب نفسها التي ضربته. لم يخطر بباله قط أنه حين يقع في الحب، قد لا تبادله محبوبته الشعور نفسه، وبالسرعة ذاتها أيضًا. لكن هذا التفسير على الأقل—ظنّها أنها مغرمة بشخص آخر—هدّأ من كبريائه. كان تقبّل فكرة أنها مفتونة بغيره أسهل بكثير من فكرة أنها غير مبالية به تمامًا.

كل ما تبقى فعله هو جعلها تدرك أن أيًّا كان ذلك الرجل الآخر، فهو ليس المناسب لها.

لم يكن غريغوري ممتلئًا بالغرور لدرجة الظن بأنه يستطيع الفوز بأي امرأة يضع عينيه عليها، لكنه بالتأكيد لم يواجه صعوبات مع الجنس اللطيف من قبل. وبالنظر إلى طبيعة رد فعله تجاه الآنسة واتسون، كان من المستحيل

ببساطة أن تظل مشاعره غير متبادلة لفترة طويلة. قد يضطر لبذل جهد للفوز بقلبها ويدها، لكن ذلك سيجعل النصر أحلى.

أو هكذا أخبر نفسه. الحقيقة هي أن صاعقة حب متبادلة كانت ستوفر الكثير من العناء.

قالت الليدي لوسيندا وهي تمد عنقها قليلًا لتتفحص الشطائر، باحثةً على الأرجح عن شيء أكثر غرابة من لحم الخنزير المحلي:

– "لا تشعر بالسوء."

أجاب بحدة مقتضبة:

– "أنا لا أشعر بذلك."

ثم انتظر حتى تعيد انتباهها إليه فعليًا. وعندما لم تفعل، كرر:

– "أنا لا أشعر بذلك."

التفتت، وحدقت فيه بصراحة، ورمشت بعينيها قائلة:

– "حسنًا، هذا أمر منعش، يجب أن أقول. معظم الرجال يتحطمون."

قطب حاجبيه:

– "ماذا تعنين بأن معظم الرجال يتحطمون؟"

أجابت وهي ترمقه بنظرة نافدة الصبر:

– "بالضبط ما قلته. أو إذا لم يتحطموا، فإنهم يغضبون بشكل غير مبرر." أطلقت نخرة أنثوية ساخرة وأضافت: "وكأن الأمر يمكن اعتباره خطأها."

ردد غريغوري:

– "خطأها؟"

لأنه في الحقيقة كان يجد صعوبة بالغة في متابعة حديثها.

قالت وتعبير وجهها يبدو ضجرًا للغاية:

– "أنت لست أول رجل يتخيل نفسه واقعًا في حب هيرميون. هذا يحدث طوال الوقت."

قاطعها قائلًا:

– "أنا لا أتخيل نفسي واقعًا في الحب—"

بتر جملته، آملًا ألا تلاحظ تشديده على كلمة أتخيل. يا إلهي، ما الذي يحدث له؟ كان يتمتع بحس فكاهة في السابق. حتى بشأن نفسه. وخاصة بشأن نفسه.

سألت بصوت بدت فيه الدهشة اللطيفة:

– "لا تفعل؟ حسنًا، هذا منعش."

سأل وعيناه تضيقان شكًا:

– "لماذا يُعدّ ذلك منعشاً؟"

فردّت عليه بسؤال:

– "لماذا تطرح الكثير من الأسئلة؟"

احتج قائلًا، رغم أنه كان يفعل ذلك حقًا:

– "أنا لا أفعل."

تنهدت، ثم فاجأته تمامًا بقولها:

– "أنا آسفة."

– "عفوًا؟"

نظرت إلى شطيرة سلطة البيض في طبقها، ثم رفعت نظرها إليه، بترتيب لم يجده مجاملًا لشخصه؛ إذ كان عادةً يُصنّف في مرتبة أعلى من سلطة البيض. قالت:

– "ظننت أنك ترغب في الحديث عن هيرميون. أعتذر إن كنت مخطئة."

وهو ما وضع غريغوري في مأزق دقيق. كان بإمكانه الاعتراف بأنه وقع في حب الآنسة واتسون حتى أذنيه، وهو أمر محرج نوعًا ما، حتى لرجل رومانسي ميؤوس منه مثله. أو كان بإمكانه إنكار الأمر برمته، وهو ما لن تصدقه بوضوح. أو كان بإمكانه الوصول لحل وسط، والاعتراف بإعجاب بسيط، وهو ما قد يعتبره عادة الحل الأمثل، لولا أن ذلك قد يكون مهينًا لليدي لوسيندا.

فهو قد التقى بالفتاتين في الوقت نفسه، في نهاية المطاف. وهو لم يقع في حبها هي حتى أذنيه.

لكن بعد ذلك، وكأنها قرأت أفكاره (وهو أمر أخافه بصراحة)، لوحت بيدها وقالت:

– "أرجوك لا تقلق بشأن مشاعري. أنا معتادة تمامًا على هذا. كما قلت لك، هذا يحدث طوال الوقت."

شُقّ القلب، اغرز خنجرًا مثلمًا، ثم لُفّه.

تابعت بمرح:

– "ناهيك عن أنني مخطوبة عمليًا."

ثم أخذت قضمة من شطيرة سلطة البيض.

وجد غريغوري نفسه يتساءل عن نوع الرجل الذي وجد نفسه مرتبطًا بهذه المخلوقة الغريبة. لم يشفق على الرجل بالضبط، بل فقط... تساءل.

ثم أطلقت الليدي لوسيندا "أوه!" صغيرة.

تتبعت عيناه نظرتها إلى البقعة التي كانت تقف فيها الآنسة واتسون.

قالت الليدي لوسيندا:

– "أتساءل أين ذهبت."

استدار غريغوري فورًا نحو الباب، آملًا أن يحظى بلمحة أخيرة منها قبل أن تختفي، لكنها كانت قد رحلت بالفعل. كان أمرًا محبطًا للغاية. ما فائدة الانجذاب الفوري المجنون والسيئ إذا لم يستطع المرء فعل أي شيء حياله؟

وانسَ فكرة أنه انجذاب من طرف واحد. يا إلهي.

لم يكن متأكدًا مما يُسمى التنهد من خلال الأسنان المطبقة، لكن هذا بالضبط ما فعله.

– "آه، ليدي لوسيندا، ها أنتِ ذا."

رفع غريغوري بصره ليرى زوجة أخيه تقترب.

وتذكر أنه نسي أمرها تمامًا. لن تشعر كيت بالإهانة؛ فهي تتمتع بروح رياضية هائلة. لكن مع ذلك، كان غريغوري يحاول عادة أن يتحلى بأخلاق أفضل مع النساء اللاتي لا تربطه بهن صلة دم.

انحنت الليدي لوسيندا انحناءة صغيرة رشيقة:

– "ليدي بريدجيرتون."

ابتسمت كيت بحرارة في المقابل:

– "طلبت مني الآنسة واتسون إخبارك بأنها لم تكن تشعر بأنها بخير وقد انسحبت لبقية الأمسية."

– "حقًا؟ هل قالت—أوه، لا يهم."

لوّحت الليدي لوسيندا بيدها قليلًا—تلك الحركة التي يُقصد بها التعبير عن عدم المبالاة، لكن غريغوري لمح أثرًا طفيفًا للإحباط يرتسم عند زوايا فمها.

أضافت كيت:

– "نزلة برد في الرأس، على ما أعتقد."

أومأت الليدي لوسيندا إيماءة مقتضبة:

– "نعم، هذا متوقع."

بدت أقل تعاطفًا مما تخيله غريغوري نظرًا للظروف.

التفتت كيت إلى غريغوري وتابعت:

– "وأنت، لم ترَ حتى أنه من المناسب تحيتي. كيف حالك؟"

أمسك بيديها وقبلهما معًا كاعتذار:

– "متأخر."

– "هذا عرفته." اتخذ وجهها تعبيرًا لم يكن منزعجًا، بل مشوبًا بشيء من السخط الخفيف. "كيف حالك بخلاف ذلك؟"

ابتسم قائلًا:

– "بخلاف ذلك، رائع.. كالعادة."

كررت وهي ترمقه بنظرة تعد باستجواب مستقبلي واضح:

– "كالعادة." ثم تابعت كيت ونبرتها أقل جفافًا بكثير: "ليدي لوسيندا، أثق بأنكِ قد تعرفتِ على شقيق زوجي، السيد غريغوري بريدجيرتون؟"

أجابت الليدي لوسيندا:

– "بالفعل. كنا نبدي إعجابنا بالطعام. الشطائر لذيذة."

قالت كيت:

– "شكرًا لكِ." ثم أضافت: "وهل وعدكِ غريغوري برقصة؟ لا أستطيع أن أعد بموسيقى ذات جودة احترافية، لكننا تمكنا من جمع رباعي وتري من بين ضيوفنا."

ردت الليدي لوسيندا:

– "لقد فعل، لكنني أعفيته من التزامه ليتمكن من تهدئة جوعه."

قالت كيت بابتسامة:

– "لا بد أن لديكِ إخوة."

نظرت الليدي لوسيندا إلى غريغوري بتعبير مندهش قليلًا قبل أن تجيب:

– "واحد فقط."

التفت غريغوري إلى كيت موضحًا:

– "لقد أبديت الملاحظة نفسها في وقت سابق."

أطلقت كيت ضحكة قصيرة:

– "العقول العظيمة تتشابه، بلا شك." والتفتت إلى الشابة الأصغر وقالت: "إنه لمن المفيد للغاية فهم سلوك الرجال يا ليدي لوسيندا. لا ينبغي للمرء أبدًا الاستهانة بقوة الطعام."

نظرت إليها الليدي لوسيندا بعينين واسعتين:

– "لأجل الحصول على مزاج لطيف؟"

قالت كيت وكأن الأمر لا يعنيها:

– "حسنًا، هذا أيضًا، لكن لا ينبغي للمرء حقًا إغفال فوائده لكسب نقاش ما. أو ببساطة للحصول على ما تريدين."

وبخها غريغوري:

– "إنها بالكاد غادرت مقاعد الدراسة يا كيت."

تجاهلته كيت وابتسمت ابتسامة عريضة لليدي لوسيندا:

– "المرء ليس صغيرًا أبدًا على اكتساب مهارات مهمة."

نظرت الليدي لوسيندا إلى غريغوري، ثم إلى كيت، وبدأت عيناها تلمعان بالمرح:

– "أنا أتفهم لماذا يتطلع الكثيرون إليكِ بإعجاب يا ليدي بريدجيرتون."

ضحكت كيت:

– "أنتِ لطيفة جدًا يا ليدي لوسيندا."

قاطعها غريغوري:

– "أوه، أرجوكِ يا كيت. ستظل واقفة هنا طوال الليل إذا واصلتِ كيل المديح." والتفت لليدي لوسيندا مضيفًا: "لا تعيريه انتباهًا."

قالت كيت بابتسامة عريضة:

– "إنه شاب وأحمق ولا يعرف عما يتحدث."

كان غريغوري على وشك إبداء تعليق آخر—فلا يمكنه السماح لكيت بالإفلات بهذا الكلام—لكن الليدي لوسيندا قاطعته:

– "يسعدني أن أغني بمديحك لبقية الأمسية يا ليدي بريدجيرتون، لكنني أعتقد أن الوقت قد حان لأنسحب. أود الاطمئنان على هيرميون. لقد كانت تعاني من وعكة صحية طوال اليوم، وأرغب في التأكد من أنها بخير."

أجابت كيت:

– "بالطبع. أرجوك أوصلي لها تحياتي، وتأكدي من طلب الخدمة إذا احتجتِ لأي شيء. مدبرة المنزل لدينا تظن نفسها خبيرة أعشاب، وهي دائمًا ما تخلط وصفات دوائية. وبعضها يأتي بنتيجة فعلًا."

ابتسمت، وكان تعبيرها ودودًا للغاية لدرجة أن غريغوري أدرك فورًا أنها قد استحسنت الليدي لوسيندا. وهو ما يعني شيئًا؛ فكيت لم تكن يومًا تتحمل الحمقى، سواء برحابة صدر أو غير ذلك.

قال غريغوري بسرعة:

- "سأرافقكِ إلى الباب."

كان هذا أقل ما يمكنه فعله لإبداء اللباقة، وفضلًا عن ذلك، لم يكن من اللائق إهانة الصديقة المقربة للآنسة واتسون.

تبادلوا عبارات الوداع، وشبك غريغوري ذراعها في مرفقه. سارا في صمت حتى باب غرفة الرسم، فقال غريغوري:

- "أثق بأنكِ تستطيعين شق طريقك من هنا؟"

أجابت:

- "بالطبع." ثم رفعت بصرها—لاحظ بشكل عابر أن عينيها زرقاوان—وسألت: "هل تود مني نقل رسالة إلى هيرميون؟"

انفرجت شفتاه دهشة، وسأل قبل أن يفكر في تلطيف رده:

- "لماذا قد تفعلين ذلك؟"

هزت كتفيها وقالت:

- "أنت أهون الشرّين يا سيد بريدجيرتون."

رغب بشدة في سؤالها لتوضح ذلك التعليق، لكنه لم يستطع، ليس وهما على معرفة سطحية كهذه، لذا جاهد للحفاظ على ملامح متزنة وهو يقول:

- "أبلغيها تحياتي، هذا كل شيء."

- "حقًا؟"

اللعنة، تلك النظرة في عينيها كانت مزعجة.

- "حقًا."

أدت انحناءة قصيرة للغاية وانصرفت.

حدق غريغوري للحظة في المدخل الذي اختفت عبره، ثم عاد إلى الحفل. كان الضيوف قد بدأوا الرقص بأعداد أكبر، والضحكات تملأ الأجواء بالتأكيد، لكن الليلة بدت بطريقة ما باهتة وخالية من الحياة.

الطعام، قرر ذلك. سيأكل عشرين شطيرة أخرى من تلك الشطائر الصغيرة، ثم سينسحب هو الآخر للنوم.

كل شيء سيتضح في الصباح.



عرفت لوسي أن هيرميون ليست مصابة بصداع، أو بأي نوع من الأوجاع في واقع الأمر، ولم تُفاجأ على الإطلاق حين وجدتها جالسة على سريرها، منكبّة على ما بدا أنه رسالة من أربع صفحات.

مكتوبة بخط منمنم للغاية.

قالت هيرميون دون أن ترفع بصرها:

– "أحضرها لي أحد الخدم. قال إنها وصلت ـفي بريد اليوم، لكنهم نسوا إحضارها ـفي وقت سابق."

تنهدت لوسي:

– "من السيد إدموندز، على ما أفترض؟"

أومأت هيرميون برأسها.

عبرت لوسي الغرفة التي كانت تتشاركها حاليًا مع هيرميون وجلست على الكرسي أمام منضدة الزينة. لم تكن هذه أول رسالة تتلقاها هيرميون من السيد إدموندز، وكانت لوسي تعلم من التجربة أن هيرميون ستحتاج لقراءتها مرتين، ثم مرة أخرى لتحليل أعمق، وأخيرًا مرة أخيرة، ولو فقط لتفكيك أي معانٍ خفية ـفي التحية والخاتمة.

وهو ما يعني أن لوسي لن تجد ما تفعله سوى تأمل أظافرها لمدة خمس دقائق على الأقل.

وهو ما فعلته، لا لاهتمام بالغ بأظافرها، ولا لأنها شخص صبور بشكل خاص، بل لأنها كانت تعرف المواقف العقيمة حين تراها، ولم ترَ جدوى كبيرة في استنزاف طاقتها لجرّ هيرميون إلى محادثة بينما كانت الأخيرة غير مهتمة بوضوح بأي شيء تقوله.

لكن الأظافر لا يمكنها أن تشغل الفتاة إلا لفترة محدودة، خاصة عندما تكون مرتبة ومشذبة بعناية بالفعل، لذا وقفت لوسي وسارت نحو خزانة الملابس، تتفحص أغراضها بشرود.

غمغمت:

- "أوه، تباً، أكره حين تفعل ذلك."

كانت خادمتها قد تركت زوجًا من الأحذية بطريقة خاطئة، اليسار مكان اليمين واليمين مكان اليسار، ورغم أن لوسي كانت تدرك أن لا خطأ كارثيًا في ذلك، إلا أنه أساء إلى زاوية صغيرة غريبة (وشديدة الترتيب) من أحاسيسها، لذا عدّلت وضع الخفين، ثم تراجعت لتتأكد من صنيعها، ووضعت يديها على خاصرتها واستدارت.

سألت بحدة:

- "هل انتهيتِ بعد؟"

قالت هيرميون:

- "تقريبًا."

وبدا وكأن الكلمة كانت تقف على طرف لسانها طوال الوقت، جاهزة لتُسكت بها لوسي حين تسأل.

جلست لوسي مرة أخرى وهي تزفر بضيق. كان مشهدًا كرراه مرات لا تحصى من قبل. أو أربع مرات على الأقل.

نعم، كانت لوسي تعرف بالضبط عدد الرسائل التي تلقتها هيرميون من السيد إدموندز الرومانسي. كانت تود ألا تعرف؛ بل في الواقع، كانت منزعجة قليلًا من أن هذا الأمر يشغل مساحة ثمينة في عقلها كان يمكن تكريسها لشيء مفيد، كعلم النبات أو الموسيقى، أو يا للسماء، حتى لصفحة أخرى في كتاب "ديبريت" للأنساب، لكن الحقيقة المؤسفة هي أن رسائل السيد إدموندز كانت حدثًا جللًا، وحين يكون لدى هيرميون حدث، حسنًا، كانت لوسي تُجبر على خوضه أيضًا.

تشاركتا الغرفة لثلاث سنوات في مدرسة الآنسة موس، وبما أن لوسي لم يكن لديها قريبة مقربة تساعدها في تقديمها للمجتمع، وافقت والدة هيرميون على رعايتها، وها هما هنا، لا تزالان معًا.

وهو أمر جميل حقًا، باستثناء الحضور الدائم (بالروح على الأقل) للسيد إدموندز. لم تلتقِ لوسي به إلا مرة واحدة، لكن بدا وكأنه موجود دائمًا، يحوم

حولهما، ويدفع هيرميون للتنهد في لحظات غريبة والتحديق بحزن في الأفق وكأنها تحفظ قصيدة حب لتضمينها في ردها التالي.

قالت لوسي، رغم أن هيرميون لم تشر إلى أنها انتهت من قراءة رسالتها:

– "أنتِ تدركين أن والديكِ لن يسمحا لكِ أبدًا بالزواج منه."

كان ذلك كافيًا لجعل هيرميون تضع الرسالة جانبًا، ولو لفترة وجيزة.

قالت بتعبير منزعج:

– "نعم، لقد قلتِ ذلك مسبقًا."

قالت لوسي:

– "إنه سكرتير."

– "أدرك ذلك."

كررت لوسي، رغم أنهما خاضتا هذه المحادثة مرات لا تحصى:

– "سكرتير.. سكرتير والدكِ."

التقطت هيرميون الرسالة مرة أخرى في محاولة لتجاهل لوسي، لكنها استسلمت أخيرًا ووضعتها جانبًا، مما أكد شكوك لوسي في أنها قد انتهت منها منذ فترة طويلة وأنها الآن في القراءة الثانية، أو ربما حتى الثالثة.

قالت هيرميون وشفتها مضمومة:

– "السيد إدموندز رجل طيب وشريف."

قالت لوسي:

– "أنا متأكدة من ذلك، لكن لا يمكنك الزواج منه. والدكِ فيكونت. هل تظنين حقًا أنه سيسمح لابنته الوحيدة بالزواج من سكرتير مفلس؟"

غمغمت هيرميون، لكن صوتها لم يكن مفعمًا باليقين تمامًا:

– "والدي يحبني."

بدأت لوسي قائلة:

– "أنا لا أحاول ثنيكِ عن زواج عن حب، لكن—"

قاطعتها هيرميون:

– "هذا بالضبط ما تحاولين فعله."

– "على الإطلاق. أنا فقط لا أرى سببًا يمنعك من محاولة الوقوع في حب شخص قد يوافق عليه والداكِ بالفعل."

التوى فم هيرميون الجميل في خط محبط:

– "أنتِ لا تفهمين."

– "ما الذي يجب فهمه؟ ألا تظنين أن حياتك قد تكون أسهل قليلًا لو وقعتِ في حب شخص مناسب؟"

– "لوسي، نحن لا نختار من نقع في حبهم."

عقدت لوسي ذراعيها:

– "لا أرى سببًا يمنع ذلك."

انفرج فم هيرميون ذهولًا، وقالت:

– "لوسي أبيرناثي، أنتِ لا تفهمين شيئًا."

قالت لوسي بجفاء:

– "نعم، لقد ذكرتِ ذلك."

قالت هيرميون بحماس، وإن لم يكن حماسًا كافيًا لإجبارها على النهوض من وضعية استلقائها الجزئي على السرير:

– "كيف يمكنكِ أن تظني أن الشخص قادر على اختيار من يحب؟ المرء لا يختار. الأمر يحدث فحسب. في لحظة."

أجابت لوسي، ثم أضافت لأنها لم تستطع المقاومة:

– "هذا ما لا أصدقه.. ولا للحظة."

أصرت هيرميون:

– "بل يحدث. أنا أعلم، لأن هذا حدث لي. لم أكن أبحث عن الحب."

– "ألم تكوني؟"

رمقتها هيرميون بنظرة غاضبة:

– "لا، لم أكن. كنت عازمة تمامًا على العثور على زوج في لندن. حقًا، من كان يتوقع مقابلة أي شخص في فينشلي؟"

قيلت بنبرة ازدراء لا يتقنها إلا أحد مواليد فينشلي.

قلبت لوسي عينيها وأمالت رأسها إلى الجانب، منتظرة أن تتابع هيرميون حديثها.

وهو ما لم يعجب هيرميون. قالت بحدة:

– "لا تنظري إليّ هكذا."

– "هكذا كيف؟"

– "هكذا."

– "أكرر، هكذا كيف؟"

تقلص وجه هيرميون بالكامل:

– "أنتِ تعرفين تمامًا ما أتحدث عنه."

وضعت لوسي يدها على وجهها وشهقت:

– "يا إلهي، لقد بدوتِ مثل والدتكِ تمامًا الآن."

تراجعت هيرميون باستياء:

– "كان ذلك قاسيًا."

– "والدتكِ رائعة!"

– "ليس عندما يكون وجهها متقلصًا."

قالت لوسي محاولة إنهاء الموضوع:

– "والدتكِ رائعة حتى بوجه متقلص. الآن، هل تنوين إخباري عن السيد إدموندز أم لا؟"

– "هل تخططين للسخرية مني؟"

– "بالطبع لا."

رفعت هيرميون حاجبيها.

– "هيرميون، أعدكِ بأنني لن أسخر منكِ."

لا تزال هيرميون تبدو متشككة، لكنها قالت:

– "حسنًا. ولكن إن فعلتِ—"

– "هيرميون."

قالت وهي ترمق لوسي بنظرة تحذيرية:

– "كما أخبرتكِ، لم أكن أتوقع العثور على الحب. لم أكن أعلم حتى أن والدي قد وظف سكرتيرًا جديدًا. كنت أمشي في الحديقة فقط، أقرر أي الورود أرغب في قطفها للمائدة، ثم... رأيته."

قالتها بدراما تكفي لمنحها دورًا مسرحيًا.

تنهدت لوسي:

– "أوه، هيرميون."

قالت هيرميون وهي توجه إصبعها نحو لوسي:

– "قلتِ إنك لن تسخري مني."

وهو تصرف بدا للوسي خارجًا عن المألوف بما يكفي لتلتزم الصمت.

تابعت هيرميون:

– "لم أرَ وجهه في البداية. فقط مؤخرة رأسه، وكيف تموج شعره عند ياقة معطفه."

تنهدت حينها. تنهدت بالفعل وهي تلتفت إلى لوسي بتعبير يثير الشفقة:

– "واللون. حقًا يا لوسي، هل رأيتِ يومًا شعرًا بهذه الدرجة المذهلة من الشقرة؟"

بالنظر إلى عدد المرات التي أُجبرت فيها لوسي على الاستماع لرجال يدلون بنفس التعليق عن شعر هيرميون، ظنت أنه يحسب لها امتناعها عن التعليق.

لكن هيرميون لم تنتهِ. ليس بعد. قالت:

– "ثم استدار، ورأيت جانبه، وأقسم لكِ أنني سمعت موسيقى."

ودّت لوسي لو تشير إلى أن غرفة الموسيقى في منزل عائلة واتسون تقع بجوار حديقة الورود مباشرة، لكنها أمسكت لسانها.

قالت هيرميون وصوتها يزداد نعومة وعيناها تتخذان ذلك التعبير الخاص بـ"أنا أحفظ قصيدة حب":

– "ثم استدار، وكل ما استطعت التفكير فيه هو—لقد انتهيت."

شهقت لوسي:

– "لا تقولي ذلك. لا تلمحي إليه حتى."

فكلمة "منتهية" أو "ساقطة" ليست من النوع الذي تذكره أي فتاة باستهتار.

قالت هيرميون بنفاد صبر:

– "ليس انتهيت بمعنى ساقطة. يا للسماء يا لوسي، كنت في حديقة الورود، أم أنك لم تكوني تستمعين؟ لكنني عرفت—عرفت أنني انتهيت بالنسبة لكل الرجال الآخرين. لا يمكن أن يوجد آخر يقارن به."

سألت لوسي:

– "وعرفتِ كل هذا من مؤخرة عنقه؟"

رمقتها هيرميون بنظرة شديدة الانزعاج:

– "ومن جانبه الجانبي أيضًا، لكن ليس هذا هو المغزى."

انتظرت لوسي المغزى بصبر، رغم يقينها بأنه لن يكون شيئًا ستوافق عليه. أو ربما حتى تفهمه.

قالت هيرميون بصوت خافت جدًا لدرجة اضطرت لوسي للميل للأمام لتسمعها:

– "المغزى هو أنني لا يمكن أن أكون سعيدة بدونه. هذا مستحيل."

قالت لوسي ببطء، لأنها لم تكن متأكدة تمامًا كيف يُفترض بها الرد على ذلك:

– "حسنًا.. تبدين سعيدة الآن."

– "هذا فقط لأنني أعلم أنه ينتظرني. و..." رفعت هيرميون الرسالة: "هو يكتب أنه يحبني."

قالت لوسي لنفسها:

– "يا إلهي."

لا بد أن هيرميون سمعتها، لأن فمها انطبق بحدة، لكنها لم تقل شيئًا. جلست الاثنتان هناك، كل في مكانها، لدقيقة كاملة، ثم تنحنحت لوسي وقالت:

– "ذلك السيد بريدجيرتون اللطيف بدا مأخوذًا بكِ."

هزت هيرميون كتفيها.

– "إنه ابن أصغر، لكنني أعتقد أن لديه ثروة جيدة. وهو بالتأكيد من عائلة محترمة."

– "لوسي، أخبرتكِ أنني لست مهتمة."

قالت لوسي، ربما بحماس أكبر مما قصدت:

– "حسنًا، إنه وسيم جدًا."

ردت هيرميون:

– "طارديه أنتِ إذن."

حدقت فيها لوسي بصدمة:

– "تعلمين أنني لا أستطيع. أنا مخطوبة عمليًا للورد هاسيلبي."

ذكرتها هيرميون:

– "عمليًا."

قالت لوسي:

– "الأمر سيان، كأنه رسمي."

وكانت تلك الحقيقة. ناقش عمها الأمر مع إيرل دافنبورت، والد الفيكونت هاسيلبي، منذ سنوات. كان هاسيلبي يكبر لوسي بحوالي عشر سنوات، وكان الجميع ينتظرون فقط أن تكبر.

وهو ما افترضت أنها فعلته. بالتأكيد لن يكون الزفاف بعيدًا الآن.

وهي زيجة جيدة. كان هاسيلبي رفيقًا لطيفًا تمامًا. لم يتحدث إليها وكأنها بلهاء، وبدا عطوفًا على الحيوانات، ومظهره مقبول بما يكفي، حتى وإن كان شعره قد بدأ يخف. بالطبع، لم تلتقِ لوسي بزوجها المستقبلي إلا ثلاث مرات فعليًا، لكن الجميع يعلم أن الانطباعات الأولى مهمة للغاية وعادة ما تكون دقيقة تمامًا.

علاوة على ذلك، كان عمها ولي أمرها منذ وفاة والدها قبل عشر سنوات، وإن لم يغمرها وأخاها ريتشارد بالحب والعاطفة بالضبط، فقد أدى واجبه

تجاهما ورباهما جيداً، وعرفت لوسي أن من واجبها طاعة رغباته واحترام الخطبة التي رتبها.

أو رتبها عمليًا.

حقًا، لم يكن هناك فرق كبير. سوف تتزوج هاسيلبي. الجميع يعرف ذلك.

قالت هيرميون:

– "أعتقد أنكِ تستخدمينه كذريعة."

تصلب ظهر لوسي:

– "عفوًا؟"

كررت هيرميون، واتخذ وجهها تعبيرًا متعاليًا لم يعجب لوسي أبدًا:

– "أنتِ تستخدمين هاسيلبي كذريعة. لكي لا تسمحي لقلبك بالتعلق بمكان آخر."

تساءلت لوسي بحدة:

– "وأين بالضبط قد أعلق قلبي؟ الموسم لم يبدأ حتى!"

قالت هيرميون:

– "ربما، لكننا كنا نخرج ونتجول، لكي (نُصقل) كما تحبين أنتِ وأمي وصف الأمر. لم تكوني تعيشين تحت صخرة يا لوسي. لقد قابلتِ عددًا لا بأس به من الرجال."

لم تكن هناك طريقة للإشارة إلى أن أيًا من هؤلاء الرجال لم يرها أبدًا حين كانت هيرميون بالجوار. ستحاول هيرميون إنكار ذلك، لكن كلتيهما ستعرفان أنها تكذب في محاولة لتجنيب لوسي جرح مشاعرها. لذا تذمرت لوسي بكلمات غير مفهومة كانت بمثابة رد دون أن تكون ردًا فعليًا.

لم تقل هيرميون شيئًا؛ اكتفت بالنظر إليها بتلك الطريقة الماكرة التي لا تستخدمها أبدًا مع أي شخص آخر، وأخيرًا اضطرت لوسي للدفاع عن نفسها.

قالت وهي تعقد ذراعيها، ثم تضع يديها على خاصرتها حين لم تشعر بصحة الوضعية الأولى:

– "إنها ليست ذريعة. حقًا، ما الفائدة من ذلك؟ تعلمين أنني سأتزوج هاسيلبي. خُطط للأمر منذ دهر."

عقدت ذراعيها مرة أخرى. ثم أرختهما. وأخيرًا جلست.

قالت لوسي:

– "إنها ليست زيجة سيئة. بصراحة، بعد ما حدث لـجورجيانا وايتون، يجب أن أجثو على ركبتي وأقبل قدمي عمي لترتيبه مثل هذا التحالف المقبول."

سادت لحظة من الصمت المذعور، والمهيب تقريبًا. لو كانتا كاثوليكيتين، لرسمتا إشارة الصليب بالتأكيد. قالت هيرميون أخيرًا:

– "لولا لطف الله لكان هذا مصيري..."

أومأت لوسي ببطء. لقد زُوّجت جورجيانا لرجل سبعيني مصاب بالنقرس وصدره يصفر عند التنفس. ولم يكن حتى سبعينيًا بلقب نبيل. يا للسماء، كان يجب أن تنال لقب "ليدي" على الأقل قبل اسمها مكافأة لتضحيتها.

أنهت لوسي حديثها:

– "لذا ترين، هاسيلبي ليس سيئًا حقًا. أفضل من الغالبية في الواقع."

نظرت إليها هيرميون بتمعن، وقالت:

– "حسنًا، إذا كان هذا ما ترغبين فيه يا لوسي، تعلمين أنني سأدعمك بلا تحفظ. أما بالنسبة لي..." تنهدت، واكتست عيناها الخضراوان بتلك النظرة البعيدة التي تجعل الرجال يغشى عليهم: "فأنا أريد شيئًا آخر."

قالت لوسي محاولة الابتسام:

– "أعرف أنك تريدين."

لكنها لم تستطع حتى تخيل كيف ستحقق هيرميون أحلامها. في العالم الذي تعيشان فيه، لا تتزوج بنات الفيكونتات من سكرتيري الفيكونتات. وبدا للوسي أن تعديل أحلام هيرميون أكثر منطقية بكثير من إعادة تشكيل النظام الاجتماعي. وأسهل أيضًا.

لكنها كانت متعبة الآن. وأرادت النوم. ستعمل على إقناع هيرميون في الصباح. بدءًا من السيد بريدجيرتون الوسيم ذاك. سيكون مثاليًا لصديقتها، والسماء تعلم أنه مهتم.

ستقتنع هيرميون في النهاية. وستحرص لوسي على ذلك.





الفصل الثالث

وفيه يحاول بطلنا جاهدًا... وبشدة.



كان صباح اليوم التالي مشرقًا صافيًا، وبينما كان غريغوري يملأ طبقه بالبيض أثناء الإفطار، ظهرت زوجة أخيه إلى جانبه، تعلو شفتيها ابتسامة باهتة تشي بأنها تدبر أمرًا ما.

قالت بنبرة مرحة تفيض بهجة أكثر مما ينبغي:

– "صباح الخير."

أومأ غريغوري محييًا وهو يواصل تكديس الطعام في طبقه:

– "كيت."

– "فكرتُ، بما أن الطقس جميل للغاية، أننا قد ننظم نزهة إلى القرية."

– "لشراء الشرائط والأقواس؟"

أجابت:

– "بالضبط. أعتقد أنه من المهم دعم أصحاب المتاجر المحليين، ألا توافقني الرأي؟"

تمتم قائلاً:

– "بالطبع. رغم أنني لم أجد نفسي مؤخرًا في حاجة ماسة للشرائط والأقواس."

بدت كيت وكأنها لم تلاحظ سخريته.

– "جميع الشابات لديهن مصروف جيب خاص ولا يجدن مكانًا لإنفاقه. إن لم أرسلهن إلى البلدة، فمن المرجح أن يفتتحن صالة قمار في صالون الزهور."

حسنًا، هذا شيء يود رؤيته حقًا.

تابعت كيت بإصرار واضح:

– "وإذا أرسلتهن إلى البلدة، فسأحتاج لإرسالهن مع مرافقين."

وعندما لم يستجب غريغوري بالسرعة الكافية، كررت:

– "مع مرافقين."

تنحنح غريغوري.

– "هل لي أن أفترض أنك تطلبين مني السير إلى القرية بعد ظهر اليوم؟"

أوضحت قائلة:

– "هذا الصباح. وبما أنني فكرت في تنسيق الثنائيات، وبما أنك أحد أفراد عائلة بريدجيرتون، وبالتالي أنت المفضل لدي بين السادة، فقد فكرت أن أسألك إن كان هناك أي شخص تفضل أن تُقرن به."

لم تكن كيت شيئًا إن لم تكن خاطبة ماهرة، لكن في هذه الحالة قرر غريغوري أنه يجب أن يكون ممتنًا لميلها للتدخل.

بدأ يقول:

– "في الواقع، هناك..."

قاطعته كيت وهي تصفق بيديها:

– "ممتاز! إذن ستكون لوسي أبيرناثي."

لوسي أبير... ردد مذهولًا:

– "لوسي أبيرناثي؟ الليدي لوسيندا؟"

– "أجل، بدا أنكما منسجمان تمامًا الليلة الماضية، ويجب أن أقول يا غريغوري، إنني معجبة بها بشدة. هي تقول إنها مخطوبة عمليًا، لكن رأيي هو أن..."

قاطعها قائلًا، بعد أن قرر أن انتظار كيت لتلتقط أنفاسها سيكون أمرًا شديد الخطورة:

– "أنا لست مهتمًا بالليدي لوسيندا."

– "لست كذلك؟"

– "لا. لست كذلك. أنا..."

مال بجسده نحوها، رغم أنهما كانا الوحيدين في غرفة الإفطار. بدا الأمر غريبًا نوعًا ما، ونعم، محرجًا قليلًا أن يصرخ بالأمر.

قال بهدوء:

– "هيرميون واتسون. أرغب في أن أُقرن بالآنسة واتسون."

– "حقًا؟"

لم تبدُ كيت خائبة الأمل تمامًا، لكنها بدت مستسلمة قليلًا. وكأنها سمعت هذا من قبل. مرارًا وتكرارًا.

تبًا.

أجاب غريغوري:

– "أجل."

شعر بموجة عارمة من الانزعاج تجتاحه. أولًا من كيت، لأنها، حسنًا، كانت هناك، وهو قد وقع في الحب بجنون، وكل ما استطاعت قوله هو: "حقًا؟". لكنه أدرك بعد ذلك أنه كان منزعجًا طوال الصباح. لم ينم جيدًا في الليلة السابقة؛ لم يستطع التوقف عن التفكير في هيرميون، وانحناءة عنقها، وخضرة عينيها، وذلك اللحن الناعم في صوتها. لم يتفاعل قط – قط – مع امرأة بهذه الطريقة، وبينما كان يشعر بنوع من الراحة لعثوره أخيرًا على المرأة التي يخطط لاتخاذها زوجة، كان من المقلق قليلًا أنها لم تبدِ رد الفعل ذاته تجاهه.

يعلم الله أنه حلم بهذه اللحظة من قبل. كلما فكر في العثور على حبه الحقيقي، كانت صورتها دائمًا ضبابية في خياله – بلا اسم، بلا ملامح. لكنها كانت تشعر دائمًا بنفس العاطفة الجياشة. لم تكن لترسله ليرقص مع أعز صديقاتها، بحق السماء.

قالت كيت، وهي تزفر بتلك الطريقة التي تفعلها النساء عندما يعتزمن إخبارك بشيء لا يمكنك البدء في فهمه حتى لو اخترن نقله بلغة واضحة، وهو ما لم يفعلنه بالطبع:

– "لتكن هيرميون واتسون إذن."

كانت هيرميون واتسون. وستكون هيرميون واتسون.

قريبًا.

ربما حتى في هذا الصباح.



سألت هيرميون صديقتها لوسي وهما ترتديان قفازيهما:

– "هل تظنين أن هناك شيئًا يمكن شراؤه في القرية غير الأقواس والشرائط؟"

أجابت لوسي:

– "آمل ذلك بالتأكيد. إنهم يفعلون هذا في كل حفل منزلي، أليس كذلك؟ يرسلوننا بمصروفنا الشخصي لشراء الشرائط والأقواس. كان بإمكاني تزيين منزل كامل الآن. أو على الأقل، كوخ صغير من القش."

ابتسمت هيرميون بحماس:

– "سأتبرع بنصيبي للقضية، وسنعيد معًا بناء..."

توقفت تفكر، ثم ابتسمت:

– "كوخ كبير من القش!"

ابتسمت لوسي. كان هناك شيء مخلص جدًا بشأن هيرميون. لا أحد يرى ذلك بالطبع. لا أحد يكلف نفسه عناء النظر إلى ما هو أبعد من وجهها. رغم أنه، وللإنصاف، نادرًا ما شاركت هيرميون ما يكفي من شخصيتها مع أي من معجبيها ليدركوا ما يكمن خلف مظهرها الجميل. لم تكن خجولة تمامًا، رغم أنها بالتأكيد لم تكن اجتماعية ومنطلقة مثل لوسي. بل كانت هيرميون كتومة. هي ببساطة لم تكن تهتم بمشاركة أفكارها وآرائها مع أشخاص لا تعرفهم.

وهو أمر كان يقود الرجال للجنون.

نظرت لوسي من النافذة وهما تدخلان إحدى غرف الرسم العديدة في أوبري هول. كانت الليدي بريدجيرتون قد أوعزت إليهن بالحضور في الحادية عشرة تمامًا.

قالت لوسي:

- "على الأقل لا يبدو أنها ستمطر."

في المرة الأخيرة التي أُرسلن فيها لشراء كماليات تافهة، ظل الرذاذ يتساقط طوال طريق العودة. ورغم أن ظلال الأشجار أبقتهن جافات نسبيًا، إلا أن أحذيتهن كادت تتلف تمامًا. وظلت لوسي تعطس لمدة أسبوع.

- "صباح الخير، ليدي لوسيندا، آنسة واتسون."

كانت تلك الليدي بريدجيرتون، مضيفتهن، تدخل الغرفة بتلك الطريقة الواثقة التي تميزها. كان شعرها الداكن مسحوبًا للخلف بأناقة، وعيناها تلمعان بذكاء متقد.

قالت:

- "كم هو جميل رؤيتكما. أنتما آخر السيدات وصولًا."

سألت لوسي برعب:

- "حقًا؟ أنا آسفة للغاية. ألم تقولي الساعة الحادية عشرة؟"

قالت الليدي بريدجيرتون:

- "أوه يا عزيزتي، لم أقصد إزعاجك. لقد قلت بالفعل الحادية عشرة. لكن ذلك لأنني فكرت في إرسال الجميع على دفعات."

رددت هيرميون:

- "على دفعات؟"

- "نعم، الأمر أكثر تسلية بهذه الطريقة، ألا توافقنني الرأي؟ لدي ثماني سيدات وثمانية سادة. لو أرسلتكم جميعًا في وقت واحد، لاستحال إجراء محادثة لائقة. ناهيك عن عرض الطريق. سأكره أن تتعثروا ببعضكم البعض."

كان هناك أيضًا ما يمكن قوله عن الأمان في الأعداد الكبيرة، لكن لوسي احتفظت بأفكارها لنفسها. كان لدى الليدي بريدجيرتون بوضوح نوع من الأجندة، وبما أن لوسي كانت قد قررت بالفعل أنها معجبة جدًا بالفيكونتيسة، فقد كانت فضولية إلى حد ما بشأن النتيجة.

– "آنسة واتسون، ستكونين رفقة شقيق زوجي. أعتقد أنك تعرفتِ عليه الليلة الماضية؟"

أومأت هيرميون بأدب.

ابتسمت لوسي لنفسها. السيد بريدجيرتون كان رجلًا مشغولًا هذا الصباح. أحسنت صنعًا.

تابعت الليدي بريدجيرتون:

– "وأنتِ، يا ليدي لوسيندا، سيرافقك السيد بيربروك."

ابتسمت بضعف، وكأنها تعتذر تقريبًا.

أضافت:

– "إنه قريب للعائلة... نوعًا ما. و، آه، هو حقًا شاب طيب القلب."

رددت لوسي، التي لم تكن متأكدة تمامًا كيف يفترض بها الرد على نبرة الليدي بريدجيرتون المترددة بشكل غير معهود:

– "قريب؟ نوعًا ما؟"

– "نعم. شقيقة زوجة شقيق زوجي متزوجة من شقيقه."

– "أوه."

حافظت لوسي على تعبير وجه محايد.

– "إذن أنتم مقربون؟"

ضحكت الليدي بريدجيرتون.

– "أنا معجبة بك، يا ليدي لوسيندا. وأما بالنسبة لنيفيل... حسنًا، أنا واثقة أنك ستجدينه مسليًا. آه، ها هو ذا الآن. نيفيل! نيفيل!"

راقبت لوسي الليدي بريدجيرتون وهي تتحرك لتحية السيد نيفيل بيربروك عند الباب. كان قد تم التعارف بينهم بالطبع؛ فالتقديم تم للجميع في

الحفل المنزلي. لكن لوسي لم تتحدث بعد مع السيد بيربروك، ولا حتى رأته حقًا إلا من بعيد. بدا شابًا ودودًا بما يكفي، ومرح المظهر إلى حد ما ببشرة متوردة وكتلة من الشعر الأشقر.

قال وهو يصطدم بطريقة ما بساق طاولة أثناء دخوله الغرفة:

– "أهلاً، ليدي بريدجيرتون. إفطار ممتاز هذا الصباح. خاصة سمك الرنجة."

أجابت الليدي بريدجيرتون وهي تنظر بقلق إلى المزهرية الصينية التي كانت تترنح الآن على سطح الطاولة:

– "شكرًا لك. أنا متأكدة أنك تتذكر الليدي لوسيندا."

تمتم الاثنان بتحياتهما، ثم قال السيد بيربروك:

– "هل تحبين الرنجة؟"

نظرت لوسي أولًا إلى هيرميون، ثم إلى الليدي بريدجيرتون طلبًا للتوجيه، لكن أيًا منهما لم تبدُ أقل حيرة منها، لذا قالت ببساطة:

– "آه... نعم؟"

صاح قائلًا:

– "ممتاز! أقول، هل ذلك الذي خارج النافذة هو طائر "خرشنة متوج "؟"

طرفت لوسي بعينيها. نظرت إلى الليدي بريدجيرتون، لتكتشف أن الفيكونتيسة تتجنب التواصل البصري.

تمتمت لوسي أخيرًا، إذ لم تستطع التفكير في أي رد مناسب آخر:

– "خرشنة متوج، كما تقول."

كان السيد بيربروك قد تهادى نحو النافذة، فذهبت لتنضم إليه. حدقت في الخارج. لم ترَ أي طيور.

في تلك الأثناء، ومن طرف عينها، استطاعت رؤية أن السيد بريدجيرتون قد دخل الغرفة وكان يبذل قصارى جهده لسحر هيرميون. يا إلهي، الرجل يملك ابتسامة لطيفة! أسنان بيضاء متناسقة، والتعبير يمتد ليصل إلى عينيه،

على عكس معظم الأرستقراطيين الشباب الضجرين الذين قابلتهم لوسي.
السيد بريدجيرتون يبتسم وكأنه يعني ذلك.

وهو أمر منطقي بالطبع، بما أنه يبتسم لـ هيرميون، التي كان مفتونًا بها بوضوح.

لم تستطع لوسي سماع ما يقولانه، لكنها ميزت بسهولة التعبير المرتسم على وجه هيرميون. مؤدب، بالطبع، لأن هيرميون لا يمكن أبدًا أن تكون غير مهذبة. وربما لا أحد يستطيع رؤية ذلك سوى لوسي، التي تعرف صديقتها جيدًا، لكن هيرميون لم تكن تفعل أكثر من التسامح مع اهتمام السيد بريدجيرتون، متقبلة إطراءه بإيماءة وابتسامة جميلة بينما كان عقلها بعيدًا، بعيدًا جدًا في مكان آخر.

مع ذلك السيد إدموندز الملعون.

جزت لوسي على أسنانها وهي تتظاهر بالبحث عن طيور الخرشنة، المتوجة أو غيرها، مع السيد بيربروك. لم يكن لديها سبب للاعتقاد بأن السيد إدموندز أي شيء سوى شاب لطيف، لكن الحقيقة البسيطة هي أن والدي هيرميون لن يقبلا أبدًا بهذه الزيجة، وبينما قد تعتقد هيرميون أنها قادرة على العيش بسعادة على راتب سكرتير، كانت لوسي واثقة تمامًا أنه بمجرد ذبول الزهرة الأولى للزواج، ستكون هيرميون بائسة.

ويمكنها أن تحظى بما هو أفضل بكثير. كان من الواضح أن هيرميون يمكنها الزواج من أي شخص. أي شخص. لن تحتاج للقبول بالقليل. يمكنها أن تكون ملكة المجتمع المخملي إذا رغبت في ذلك.

رمقت لوسي السيد بريدجيرتون بنظرة، وهي تومئ برأسها وتبقي أذنًا واحدة مع السيد بيربروك، الذي عاد للحديث عن موضوع الرنجة. كان السيد بريدجيرتون مثاليًا. لم يكن يحمل لقب نبالة، لكن لوسي لم تكن قاسية لدرجة الشعور بأن هيرميون يجب أن تتزوج من أعلى رتبة متاحة. هي فقط لا يمكنها أن ترتبط بسكرتير، بحق السماء.

إضافة إلى ذلك، كان السيد بريدجيرتون وسيمًا للغاية، بشعر كستنائي داكن وعينين عسليتين جميلتين. وبدت عائلته لطيفة ومعقولة تمامًا، وهو ما اعتبرته لوسي نقطة لصالحه. عندما تتزوجين رجلًا، فأنت تتزوجين عائلته، حقًا.

لم تستطع لوسي تخيل زوج أفضل لـ هيرميون. حسنًا، افترضت أنها لم تكن لتشكو لو كان السيد بريدجيرتون هو التالي في الترتيب للقب ماركيز، ولكن حقًا، لا يمكن للمرء الحصول على كل شيء. والأهم من ذلك، كانت واثقة تمامًا أنه سيجعل هيرميون سعيدة، حتى لو لم تدرك هيرميون ذلك بعد.

قالت لنفسها:

سأجعل هذا الأمر يحدث.

جاءها صوت السيد بيربروك:

– "هاه؟ هل وجدتِ الطائر؟"

قالت لوسي مشيرة نحو شجرة:

– "هناك."

مال للأمام.

– "حقًا؟"

جاء صوت هيرميون:

– "أوه، لوسي!"

استدارت لوسي.

– "هل نتحرك؟ السيد بريدجيرتون تواق للانطلاق في طريقه."

قال الرجل المعني:

– "أنا في خدمتك، يا آنسة واتسون. سنغادر حسب رغبتك."

رمقت هيرميون صديقتها لوسي بنظرة تقول بوضوح إنها هي التواقة للانطلاق، لذا قالت لوسي:

– "لنغادر إذن."

وأخذت ذراع السيد بيربروك المعروضة وسمحت له باقتيادها إلى الطريق الأمامي، ونجحت في أن تصرخ مرة واحدة فقط، رغم أنها صدمت إصبع قدمها ثلاث مرات في أشياء يعلم الله ماهيتها، لكن بطريقة ما، وحتى مع وجود مساحة جميلة وواسعة من العشب، تمكن السيد بيربروك من العثور على كل جذر شجرة، وصخرة، ونتوء، وقادها مباشرة إليهم.

يا إلهي.

هيأت لوسي نفسها ذهنيًا لمزيد من الإصابات. ستكون نزهة مؤلمة. لكنها مثمرة. بحلول وقت عودتهما للمنزل، ستكون هيرميون منجذبة قليلًا على الأقل للسيد بريدجيرتون.

ستحرص لوسي على ذلك.

إذا كانت لدى غريغوري أي شكوك حول الآنسة هيرميون واتسون، فقد تبددت في اللحظة التي وضعت فيها يدها في ثنية ذراعه.

كان هناك شعور بالصواب في الأمر، إحساس غريب وصوفي بجزأين يلتحمان معًا. كانت تناسب المكان بجانبه تمامًا. هما متناغمان.

وكان يريدها.

لم تكن حتى رغبة. كان الأمر غريبًا، في الواقع. لم يكن يشعر بأي شيء مبتذل كالرغبة الجسدية. كان شيئًا آخر. شيئًا داخليًا. ببساطة أرادها أن تكون له. أراد أن ينظر إليها، وأن يعرف. أن يعرف أنها ستحمل اسمه وتنجب أطفاله وتحدق فيه بحب كل صباح فوق كوب من الشوكولاتة.

أراد أن يخبرها بكل هذا، أن يشاركها أحلامه، أن يرسم صورة لحياتهما معًا، لكنه لم يكن أحمق، ولذا قال ببساطة، وهو يوجهها عبر المسار الأمامي:

– "تبدين جميلة بشكل استثنائي هذا الصباح، يا آنسة واتسون."

قالت:

– "شكرًا لك."

ثم لم تقل شيئًا آخر.

تنحنح قائلًا:

– "هل نمتِ جيدًا؟"

قالت:

– "نعم، شكرًا لك."

– "هل تستمتعين بإقامتك؟"

– "نعم، شكرًا لك."

مضحك، لكنه لطالما ظن أن المحادثة مع المرأة التي سيتزوجها ستكون أسهل قليلًا من هذا.

ذكّر نفسه بأنها لا تزال تظن نفسها واقعة في حب رجل آخر. شخص غير مناسب، إذا كان تعليق الليدي لوسيندا في الليلة السابقة مؤشرًا يعتد به. ماذا أسمته؟ أهون الشرين؟

نظر للأمام. كانت الليدي لوسيندا تتعثر في سيرها أمامه متأبطة ذراع نيفيل بيربروك، الذي لم يتعلم أبدًا تعديل مشيته لتناسب سيدة. بدت وكأنها تدبر أمرها بشكل جيد، رغم أنه ظن أنه سمع صرخة ألم صغيرة في مرحلة ما.

هز رأسه نافضًا الفكرة. ربما كان مجرد طائر. ألم يقل نيفيل إنه رأى سربًا منها عبر النافذة؟

سأل الآنسة واتسون:

– "هل أنتِ صديقة لليدي لوسيندا منذ وقت طويل؟"

كان يعرف الإجابة بالطبع؛ فالليدي لوسيندا أخبرته الليلة الماضية. لكنه لم يستطع التفكير في أي شيء آخر يسأله. وكان بحاجة لسؤال لا يمكن الإجابة عليه بـ "نعم، شكرًا لك" أو "لا، شكرًا لك".

أجابت الآنسة واتسون:

– "ثلاث سنوات. إنها أعز صديقاتي."

وأخيرًا اكتسى وجهها ببعض الحيوية وهي تقول:

– "يجب أن نلحق بهما."

– "بالسيد بيربروك والليدي لوسيندا؟"

قالت بإيماءة حازمة:

– "نعم. نعم، يجب أن نفعل."

كان آخر ما يرغب غريغوري في فعله هو إهدار وقته الثمين منفردًا مع الآنسة واتسون، لكنه نادى بامتثال على بيربروك ليتوقف. وفعل الآخر ذلك، متوقفًا فجأة لدرجة أن الليدي لوسيندا اصطدمت به حرفيًا.

أطلقت صرخة فزع، لكن باستثناء ذلك كانت بوضوح غير مصابة.

استغلت الآنسة واتسون اللحظة، مع ذلك، بسحب يدها من ذراعه والاندفاع للأمام.

صاحت قائلة:

– "لوسي! أوه، عزيزتي لوسي، هل أصبتِ بأذى؟"

أجابت الليدي لوسيندا، وقد بدت مشوشة قليلًا من المستوى المبالغ فيه لقلق صديقتها:

– "على الإطلاق."

أعلنت الآنسة واتسون وهي تشبك ذراعها بذراع الليدي لوسيندا:

– "يجب أن أمسك ذراعك."

رددت الليدي لوسيندا وهي تلتف مبتعدة. أو بالأحرى، تحاول ذلك:

– "يجب؟ لا، حقًا، هذا ليس ضروريًا."

– "أنا أصر."

كررت الليدي لوسيندا:

– "إنه ليس ضروريًا."

وتمنى غريغوري لو كان بإمكانه رؤية وجهها، لأن صوتها بدا وكأنها تجز على أسنانها.

جاء صوت بيربروك:

– "هيه هيه. ربما سآخذ أنا ذراعك يا بريدجيرتون."

رمقه غريغوري بنظرة ثابتة.

– "لا."

طرف بيربروك بعينيه.

– "كانت مزحة، كما تعلم."

قاوم غريغوري الرغبة ـفي التنهد وتمكن بطريقة ما من القول:

– "كنت أدرك ذلك."

كان يعرف نيفيل بيربروك منذ كانا طفلين يحبوان، وعادة ما كان لديه صبر أكبر معه، لكنه الآن لم يرغب ـفي شيء بقدر رغبته ـفي وضع كمامة له.

في تلك الأثناء، كانت الفتاتان تتجادلان حول شيء ما، بنبرات هامسة لدرجة أن غريغوري لم يكن ليأمل ـفي تمييز ما تقولانه. ليس وكأنه كان سيفهم لغتهما حتى لو كانتا تصرخان بها؛ كان بوضوح شيئًا أنثويًا محيرًا. كانت الليدي لوسيندا لا تزال تشد ذراعها، والآنسة واتسون ترفض ببساطة إفلاتها.

قالت هيرميون وهي تستدير وتُرفرف برموشها:

– "إنها مصابة."

تُرفرف برموشها؟ أختارت هذه اللحظة لتغازل؟

ردت لوسي:

– "أنا لست كذلك."

استدارت نحو الرجلين.

– "أنا لست كذلك." كررتها. "ولا حتى قليلًا. يجب أن نواصل."

لم يستطع غريغوري أن يقرر تمامًا ما إذا كان مستمتعًا أم مهانًا من هذا المشهد برمته. الآنسة واتسون بوضوح لا ترغب ـفي مرافقته، وبينما يحب بعض الرجال التوق للمنال الصعب، كان هو يفضل نساءه دائمًا مبتسمات، ودودات، وراغبات.

استدارت الآنسة واتسون حينها، مع ذلك، ولمح مؤخرة عنقها (ما سر مؤخرة عنقها تلك؟). شعر بنفسه يغرق مجددًا، ذلك الشعور بالحب الجنوني الذي أسره الليلة الماضية، وأخبر نفسه ألا يفقد الأمل. لم يعرفها حتى ليوم كامل؛ هي فقط بحاجة للوقت لتعرفه. الحب لا يضرب الجميع بنفس السرعة. شقيقه كولن، على سبيل المثال، عرف زوجته لسنوات وسنوات قبل أن يدرك أنهما خُلقا ليكونا معًا.

ليس أن غريغوري يخطط للانتظار سنوات وسنوات، لكن مع ذلك، وضع هذا الوضعَ الحالي في منظور أفضل.

بعد لحظات قليلة أصبح من الواضح أن الآنسة واتسون لن تذعن، وأن المرأتين ستمشيان ذراعًا بذراع. سار غريغوري محاكيًا خطواته بجانب الآنسة واتسون، بينما تهادى بيربروك سائرًا في مكان ما في محيط الليدي لوسيندا.

قالت له الليدي لوسيندا، مائلة للأمام ومتحدثة عبر الآنسة واتسون:

– "يجب أن تخبرنا كيف يبدو الأمر أن تكون من عائلة كبيرة كهذه. هيرميون وأنا ليس لدى كل منا سوى شقيق واحد."

قال بيربروك:

– "لدي ثلاثة بنفسي. جميعهم فتيان، كلنا. باستثناء أختي، بالطبع."

كان غريغوري على وشك إعطاء إجابته المعتادة، حول كون الأمر جنونيًا ومجنونًا وعادة ما يجلب متاعب أكثر مما يستحق، لكن بطريقة ما انزلقت الحقيقة الأعمق عبر شفتيه، ووجد نفسه يقول:

– "في الواقع، إنه أمر مريح."

رددت الليدي لوسيندا:

– "مريح؟ يا له من اختيار مثير للكلمات."

نظر عبر الآنسة واتسون ليرى أنها ترمقه بعينين زرقاوين فضوليتين.

قال ببطء، سامحًا لأفكاره بالتجمع قبل الرد:

– "نعم. هناك راحة في وجود عائلة، كما أعتقد. إنه شعور بـ... مجرد المعرفة، أفترض."

سألت لوسي، وقد بدت مهتمة بصدق:

– "ماذا تعني؟"

قال غريغوري:

– "أعرف أنهم موجودون، وأنه في حال وقعت في مشكلة، أو حتى احتجت ببساطة لمحادثة جيدة، يمكنني دائمًا اللجوء إليهم."

وكان ذلك صحيحًا. لم يفكر في الأمر بهذه الكلمات من قبل، لكنه كان صحيحًا. لم يكن قريبًا من إخوته بقدر قربهم من بعضهم البعض، لكن ذلك كان طبيعيًا فقط نظرًا لفارق السن. عندما كانوا رجالًا يخوضون الحياة في المدينة، كان هو طالبًا في "إيتون". والآن الثلاثة متزوجون، ولديهم عائلاتهم الخاصة.

لكن مع ذلك، كان يعلم أنه إن احتاجهم، أو أخواته في هذا الصدد، فما عليه سوى الطلب.

لم يفعل ذلك قط، بالطبع. ليس لأي شيء مهم. أو حتى لمعظم الأشياء غير المهمة. لكنه كان يعلم أنه يستطيع. وكان ذلك أكثر مما يملكه معظم الرجال في هذا العالم، أكثر مما سيملكه معظم الرجال أبدًا.

– "سيد بريدجيرتون؟"

طرف بعينيه. كانت الليدي لوسيندا تنظر إليه بتساؤل.

تمتم قائلًا:

– "اعتذاري. شردت بذهني، كما أظن."

منحها ابتسامة وإيماءة، ثم نظر نحو الآنسة واتسون، التي فوجئ برؤيتها قد التفتت أيضًا لتنظر إليه. بدت عيناها واسعتين في وجهها، صافيتين وبخضرة مبهرة، وللحظة شعر باتصال كهربائي تقريبًا. ابتسمت، قليلًا فقط، ومع لمسة من الإحراج لضبطها تنظر إليه، أشاحت بنظرها بعيدًا.

قفز قلب غريغوري.

ثم تحدثت الليدي لوسيندا مرة أخرى:

– "هذا بالضبط ما أشعر به تجاه هيرميون. إنها شقيقة روحي."

تمتم غريغوري:

– "الآنسة واتسون سيدة استثنائية حقًا."

ثم أضاف:

– "كما أنتِ، بالطبع."

قالت الليدي لوسيندا:

– "إنها رسامة ألوان مائية رائعة."

احمرت وجنتا هيرميون بخجل جميل.

– "لوسي."

أصرت صديقتها:

– "لكنكِ كذلك."

جاء صوت نيفيل بيربروك المرح:

– "أحب الرسم بنفسي. لكنني أتلف قمصاني في كل مرة."

نظر إليه غريغوري بدهشة. بين محادثته الكاشفة بشكل غريب مع الليدي لوسيندا ونظرته المتبادلة مع الآنسة واتسون، كاد ينسى وجود بيربروك.

تابع نيفيل وهو يتهادى في سيره:

– "خادمي الخاص غاضب جدًا بسبب الأمر. لا أعرف لماذا لا يستطيعون صنع طلاء يُغسل من الكتان."

توقف، غارقًا في تفكير عميق على ما يبدو.

– "أو الصوف."

سألت الليدي لوسيندا غريغوري:

– "هل تحب الرسم؟"

اعترف قائلًا:

– "لا موهبة لي فيه. لكن أخي فنان ذو شهرة ما. اثنتان من لوحاته معلقتان في المعرض الوطني."

صاحت قائلة:

– "أوه، هذا رائع!"

التفتت إلى الآنسة واتسون.

– "هل سمعتِ ذلك يا هيرميون؟ يجب أن تطلبي من السيد بريدجيرتون أن يقدمك لأخيه."

قالت هيرميون برزانة:

– "لا أود أن أسبب إزعاجًا لأي من السيدين بريدجيرتون."

قال غريغوري وهو يبتسم لها:

– "لن يكون هناك أي إزعاج على الإطلاق. سيسعدني إجراء التقديم، وبنديكت يحب دائمًا الثرثرة حول الفن. نادرًا ما أتمكن من متابعة الحديث، لكنه يبدو متحمسًا للغاية."

تدخلت لوسي وهي تربت على ذراع هيرميون:

– "أرأيتِ. أنتِ والسيد بريدجيرتون لديكما الكثير من القواسم المشتركة."

حتى غريغوري اعتقد أن تلك كانت مبالغة بعض الشيء، لكنه لم يعلق.

أعلن نيفيل فجأة:

– "المخمل."

تأرجحت ثلاثة رؤوس في اتجاهه. تمتمت الليدي لوسيندا:

– "عفوًا؟"

قال وهو يهز رأسه بقوة كبيرة:

– "إنه الأسوأ. لإخراج الطلاء منه، أعني."

لم يستطع غريغوري رؤية سوى مؤخرة رأسها، لكنه استطاع تخيلها تطرف بعينيها وهي تقول:

– "أنت ترتدي المخمل وأنت ترسم؟"

– "إذا كان الجو باردًا."

– "كم هذا... فريد."

أضاء وجه نيفيل.

– "هل تعتقدين ذلك؟ لطالما أردت أن أكون فريدًا."

قالت، ولم يسمع غريغوري في صوتها سوى الطمأنة:

– "أنت كذلك. أنت بالتأكيد كذلك يا سيد بيربروك."

تهلل وجه نيفيل.

– "فريد. أحب ذلك. فريد."

ابتسم من جديد، مختبرًا الكلمة على شفتيه.

- "فريد. فريد. فررررر-يييييد."

واصل الرباعي سيرهم نحو القرية في صمت ودي، تتخلله محاولات غريغوري العرضية لجر الآنسة واتسون إلى محادثة. أحيانًا كان ينجح، لكن في أغلب الأحيان، كانت الليدي لوسيندا هي من ينتهي بها الأمر بالدردشة معه. عندما لم تكن تحاول حث الآنسة واتسون على الحديث، بالطبع.

وطوال الوقت كان نيفيل يثرثر، مجريًا محادثة مع نفسه في الغالب، ومعظمها حول تفرده المكتشف حديثًا.

أخيرًا ظهرت مباني القرية المألوفة. أعلن نيفيل أنه "جائع بشكل فريد"، مهما كان معنى ذلك، لذا قاد غريغوري المجموعة إلى نُزل "وايت هارت"، وهو نُزل محلي يقدم طعامًا بسيطًا لكنه لذيذ دائمًا.

اقترحت الليدي لوسيندا:

- "يجب أن نقيم نزهة خلوية. ألن يكون ذلك رائعًا؟"

صاح نيفيل، محدقًا فيها كما لو كانت إلهة:

- "فكرة عظيمة!"

فوجئ غريغوري قليلًا بحماس تعبيره، لكن الليدي لوسيندا بدت وكأنها لم تلاحظ.

سأل غريغوري:

- "ما رأيك يا آنسة واتسون؟"

لكن السيدة المعنية كانت غارقة في التفكير، عيناها غير مركزتين حتى وهما مثبتتان على لوحة على الجدار.

كرر قائلًا:

- "آنسة واتسون؟"

وعندما حصل أخيرًا على انتباهها، قال:

- "هل ترغبين في نزهة خلوية؟"

- "أوه. نعم، سيكون ذلك جميلًا."

ثم عادت للتحديق في الفراغ، وقد ارتسمت على شفتيها المثاليتين ابتسامة حزينة، شبه تواقة.

أومأ غريغوري، كابحًا خيبة أمله، وشرع في إجراء الترتيبات. أعطاه صاحب النُزل، الذي يعرف عائلته جيدًا، ملاءتين نظيفتين لفرشهما على العشب، ووعد بإحضار سلة طعام عندما تصبح جاهزة.

قالت الليدي لوسيندا:

– "عمل ممتاز يا سيد بريدجيرتون. ألا توافقينني الرأي يا هيرميون؟"

– "نعم، بالطبع."

قال نيفيل وهو يمسك الباب للسيدات:

– "آمل أن يحضر فطيرة. يمكنني دائمًا أكل الفطير."

دس غريغوري يد الآنسة واتسون في ثنية ذراعه قبل أن تتمكن من الهرب. قال لها بهدوء:

– "لقد طلبت تشكيلة من الأطعمة. آمل أن يكون هناك شيء يلبي ما تشتهين."

نظرت إليه، وشعر بذلك مرة أخرى، الهواء يندفع خارجًا من جسده وهو يفقد نفسه في عينيها. وعرف أنها شعرت بذلك أيضًا. كان لا بد لها أن تشعر. كيف لا، وهو يشعر وكأن ساقيه قد تخذلانه؟

قالت:

– "أنا متأكدة من أنها ستكون مبهجة."

– "هل لديكِ حب للحلويات؟"

اعترفت قائلة:

– "لدي."

أخبرها غريغوري:

– "إذن أنتِ محظوظة. لقد وعد السيد غلاديش بتضمين بعض من فطيرة عنب الثعلب التي تعدها زوجته، وهي مشهورة جدًا في هذه المنطقة."

ابتهج نيفيل بشكل ملحوظ:

– "فطيرة؟"

التفت إلى الليدي لوسيندا.

– "هل قال إننا سنحصل على فطيرة؟"

أجابت:

– "أعتقد أنه فعل."

تنهد نيفيل بمتعة.

– "هل تحبين الفطائر يا ليدي لوسيندا؟"

ظهرت لمحة طفيفة من السخط على ملامحها وهي تسأل:

– "أي نوع من الفطائر يا سيد بيربروك؟"

– "أوه، أي فطيرة. حلوة، مالحة، فاكهة، لحم."

– "حسنًا..."

تنحنحت، ناظرة حولها كما لو أن المباني والأشجار قد تقدم بعض التوجيه.

– "أنا... آه... أفترض أنني أحب معظم الفطائر."

وفي تلك الدقيقة، كان غريغوري واثقًا تمامًا أن نيفيل قد وقع في الحب. المسكينة الليدي لوسيندا.

ساروا عبر الطريق الرئيسي إلى حقل عشبي، وبسط غريغوري الملاءتين، ممدًا إياهما على الأرض. جلست الليدي لوسيندا، الفتاة الذكية كما هي، أولًا، ثم ربتت على بقعة لـ نيفيل تضمن إجبار غريغوري والآنسة واتسون على مشاركة قطعة القماش الأخرى.

وعندها، شرع غريغوري في الفوز بقلبها.





الفصل الرابع

حيث تقدم بطلتنا النصيحة، ويقبلها بطلنا ويفرط الجميع في تناول الفطائر.



كان يتبع نهجًا خاطئًا تمامًا.

اختلست لوسي النظر من فوق كتف السيد بيربروك، محاولةً ألا تقطب جبينها. كان السيد بريدجيرتون يبذل جهدًا بطوليًا للفوز برضا هيرميون، وكان على لوسي الاعتراف بأنه في ظل ظروف طبيعية، ومع أنثى مختلفة، لكان قد نجح بسهولة. فكرت لوسي في العديد من الفتيات اللواتي عرفتهن في المدرسة—أي واحدة منهن كانت ستقع في غرامه حتى أذنيها الآن. جميعهن، في الواقع.

لكن ليس هيرميون.

كان يحاول بجهد مبالغ فيه. يبدي اهتمامًا زائدًا، وتركيزًا شديدًا، ومفرطًا في... مفرطًا في... حسنًا، مفرطًا في الحب، بصراحة، أو على الأقل مفرطًا في الانبهار.

كان السيد بريدجيرتون ساحرًا، ووسيمًا، ومن الواضح أنه ذكي للغاية أيضًا، لكن هيرميون رأت كل هذا من قبل. لم تستطع لوسي حتى البدء في إحصاء عدد السادة الذين طاردوا صديقتها بالطريقة ذاتها. بعضهم كان ظريفًا، وبعضهم كان جادًا. قدموا الزهور، والشعر، والحلوى—أحدهم حتى أحضر لهيرميون جروًا (رفضته والدة هيرميون فورًا، بعد أن أعلمت السيد

المسكين أن الموطن الطبيعي للكلاب لا يشمل سجاد "أوبيسون"، ولا الخزف الشرقي، ولا حضرتها شخصيًا).

لكن في الجوهر، كانوا جميعًا سواء. كانوا يتعلقون بكل كلمة تنطقها، وينظرون إليها وكأنها إلهة إغريقية هبطت إلى الأرض، ويتسابقون في محاولة تقديم أذكى وأرق المجاملات الرومانسية التي أمطرت أذنيها الجميلتين يومًا. ولم يبدُ أن أحدًا منهم يدرك مدى افتقارهم جميعًا للأصالة.

إذا أراد السيد بريدجيرتون حقًا إثارة اهتمام هيرميون، فعليه أن يفعل شيئًا مختلفًا.

سأل السيد بيربروك:

– "المزيد من فطيرة عنب الثعلب، يا ليدي لوسيندا؟"

تمتمت لوسي:

– "نعم، من فضلك."

وذلك فقط لإبقائه مشغولًا بالتقطيع بينما تفكر فيما يجب فعله تالياً. لم تكن تريد حقًا أن تضيع هيرميون حياتها مع السيد إدموندز، وحقًا، كان السيد بريدجيرتون مثاليًا. كان يحتاج فقط إلى قليل من المساعدة.

صاحت لوسي:

– "أوه، انظر! هيرميون ليس لديها أي فطيرة."

شهق السيد بيربروك:

– "بلا فطيرة؟"

رفت لوسي بأهدابها نحوه، وهي حركة لم تكن تملك فيها الكثير من الممارسة أو المهارة، وقالت:

– "هل تتفضل بتقديم بعض منها لها؟"

وبينما أومأ السيد بيربروك برأسه، وقفت لوسي معلنة:

– "أعتقد أنني سأمدد ساقيَّ قليلًا. هناك زهور جميلة في الجانب البعيد من الحقل. سيد بريدجيرتون، هل تعرف شيئًا عن النباتات المحلية؟"

رفع نظره متفاجئًا بسؤالها:

– "قليلًا."

لكنه لم يتحرك.

كانت هيرميون مشغولة بتأكيد عشقها لفطيرة عنب الثعلب للسيد بيربروك، فانتهزت لوسي اللحظة وأومأت برأسها نحو الزهور، مانحة السيد بريدجيرتون تلك النظرة الملحّة التي تعني عادة "تعال معي الآن".

بدا عليه الحيرة للحظة، لكنه سرعان ما تدارك الأمر ونهض واقفًا:

– "هل تسمحين لي أن أخبركِ القليل عن المناظر الطبيعية، يا ليدي لوسيندا؟"

قالت، ربما بحماس مبالغ فيه قليلًا:

– "سيكون ذلك رائعًا."

كانت هيرميون تحدق فيها بارتياب واضح. لكن لوسي علمت أنها لن تعرض الانضمام إليهما؛ ففعل ذلك سيشجع السيد بريدجيرتون على الاعتقاد بأنها ترغب في صحبته.

وهكذا ستُترك هيرميون مع السيد بيربروك والفطيرة. هزت لوسي كتفيها. هذا عدل.

قال السيد بريدجيرتون بمجرد أن عبرا الحقل:

– "تلك، أعتقد أنها أقحوان. وتلك الزرقاء ذات الساق الطويلة—في الواقع، لا أعرف اسمها."

قالت لوسي بجدية:

– "عايق، ولا بد أنك تعلم أنني لم أستدعك للحديث عن الزهور."

– "ساورني شك في ذلك."

قررت تجاهل نبرته وقالت:

– "أردت أن أقدم لك بعض النصائح."

مطّ الكلمة قائلًا:

– "حقًا."

ولم يكن سؤالًا.

– "حقًا."

– "وماذا عساها تكون نصيحتكِ؟"

لم تكن هناك طريقة لتجميل الأمر، لذا نظرت في عينيه وقالت:

– "أنت تتبع نهجًا خاطئًا تمامًا."

قال بتصلب:

– "عفوًا؟"

كتمت لوسي أنينًا. لقد جرحت كبرياءه الآن، ومن المؤكد أنه سيصبح لا يطاق. قالت:

– "إذا أردت الفوز بهيرميون، عليك أن تفعل شيئًا مختلفًا."

حدق السيد بريدجيرتون فيها بتعبير كاد يلامس الازدراء:

– "أنا قادر تمامًا على إدارة غزواتي العاطفية بنفسي."

– "أنا متأكدة من ذلك... مع سيدات أخريات. لكن هيرميون مختلفة."

ظل صامتًا، وعرفت لوسي أنها أوصلت وجهة نظرها. هو أيضًا كان يرى هيرميون مختلفة، وإلا لما بذل كل هذا الجهد.

قالت لوسي وهي تلقي نظرة على النزهة للتأكد من أن لا هيرميون ولا السيد بيربروك قد نهضا للانضمام إليهما:

– "الجميع يفعل ما تفعله أنت. الجميع."

تمتم السيد بريدجيرتون:

– "يعشق الرجل النبيل أن يُقارن بالقطيع."

كان لدى لوسي عدد لا بأس به من الردود على ذلك، لكنها ركزت ذهنها على المهمة التي بين يديها وقالت:

– "لا يمكنك التصرف مثل البقية. عليك أن تميز نفسك."

– "وكيف تقترحين أن أفعل ذلك؟"

أخذت نفسًا عميقًا. لن يعجبه جوابها. قالت:

– "عليك التوقف عن كونك... متيمًا هكذا. لا تعاملها كأميرة. في الواقع، ربما يجب عليك تركها وشأنها لبضعة أيام."

تحول تعبيره إلى عدم الثقة:

– "وأسمح لكل السادة الآخرين بالاندفاع نحوها؟"

قالت بنبرة عملية:

– "سيندفعون نحوها على أي حال. لا حيلة لك في ذلك."

– "رائع."

تابعت لوسي بإصرار:

– "إذا انسحبت، ستشعر هيرميون بالفضول لمعرفة السبب."

بدا السيد بريدجيرتون متشككًا، لذا تابعت قائلة:

– "لا تقلق، ستعرف أنك مهتم. يا للسماء، بعد اليوم يجب أن تكون بلهاء حتى لا تلاحظ ذلك."

عبس عند سماع ذلك، ولم تصدق لوسي نفسها أنها تتحدث بصراحة كهذه لرجل بالكاد تعرفه، لكن الأوقات العصيبة تستدعي تدابير عصيبة... أو حديثًا عصيبًا.

– "ستعرف، أعدك بذلك. هيرميون ذكية جدًا. ليس وكأن أحدًا يلاحظ ذلك. معظم الرجال لا يرون أبعد من وجهها."

قال بصوت خافت:

– "أود أن أعرف عقلها."

شيء ما في نبرته أصاب لوسي في الصميم. رفعت بصرها، مباشرة إلى عينيه، وتملكها شعور غريب بأنها في مكان آخر، وهو في مكان آخر، والعالم يتلاشى من حولهما.

كان مختلفًا عن السادة الآخرين الذين التقت بهم. لم تكن متأكدة كيف بالضبط، سوى أن هناك شيئًا أكثر فيه. شيئًا مختلفًا. شيئًا جعلها تشعر بألم عميق في صدرها.

وللحظة ظنت أنها قد تبكي.

لكنها لم تفعل. لأنها، حقًا، لم تستطع. وهي لم تكن ذلك النوع من الإناث على أي حال. ولم تكن ترغب في أن تكون كذلك. وبالتأكيد لم تكن لتبكي دون أن تعرف سببًا لذلك.

– "ليدي لوسيندا؟"

لقد صمتت لفترة طويلة جدًا. لم يكن هذا من شيمها، واندفعت قائلة:

– "هي لن ترغب في السماح لك بذلك. معرفة عقلها، أعني. لكن يمكنك..."

تنحنحت، ورمشت بعينيها، واستعادت تركيزها، ثم ثبتت عينيها بحزم على بقعة صغيرة من الأقحوان تتلألأ تحت الشمس.

– "يمكنك إقناعها بخلاف ذلك. أنا متأكدة من أنك تستطيع. إذا كنت صبورًا. وكنت صادقًا."

لم يقل شيئًا على الفور. لم يكن هناك سوى صفير النسيم الخافت. ثم سأل بهدوء:

– "لماذا تساعدينني؟"

التفتت لوسي إليه مرة أخرى، وشعرت بالارتياح لأن الأرض ظلت ثابتة تحت قدميها هذه المرة. عادت لطبيعتها؛ عملية، جادة، وواقعية إلى أقصى حد. وهو مجرد رجل آخر يتنافس على يد هيرميون.

كل شيء طبيعي.

قالت:

– "إما أنت أو السيد إدموندز."

تمتم:

– "أهذا اسمه؟"

شرحت:

– "إنه سكرتير والدها. ليس رجلًا سيئًا، ولا أظن أنه يطمع في مالها فقط، لكن أي أحمق يمكنه أن يرى أنك الخيار الأفضل."

أمال السيد بريدجيرتون رأسه قائلًا:

– "أتساءل، لماذا يبدو الأمر وكأنكِ قد وصفتِ الآنسة واتسون بالحمق للتو؟"

التفتت إليه لوسي وفي عينيها بريق فولاذي:

– "إياك أن تشكك في إخلاصي لهيرميون. لا يمكنني..." ألقت نظرة سريعة على هيرميون للتأكد من أنها لا تنظر، قبل أن تخفض صوتها وتتابع: "لا يمكنني أن أحبها أكثر لو كانت شقيقتي من دمي."

يحسب للسيد بريدجيرتون أنه أومأ لها باحترام وقال:

– "لقد أسأت إليكِ. اعتذاري."

ابتلعت لوسي ريقها بارتباك وهي تتقبل كلماته. بدا وكأنه يعنيها، مما ساهم كثيرًا في تهدئتها. قالت:

– "هيرميون تعني العالم لي."

فكرت في العطلات المدرسية التي قضتها مع عائلة واتسون، وفكرت في الزيارات الوحيدة للمنزل. لم تكن عودتها تتزامن أبدًا مع عودة شقيقها، وكان فينسوورث آبي مكانًا باردًا وموحشًا، ورفقتها الوحيدة كانت عمها.

كان روبرت أبيرناثي دائمًا يؤدي واجبه تجاه من هم تحت وصايته، لكنه كان باردًا وموحشًا هو الآخر. المنزل كان يعني جولات مشي طويلة وحيدة، وقراءة لا تنتهي وحيدة، وحتى وجبات وحيدة، إذ لم يظهر العم روبرت أي اهتمام بمشاركتها الطعام. عندما أخبر لوسي أنها ستلتحق بمدرسة الآنسة موس، كان دافعها الأولي أن تلقي بذراعيها حوله وتتدفق شكرًا: "شكرًا شكرًا شكرًا!"

إلا أنها لم تعانقه من قبل قط، ليس في السنوات السبع التي كان فيها ولي أمرها. وفضلًا عن ذلك، كان جالسًا خلف مكتبه وقد أعاد اهتمامه بالفعل إلى الأوراق التي أمامه. كان ذلك إذنًا بالانصراف للوسي.

عندما وصلت إلى المدرسة، ألقت بنفسها في حياتها الجديدة كطالبة. وعشقت كل لحظة فيها. كان مجرد وجود أناس للتحدث معهم أمرًا رائعًا. شقيقها ريتشارد غادر إلى إيتون في سن العاشرة، حتى قبل وفاة والدهما،

وظلت هي تجوب ردهات الدير لما يقرب من عقد من الزمن دون رفقة سوى مربيتها المتسلطة.

في المدرسة أحبها الناس. كان ذلك الجزء الأفضل من كل شيء. في المنزل لم تكن أكثر من فكرة عابرة، لكن في مدرسة الآنسة موس للشابات الاستثنائيات، سعت الطالبات الأخريات لصحبتها. سألنها أسئلة وانتظرن فعلًا لسماع إجابتها. ربما لم تكن لوسي ملكة المدرسة المتوجة، لكنها شعرت بأنها تنتمي، وبأنها ذات أهمية.

كُلفت هي وهيرميون بمشاركة غرفة في تلك السنة الأولى عند الآنسة موس، وكانت صداقتهما شبه فورية. بحلول مساء ذلك اليوم الأول، كانت الاثنتان تضحكان وتثرثران وكأنهما تعرفان بعضهما طوال حياتهما.

جعلتها هيرميون تشعر... بتحسن بطريقة ما. ليس فقط صداقتهما، بل معرفة وجود هذه الصداقة. أحبت لوسي كونها الصديقة المفضلة لشخص ما. أحبت وجود صديقة مفضلة لها بالطبع، لكنها أحبت حقًا معرفة أن هناك شخصًا في هذا العالم يفضلها هي على الجميع. جعلها ذلك تشعر بالثقة. بالراحة.

كان الأمر يشبه نوعًا ما السيد بريدجيرتون وما قاله عن عائلته، في الواقع.

كانت تعلم أنها تستطيع الاعتماد على هيرميون. وهيرميون تعلم أن المثل ينطبق عليها. ولم تكن لوسي متأكدة من وجود أي شخص آخر في العالم يمكنها قول ذلك عنه. شقيقها، ربما. ريتشارد سيهب دائمًا لمساعدتها إذا احتاجته، لكنهما نادرًا ما يريان بعضهما هذه الأيام. كان ذلك مؤسفًا حقًا. كانا مقربين جدًا وهما صغيران. ونظرًا لانعزالهما في فينسوورث آبي، نادرًا ما كان هناك شخص آخر للعب معه، لذا لم يكن لديهما خيار سوى اللجوء لبعضهما. ولحسن الحظ، كانا يتفقان في أغلب الأحيان.

أجبرت عقلها على العودة للحاضر والتفتت للسيد بريدجيرتون. كان يقف ساكنًا تمامًا، يتأملها بتعبير من الفضول المهذب، وتملك لوسي شعور غريب

بأنها لو أخبرته بكل شيء— عن هيرميون وريتشارد وفينسوورث آبي وكم كان رائعًا المغادرة للمدرسة...

لكان قد فهم. بدا من المستحيل أن يفهم، وهو القادم من عائلة كبيرة ومترابطة بشكل شهير. لا يمكن أن يعرف معنى الوحدة، ومعنى أن يكون لديك ما تقوله ولكن لا أحد لتقوله له. لكن بطريقة ما—كانت عيناه، حقًا، أكثر اخضرارًا مما أدركت، ومركزة جدًا على وجهها—

ابتلعت ريقها. يا إلهي، ما الذي يحدث لها حتى أنها لا تستطيع إنهاء أفكارها؟

تمكنت من القول:

– "أتمنى فقط سعادة هيرميون. آمل أن تدرك ذلك."

أومأ برأسه، ثم حول نظره نحو النزهة وسأل:

– "هل نعود للآخرين؟" ثم ابتسم بأسف وأضاف: "أعتقد أن السيد بيربروك قد أطعم الآنسة واتسون ثلاث قطع من الفطيرة."

شعرت لوسي بضحكة تفور بداخلها:

– "يا إلهي."

كانت نبرته حيادية بشكل ساحر وهو يقول:

– "حرصًا على صحتها، إن لم يكن لشيء آخر، يجب أن نعود."

سألت لوسي وهي تسمح له بوضع يدها على ذراعه:

– "هل ستفكر فيما قلته؟"

أومأ:

– "سأفعل."

شعرت بنفسها تتشبث به بقوة أكبر قليلًا:

– "أنا محقة في هذا. أعدك بأنني كذلك. لا أحد يعرف هيرميون أفضل مني. ولا أحد غيري شاهد كل أولئك السادة يحاولون— ويفشلون— في كسب رضاها."

التفت، والتقت عيناه بعينيها. للحظة وقفا ساكنين تمامًا، وأدركت لوسي أنه يقيمها، يزنها بطريقة كان ينبغي أن تكون غير مريحة.

لكنها لم تكن كذلك. وكان هذا أغرب ما ـفي الأمر. كان يحدق فيها وكأنه يرى أعماق روحها، ولم تشعر بأي حرج على الإطلاق. ـفي الواقع، كان شعورًا... لطيفًا بغرابة.

قال وهو يستدير ليعودا إلى مكان النزهة:

– "يشرفني قبول نصيحتكِ بخصوص الآنسة واتسون. وأشكركِ على عرضكِ المساعدة لأفوز بها."

تمتمت لوسي:

– "شـ.. شكرًا لك."

لأنه حقًا، ألم تكن تلك نيتها؟

لكنها أدركت حينها أنها لم تعد تشعر بأن الأمر لطيف تمامًا.



اتبع غريغوري توجيهات الليدي لوسيندا حرفيًا. ـفي ذلك المساء، لم يقترب من الآنسة واتسون ـفي غرفة الرسم، حيث اجتمع الضيوف قبل العشاء. وعندما انتقلوا إلى غرفة الطعام، لم يحاول التدخل ـفي الترتيب الاجتماعي وتغيير مقعده ليجلس بجوارها. وبمجرد عودة السادة من احتساء المشروب وانضمامهم للسيدات ـفي الصوبة الزجاجية لحضور عزف البيانو، اتخذ مقعدًا في الخلف، رغم أنها والليدي لوسيندا كانتا واقفتين بمفردهما تمامًا، وكان من السهل—بل المتوقع—أن يتوقف ويهمس بتحياته أثناء مروره.

لكن لا، لقد التزم بهذه الخطة التي قد تكون غير حكيمة، وهكذا كان مكانه في مؤخرة الغرفة. راقب الآنسة واتسون وهي تجد مقعدًا على بعد ثلاثة صفوف أمامه، ثم استقر ـفي كرسيه، سامحًا لنفسه أخيرًا بمتعة تأمل مؤخرة عنقها.

وهو ما كان ليكون تسلية مشبعة تمامًا لولا عجزه الكامل عن التفكير ـفي أي شيء سوى انعدام اهتمامها المطلق به.

حقًا، لو نبت له رأسان وذيل، لما حصل على أكثر من تلك الابتسامة المهذبة الفاترة التي تمنحها للجميع. هذا إن حصل عليها.

لم يكن هذا نوع رد الفعل الذي اعتاد غريغوري تلقيه من النساء. لم يتوقع إعجابًا عالميًا، لكن حقًا، عندما يبذل جهدًا، كان عادة ما يرى نتائج أفضل من هذه.

كان الأمر مثيرًا للغيظ، في الواقع.

وهكذا راقب المرأتين، راغبًا في أن تلتفتا، أن تتململا، أن تفعلا شيئًا يشير إلى إدراكهما لوجوده. أخيرًا، بعد ثلاث مقطوعات وفوغا، التفتت الليدي لوسيندا ببطء في مقعدها.

كان بإمكانه تخيل أفكارها بسهولة.

ببطء، ببطء، تصرفي وكأنكِ تلقين نظرة على الباب لترين إن دخل أحدهم. حركي عينيكِ قليلًا جدًا نحو السيد بريدجيرتون—

رفع كأسه تحية لها.

شهقت، أو هكذا أمل، واستدارت بسرعة.

ابتسم. ربما لم يكن يجدر به الاستمتاع بضيقها هكذا، لكن حقًا، كانت تلك النقطة المضيئة الوحيدة في الأمسية حتى الآن.

أما بالنسبة للآنسة واتسون—فإن كانت تشعر بحرارة نظراته، فلم تبدِ أي إشارة. ودّ غريغوري لو فكر في أنها تتجاهله عن عمد—فهذا على الأقل كان سيشير إلى نوع من الوعي بوجوده. لكن بينما راقبها تجيل بصرها بكسل في أنحاء الغرفة، وتحني رأسها بين الفينة والأخرى لتهمس بشيء في أذن الليدي لوسيندا، أصبح من الواضح بشكل مؤلم أنها لم تكن تتجاهله على الإطلاق. فتجاهلها كان سيعني أنها لاحظته.

وهو ما لم تفعله بوضوح تام.

شعر غريغوري بفكّه ينطبق. وبينما لم يشك في النوايا الطيبة وراء نصيحة الليدي لوسيندا، إلا أن النصيحة ذاتها كانت مريعة بشكل واضح. ومع بقاء خمسة أيام فقط على انتهاء الحفل المنزلي، فقد أهدر وقتًا ثمينًا.

– "تبدو ضجرًا."

التفت. كانت زوجة أخيه قد تسللت إلى المقعد المجاور له وتحدثت بصوت خافت حتى لا تشوش على العزف.

أضافت بجفاف:

– "ضربة قوية لسمعتي كمضيفة."

تمتم:

– "على الإطلاق. أنتِ رائعة كالعادة."

التفتت كيت للأمام وصمتت للحظات قبل أن تقول:

– "إنها جميلة جدًا."

لم يكلف غريغوري نفسه عناء التظاهر بعدم معرفة عمن تتحدث. كانت كيت أذكى بكثير من أن ينطلي عليها ذلك. لكن هذا لم يعنِ أنه مضطر لتشجيع المحادثة. قال ببساطة وعيناه مثبتتان للأمام:

– "إنها كذلك."

قالت كيت:

– "شكوكي تقول إن قلبها مشغول بآخر. لم تشجع أيًا من اهتمامات السادة، وهم بالتأكيد حاولوا جميعًا."

شعر غريغوري بفكّه يتوتر.

تابعت كيت، وهي بالتأكيد تدرك أنها مزعجة، لكن ذلك لم يكن ليوقفها:

– "سمعت أن الأمر كان كذلك طوال هذا الربيع. الفتاة لا تعطي أي إشارة لرغبتها في الزواج."

قال غريغوري:

– "إنها معجبة بسكرتير والدها."

لأنه، حقًا، ما الفائدة من إبقاء الأمر سرًا؟ كان لدى كيت طريقة لاكتشاف كل شيء. وربما يمكنها المساعدة.

قالت بصوت عالٍ قليلًا:

– "حقًا؟" واضطرت لتمتمة اعتذارات لضيوفها، ثم قالت مرة أخرى بصوت أهدأ: "حقًا؟ كيف عرفت؟"

فتح غريغوري فمه للرد، لكن كيت أجابت عن سؤالها بنفسها:

– "أوه، بالطبع، الليدي لوسيندا. هي تعرف كل شيء."

أكد غريغوري بجفاف:

– "كل شيء."

تأملت كيت هذا لبضع لحظات، ثم ذكرت البديهي:

– "والداها لن يكونا مسرورين."

– "لا أعلم إن كانا على علم."

– "يا إلهي."

بدت كيت منبهرة بما يكفي بهذه النميمة لدرجة جعلت غريغوري يلتفت إليها. وبالفعل، كانت عيناها واسعتين وتلمعان.

قال لها:

– "حاولي أن تضبطي نفسك."

– "لكنها أكثر إثارة حصلت عليها طوال الربيع."

نظر إليها مباشرة في وجهها:

– "تحتاجين للعثور على هواية."

وكزته بكوعها قائلة:

– "أوه، غريغوري. لا تدع الحب يحولك إلى شخص ممل. أنت ممتع جدًا لتصبح كذلك. والداها لن يسمحا لها أبدًا بالزواج من السكرتير، وهي ليست من النوع الذي يهرب للزواج. ما عليك سوى انتظارها."

أطلق زفرة منزعجة.

ربتت كيت عليه مواسية:

– "أعرف، أعرف، أنت ترغب في إنجاز الأمور. أمثالك لا يصبرون أبدًا."

– "أمثالي؟"

لوحت بيدها، واعتبرت ذلك إجابة كافية. قالت:

– "حقًا يا غريغوري، هذا للأفضل."

– "أن تكون مغرمة بشخص آخر؟"

– "توقف عن الدراما. عنيت أن هذا سيمنحك الوقت لتتأكد من مشاعرك تجاهها."

فكر غريغوري في ذلك الشعور باللكمة في المعدة كلما نظر إليها. يا إلهي، خاصة مؤخرة عنقها، رغم غرابة ذلك. لم يستطع تخيل أنه بحاجة للوقت. كان هذا كل ما تخيل أن يكون عليه الحب يومًا. ضخمًا، مفاجئًا، ومبهجًا تمامًا. ومحطمًا في الوقت ذاته، بطريقة ما.

تمتمت كيت:

– "فوجئت بأنك لم تطلب الجلوس معها على العشاء."

حدق غريغوري بحدة في مؤخرة رأس الليدي لوسيندا.

عرضت كيت:

– "يمكنني ترتيب ذلك غدًا، إذا رغبت."

– "افعلي."

أومأت كيت:

– "نعم، سأ... أوه، ها نحن ذا. الموسيقى تنتهي. انتبه الآن وتظاهر بأننا مهذبان."

وقف ليصفق، وفعلت هي مثله. سأل وعيناه للأمام:

– "هل سبق وأن صمتِّ ولو لمرة خلال حفل موسيقي؟"

قالت:

– "لدي نفور غريب منها." لكن شفتيها انحنيتا في ابتسامة ماكرة صغيرة. "ونوع من الولع الحنيني أيضًا."

– "حقًا؟" الآن أصبح مهتمًا.

تمتمت وهي تتعمد عدم النظر إليه:

– "أنا لا أفشي الأسرار بالطبع، ولكن حقًا، هل رأيتني يومًا أحضر الأوبرا؟"

شعر غريغوري بحاجبيه يرتفعان. من الواضح أن هناك مغنية أوبرا في مكان ما في ماضي شقيقه. أين شقيقه، بالمناسبة؟ بدا أن أنتوني قد طور موهبة لافتة في تجنب معظم المناسبات الاجتماعية للحفل المنزلي. لم يره غريغوري سوى مرتين عدا لقائهما ليلة وصوله.

سأل:

– "أين اللورد بريدجيرتون المتألق؟"

– "أوه، في مكان ما. لا أعرف. سنجد بعضنا في نهاية اليوم، هذا كل ما يهم." التفتت إليه كيت بابتسامة هادئة بشكل لافت. هادئة بشكل يثير الغيظ. قالت:

– "يجب أن أختلط بالضيوف." وابتسمت له وكأنها لا تحمل همًا في العالم. "استمتع بوقتك." وانصرفت.



بقي غريغوري في الخلف، يجري محادثات مهذبة مع قلة من الضيوف الآخرين بينما يراقب الآنسة واتسون خلسة. كانت تثرثر مع شابين—كلاهما أحمق ومزعج— بينما وقفت الليدي لوسيندا بتهذيب إلى الجانب. وبينما لم تبدُ الآنسة واتسون كمن تغازل أيًا منهما، إلا أنها بالتأكيد كانت توليهما اهتمامًا يفوق ما تلقاه هو في تلك الأمسية.

وكانت الليدي لوسيندا هناك، تبتسم بجمال، وتراقب المشهد كله.

ضاقت عينا غريغوري. هل خدعته؟ لم تبدُ من ذلك النوع. لكن مرة أخرى، معرفتهما لم تتجاوز الأربع وعشرين ساعة. ما مدى معرفته بها حقًا؟ قد يكون لديها دافع خفي. وقد تكون ممثلة بارعة جدًا، بأسرار غامضة ومظلمة تقبع تحت سطح—

أوه، تباً لكل شيء. إنه يفقد صوابه. كان يراهن بآخر بنس يملكه على أن الليدي لوسيندا لا تستطيع الكذب لإنقاذ حياتها. كانت مشرقة ومنفتحة وبالتأكيد ليست غامضة. كانت نيتها طيبة، هذا ما كان واثقًا منه.

لكن نصيحتها كانت بلا فائدة.

التقت عيناه بعينيها. بدا وكأن تعبير اعتذار خافت يمر عبر وجهها، وظن أنها ربما هزت كتفيها.

هزت كتفيها؟ ماذا يعني ذلك بحق الجحيم؟

خطا خطوة للأمام.

ثم توقف.

ثم فكر في اتخاذ خطوة أخرى.

لا.

نعم.

لا.

ربما؟

اللعنة. لم يعرف ماذا يفعل. كان شعورًا بغيضًا بشكل فريد.

نظر مرة أخرى إلى الليدي لوسيندا، واثقًا تمامًا من أن تعبيره لم يكن ينضح بالعذوبة والنور. حقًا، كان هذا كله خطأها.

لكنها بالطبع لم تكن تنظر إليه الآن.

لم يحول نظره عنها.

التفتت هي مرة أخرى. اتسعت عيناها، ويأمل أن يكون ذلك بفزع.

جيد. الآن نصل لنتيجة. إذا لم يستطع الشعور بنعيم اهتمام الآنسة واتسون، فعلى الأقل يمكنه جعل الليدي لوسيندا تشعر بجحيم اهتمامه.

حقًا، هناك أوقات لا تستدعي النضج واللباقة.

ظل عند حافة الغرفة، وبدأ أخيرًا يستمتع بوقته. كان هناك شيء مسلٍّ بشكل منحرف في تخيل الليدي لوسيندا كأرنب صغير أعزل، غير متأكد تمامًا إن كان سيلقى نهايته المؤسفة أو متى.

ليس، بالطبع، أن غريغوري يمكنه أبدًا أن ينسب لنفسه دور الصياد. فمهارته البائسة في الرماية تضمن أنه لا يستطيع إصابة أي شيء يتحرك، وكان من حسن الحظ اللعين أنه ليس مسؤولًا عن صيد طعامه.

لكنه يستطيع تخيل نفسه الثعلب.

ابتسم، وكانت أول ابتسامة حقيقية له في الأمسية.

ثم عرف أن الأقدار في صفه، لأنه رأى الليدي لوسيندا تستأذن وتتسلل خارجة من باب الصوبة الزجاجية، ربما لقضاء حاجتها. وبما أن غريغوري كان يقف بمفرده في الزاوية الخلفية، لم يلاحظ أحد خروجه من الغرفة عبر باب مختلف.

وعندما مرت الليدي لوسيندا بجوار مدخل المكتبة، تمكن من سحبها للداخل دون إصدار صوت.





الفصل الخامس

وفيه يخوض بطلنا وبطلتنا محادثة
بالغة الطرافة والتشويق.



في لحظة، كانت لوسي تسير في الرواق، وقد قطّبت أنفها وهي تعصر ذهنها محاولة تذكر موقع أقرب حمام، وفي اللحظة التالية، كانت تهوي في الهواء، أو على الأقل تتعثر في خطواتها، لتجد نفسها تصطدم بجسد ضخم وملموس، دافئ وبشري بلا أدنى شك.

جاءها صوت تعرفه جيدًا:

– "لا تصرخي."

"السيد بريدجيرتون؟" يا إلهي، هذا تصرف لا يشبهه أبدًا. لم تكن لوسي متأكدة تمامًا مما إذا كان يجدر بها الشعور بالخوف.

قال وهو يفلت ذراعها:

– "نحن بحاجة للتحدث."

لكنه أغلق الباب ودس المفتاح في جيبه.

سألت لوسي:

– "الآن؟"

اعتادت عيناها على الضوء الخافت وأدركت أنهما في المكتبة.

– "هنا؟"

ثم قفز إلى ذهنها سؤال أكثر إلحاحًا:

– "وحدنا؟"

عبس قائلًا:

– "لست أنوي التهجم عليكِ، إن كان هذا ما يقلقك."

شعرت بفكها ينقبض. لم تظن أنه سيفعل، لكنه لم يكن بحاجة لجعل سلوكه النبيل يبدو وكأنه إهانة لها.

تساءلت بحدة:

– "حسنًا، ما الأمر إذن؟ إذا ضُبطت هنا بصحبتك، فسأدفع الثمن غاليًا. أنا مخطوبة عمليًا، كما تعلم."

قال بنبرة جامدة:

– "أعرف."

قالها بتلك النبرة المحددة. وكأنها أخبرته بذلك حتى أصابه الغثيان، في حين أنها تعلم علم اليقين أنها لم تذكر الأمر أكثر من مرة واحدة. أو ربما مرتين.

تمتمت بتذمر:

– "حسنًا، أنا كذلك بالفعل."

وهي تدرك تمامًا أنها ستتوصل إلى الرد المفحم المناسب بعد ساعتين من الآن.

سألها بحدة:

– "ما الذي يحدث بحق السماء؟"

سألت رغم أنها كانت تدرك جيدًا عما يتحدث:

– "ماذا تعني؟"

صرّ على أسنانه قائلًا:

– "الآنسة واتسون."

– "هيرميون؟"

وكأن هناك آنسة واتسون أخرى. لكن السؤال منحها بعض الوقت.

قال وعيناه تثقبان عينيها:

– "نصيحتكِ... كانت كارثية."

كان محقًا بالطبع، لكنها كانت تأمل ألا يكون قد لاحظ ذلك.

قالت وهي تراقبه بحذر بينما كان يعقد ذراعيه:

– "صحيح."

لم تكن تلك الحركة الأكثر ترحيبًا، لكن كان عليها الاعتراف بأنه أداها ببراعة. كانت قد سمعت أن سمعته تقوم على المرح والدعابة، وهما صفتان لا أثر لهما حاليًا، ولكن، حسنًا، لا غضب يضاهي غضب المحب المرفوض، أو هكذا يقولون. افترضت أن المرء لا يحتاج لأن يكون امرأة ليشعر بشيء من الإحباط أمام احتمال الحب من طرف واحد.

وبينما كانت تختلس النظر بتردد إلى وجهه الوسيم، خطر لها أنه ربما لا يملك خبرة كبيرة في الحب غير المتبادل. حقًا، من قد تقول "لا" لهذا الرجل؟

باستثناء هيرميون. لكنها تقول "لا" للجميع. لا ينبغي له أن يأخذ الأمر على محمل شخصي.

قال ببطء وهو ينتظر ردًا:

– "ليدي لوسيندا؟"

ماطلت قائلة، وهي تتمنى ألا يبدو ضخمًا جدًا في هذه الغرفة المغلقة:

– "بالطبع. صحيح. صحيح."

رفع حاجبًا واحدًا.

– "صحيح."

ابتلعت ريقها. كانت نبرته تحمل نوعًا من التسامح الأبوي المبهم، وكأنها مثيرة للتسلية قليلًا لكنها لا تستحق الاهتمام تمامًا. كانت تعرف تلك النبرة جيدًا. إنها النبرة المفضلة للإخوة الكبار عند التعامل مع الأخوات الصغريات. ومع أي صديقات قد يحضرنهن للمنزل في عطلات المدارس.

كانت تكره تلك النبرة.

لكنها واصلت حديثها رغم ذلك وقالت:

– "أتفق معك أن خطتي لم تكن أفضل مسار للعمل، ولكن بصدق، لست واثقة أن أي شيء آخر كان ليحقق نتيجة أفضل."

لم يبدُ أن هذا ما أراد سماعه. تنحنحت. مرتين. ثم مرة أخرى.

أضافت، لأنها كانت تشعر بالسوء حقًا، وكانت خبرتها تفيد بأن الاعتذارات تنجح دائمًا عندما لا يكون المرء واثقًا مما يجب قوله:

– "أنا آسفة للغاية. لكنني ظننت حقًا..."

قاطعها:

– "لقد قلتِ لي إنه إذا تجاهلت الآنسة واتسون..."

– "لم أقل لك تجاهلها!"

– "بل فعلتِ بالتأكيد."

– "لا. لا، لم أفعل. قلت لك أن تتراجع قليلًا. أن تحاول ألا تكون واضحًا جدًا في ولهك."

لم تكن كلمة "ولهك" دقيقة لغويًا في هذا السياق، لكن حقًا، لم تكترث لوسي لذلك.

أجابها، وقد تحولت نبرته من "الأخ الأكبر المتعالي قليلًا" إلى التكبر الصريح:

– "حسنًا جدًا. إذا لم يكن المقصود أن أتجاهلها، فما الذي تعتقدين تحديدًا أنه كان علي فعله؟"

– "حسنًا..."

حكت مؤخرة عنقها، التي شعرت فجأة وكأن طفحًا جلديًا مريعًا ينبت فيها. أو ربما كان ذلك مجرد توتر. كانت تفضل الطفح الجلدي تقريبًا. لم يعجبها هذا الشعور بالغثيان الذي ينمو في معدتها وهي تحاول التفكير في شيء معقول لقوله.

أضاف قائلًا:

– "بخلاف ما فعلته، بالطبع."

قالت وهي تجز على أسنانها:

– "لست متأكدة. ليس لدي بحور من الخبرة في هذا النوع من الأمور."

– "أوه، الآن تخبرينني."

ردت بحدة:

– "حسنًا، كان الأمر يستحق المحاولة. يعلم الله أنك لم تكن تحقق أي نجاح بمفردك."

انطبق فمه في خط مستقيم، وسمحت لنفسها بابتسامة صغيرة راضية لأنها أصابت وترًا حساسًا. لم تكن في العادة شخصًا لئيمًا، لكن الموقف بدا وكأنه يستدعي قليلًا من تهنئة الذات.

قال بحدة مكتومة:

– "حسنًا جدًا."

وبينما كانت تفضل لو اعتذر ثم قال – صراحة – إنها كانت محقة وأنه كان مخطئًا، افترضت أن عبارة "حسنًا جدًا" قد تمر في بعض الأوساط كاعتراف بالخطأ.

وحكمًا من تعبير وجهه، كان هذا أقصى ما ستحصل عليه.

أومأت برأسها في وقار ملكي. بدا ذلك أفضل مسار للعمل. تصرفي كملكة وربما ستُعاملين كواحدة.

– "هل لديك أي أفكار عبقرية أخرى؟"

أو ربما لا.

قالت متظاهرة بأنه بدا مهتمًا بالإجابة حقًا:

– "حسنًا، لا أعتقد أن السؤال هو (ماذا تفعل) بقدر ما هو (لماذا لم ينجح ما فعلته)."

طرف بعينيه.

قالت لوسي بلمسة من نفاد الصبر:

– "لم ييأس أحد أبدًا من هيرميون. عدم اهتمامها يجعلهم يضاعفون جهودهم فقط. إنه أمر محرج، حقًا."

بدا عليه شيء من الإهانة.

– "عفوًا؟"

قالت لوسي بسرعة:

– "لا أقصدك أنت."

– "يا لارتياحي الملموس."

كان ينبغي لـ لوسي أن تستاء من سخريته، لكن حس دعابته كان يشبه حسها لدرجة أنها لم تملك إلا الاستمتاع به. تابعت قائلة، لأنها كانت تحب دائمًا البقاء في صلب الموضوع:

– "كما كنت أقول، لا يبدو أن أحدًا يعترف بالهزيمة وينتقل إلى سيدة أخرى يمكن الوصول إليها. بمجرد أن يدرك الجميع أن الجميع يريدونها، يبدو أنهم يصابون بالجنون. وكأنها ليست سوى جائزة يجب الفوز بها."

قال بهدوء:

– "ليس بالنسبة لي."

انتقلت عيناها بسرعة إلى وجهه، وأدركت فورًا أنه يعني أن هيرميون كانت أكثر من مجرد جائزة. إنه يهتم لأمرها. يهتم بصدق. لم تكن لوسي واثقة من السبب، أو حتى الكيفية، إذ إنه بالكاد تعرف على صديقتها. وهيرميون لم تكن منفتحة جدًا في محادثاتها، ليس أنها كانت كذلك أبدًا مع الرجال الذين يلاحقونها. لكن السيد بريدجيرتون كان يهتم بالمرأة في الداخل، وليس فقط بالوجه المثالي. أو على الأقل، كان يعتقد أنه يفعل.

أومأت ببطء، تاركة كل هذا يترسب في ذهنها.

– "ظننت أنه ربما لو توقف شخص ما عن ملاحقتها كظلها، فقد تجد ذلك مثيرًا للاهتمام. ليس..."

سارعت لتطمينه:

– "ليس أن هيرميون ترى كل هذا الاهتمام من السادة حقًا مكتسبًا لها. بل على العكس تمامًا. لنكون صادقين، إنه في الغالب مصدر إزعاج."

قال وهو يبتسم – قليلًا فقط:

– "مداهنتكِ لا حدود لها."

اعترفت قائلة:

– "لم أكن بارعة أبدًا في المداهنة."

– "يبدو ذلك."

ابتسمت بسخرية. لم يكن يقصد كلماته كإهانة، وهي لن تأخذها كذلك.

– "ستغير رأيها."

– "هل تعتقدين ذلك؟"

– "أعتقد. سيكون عليها ذلك. هيرميون رومانسية، لكنها تفهم كيف يسير العالم. في أعماقها تعلم أنها لا تستطيع الزواج من السيد إدموندز. هذا ببساطة أمر لا يمكن تحقيقه. والداها سيتبرآن منها، أو على الأقل سيهددان بذلك، وهي ليست من النوع الذي يخاطر بذلك."

قال بصوت خافت:

– "لو أحببت شخصًا حقًا، لخاطرت بأي شيء."

تجمّدت لوسي. كان هناك شيء في صوته. شيء خشن، شيء قوي. سرى قشعريرة عبر جلدها، تاركًا إياها عاجزة عن الحركة بشكل غريب.

وكان عليها أن تسأل. كان عليها ذلك. كان عليها أن تعرف. همست:

– "هل كنت لتفعل؟ هل كنت لتخاطر بأي شيء؟"

لم يتحرك، لكن عينيه اشتعلتا. ولم يتردد.

– "بأي شيء."

انفرجت شفتاها. بدهشة؟ برهبة؟ بشيء آخر؟

سألها في المقابل:

– "وأنتِ؟"

– "أنا... لست متأكدة."

هزت رأسها، وانتابها شعور غريب بأنها لم تعد تعرف نفسها تمامًا. لأن السؤال كان ينبغي أن يكون سهلًا. كان ليكون كذلك، قبل بضعة أيام فقط. كانت لتقول "بالطبع لا"، وكانت لتقول إنها عملية أكثر من اللازم لتنساق خلف هذا النوع من الهراء.

والأهم من ذلك كله، كانت ستقول إن هذا النوع من الحب غير موجود، على أية حال.

لكن شيئًا ما تغير، ولم تكن تعرف ما هو. شيء ما تزحزح بداخلها، تاركًا إياها فاقدة للتوازن.

غير واثقة.

قالت مرة أخرى:

– "لا أعرف. أفترض أن الأمر يعتمد..."

– "على ماذا؟"

أصبح صوته أكثر خفوتًا. خافتًا بشكل مستحيل، ومع ذلك استطاعت تمييز كل كلمة.

– "على..."

لم تكن تعرف. كيف لا تعرف علامَ يعتمد الأمر؟ شعرت بالضياع، وبأنها بلا جذور، و... و... ثم جاءت الكلمات ببساطة. انسلّت بنعومة من شفتيها.

– "على الحب، أفترض."

– "على الحب."

– "نعم."

يا إلهي، هل خاضت محادثة كهذه من قبل؟ هل يتحدث الناس حقًا عن أشياء كهذه؟ وهل هناك أي إجابات أصلًا؟

أم أنها الشخص الوحيد في العالم الذي لا يفهم؟

علق شيء في حلقها، وشعرت لوسي فجأة بوحدة شديدة في جهلها. هو يعرف، وهيرميون تعرف، والشعراء يزعمون أنهم يعرفون أيضًا. بدا أنها الروح التائهة الوحيدة، الشخص الوحيد الذي لا يفهم ما هو الحب، الذي ليس واثقًا حتى من وجوده، أو إن وُجد، ما إذا كان موجودًا لها.

قالت أخيرًا، لأنها لم تدرِ ما تقول غير ذلك:

– "على شعوره. كيف يكون شعور الحب. كيف يبدو."

التقت عيناه بعينيها.

– "هل تعتقدين أن هناك تباينًا؟"

لم تكن تتوقع سؤالًا آخر. كانت لا تزال تترنح من السؤال الأخير.

أوضح قائلًا:

– "كيف يكون شعور الحب. هل تعتقدين أنه يمكن أن يختلف من شخص لآخر؟ إذا أحببتِ شخصًا، بصدق وعمق، ألن يبدو الأمر وكأنه... وكأنه (كل شيء)؟"

لم تعرف ماذا تقول.

استدار وخطا بضع خطوات نحو النافذة.

– "سيستهلككِ تمامًا. كيف لا؟"

حدقت لوسي في ظهره فقط، مسحورة بالطريقة التي امتد بها معطفه ذو الحياكة المتقنة عبر كتفيه. كان أغرب شيء، لكنها لم تستطع سحب نظراتها عن تلك البقعة الصغيرة حيث يلمس شعره ياقته.

كادت تقفز عندما استدار.

قال، وصوته منخفض بحدة المؤمن الحقيقي:

– "لن يكون هناك شك في ذلك. ستعرفين ببساطة. سيشعركِ الأمر وكأنه كل ما حلمتِ به يومًا، ثم سيشعركِ وكأنه أكثر."

خطا نحوها. خطوة. ثم أخرى. ثم قال:

– "هذا، كما أعتقد، هو ما يجب أن يكون عليه شعور الحب."

وفي تلك اللحظة عرفت لوسي أنها لم تكن مقدرًا لها أن تشعر بهذه الطريقة. إذا كان هذا موجودًا – إذا كان الحب موجودًا بالطريقة التي يتخيلها غريغوري بريدجيرتون – فهو لا ينتظرها. لم تستطع تخيل دوامة كهذه من المشاعر. ولن تستمتع بها. هذا القدر كانت تعرفه. لم ترغب في الشعور بالضياع في الإعصار، تحت رحمة شيء خارج عن سيطرتها.

لم تكن تريد البؤس. لم تكن تريد اليأس. وإذا كان ذلك يعني أنه يجب عليها أيضًا التخلي عن النعيم والنشوة، فليكن.

رفعت عينيها إليه، وقد انقطعت أنفاسها من ثقل اكتشافاتها الخاصة. سمعت نفسها تقول:

– "هذا كثير جدًا. سيكون كثيرًا جدًا. أنا لن... أنا لن..."

ببطء، هز رأسه.

– "لن يكون لديك خيار. سيكون الأمر خارج سيطرتك. إنه فقط... يحدث."

انفرج فمها بدهشة.

– "هذا ما قالته هي."

– "من؟"

وعندما أجابت، كان صوتها منفصلًا بشكل غريب، وكأن الكلمات تُسحب مباشرة من ذاكرتها.

– "هيرميون. هذا ما قالته هيرميون عن السيد إدموندز."

ا

شتدت زوايا شفتي غريغوري.

– "هل فعلت؟"

أومأت لوسي ببطء.

– "بالضبط تقريبًا. قالت إنه يحدث فقط. في لحظة."

– "هي قالت ذلك؟"

بدت الكلمات كالصدى، وبالفعل، هذا كان كل ما يستطيع فعله – همس أسئلة جوفاء، باحثًا عن تأكيد، آملًا أنه ربما قد أساء السمع، وأنها سترد بشيء مختلف تمامًا.

لكنها بالطبع لم تفعل. في الواقع، كان الأمر أسوأ مما خشي. قالت:

– "كانت في الحديقة، هذا ما قالته، تنظر فقط إلى الورود، ثم رأته. وعرفت."

حدق غريغوري فيها فقط. شعر بصدره أجوف، وبحلقه يضيق. لم يكن هذا ما أراد سماعه. تباً، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يرد سماعه.

نظرت إليه حينها، وعيناها، الرماديتان في ضوء الليل الخافت، وجدتا عينيه بطريقة حميمة بشكل غريب. كان الأمر وكأنه يعرفها، يعرف ما ستقوله،

وكيف سيبدو وجهها عندما تقوله. كان غريبًا، ومرعبًا، والأكثر من ذلك، كان غير مريح، لأن هذه لم تكن "الآنسة هيرميون واتسون المبجلة".

كانت هذه "الليدي لوسيندا أبيرناثي"، وهي لم تكن المرأة التي ينوي قضاء بقية حياته معها.

كانت لطيفة تمامًا، وذكية تمامًا، وبالتأكيد أكثر من جذابة. لكن لوسي أبيرناثي لم تكن له. وكاد أن يضحك، لأن كل شيء كان ليكون أسهل بكثير لو أن قلبه انقلب في المرة الأولى التي رآها فيها. قد تكون مخطوبة عمليًا، لكنها لم تكن واقعة في الحب. كان واثقًا من ذلك.

لكن هيرميون واتسون...

همس وهو يخشى الإجابة:

– "ماذا قالت؟"

أمالت الليدي لوسيندا رأسها إلى الجانب، ولم تبدُ شيئًا بقدر ما بدت محتارة.

– "قالت إنها لم ترَ حتى وجهه. مجرد مؤخرة رأسه..."

مجرد مؤخرة عنقها.

– "... ثم استدار، وظنت أنها سمعت موسيقى، وكل ما استطاعت التفكير فيه هو..."

أنا محطم.

– "... (أنا هالكة). هذا ما قالته لي."

نظرت إليه، ورأسها لا يزال مائلًا بفضول إلى الجانب.

– "هل يمكنك التخيل؟ هالكة؟ من بين كل الأشياء. لم أستطع استيعاب ذلك تمامًا."

لكنه استطاع. استطاع.

بالضبط.

نظر إلى الليدي لوسيندا، ورأى أنها كانت تراقب وجهه. بدت لا تزال محتارة. وقلقة. ومذهولة قليلًا فقط عندما سألت:

– "ألا تجد ذلك غريبًا؟"

– "نعم."

كلمة واحدة فقط، لكن قلبه كله كان ملتفًا حولها. لأنه كان غريبًا. كان يقطع كالسكين. لم يكن يفترض بها أن تشعر بتلك الطريقة تجاه شخص آخر.

لم تكن هذه هي الطريقة التي يفترض أن يحدث بها الأمر.

ثم، وكأن تعويذة قد كُسرت، استدارت الليدي لوسيندا وخطت بضع خطوات إلى اليمين. حدقت في رفوف الكتب – ليس أنها كانت تستطيع تمييز أي من العناوين في هذا الضوء – ثم مررت أصابعها على كعوب الكتب.

راقب غريغوري يدها؛ لم يعرف لماذا. راقبها فقط وهي تتحرك. أدرك أنها كانت أنيقة للغاية. لم يكن الأمر ملحوظًا في البداية، لأن مظهرها كان صحيًا وتقليديًا للغاية. المرء يتوقع من الأناقة أن تلمع كالحرير، أن تتوهج، أن تخطف الأبصار. الأناقة زهرة أوركيد، وليست زهرة أقحوان بسيطة.

لكن عندما تحركت الليدي لوسيندا، بدت مختلفة. بدت وكأنها... تنساب.

ستكون راقصة جيدة. كان واثقًا من ذلك.

رغم أنه لم يكن متأكدًا تمامًا من سبب أهمية ذلك.

قالت وهي تستدير فجأة:

– "أنا آسفة."

– "بشأن الآنسة واتسون؟"

– "نعم. لم أقصد جرح مشاعرك."

قال، وربما بحدة أكبر مما ينبغي:

– "أنتِ لم تفعلي."

– "أوه."

طرفت بعينيها، ربما بدهشة.

– "أنا سعيدة لذلك. لم أقصد."

أدرك أنها لن تقصد. لم تكن من ذلك النوع.

انفرجت شفتاها، لكنها لم تتحدث فورًا. بدت عيناها تركزان على ما وراء كتفه، وكأنها تبحث خلفه عن الكلمات الصحيحة.

بدأت تقول:

– "كان الأمر مجرد أن... حسنًا، عندما قلتَ ما قلته عن الحب، بدا الأمر مألوفًا جدًا. لم أستطع استيعابه تمامًا."

قال بهدوء:

– "ولا أنا."

لزمت الصمت، لا تنظر إليه تمامًا. كانت شفتها مضمومة – قليلًا فقط – وبين الحين والآخر كانت تطرف بعينيها. ليست حركة رفرفة، بل شيء متعمد تمامًا.

أدرك أنها كانت تفكر. كانت من النوع الذي يفكر في الأشياء، ربما مما يسبب إحباطًا لا ينتهي لأي شخص مكلف بمهمة إرشادها عبر الحياة.

سألت:

– "ماذا ستفعل الآن؟"

– "بشأن الآنسة واتسون؟"

أومأت برأسها.

– "ماذا تقترحين أن أفعل؟"

قالت:

– "لست متأكدة. يمكنني التحدث إليها نيابة عنك، إذا كنت ترغب."

– "لا."

بدا شيء ما في ذلك طفوليًا للغاية. وكان غريغوري قد بدأ للتو يشعر بأنه رجل حقًا، ناضج وكامل، ومستعد لترك بصمته.

قالت وهي تهز كتفيها بضآلة:

– "يمكنك الانتظار إذن. أو يمكنك المضي قدمًا والمحاولة مرة أخرى لخطب ودها. لن تتاح لها الفرصة لرؤية السيد إدموندز لمدة شهر على الأقل، وأعتقد أنه... في النهاية... سترى..."

لكنها لم تكمل. وأراد هو أن يعرف.

ضغط قائلًا:

– "سترى ماذا؟"

نظرت للأعلى، وكأنها سُحبت من حلم.

– "يا للعجب، أنك... أنك... ببساطة أنك أفضل بكثير من البقية. لا أعرف لماذا تعجز عن رؤية ذلك. إنه واضح تمامًا لي."

لو جاءت من أي شخص آخر، لكانت عبارة غريبة. جريئة أكثر من اللازم، ربما. وربما حتى تلميحًا خجولًا بتوفرها هي.

لكن ليس منها. كانت بلا تصنع، من نوع الفتيات اللواتي يمكن للرجل الوثوق بهن. تشبه أخواته إلى حد ما، كما افترض، بذكاء متقد وحس دعابة حاد. لوسي أبيرناثي لن تلهم الشعر أبدًا، لكنها ستكون صديقة رائعة جدًا.

قالت، وصوتها ناعم لكنه واثق:

– "سيحدث ذلك. ستدرك هي الأمر. أنت... وهيرميون... ستكونان معًا. أنا واثقة من ذلك."

راقب شفتيها وهي تتحدث. لم يعرف السبب، لكن شكلها كان فجأة مثيرًا للاهتمام... الطريقة التي تتحرك بها، وتتشكل بها الحروف الساكنة والمتحركة. كانت شفاهًا عادية. لم يجذب انتباهه أي شيء بشأنها من قبل. لكن الآن، في المكتبة المظلمة، ولا شيء في الهواء سوى همس صوتيهما الناعم...

تساءل عما سيعنيه أن يقبّلها.

تراجع للخلف، شاعرًا فجأة وبشكل غامر بأن هذا خطأ.

قال فجأة:

– "يجب أن نعود."

مر وميض من الألم في عينيها. تبًا. لم يقصد أن يبدو تواقًا للتخلص منها هكذا. لا شيء من هذا كان خطأها. كان مجرد متعب. ومحبط. وهي كانت هناك. والليل مظلم. وكانا وحدهما.

ولم تكن تلك رغبة. لا يمكن أن تكون رغبة. لقد انتظر طوال حياته ليتفاعل مع امرأة بالطريقة التي تفاعل بها مع هيرميون واتسون. لا يمكنه أن يشعر بالرغبة تجاه امرأة أخرى بعد ذلك. ليس الليدي لوسيندا، وليس أي أحد.

كان ذلك لا شيء. هي كانت لا شيء.

لا، هذا ليس عدلًا. هي كانت شيئًا ما. شيئًا كبيرًا، في الواقع.

لكن ليس له.





الفصل السادس

حيث يُحرز بطلنا تقدمًا.



يا إلهي، ماذا قالت؟

ظلت هذه الفكرة الوحيدة تدق في رأس لوسي وهي مستلقية في فراشها تلك الليلة، مروّعة لدرجة منعتها حتى من التقلب في الفراش. استلقت على ظهرها، محدقة في السقف، ساكنة تمامًا، ومستسلمة تمامًا للخزي.

وفي الصباح التالي، بينما كانت تحدق في المرآة وتتنهد عند رؤية الهالات الأرجوانية المنهكة تحت عينيها، عاد الصوت يتردد مجددًا—

أوه، سيد بريدجيرتون، أنت أفضل بكثير من البقية.

وفي كل مرة تعيد فيها المشهد، كان الصوت في ذاكرتها يزداد حدة وتصنّعًا، حتى تحولت إلى واحدة من تلك المخلوقات المريعة—الفتيات اللواتي يرفرفن ويغشى عليهن كلما جاء شقيق إحداهن الأكبر لزيارة المدرسة.

تمتمت بصوت خافت:

– "لوسي أبيرناثي، أيتها البقرة الحمقاء."

رفعت هيرميون بصرها إليها من مكانها قرب السرير:

– "هل قلتِ شيئًا؟"

كانت يد لوسي بالفعل على مقبض الباب، مستعدة للمغادرة لتناول الإفطار. كذبت قائلة:

– "أقوم ببعض الحسابات في رأسي فقط."

عادت هيرميون لارتداء حذائها وقالت، موجهة كلامها لنفسها في الغالب:

- "بحق السماء، لماذا؟"

هزت لوسي كتفيها، رغم أن هيرميون لم تكن تنظر إليها. كانت تقول دائمًا إنها تقوم بحسابات ذهنية عندما تضبطها هيرميون تتحدث إلى نفسها. لم تكن لديها أدنى فكرة لماذا تصدقها هيرميون؛ فلوسي تمقت الحساب، بقدر ما تكره الكسور وجداول الضرب تقريبًا. لكن بدا الأمر وكأنه شيء قد تفعله، نظرًا لطبيعتها العملية، ولم تشكك هيرميون في ذلك قط.

بين الحين والآخر، كانت لوسي تهمهم برقم ما، فقط لتجعل الأمر يبدو أكثر مصداقية.

سألت لوسي وهي تدير المقبض:

- "هل أنتِ جاهزة للنزول؟"

ليس لأنها كانت كذلك. آخر ما تمنته هو رؤية أي أحد. السيد بريدجيرتون بشكل خاص بالطبع، لكن فكرة مواجهة العالم بأسره كانت مروعة.

لكنها كانت جائعة، وكان لا بد لها من الظهور في نهاية المطاف، ولم ترَ سببًا لترك بؤسها يتخبط في معدة خاوية.

وبينما كانتا تسيران نحو الإفطار، نظرت إليها هيرميون بفضول وسألت:

- "هل أنتِ بخير يا لوسي؟ تبدين غريبة قليلًا."

قاومت لوسي رغبة ملحة في الضحك. إنها غريبة بالفعل. إنها بلهاء، وربما لا ينبغي إطلاق سراحها في الأماكن العامة.

يا إلهي، هل أخبرت غريغوري بريدجيرتون حقًا أنه أفضل من البقية؟

أرادت أن تموت. أو على الأقل أن تختبئ تحت سرير.

لكن لا، لم تستطع حتى التظاهر بالمرض والاستمتاع بنقاهة طويلة. لم يخطر ببالها حتى المحاولة. كانت طبيعية وروتينية لدرجة سخيفة جعلتها تستيقظ وتستعد للذهاب للإفطار قبل أن تتمكن حتى من صياغة فكرة واحدة متماسكة.

باستثناء التأمل في جنونها الواضح، بالطبع. فهذا لم تجد صعوبة في التركيز عليه.

قالت هيرميون عند وصولهما إلى رأس الدرج:

– "حسنًا، تبدين أنيقة جدًا على أي حال. يعجبني حقًا اختيارك للشريط الأخضر مع الفستان الأزرق. لم أكن لأفكر في ذلك، لكنه ذكي جدًا. وجميل للغاية مع عينيك."

نظرت لوسي إلى ملابسها. لم تتذكر أنها ارتدت ملابسها. كانت معجزة أنها لا تبدو وكأنها هاربة من سيرك غجري.

رغم أن...

أطلقت تنهيدة صغيرة. الهروب مع الغجر بدا فكرة جذابة للغاية في تلك اللحظة، وعملية حتى، بما أنها كانت واثقة تمامًا من أنه لا ينبغي لها إظهار وجهها في المجتمع الراقي مرة أخرى. من الواضح أنها تفتقد وصلة غاية في الأهمية بين دماغها وفمها، والله وحده يعلم ما قد يخرج من شفتيها تالياً.

يا للروعة، كان بإمكانها بنفس القدر إخبار غريغوري بريدجيرتون أنها تظنه إلهًا.

وهو ما لم تظنه. على الإطلاق. لقد ظنته مجرد صيد ثمين لـهيرميون. وقد أخبرته بذلك. أليس كذلك؟

ماذا قالت؟ بالتحديد، ماذا قالت؟

– "لوسي؟"

ما قالته كان... ما قالته كان—

تجمدت في مكانها.

يا إلهي. سيظن أنني أريده.

سارت هيرميون بضع خطوات أخرى قبل أن تدرك أن لوسي لم تعد تسير بجانبها.

– "لوسي؟"

قالت لوسي بصوت خرج حادًا قليلًا:

– "أتدرين.. لا أعتقد أنني جائعة بعد كل شيء."

نظرت هيرميون بعدم تصديق:

– "في الإفطار؟"

كان الأمر بعيد الاحتمال بعض الشيء. لوسي كانت دائمًا تأكل كبحّار على الإفطار.

– "أنا... آه... أعتقد أن شيئًا ما لم يناسبني تمامًا الليلة الماضية. ربما السلمون." وضعت يدها على بطنها لمزيد من التأثير. "أعتقد أنني يجب أن أستلقي."

ولا أنهض أبدًا.

قالت هيرميون:

– "تبدين فعلًا شاحبة قليلًا."

ابتسمت لوسي بوهن، متخذة قرارًا واعيًا بأن تكون ممتنة لهذه النعم الصغيرة.

سألت هيرميون:

– "هل تريدين أن أحضر لكِ شيئًا؟"

قالت لوسي بحماس، آملة ألا تكون هيرميون قد سمعت قرقرة معدتها:

– "نعم."

قالت هيرميون وهي تضع إصبعًا مفكرًا على شفتيها:

– "أوه، لكن لا ينبغي لي. ربما لا يجب أن تأكلي إذا كنتِ تشعرين بالغثيان. آخر ما تريدينه هو أن تتقيئي كل شيء مرة أخرى."

ارتجلت لوسي:

– "ليس غثيانًا بالضبط."

– "ليس كذلك؟"

– "إنه... آه... صعب الشرح قليلًا، في الواقع. أنا..." تهاوت لوسي مستندة إلى الجدار. من كان يعلم أنها تملك موهبة التمثيل البارع هكذا؟

هرعت هيرميون إلى جانبها، وقد عقد القلق حاجبيها. قالت وهي تسند لوسي بذراع حول ظهرها:

– "يا إلهي.. تبدين مريعة."

رمشت لوسي. ربما كانت تمرض فعلًا. أفضل بكثير. سيبقيها ذلك معزولة لأيام.

قالت هيرميون بنبرة لا تقبل الجدل:

– "سأعيدكِ إلى السرير. ثم سأستدعي أمي. ستعرف ما يجب فعله."

أومأت لوسي بارتياح. علاج الليدي واتسون لأي نوع من الوعكات هو الشوكولاتة والبسكويت. غير تقليدي بالتأكيد، لكن بما أنه خيار والدة هيرميون كلما ادعت المرض، لم يكن بوسعها منعه عن أي شخص آخر.

قادتها هيرميون عائدة إلى غرفة نومهما، ووصل بها الأمر إلى حد خلع حذاء لوسي قبل أن تستلقي الأخيرة فوق السرير. قالت هيرميون وهي ترمي الحذاء بإهمال في خزانة الملابس:

– "لو لم أكن أعرفك جيدًا، لظننت أنك تتصنعين."

– "أنا لا أفعل ذلك أبدًا."

قالت هيرميون:

– "أوه، بلى تفعلين. ستفعلين ذلك بالتأكيد. لكنك لا تستطيعين إتقانه أبدًا. أنتِ تقليدية جدًا."

تقليدية؟ ما علاقة ذلك بأي شيء؟

أطلقت هيرميون زفرة صغيرة من الهواء:

– "من المحتمل أن أضطر للجلوس مع السيد بريدجيرتون الممل على الإفطار الآن."

قالت لوسي، ربما بحماس أكبر مما يُتوقع من شخص بمعدة مليئة بالسلمون الفاسد:

– "إنه ليس مريعًا لتلك الدرجة."

وافقت هيرميون:

– "أفترض ذلك. إنه أفضل من الغالبية، على ما أظن."

تجهمت لوسي لصدى كلماتها الخاصة. أفضل بكثير من البقية. أفضل بكثير من البقية.

كان ذلك، وبكل تأكيد، أكثر شيء مروع مرّ عبر شفتيها على الإطلاق.

تابعت هيرميون، غير مدركة لضيق لوسي:

– "لكنه ليس لي. سيدرك ذلك قريبًا بما يكفي. وحينها سينتقل إلى شخص آخر."

شكت لوسي في ذلك، لكنها لم تقل شيئًا. يا لها من ورطة. هيرميون تحب السيد إدموندز، والسيد بريدجيرتون يحب هيرميون، ولوسي لا تحب السيد بريدجيرتون.

لكنه يظن أنها تفعل.

وهو هراء بالطبع. لن تسمح بحدوث ذلك أبدًا، فهي مخطوبة عمليًا للورد هاسيلبي.

هاسيلبي. كادت تئن. سيكون كل هذا أسهل بكثير لو استطاعت تذكر وجهه.

قالت هيرميون ووجهها يشرق وكأنها اكتشفت قارة جديدة للتو:

– "ربما أطلب الإفطار هنا. هل تظنين أنهم سيرسلون صينية؟"

أوه، تبًا. ذهبت كل خططها أدراج الرياح. الآن أصبح لدى هيرميون عذر للبقاء في غرفتهما طوال اليوم. واليوم التالي أيضًا، إذا استمرت لوسي في ادعاء المرض.

قالت هيرميون وهي تتجه نحو جرس الخدمة:

– "لا أعلم لمَ لم أفكر في هذا عاجلًا. أفضل البقاء هنا معكِ بكثير."

صاحت لوسي وعقلها يدور بجنون:

– "لا تفعلي."

– "لماذا لا؟"

بالفعل. فكرت لوسي بسرعة:

– "إذا طلبتِ منهم إحضار صينية، قد لا تحصلين على ما تريدين."

– "لكنني أعرف ما أريد. بيض مسلوق وتوست. بالتأكيد يمكنهم تدبير ذلك."

– "لكنني لا أريد بيضًا مسلوقًا وتوست." حاولت لوسي إبقاء تعبيرها مثيرًا للشفقة والبؤس قدر استطاعتها. "أنتِ تعرفين ذوقي جيدًا. إذا ذهبتِ إلى غرفة الإفطار، أنا متأكدة من أنك ستجدين شيئًا مناسبًا تمامًا."

– "لكنني ظننت أنك لن تأكلي."

أعادت لوسي يدها إلى بطنها:

– "حسنًا، قد أرغب في أكل القليل."

قالت هيرميون، التي بدت الآن نافدة الصبر أكثر من أي شيء آخر:

– "أوه، حسنًا جدًا. ماذا تريدين؟"

– "إم، ربما بعض اللحم المقدد؟"

– "بمعدة متعبة من السمك؟"

– "لست متأكدة من أنه كان السمك."

للحظة طويلة، وقفت هيرميون هناك تحدق فيها، ثم سألت أخيرًا:

– "فقط لحم مقدد إذن؟"

قالت لوسي، بما أنه كان من السهل طلب اللحم المقدد وحسب:

– "إم، وأي شيء آخر تظنين أنني قد أستمتع به."

أطلقت هيرميون نفسًا محبوسًا:

– "سأعود قريبًا." ونظرت إلى لوسي بتعبير مرتاب قليلًا. "لا تجهدي نفسك."

وعدت لوسي:

– "لن أفعل."

وابتسمت للباب وهو يغلق خلف هيرميون. عدّت للعشرة، ثم قفزت من السرير وركضت إلى خزانة الملابس لترتيب حذائها. وبمجرد أن تم ذلك بما يرضيها، التقطت كتابًا وزحفت عائدة لتستقر وتقرأ.

إجمالًا، كان الصباح يبدو رائعًا.



بحلول الوقت الذي دخل فيه غريغوري غرفة الإفطار، كان يشعر بتحسن كبير. ما حدث في الليلة السابقة—كان لا شيء. منسيًا عمليًا.

لم يكن الأمر وكأنه أراد تقبيل الليدي لوسيندا. لقد تساءل فقط عن الأمر، وهناك فرق شاسع بين الاثنين.

هو مجرد رجل في النهاية. تساءل بشأن مئات النساء، وفي معظم الأوقات دون أي نية حتى للتحدث معهن. الجميع يتساءلون. ما يصنع الفرق هو ما إذا تصرف المرء بناءً على ذلك.

ما الذي قاله إخوته—إخوته المتزوجون بسعادة، بالمناسبة—ذات مرة؟ الزواج لم يصبهم بالعمى. قد لا يبحثون عن نساء أخريات، لكن هذا لا يعني أنهم لا يلاحظون ما يقف أمامهم مباشرة. وسواء كانت نادلة بصدر ضخم للغاية أو آنسة محترمة بـ... حسنًا، بشفتين... لا يمكن للمرء ألا يرى الجزء المعني من الجسد.

وإذا رأى المرء، فمن الطبيعي أن يتساءل، و—

ولا شيء. الأمر برمته لا يساوي شيئًا.

مما يعني أن غريغوري يستطيع تناول إفطاره بذهن صافٍ.

قرر أن البيض مفيد للروح. واللحم المقدد أيضًا.

الشخص الآخر الوحيد في غرفة الإفطار كان السيد سنو، الخمسيني المتصلب دائمًا، والذي كان لحسن الحظ مهتمًا بجريدته أكثر من المحادثة. بعد همهمات التحية الإلزامية، جلس غريغوري في الطرف المقابل من الطاولة وبدأ بالأكل.

نقانق ممتازة هذا الصباح. والتوست استثنائي أيضًا. كمية الزبدة مضبوطة تمامًا. القليل من الملح لازم للبيض، لكن عدا ذلك كان لذيذًا نوعًا ما.

جرب سمك القد المملح. ليس سيئًا. ليس سيئًا على الإطلاق.

أخذ لقمة أخرى. مضغ. استمتع بوقته. فكر في أفكار عميقة جدًا حول السياسة والزراعة.

انتقل بتصميم إلى فيزياء نيوتن. كان عليه حقًا الانتباه أكثر في إيتون، لأنه لم يستطع تذكر الفرق بين القوة والشغل تمامًا.

لنرى، الشغل كان ذلك الجزء المتعلق بالرطل-قدم، والقوة كانت...

لم يكن الأمر حتى تساؤلًا حقيقيًا. بصدق، يمكن إلقاء اللوم كله على خدعة بصرية. وعلى مزاجه. كان يشعر ببعض الاضطراب. كان ينظر إلى فمها لأنها كانت تتحدث، بحق السماء. أين كان يُفترض به أن ينظر؟

التقط شوكته بحيوية متجددة. عودة للقد. ولشايه. لا شيء يغسل كل شيء مثل الشاي.

أخذ رشفة طويلة، مختلسًا النظر من فوق حافة كوبه حين سمع شخصًا قادمًا من الردهة.

ثم ملأت المدخل.

رمش مندهشاً، ثم نظر خلف كتفها. لقد جاءت دون ملحقها الإضافي.

الآن وقد فكر في الأمر، لم يظن أنه رأى الآنسة واتسون يومًا بدون الليدي لوسيندا.

نادى بنبرة دقيقة للغاية:

- "صباح الخير."

ودودة بما يكفي لكيلا تبدو ضجرة، لكن ليست ودودة أكثر من اللازم. الرجل لا يرغب أبدًا في أن يبدو يائسًا.

نظرت إليه الآنسة واتسون وهو يقف، ولم يظهر على وجهها أي انفعال على الإطلاق. لا سعادة، لا غضب، لا شيء سوى وميض باهت من الاعتراف بوجوده. كان أمرًا لافتًا حقًا.

تمتمت:

- "صباح الخير."

ثم، تباً، لم لا. سأل:

– "هل ستنضمين إليّ؟"

انفرجت شفتاها وتوقفت، وكأنها غير متأكدة تمامًا مما ترغب بفعله. ثم، وكأنها تقدم دليلًا ساخرًا على أنهما يتشاركان فعلًا نوعًا من التواصل الأسمى، قرأ أفكارها.

حقًا. عرف تمامًا ما كانت تفكر فيه.

أوه، حسنًا جدًا، أفترض أن علي تناول الإفطار على أي حال.

أثلج ذلك صدره بشكل إيجابي.

قالت الآنسة واتسون:

– "لا أستطيع البقاء طويلًا. لوسي ليست على ما يرام، ووعدت بإحضار صينية لها."

كان من الصعب تخيل الليدي لوسيندا القوية تمرض، رغم أن غريغوري لم يعرف سببًا لذلك. لم يكن الأمر وكأنه يعرفها. حقًا، لم يكن بينهما سوى بضع محادثات. هذا إن حُسبت كذلك. تمتم:

– "آمل ألا يكون الأمر خطيرًا."

أجابت وهي تأخذ طبقًا:

– "لا أظن ذلك." نظرت إليه، رامشة بتلك العينين الخضراوين المذهلتين. "هل أكلت السمك؟"

نظر لسمك القد أمامه:

– "الآن؟"

– "لا، الليلة الماضية."

– "أتصور ذلك. أنا عادة آكل كل شيء."

تزمّت شفتاها للحظة، ثم تمتمت:

– "أنا أكلته أيضًا."

انتظر غريغوري المزيد من التفسير، لكنها لم تبدُ ميالة لتقديم أي شيء. لذا ظل واقفاً بينما وضعت هي حصصًا دقيقة من البيض واللحم في طبقها. ثم، بعد لحظة من المداولات—

هل أنا جائعة حقًا؟ لأنه كلما وضعت المزيد من الطعام ـ في طبقي، طال الوقت لاستهلاكه. هنا. ـ في غرفة الإفطار. معه.

—أخذت قطعة من التوست.

هممم. نعم، أنا جائعة.

انتظر غريغوري حتى جلست ـ في الجهة المقابلة له، ثم جلس. قدمت له الآنسة واتسون ابتسامة صغيرة— من النوع الذي لم يكن سوى هزة للشفاه— وشرعت ـ في أكل بيضها.

سأل غريغوري:

– "هل نمتِ جيدًا؟"

ربتت على فمها بمنديلها:

– "جيدًا جدًا، شكرًا لك."

أعلن قائلًا:

– "أنا لم أنم." تباً، إذا فشلت المحادثة المهذبة ـ في استدراجها، ربما عليه اختيار المفاجأة.

رفعت بصرها:

– "أنا آسفة جدًا." ثم أعادت بصرها للأسفل. وأكلت.

قال:

– "حلم فظيع. كابوس، ـ في الواقع. مريع."

التقطت سكينها وقطعت لحمها المقدد. قالت:

– "أنا آسفة جدًا."

بدت غير مدركة أنها نطقت بالكلمات ذاتها قبل لحظات قليلة.

تأمل غريغوري:

– "لا أستطيع تذكر ما كان بالضبط." كان يختلق الأمر كله بالطبع. لم ينم جيدًا، لكن ليس بسبب كابوس. لكنه سيجعلها تتحدث إليه أو يموت محاولًا.

سأل: "هل تتذكرين أحلامك؟"

توقفت شوكتها في منتصف الطريق إلى فمها— وها هو ذلك التواصل المبهج للعقول مرة أخرى.

باسم الرب، لماذا يسألني هذا؟

حسنًا، ربما ليس "باسم الرب". ذلك سيتطلب قدرًا من العاطفة أكبر مما يبدو أنها تمتلكه. على الأقل معه.

قالت:

– "إم، لا. ليس عادة."

– "حقًا؟ كم هذا مثير. أنا أتذكر أحلامي حوالي نصف الوقت، بتقديري."

أومأت برأسها.

إذا أومأت، لن أضطر لقول شيء.

تابع باندفاع:

– "حلمي الليلة الماضية كان حيًا جدًا. كانت هناك عاصفة مطرية. رعد وبرق. درامية للغاية."

أدارت عنقها، ببطء شديد، ونظرت خلف كتفها.

– "آنسة واتسون؟"

التفتت إليه:

– "ظننت أنني سمعت أحدهم."

تمنيت أنني سمعت أحدهم.

حقًا، موهبة قراءة الأفكار هذه بدأت تصبح مملة.

قال:

– "صحيح. حسنًا، أين كنت؟"

بدأت الآنسة واتسون تأكل بسرعة كبيرة.

مال غريغوري للأمام. لن تهرب بهذه السهولة.

– "أوه، نعم، المطر. كان ينهمر. طوفان مطلق. وبدأت الأرض تذوب تحت قدمي. سحبتني لأسفل."

توقف، عن عمد، ثم أبقى عينيه على وجهها حتى اضطرت لقول شيء.

بعد لحظات من صمت محرج للغاية، نقلت بصرها أخيرًا من طعامها إلى وجهه. قطعة صغيرة من البيض ارتجفت على حافة شوكتها.

قال:

– "كانت الأرض تذوب." وكاد يضحك.

– "كم هذا... غير سار."

قال بحيوية كبيرة:

– "كان كذلك. ظننت أنها ستبتلعني بالكامل. هل شعرتِ بمثل هذا من قبل يا آنسة واتسون؟"

صمت. ثم—

– "لا. لا، لا أستطيع القول إنني شعرت بذلك."

عبث بشحمة أذنه بكسل، ثم قال، وكأن الأمر لا يعنيه:

– "لم يعجبني ذلك كثيرًا."

ظن أنها قد تبصق الشاي.

تابع:

– "حسنًا، حقًا. من قد يعجبه؟"

ولأول مرة منذ التقى بها، ظن أنه رأى قناع اللامبالاة ينزلق عن عينيها وهي تقول، بشعور حقيقي نوعًا ما:

– "لا فكرة لدي."

حتى أنها هزت رأسها. ثلاثة أشياء دفعة واحدة! جملة كاملة، ومسحة من العاطفة، وهزة رأس. يا جورج، ربما بدأ يصل إليها.

– "ماذا حدث بعد ذلك، سيد بريدجيرتون؟"

يا إلهي، لقد سألته سؤالًا. كاد يسقط عن كرسيه. قال:

– "في الواقع، استيقظت."

– "هذا من حسن الحظ."

– "ظننت ذلك أيضًا. يقولون إذا مت في أحلامك، تموت في نومك."

اتسعت عيناها:

– "يقولون ذلك؟"

اعترف:

– "هم، أي إخوتي. لكِ مطلق الحرية في تقييم المعلومة بناءً على مصدرها."

قالت:

– "لدي أخ. يجد متعة في تعذيبي."

أومأ غريغوري بجدية:

– "هذا ما خُلق الإخوة لفعله."

– "هل تعذب أخواتك؟"

– "في الغالب الصغرى فقط."

– "لأنها أصغر حجمًا."

– "لا، لأنها تستحق ذلك."

ضحكت:

– "سيد بريدجيرتون، أنت فظيع."

ابتسم ببطء:

– "أنتِ لم تقابلي هياسنث."

– "إذا كانت تزعجك بما يكفي لجعلك ترغب في تعذيبها، فأنا واثقة من أنني سأعشقها."

استند بظهره للخلف، مستمتعًا بهذا الشعور بالسهولة. كان من الجميل ألا يضطر لبذل جهد كبير.

– "أخوك هو الأكبر إذن؟"

أومأت:

– "هو يعذبني لأنني أصغر حجمًا."

– "تعنين أنكِ لا تستحقين ذلك؟"

– "بالطبع لا."

لم يستطع تحديد ما إذا كانت تمزح.

– "أين أخوك الآن؟"

– "ترينيتي هول." أخذت آخر لقمة من بيضها. "كامبريدج. شقيق لوسي كان هناك أيضًا. تخرج منذ عام."

لم يكن غريغوري متأكدًا تمامًا من سبب إخبارها له بذلك. لم يكن مهتمًا بشقيق لوسيندا أبيرناثي.

قطعت الآنسة واتسون قطعة صغيرة أخرى من اللحم ورفعت شوكتها إلى فمها. أكل غريغوري أيضًا، مختلسًا النظر إليها وهو يمضغ. يا لروعتها. لم يظن أنه رأى امرأة أخرى بلونها. كانت البشرة، حقًا. تخيل أن معظم الرجال يظنون جمالها نابعًا من شعرها وعينيها، وصحيح أن تلك الملامح هي ما يوقف الرجل في مكانه في البداية. لكن بشرتها كانت مثل المرمر الموضوع فوق بتلة ورد.

توقف عن المضغ. لم يكن يعلم أن لديه هذه القدرة الشعرية.

وضعت الآنسة واتسون شوكتها. قالت، مع تنهيدة صغيرة جدًا:

– "حسنًا، أفترض أن علي تحضير ذلك الطبق للوسي."

وقف فورًا لمساعدتها. يا للسماء، لقد بدت فعلًا وكأنها لا ترغب في المغادرة. هنأ غريغوري نفسه على إفطار مثمر للغاية.

قال وهو يشير إلى خادم:

– "سأجد شخصًا لحمله لكِ."

– "أوه، سيكون هذا رائعًا."

ابتسمت بامتنان له، وتخطى قلبه دقة حرفيًا. كان يظن ذلك مجرد تعبير مجازي، لكنه الآن علم أنه حقيقة. الحب يمكنه فعلًا التأثير على الأعضاء الداخلية.

قال وهو يراقب بفضول الآنسة واتسون تضع خمس شرائح من اللحم في الطبق:

– "أرجوكِ أوصلي لليدي لوسيندا أمنياتي بالشفاء."

قالت:

- "لوسي تحب اللحم المقدد."

- "أرى ذلك."

ثم شرعت في وضع البيض، والقد، والبطاطا، والطماطم، ثم في طبق منفصل فطائر وتوست.

قالت الآنسة واتسون:

- "الإفطار كان دائمًا وجبتها المفضلة. ووجبتي كذلك."

- "سأخبرها بذلك."

- "لا أتصور أنها ستهتم."

كانت خادمة قد دخلت الغرفة بصينية، ووضعت الآنسة واتسون الأطباق الممتلئة عليها. قالت بمرح:

- "أوه، ستهتم. لوسي تهتم بكل شيء. إنها تقوم بحسابات في رأسها حتى. للتسلية."

- "أنتِ تمزحين." لم يستطع غريغوري تخيل طريقة أقل متعة لإشغال النفس.

وضعت يدها على قلبها:

- "أقسم لك. أعتقد أنها تحاول تحسين عقلها، لأنها لم تكن جيدة أبدًا في الرياضيات." سارت نحو الباب، ثم التفتت لتواجهه. "كان الإفطار رائعًا يا سيد بريدجيرتون. شكرًا لك على الرفقة والمحادثة."

أحنى رأسه:

- "السعادة كانت لي بالكامل."

إلا أنها لم تكن كذلك. هي استمتعت بوقتهما معًا أيضًا. استطاع رؤية ذلك في ابتسامتها. وفي عينيها.

وشعر وكأنه ملك.



- "هل تعلمين أنك إذا متِّ في أحلامك، تموتين في نومك؟"

لم تتوقف لوسي حتى عن تقطيع لحمها. قالت:

– "هراء. من أخبرك بذلك؟"

جلست هيرميون على حافة السرير:

– "السيد بريدجيرتون."

الآن تفوق هذا على اللحم المقدد. رفعت لوسي بصرها فورًا:

– "إذن رأيته ـفي الإفطار؟"

أومأت هيرميون:

– "جلسنا متقابلين. ساعدني ـفي ترتيب الصينية."

نظرت لوسي إلى إفطارها الضخم بأسى. عادة ما كانت تنجح ـفي إخفاء شهيتها الشرهة عبر التلكؤ على مائدة الإفطار، ثم الحصول على وجبة أخرى بمجرد مغادرة الفوج الأول من الضيوف.

حسنًا، لا حيلة ـفي اليد. غريغوري بريدجيرتون يظنها بالفعل حمقاء— بوسعه الآن أن يظنها حمقاء ستزن اثني عشر حجرًا بحلول نهاية العام.

قالت هيرميون وهي تعبث بشعرها بشرود:

– "إنه مسلٍّ نوعًا ما، ـفي الواقع."

– "سمعت أنه ساحر للغاية."

– "امممم."

راقبت لوسي صديقتها عن كثب. كانت هيرميون تحدق من النافذة، وإن لم يكن لديها تمامًا تلك النظرة السخيفة الخاصة بحفظ قصيدة حب، فقد شقت طريقها على الأقل نحو بيت شعري أو اثنين.

قالت لوسي:

– "إنه وسيم للغاية."

لم يبدُ أن هناك ضررًا ـفي الاعتراف بذلك. لم تكن تخطط لاصطياده، ومظهره كان جيدًا بما يكفي ليُفسر كلامها كحقيقة لا رأي شخصي.

سألت هيرميون وهي تلتفت للوسي وتميل رأسها بتفكير:

– "أتظنين ذلك؟"

أجابت لوسي:

– "أوه، نعم. عيناه، خصوصًا. أنا ميالة جدًا للعيون العسلية. ولطالما كنت كذلك."

في الواقع، لم تفكر في الأمر من قبل، لكن الآن وقد فكرت، كانت العيون العسلية رائعة نوعًا ما. قليل من البني، قليل من الأخضر. أفضل ما في العالمين.

نظرت إليها هيرميون بفضول:

– "لم أكن أعرف ذلك."

هزت لوسي كتفيها:

– "أنا لا أخبرك بكل شيء."

كذبة أخرى. كانت هيرميون مطلعة على كل تفصيل ممل في حياة لوسي طوال ثلاث سنوات. باستثناء خططها لتزويج هيرميون من السيد بريدجيرتون، بالطبع.

السيد بريدجيرتون. صحيح. يجب إعادة المحادثة إليه.

قالت لوسي بأكثر نبراتها تفكرًا:

– "لكن لا بد أن توافقي، إنه ليس وسيمًا أكثر من اللازم. وهذا أمر جيد، حقًا."

– "السيد بريدجيرتون؟"

– "نعم. أنفه يحمل الكثير من الطابع المميز، ألا ترين؟ وحاجباه ليسا متساويين تمامًا." قطبت لوسي. لم تدرك أنها مطلعة على تفاصيل وجه غريغوري بريدجيرتون إلى هذا الحد.

لم تفعل هيرميون شيئًا سوى الإيماء، فتابعت لوسي:

– "لا أعتقد أنني أرغب في الزواج من شخص وسيم جدًا. سيكون الأمر مخيفًا للغاية. سأشعر وكأنني بطة في كل مرة أفتح فمي."

قهقهت هيرميون عند ذلك:

– "بطة؟"

أومأت لوسي وقررت عدم البطبطة. تساءلت عما إذا كان الرجال الذين يتوددون لهيرميون يقلقون بشأن الشيء نفسه.

قالت هيرميون:

– "إنه أسمر للغاية."

– "ليس أسمر لتلك الدرجة."

ظنت لوسي شعره بنيًا متوسطًا.

– "نعم، لكن السيد إدموندز أشقر جدًا."

كان للسيد إدموندز شعر أشقر جميل، لذا قررت لوسي عدم التعليق. وعرفت أنه يجب عليها توخي الحذر الشديد في هذه المرحلة. إذا دفعت هيرميون بقوة مفرطة نحو السيد بريدجيرتون، فمن المؤكد أن هيرميون ستعاند وتعود فورًا لحب السيد إدموندز، وهو ما سيكون كارثة مطلقة.

لا، ستحتاج لوسي لأن تكون لبقة. إذا كانت هيرميون ستحول عاطفتها للسيد بريدجيرتون، فعليها أن تكتشف ذلك بنفسها. أو تظن أنها فعلت.

تمتمت هيرميون:

– "وعائلته ذكية جدًا."

سألت لوسي متغابية عمدًا:

– "عائلة السيد إدموندز؟"

– "لا، السيد بريدجيرتون بالطبع. سمعت أشياء مثيرة للاهتمام عنهم."

– "أوه، نعم. وأنا كذلك. أنا معجبة نوعًا ما بالليدي بريدجيرتون. لقد كانت مضيفة رائعة."

أومأت هيرميون موافقة:

– "أظنها تفضلك عليّ."

– "لا تكوني سخيفة."

قالت هيرميون وهي تهز كتفيها:

– "أنا لا أمانع. ليس وكأنها لا تحبني. هي فقط تحبك أكثر. النساء دائمًا يحببنك أكثر."

فتحت لوسي فمها لتعترض لكنها توقفت، مدركة أن ذلك صحيح. كم هو غريب أنها لم تلاحظ ذلك من قبل. قالت:

– "حسنًا، ليس وكأنك ستتزوجينها."

نظرت إليها هيرميون بحدة:

– "لم أقل إنني أرغب في الزواج من السيد بريدجيرتون."

قالت لوسي وهي تركل نفسها ذهنيًا:

– "لا، بالطبع لا."

عرفت أن الكلمات كانت خطأً في اللحظة التي أفلتت فيها من فمها.

– "ولكن..."

تنهدت هيرميون وشرعت تحدق في الفراغ.

مالت لوسي للأمام. هذا إذن ما يعنيه التعلق بكلمة. وتعلقت، وتعلقت... حتى لم تعد تطيق الانتظار.

سألت أخيرًا:

– "هيرميون؟"

ارتمت هيرميون بظهرها على السرير، وأنت بنبرة تليق بكوفنت جاردن:

– "أوه، لوسي، أنا مشوشة جدًا."

ابتسمت لوسي:

– "مشوشة؟"

لا بد أن هذا أمر جيد.

أجابت هيرميون من وضعيتها غير الأنيقة بتاتًا فوق السرير:

– "نعم. عندما كنت جالسة على الطاولة مع السيد بريدجيرتون— حسنًا، في الواقع ظننته مجنونًا في البداية—لكنني أدركت لاحقًا أنني كنت مستمتعة. كان مضحكًا، في الواقع، وجعلني أضحك."

لم تتحدث لوسي، منتظرة أن تجمع هيرميون بقية أفكارها.

أصدرت هيرميون صوتًا صغيرًا، نصف تنهيدة ونصف أنين. مضطربة كليًا.

– "وبعدما أدركت ذلك، نظرت إليه، و..." تدحرجت على جانبها، متكئة على مرفقها وساندة رأسها بيد واحدة. "رفرفت."

كانت لوسي لا تزال تحاول استيعاب تعليق الجنون. رددت:

– "رفرفتِ؟ ما هو الرفرفة؟"

– "معدتي. قلبي. شيـ.. شيء ما بداخلي. لا أعرف ما هو."

– "مثلما حدث حين رأيت السيد إدموندز لأول مرة؟"

– "لا. لا. لا."

قيلت كل "لا" بتشديد مختلف، وكان لدى لوسي شعور واضح بأن هيرميون تحاول إقناع نفسها.

قالت هيرميون:

– "لم يكن الأمر مشابهًا على الإطلاق. لكنه كان... مشابهًا قليلًا. على نطاق أصغر بكثير."

قالت لوسي بجدية مثيرة للإعجاب، مع الأخذ في الاعتبار أنها لم تفهم شيئًا:

– "أفهم."

لكن مرة أخرى، هي لم تفهم هذا النوع من الأشياء قط. وبعد محادثتها الغريبة مع السيد بريدجيرتون الليلة الماضية، كانت مقتنعة تمامًا بأنها لن تفهم أبدًا.

– "لكن ألا تظنين—إذا كنت واقعة في غرام السيد إدموندز بيأس—ألا تظنين أنني ما كنت لأرفرف مع أي شخص آخر؟"

فكرت لوسي في ذلك، ثم قالت:

– "لا أرى لماذا يجب أن يكون الحب يائسًا."

رفعت هيرميون نفسها على مرفقيها ونظرت إليها بفضول:

– "لم يكن هذا سؤالي."

لم يكن؟ ألم يكن ينبغي له أن يكون؟

قالت لوسي مختارة كلماتها بعناية:

- "حسنًا، ربما يعني ذلك—"

قاطعتها هيرميون:

- "أعرف ما ستقولينه. ستقولين إنه ربما يعني أنني لست مغرمة بالسيد إدموندز كما ظننت. ثم ستقولين إن علي منح السيد بريدجيرتون فرصة. ثم ستخبرينني أنه يجب علي منح جميع السادة الآخرين فرصة."

قالت لوسي:

- "حسنًا، ليس جميعهم."

لكن الباقي كان قريبًا نوعًا ما.

- "ألا تظنين أن هذا كله قد خطر ببالي؟ ألا تدركين كم هو مؤلم للغاية كل هذا؟ أن أشك في نفسي هكذا؟ ويا للسماء يا لوسي، ماذا لو لم تكن هذه النهاية؟ ماذا لو حدث هذا مرة أخرى؟ مع شخص آخر؟"

شكت لوسي أنها لم تكن مطالبة بالإجابة، لكنها تحدثت مع ذلك:

- "لا خطأ في أن تشكي بنفسك يا هيرميون. الزواج مشروع ضخم. أكبر خيار ستتخذينه في حياتك. بمجرد إتمامه، لا يمكنك تغيير رأيك."

أخذت لوسي لقمة من لحمها، مذكّرة نفسها بمدى امتنانها لكون اللورد هاسيلبي مناسبًا جدًا. كان وضعها ليكون أسوأ بكثير. مضغت، وابتلعت، وقالت:

- "تحتاجين فقط لمنح نفسك بعض الوقت يا هيرميون. ويجب عليك ذلك. لا يوجد سبب وجيه أبدًا للاستعجال في الزواج."

مرّ صمت طويل قبل أن تجيب هيرميون:

- "أظنكِ محقة."

- "إذا كنتِ مقدرة للسيد إدموندز حقًا، فسينتظرك."

أوه، يا للسماء. لم تصدق لوسي أنها قالت ذلك للتو.

قفزت هيرميون من السرير، فقط لتهرع إلى جانب لوسي وتطوقها في عناق.

– "أوه، لوسي، كان هذا ألطف شيء قلتِه لي على الإطلاق. أعلم أنك لا توافقين عليه."

تنحنحت لوسي محاولة التفكير في رد مقبول. شيء يجعلها لا تشعر بالذنب الشديد لعدم عنيها ما قالته.

– "حسنًا... ليس الأمر أن—"

دويّت طرقة على الباب.

أوه، الحمد لله.

نادت الفتاتان بصوت واحد:

– "تفضل."

دخلت خادمة وأدت انحناءة سريعة. نظرت إلى لوسي وقالت:

– "سيدتي، اللورد فينسوورث وصل لرؤيتك."

فغرت لوسي فاهها:

– "أخي؟"

– "إنه ينتظر في صالون الزهور يا سيدتي. هل أخبره أنك ستنزلين فورًا؟"

– "نعم. نعم، بالطبع."

– "هل هناك شيء آخر؟"

هزت لوسي رأسها ببطء:

– "لا، شكرًا لك. هذا كل شيء."

انصرفت الخادمة، تاركة لوسي وهيرميون تحدقان ببعضهما في صدمة.

سألت هيرميون وعيناها متسعتان باهتمام:

– "لماذا تظنين أن ريتشارد هنا؟"

كانت قد التقت بشقيق لوسي في عدة مناسبات، وكانا دائمًا على وفاق.

قالت لوسي وهي تغادر السرير بسرعة، ناسية كل أفكار ادعاء اضطراب المعدة:

– "لا أعلم. آمل ألا يكون هناك خطب ما."

أومأت هيرميون وتبعتها إلى خزانة الملابس:

– "هل كان عمك مريضًا؟"

– "ليس حسب علمي." أخرجت لوسي حذاءها وجلست على حافة السرير لارتدائه. "من الأفضل أن أنزل لرؤيته. إذا كان هنا، فالأمر مهم."

تأملتها هيرميون للحظة، ثم سألت:

– "هل تودين أن أرافقك؟ لن أتطفل على محادثتكما بالطبع. لكنني سأنزل معك، إن أحببتِ."

أومأت لوسي، وغادرتا معًا نحو صالون الزهور.





الفصل السابع

وفيه يحمل ضيفنا غير المتوقع أخبارًا مقلقة.



كان غريغوري يُجاذب زوجة أخيه أطراف الحديث في غرفة الإفطار عندما أخبرها كبير الخدم بصول ضيفهم غير المتوقع، وبطبيعة الحال، قرر مرافقتها إلى صالون الزهور لاستقبال اللورد فينسوورث، الشقيق الأكبر لليدي لوسيندا. لم يكن لديه ما هو أفضل ليفعله، وبدا بطريقة ما أنه يجدر به مقابلة الإيرل الشاب، نظرًا لأن الآنسة واتسون كانت تثرثر عنه قبل ربع ساعة. لم يكن غريغوري يعرفه إلا من خلال سمعته؛ ففارق السنوات الأربع بينهما حال دون التقائهما في الجامعة، كما أن فينسوورث لم يختر بعد أن يأخذ مكانه في مجتمع لندن.

توقع غريغوري أن يجد شخصًا منكباً على الدراسة ومنعزلاً؛ إذ سمع أن فينسوورث اختار البقاء في "كامبريدج" حتى في أوقات العطلة. وبالفعل، كان الرجل المنتظر بجوار النافذة في صالون الزهور يتمتع بوقار معين جعله يبدو أكبر قليلًا من سنه. لكن اللورد فينسوورث كان أيضًا طويل القامة، وممشوق القوام، ورغم ما بدا عليه من خجل طفيف، كان يتصرف بثقة بالنفس نابعة من شيء أعمق من مجرد لقب نبيل ورثه عند الولادة.

شقيق الليدي لوسيندا كان يعرف من هو حقًا، لا مجرد ما وُلد ليُلقب به.

أحبه غريغوري على الفور.

إلى أن أصبح من الواضح أنه، مثل بقية معشر الرجال، واقع في حب هيرميون واتسون.

اللغز الوحيد، حقًا، هو لماذا تفاجأ غريغوري؟

كان على غريغوري أن يثني عليه – فقد تمكن فينسوورث من الصمود لدقيقة كاملة من الاستفسارات حول صحة شقيقته قبل أن يضيف:

– "وآنسة واتسون؟ هل ستنضم إلينا أيضًا؟"

لم تكن الكلمات هي السبب بقدر ما كانت النبرة، وحتى تلك لم تكن السبب بقدر ذلك الوميض في عينيه – تلك الشرارة من اللهفة والترقب.

آه، لنسمِّ الأمور بمسمياتها. لقد كان شوقًا يائسًا، نقيًا وبسيطًا. وكان يجدر بـ غريغوري أن يعرف ذلك – فهو واثق تمامًا من أن هذا الوميض ذاته قد عبر عينيه هو أكثر من مرة في الأيام القليلة الماضية.

يا إلهي.

افترض غريغوري أنه لا يزال يرى فينسوورث رجلًا طيبًا بما يكفي، حتى مع ولهه المزعج، لكن حقًا، الموقف برمته بدأ يصبح مملًا.

قالت كيت، بعد أن أخبرته أنها لا تعلم ما إذا كانت الآنسة واتسون سترافق شقيقته إلى صالون الزهور:

– "نحن سعداء للغاية باستقبالك في أوبري هول، يا لورد فينسوورث. آمل حقًا ألا يشير وجودك إلى حالة طارئة في المنزل."

أجاب فينسوورث:

– "على الإطلاق. لكن عمي طلب مني إحضار لوسي والعودة بها إلى المنزل. إنه يرغب في التحدث معها حول أمر ذي أهمية."

شعر غريغوري بزاوية شفتيه ترتفع قليلًا.

قال:

– "لابد أنك مخلص جدًا لأختك لتأتي كل هذه المسافة بنفسك. كان بإمكانك بالتأكيد إرسال عربة وحسب."

يُحسب لشقيق لوسي أنه لم يبدُ عليه الاضطراب من السؤال، لكن في الوقت نفسه، لم تكن لديه إجابة فورية.

قال، وقد خرجت الكلمات بسرعة كبيرة بعد صمت طويل:

– "أوه، لا. كنت سعيدًا للغاية بالقيام بالرحلة. لوسي رفيقة جيدة، ولم نلتقِ منذ بعض الوقت."

سألت كيت:

– "هل يجب أن تغادر فورًا؟ لقد كنت أستمتع بصحبة شقيقتك كثيرًا. وسيشرفنا أن نعدك من بين ضيوفنا أيضًا."

تساءل غريغوري عما تفعله كيت بالضبط. سيكون عليها العثور على أنثى أخرى لمعادلة الأرقام إذا انضم اللورد فينسوورث للحفل. رغم أنه افترض أنه إذا غادرت الليدي لوسيندا، فسيكون عليها فعل الشيء نفسه تمامًا.

تردد الإيرل الشاب، واستغلت كيت اللحظة ببراعة قائلة:

– "أوه، قل إنك ستبقى. حتى لو لم يكن ذلك طوال مدة الحفل."

قال فينسوورث، وهو يطرف بعينيه مفكرًا في الدعوة:

– "حسنًا."

كان من الواضح أنه يريد البقاء (وكان غريغوري واثقًا تمامًا من أنه يعرف السبب). لكن بلقب أو بدونه، كان لا يزال شابًا، وتخيل غريغوري أنه يمتثل لأوامر عمه في جميع المسائل المتعلقة بالعائلة.

ومن الواضح أن العم المذكور يرغب في عودة الليدي لوسيندا السريعة.

قال فينسوورث:

– "أعتقد أنه لن يكون هناك ضرر في أخذ يوم إضافي."

يا للروعة. إنه مستعد لعصيان عمه لكسب وقت إضافي مع الآنسة واتسون. وبصفته شقيق الليدي لوسيندا، فهو الرجل الوحيد الذي لن تتجاهله هيرميون بمللها المهذب المعتاد.

هيأ غريغوري نفسه ليوم آخر من المنافسة المملة.

قالت كيت:

– "أرجوك قل إنك ستبقى حتى يوم الجمعة. نحن نخطط لحفل تنكري مساء الخميس، وسأكره أن تفوتك المناسبة."

سجل غريغوري ملاحظة ذهنية بأن يهدي كيت هدية عادية للغاية في عيد ميلادها القادم. صخورًا، ربما.

قالت كيت بابتسامة آسرة:

– "إنه مجرد يوم واحد إضافي."

في تلك اللحظة دخلت الليدي لوسيندا والآنسة واتسون الغرفة، الأولى في فستان صباحي أزرق فاتح، والأخيرة بنفس الثوب الأخضر الذي ارتدته على الإفطار. ألقى اللورد فينسوورث نظرة واحدة على الثنائي (أو بالأحرى على واحدة أكثر من الأخرى، ويكفي القول إن رابطة الدم لم تكن أقوى من الحب من طرف واحد)، وتمتم قائلًا:

– "إذن لتبقَ حتى الجمعة."

قالت كيت وهي تشبك يديها معًا:

– "رائع. سأجهز لك غرفة على الفور."

تساءلت الليدي لوسيندا:

– "ريتشارد؟ لماذا أنت هنا؟"

توقفت عند المدخل ونظرت من شخص لآخر، وبدا عليها الارتباك لوجود كيت وغريغوري.

قال شقيقها:

– "لوسي. لقد مر دهر."

قالت بشكل شبه تلقائي، وكأن جزءًا صغيرًا من دماغها يتطلب الدقة المطلقة حتى عندما لا يهم الأمر:

– "أربعة أشهر."

قالت كيت:

– "يا للسماء، هذا وقت طويل. سنترككم الآن يا لورد فينسوورث. أنا متأكدة أنك وشقيقتك ترغبان في بضع لحظات من الخصوصية."

قال فينسوورث، وعيناه تختلسان النظر سريعًا إلى الآنسة واتسون:

– "لا داعي للعجلة. لا أود أن أكون فظًا، ولم تتح لي الفرصة بعد لشكركم على كرم ضيافتكم."

تدخل غريغوري، متوقعًا مغادرة سريعة من الصالون والآنسة واتسون على ذراعه:

– "لن يكون ذلك فظًا على الإطلاق."

استدار اللورد فينسوورث وطرف بعينيه، وكأنه نسي وجود غريغوري. وهو أمر ليس مستغربًا، إذ ظل غريغوري صامتًا بشكل غير معهود خلال المحادثة.

قال الإيرل:

– "أرجو ألا تكلفوا أنفسكم عناء المغادرة. لوسي وأنا سنتحدث لاحقًا."

قالت لوسي وقد بدا عليها القلق نوعًا ما:

– "ريتشارد، هل أنت متأكد؟ لم أكن أتوقعك، وإذا كان هناك أي خطب..."

لكن شقيقها هز رأسه.

– "لا شيء لا يمكنه الانتظار. العم روبرت يرغب في التحدث معك. لقد طلب مني إعادتك للمنزل."

– "الآن؟"

أجاب فينسوورث:

– "لم يحدد وقتًا، لكن الليدي بريدجيرتون طلبت منا بلطف البقاء حتى الجمعة، وقد وافقت. هذا..."

تنحنح قليلًا.

– "... بافتراض أنك ترغبين في البقاء."

أجابت لوسي وهي تبدو مشوشة وتائهة:

– "بالطبع. لكنني... حسنًا... العم روبرت..."

قالت الآنسة واتسون بحزم:

– "يجب أن نغادر. لوسي، يجب أن تحظي بلحظة مع شقيقك."

نظرت لوسي إلى شقيقها، لكنه استغل دخول الآنسة واتسون في المحادثة لينظر إليها، وقال:

– "وكيف حالك يا هيرميون؟ لقد مر وقت طويل جدًا."

قالت لوسي:

– "أربعة أشهر."

ضحكت الآنسة واتسون وابتسمت بحرارة للإيرل.

– "أنا بخير، شكرًا لك. ولوسي محقة كعادتها. آخر مرة تحدثنا فيها كانت في يناير، عندما زرتنا في المدرسة."

أمال فينسوورث ذقنه معترفًا.

– "كيف لي أن أنسى؟ كانت أيامًا قليلة ممتعة للغاية."

كان غريغوري ليراهن بذراعه اليمنى أن فينسوورث يعرف بالدقيقة كم مضى منذ آخر مرة وقعت فيها عيناه على الآنسة واتسون. لكن السيدة المعنية كانت غافلة بوضوح عن هذا الوله، لأنها ابتسمت فقط وقالت:

– "كانت كذلك، أليس كذلك؟ كان لطفًا كبيرًا منك أن تأخذنا للتزلج على الجليد. أنت دائمًا رفيق ممتع."

يا إلهي، كيف يمكن أن تكون غافلة إلى هذا الحد؟ لم تكن لتكون مشجعة هكذا لو أدركت طبيعة مشاعر الإيرل تجاهها. كان غريغوري واثقًا من ذلك.

ولكن بينما كان من الواضح أن الآنسة واتسون مولعة للغاية بـ اللورد فينسوورث، لم يكن هناك أي مؤشر على أنها تكن له أي نوع من التقدير الرومانسي. عزى غريغوري نفسه بمعرفة أن الاثنين يعرفان بعضهما منذ سنوات بالتأكيد، ومن الطبيعي أن تكون ودودة مع فينسوورث، نظرًا لمدى قربها من الليدي لوسيندا.

كأنهما أخ وأخت عمليًا، حقًا.

وبالحديث عن الليدي لوسيندا – استدار غريغوري في اتجاهها ولم يتفاجأ عندما وجدها عابسة. شقيقها، الذي سافر ليوم كامل على الأقل ليصل إليها، يبدو الآن غير مستعجل على الإطلاق للتحدث معها.

وبالفعل، صمت الجميع أيضًا. راقب غريغوري المشهد المحرج باهتمام. بدا الجميع يجيلون أنظارهم، في انتظار من سيتحدث تاليًا. حتى الليدي لوسيندا، التي لا يمكن لأحد وصفها بالخجولة، بدت وكأنها لا تعرف ماذا تقول.

قالت كيت، كاسرة الصمت لحسن الحظ:

– "لورد فينسوورث، لابد أنك تتضور جوعًا. هل تتناول بعض الإفطار؟"

– "سأكون ممتنًا جدًا لذلك يا ليدي بريدجيرتون."

التفتت كيت إلى الليدي لوسيندا.

– "لم أركِ في الإفطار أنتِ أيضًا. هل ستتناولين شيئًا الآن؟"

فكر غريغوري في الصينية الضخمة التي طلبت الآنسة واتسون إحضارها للأعلى من أجل صديقتها، وتساءل كم تمكنت من التهامه قبل أن تضطر للنزول لمقابلة أخيها.

تمتمت الليدي لوسيندا:

– "بالطبع. أود البقاء بصحبة ريتشارد على أية حال."

تدخل غريغوري بسلاسة:

– "آنسة واتسون، هل ترغبين في جولة حول الحدائق؟ أعتقد أن زهور الفاوانيا قد تفتحت. وتلك الزهور الزرقاء ذات السيقان الطويلة... دائمًا ما أنسى اسمها."

– "الدلفينيوم."

كانت الليدي لوسيندا بالطبع. كان يعلم أنها لن تستطيع المقاومة. ثم استدارت ونظرت إليه، وعيناها تضيقان قليلًا جدًا.

– "لقد أخبرتك بذلك قبل أيام."

تمتم قائلًا:

– "فعلتِ حقًا. لم أكن أبدًا جيدًا في حفظ التفاصيل."

قالت الآنسة واتسون بمرح:

– "أوه، لوسي تتذكر كل شيء. وسيسعدني رؤية الحدائق معك. هذا إن لم يمانع لوسي وريتشارد."

أكد لها كلاهما أنهما لا يمانعان، رغم أن غريغوري كان واثقًا تمامًا أنه رأى وميض خيبة أمل و– هل يجرؤ على القول – انزعاج في عيني اللورد فينسوورث.

ابتسم غريغوري.

قالت الآنسة واتسون لـ لوسي:

– "سأجدكِ لاحقًا في غرفتنا؟"

أومأت الفتاة الأخرى، وبشعور من الانتصار – إذ لم يكن هناك شيء يضاهي التغلب على المنافسين – وضع غريغوري يد الآنسة واتسون في ثنية مرفقه وقادها خارج الغرفة.

سيكون صباحًا ممتازًا، بعد كل شيء.



تبعت لوسي شقيقها والليدي بريدجيرتون إلى غرفة الإفطار، ولم تمانع ذلك أبدًا، لأنها لم تحظَ بفرصة لتناول الكثير مما أحضرته هيرميون لها سابقًا. لكن ذلك كان يعني أنها اضطرت لتحمل ثلاثين دقيقة كاملة من الأحاديث التي لا معنى لها بينما كان عقلها يتسابق، متخيلًا كل أنواع الكوارث التي قد تكون مسؤولة عن استدعائها المفاجئ للمنزل.

لم يكن بإمكان ريتشارد التحدث معها حول أي شيء مهم بوجود الليدي بريدجيرتون ونصف ضيوف الحفل يثرثرون حول البيض المسلوق والأمطار الأخيرة، لذا انتظرت لوسي دون تذمر حتى انتهى (كان دائمًا بطيئًا بشكل مزعج في تناول الطعام)، ثم بذلت قصارى جهدها لعدم فقدان صبرها وهما يتمشيان نحو المرج الجانبي، حيث سألها ريتشارد أولًا عن المدرسة، ثم عن هيرميون، ثم عن والدة هيرميون، ثم عن ظهورها الاجتماعي الأول القادم، ثم

عن هيرميون مجددًا، مع تفرع جانبي نحو شقيق هيرميون الذي التقى به في "كامبريدج" على ما يبدو، ثم العودة لموضوع الظهور الاجتماعي، وإلى أي مدى ستتشاركه مع هيرميون...

حتى توقفت لوسي أخيرًا في مكانها، ووضعت يديها على خاصرتيها، وطالبته بأن يخبرها عن سبب وجوده هنا.

قال وهو لا ينظر في عينيها تمامًا:

– "لقد أخبرتكِ. العم روبرت يريد التحدث معكِ."

– "ولكن لماذا؟"

لم يكن سؤالًا له إجابة واضحة. العم روبرت لم يهتم بالتحدث معها أكثر من بضع مرات في السنوات العشر الماضية. إذا كان يخطط للبدء الآن، فلا بد من سبب لذلك.

تنحنح ريتشارد عدة مرات قبل أن يقول أخيرًا:

– "حسنًا يا لوسي، أعتقد أنه يخطط لتزويجك."

همست لوسي:

– "فورًا؟"

ولم تدرِ لماذا كانت مندهشة للغاية. كانت تعلم أن هذا قادم؛ كانت مخطوبة عمليًا لسنوات. وكانت قد أخبرت هيرميون، في أكثر من مناسبة، أن إقامة موسم اجتماعي لها أمر أحمق حقًا... لماذا تتكبد العناء والنفقات وهي ستتزوج من هاسيلبي في النهاية؟

لكن الآن... وفجأة... لم تكن تريد فعل ذلك. على الأقل ليس قريبًا جدًا هكذا. لم تكن تريد الانتقال من تلميذة مدرسة إلى زوجة، دون أي شيء في المنتصف. لم تكن تطلب المغامرة – هي لم تكن حتى تريد المغامرة – حقًا، لم تكن من ذلك النوع.

لم تكن تطلب الكثير – مجرد بضعة أشهر من الحرية، من الضحك. من الرقص حتى انقطاع النفس، والدوران بسرعة كبيرة لدرجة أن ألسنة لهب الشموع تتحول إلى ثعابين طويلة من الضوء.

ربما كانت عملية. ربما كانت "لوسي القديمة"، كما دعاها الكثيرون في مدرسة الآنسة موس. لكنها كانت تحب الرقص. وأرادت أن تفعل ذلك. الآن. قبل أن تكبر. قبل أن تصبح زوجة هاسيلبي.

قال ريتشارد وهو ينظر إليها بـ... هل كان ذلك ندمًا؟

لماذا يكون ندمًا؟

– "لا أعرف متى. لكن قريبًا، كما أعتقد. يبدو العم روبرت متلهفًا نوعًا ما لإتمام الأمر."

حدقت لوسي فيه فقط، تتساءل لماذا لا تستطيع التوقف عن التفكير في الرقص، لا تستطيع التوقف عن تخيل نفسها، في ثوب من الأزرق الفضي، ساحرة ومتألقة، بين ذراعي...

– "أوه!"

وضعت يدها على فمها، وكأن ذلك يمكنه بطريقة ما إسكات أفكارها.

– "ما الأمر؟"

هزت رأسها قائلة:

– "لا شيء."

أحلام يقظتها لم يكن لها وجه. لا يمكن أن يكون لها. لذا قالت مرة أخرى، وبحزم أكبر:

– "لا شيء. لا شيء على الإطلاق."

انحنى شقيقها ليفحص زهرة برية نجت بطريقة ما من أعين بستانيي أوبري هول الثاقبة. كانت صغيرة، وزرقاء، وقد بدأت للتو في التفتح.

تمتم ريتشارد:

– "إنها جميلة، أليس كذلك؟"

أومأت لوسي. لطالما أحب ريتشارد الزهور. الزهور البرية بصفة خاصة. أدركت أنهما مختلفان في هذا الجانب. لطالما فضّلت هي نظام الأحواض المرتبة بعناية، كل زهرة في مكانها، كل نمط مصان بعناية وحب.

لكن الآن...

نظرت لأسفل إلى تلك الزهرة الصغيرة، الدقيقة والهشة، النابتة بتحدٍ حيث لا تنتمي.

وقررت أنها تحب الزهور البرية أيضًا.

قال ريتشارد باعتذار:

– "أعرف أنه كان من المفترض أن تحظي بموسم اجتماعي. لكن حقًا، هل الأمر مريع جدًا؟ أنتِ لم ترغبي في واحد حقًا، أليس كذلك؟"

ابتلعت لوسي ريقها.

– "لا."

قالتها لأنها عرفت أن هذا ما يريد سماعه، ولم ترد أن تشعره بسوء أكثر مما يشعر به بالفعل. وهي لم تكن تهتم حقًا بطريقة أو بأخرى بشأن موسم في لندن. على الأقل ليس حتى وقت قريب.

اقتلع ريتشارد الزهرة البرية الصغيرة من جذورها، ونظر إليها بتساؤل، ثم وقف. نقر ذقنها بخفة وقال:

– "ابتهجي يا لوسي. هاسيلبي ليس سيئًا. لن تمانعي الزواج منه."

قالت بصوت خافت:

– "أعرف."

أضاف وهو يبتسم تلك الابتسامة الزائفة قليلًا، النوع الذي يهدف إلى الطمأنة ولا يفلح في ذلك أبدًا:

– "لن يؤذيكِ."

قالت لوسي، وقد تسللت نبرة من... من شيء ما إلى صوتها:

– "لم أظن أنه سيفعل. لماذا تذكر شيئًا كهذا؟"

قال ريتشارد بسرعة:

– "لا سبب على الإطلاق. لكنني أعلم أن هذا مصدر قلق للعديد من النساء. ليس كل الرجال يمنحون زوجاتهم الاحترام الذي سيعاملك به هاسيلبي."

أومأت لوسي. بالطبع. كان ذلك صحيحًا. سمعت قصصًا. جميعهن سمعن قصصًا.

قال ريتشارد:

– "لن يكون الأمر سيئًا جدًا. ربما ستحببينه حتى. إنه شخص مقبول المعشر للغاية."

مقبول المعشر. هذا شيء جيد. أفضل من بغيض المعشر.

أضاف ريتشارد، رغم أنها كانت تعرف ذلك بالطبع:

– "سيصبح إيرل دافنبورت يومًا ما. ستكونين كونتيسة. كونتيسة بارزة جدًا."

كان هناك ذلك. صديقاتها في المدرسة قلن دائمًا إنها محظوظة للغاية لأن مستقبلها محسوم بالفعل، وبنتيجة رفيعة كهذه. كانت ابنة إيرل وأخت إيرل. ومقدر لها أن تكون زوجة لواحد أيضًا. لم يكن لديها ما تشكو منه. لا شيء.

لكنها كانت تشعر بفراغ شديد.

لم يكن شعورًا سيئًا بالتحديد. لكنه كان مربكًا. وغير مألوف. شعرت بأنها بلا جذور. شعرت بالضياع.

شعرت بأنها ليست نفسها. وكان ذلك أسوأ ما في الأمر.

سأل ريتشارد:

– "لست متفاجئة، أليس كذلك يا لوسي؟ كنتِ تعلمين أن هذا قادم. كلنا كنا نعلم."

أومأت برأسها.

– "لا شيء." قالت، محاولة أن تبدو عملية كعادتها. "الأمر فقط أنه لم يبدُ أبدًا فوريًا هكذا."

قال ريتشارد:

– "بالطبع. إنها مفاجأة، هذا كل ما في الأمر. بمجرد أن تعتادي على الفكرة، سيبدو كل شيء أفضل بكثير. طبيعيًا، حتى. ففي النهاية، لطالما عرفتِ

أنكِ ستكونين زوجة هاسيلبي. وفكري كم ستستمتعين بالتخطيط للزفاف. يقول العم روبرت إنه سيكون حدثًا فخمًا. في لندن، كما أعتقد. دافنبورت يصر على ذلك."

شعرت لوسي بنفسها تومئ. هي تحب التخطيط للأشياء نوعًا ما. كان هناك شعور ممتع بالسيطرة يصاحب ذلك.

أضاف ريتشارد:

– "يمكن لـ هيرميون أن تكون وصيفتك أيضًا."

تمتمت لوسي:

– "بالطبع."

لأنه، وحقًا، من غيرها قد تختار؟

سأل ريتشارد بعبوس:

– "هل هناك لون لا يناسبها؟ لأنكِ ستكونين العروس. لا تريدين أن يخطف أحد الأضواء منكِ."

قلبت لوسي عينيها. هكذا هم الإخوة.

بدا أنه لم يدرك أنه أهانها، رغم ذلك، وافترضت لوسي أنها ما كان ينبغي أن تتفاجأ. جمال هيرميون كان أسطوريًا لدرجة أن لا أحد يشعر بالإهانة من مقارنة غير مواتية معها. يجب أن يكون المرء واهمًا ليفكر بخلاف ذلك.

قالت لوسي:

– "لا يمكنني إلباسها الأسود."

كان هذا هو اللون الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه والذي يجعل هيرميون تبدو شاحبة قليلًا.

توقف ريتشارد، مفكرًا بوضوح في الأمر:

– "لا، لا يمكنكِ ذلك، أليس كذلك؟"

حدقت فيه لوسي بعدم تصديق. شقيقها، الذي يجب إعلامه بانتظام بما هو مواكب للموضة وما ليس كذلك، كان مهتمًا بالفعل بلون فستان وصيفة هيرميون.

قررت لوسي:

– "يمكن لـ هيرميون ارتداء أي لون ترغبه."

ولمَ لا؟ من بين جميع الأشخاص الذين سيحضرون، لم يكن هناك من يعني لها أكثر من صديقتها المقربة.

قال ريتشارد:

– "هذا لطف كبير منكِ." نظر إليها بتأمل. "أنتِ صديقة جيدة يا لوسي."

عرفت لوسي أنه كان ينبغي أن تشعر بالإطراء، لكن بدلًا من ذلك تساءلت فقط لمَ استغرق الأمر منه كل هذا الوقت ليدرك ذلك.

منحها ريتشارد ابتسامة، ثم نظر لأسفل إلى الزهرة التي لا تزال في يديه. رفعها، وأدارها بضع مرات، والساق يتدحرج جيئة وذهابًا بين إبهامه وسبابته. طرف بعينيه، وعقد حاجبيه قليلًا، ثم وضع الزهرة أمام فستانها. كانا بنفس درجة اللون الأزرق – مائل للأرجواني قليلًا، وربما رمادي قليلًا.

قال:

– "يجب أن ترتدي هذا اللون. تبدين جميلة جدًا الآن."

بدا صوته متفاجئًا قليلًا، لذا عرفت لوسي أنه لم يكن يقول ذلك مجاملة فقط.

قالت:

– "شكرًا لك."

لطالما ظنت أن هذا اللون يجعل عينيها أكثر إشراقًا. وكان ريتشارد أول شخص غير هيرميون يعلق على ذلك.

– "ربما سأفعل."

سألها:

– "هل نعود إلى المنزل؟ أنا متأكد أنكِ ترغبين في إخبار هيرميون بكل شيء."

توقفت، ثم هزت رأسها.

– "لا، شكرًا لك. أعتقد أنني سأبقى في الخارج لفترة قصيرة."

أشارت إلى بقعة بالقرب من المسار الذي يؤدي إلى البحيرة.

– "هناك مقعد ليس بعيدًا جدًا. والشمس تبدو لطيفة على وجهي."

ضيق ريتشارد عينيه ناظرًا للسماء.

– "هل أنتِ متأكدة؟ دائمًا ما تقولين إنك لا تريدين أن يصيبك النمش."

– "لدي نمش بالفعل يا ريتشارد. ولن أتأخر كثيرًا."

لم تكن قد خططت للخروج عندما ذهبت لتحيته، لذا لم تحضر قبعتها. لكن الوقت كان لا يزال مبكرًا. بضع دقائق من أشعة الشمس لن تدمر بشرتها.

وإلى جانب ذلك، هي أرادت ذلك. أليس من الجميل أن تفعل شيئًا لمجرد أنها تريده، وليس لأنه متوقع منها؟

أومأ ريتشارد.

– "سأراكِ على العشاء؟"

– "أعتقد أنه يُقدم في الواحدة والنصف."

ابتسم ابتسامة عريضة.

– "أنتِ أدرى."

تمتمت بتذمر:

– "لا شيء يضاهي الإخوة."

قال وهو ينحني ليقبل جبينها، مباغتًا إياها تمامًا:

– "ولا شيء يضاهي الأخوات."

تمتمت وهي تشعر بالجزع من رد فعلها المفرط في العاطفية:

– "أوه، ريتشارد."

فهي لم تكن تبكي أبدًا. في الواقع، كانت مشهورة بافتقارها التام للميول الدرامية الهشة.

قال بنبرة حانية تكفي لجعل دمعة واحدة تنحدر على خدها:

– "هيا، اذهبي."

مسحتها لوسي بسرعة، محرجة لأنه رآها، ومحرجة لأنها ذرفتها أصلًا.

ضغط ريتشارد على يدها وأشار برأسه نحو المرج الجنوبي.

– "اذهبي وتأملي الأشجار، وافعلي ما يحلو لكِ. ستتحسن حالك بعد أن تختلي بنفسك قليلًا."

قالت لوسي بسرعة:

– "أنا لست مستاءة. ولست بحاجة لأن تتحسن حالي."

– "بالطبع لا. أنتِ متفاجئة وحسب."

– "بالضبط."

بالضبط. تمامًا. حقًا، هي كانت مبتهجة، حقًا. لقد كانت تنتظر هذه اللحظة لسنوات. أليس من الرائع أن تستقر الأمور كلها؟ هي تحب النظام. وتحب الاستقرار.

كانت المفاجأة وحسب. هذا كل ما في الأمر. أشبه بما يحدث حين يرى المرء صديقًا في مكان غير متوقع ويكاد لا يتعرف عليه. لم تكن تتوقع الإعلان الآن. هنا، في حفل عائلة بريدجيرتون المنزلي. وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلها تشعر بهذا الشعور الغريب.

حقًا.





الفصل الثامن

حيث تكتشف بطلتنا حقيقة عن شقيقها (لكنها لا تصدقها)
ويكتشف بطلنا سرًا عن الآنسة واتسون (لكنه لا يكترث له)
ويكتشف كلاهما حقيقة عن نفسيهما (لكنهما لا يدركانها).



بعد ساعة، كان غريغوري لا يزال يهنئ نفسه على ذلك المزيج المتقن من التخطيط والتوقيت الذي قاده للخروج مع الآنسة واتسون. لقد أمضيا وقتًا رائعًا للغاية، أما اللورد فينسوورث—حسنًا، ربما حظي فينسوورث هو الآخر بوقت رائع، لكن إن كان الأمر كذلك، فقد كان بصحبة شقيقته وليس الآنسة هيرميون واتسون الجميلة.

كان النصر حلوًا بالفعل.

وكما وعد، أخذها غريغوري في نزهة عبر حدائق أوبري هول، مبهرًا كليهما بذاكرته الخارقة لستة أسماء نباتية مختلفة. حتى العايق، وإن كان الفضل في ذلك يعود بالكامل لليدي لوسيندا.

أما الأسماء الأخرى فكانت، لإعطاء كل ذي حق حقه: الورد، والأقحوان، والفاوانيا، والياقوتية، والعشب. إجمالًا، اعتقد أنه أبلى بلاءً حسنًا. لم تكن التفاصيل يومًا نقطة قوته. وحقًا، كان الأمر كله مجرد لعبة في تلك المرحلة.

بدت الآنسة واتسون وكأنها تألف صحبته أيضًا. ربما لم تكن تتنهد وترفرف بأهدابها، لكن ستار عدم الاكتراث المهذب قد زال، ونجح مرتين في إضحاكها.

هي لم تضحكه، لكنه لم يكن متأكدًا إن كانت تحاول ذلك، وعلاوة على ذلك، فقد ابتسم بالتأكيد. في أكثر من مناسبة.

وهو أمر جيد. حقًا. كان من الممتع نوعًا ما أن يستعيد صوابه من جديد. لم يعد يشعر بتلك اللكمة في الصدر، وهو ما يفترض المرء أنه مفيد لصحته التنفسية. كان يكتشف أنه يستمتع بالتنفس إلى حد ما، وهي مهمة بدا أنه يجد صعوبة فيها أثناء التحديق في مؤخرة عنق الآنسة واتسون.

قطب غريغوري جبينه، متوقفًا في جولته المنفردة نحو البحيرة. كان رد فعل غريبًا نوعًا ما. وبالتأكيد رأى مؤخرة عنقها هذا الصباح. ألم تركض أمامه لتشم إحدى الزهور؟

همهم. ربما لا. لم يستطع التذكر تمامًا.

– "يومك سعيد، سيد بريدجيرتون."

التفت، متفاجئًا برؤية الليدي لوسيندا تجلس بمفردها على مقعد حجري قريب. كان موقعًا غريبًا للمقعد، لطالما ظن ذلك، إذ لا يواجه شيئًا سوى مجموعة من الأشجار. لكن ربما كان هذا هو المغزى. إدارة الظهر للمنزل—ولسكانه الكثر. لطالما قالت شقيقته فرانشيسكا إنه بعد يوم أو يومين مع عائلة بريدجيرتون بأكملها، قد تكون الأشجار رفقة جيدة جدًا.

ابتسمت الليدي لوسيندا بوهن للتحية، ولفت انتباهه أنها لا تبدو على طبيعتها تمامًا. بدت عيناها متعبتين، ولم تكن جلستها مستقيمة تمامًا.

تبدو ضعيفة، فكر بشكل غير متوقع إلى حد ما. لا بد أن شقيقها حمل أخبارًا غير سارة.

قال وهو يمشي بتهذيب إلى جانبها:

– "يبدو عليكِ الوجوم. هل تسمحين لي بالانضمام إليكِ؟"

أومأت، مقدمة له شيئًا يشبه الابتسامة. لكنها لم تكن ابتسامة. ليس تمامًا.

جلس بجانبها وسأل:

– "هل حظيتِ بفرصة للحديث مع شقيقك؟"

أومأت:

– "لقد نقل بعض الأخبار العائلية. لم تكن... مهمة."

أمال غريغوري رأسه وهو يتأملها. كانت تكذب بوضوح. لكنه لم يضغط أكثر. لو أرادت المشاركة لفعلت. وفضلًا عن ذلك، لم يكن الأمر من شأنه في كل الأحوال.

لكنه كان فضوليًا.

حدقت في البعيد، ربما نحو شجرة ما، وقالت:

– "المكان لطيف هنا."

كانت عبارة فاترة بغرابة، لكونها صادرة منها.

قال:

– "نعم. البحيرة على بعد مسافة قصيرة سيرًا خلف هذه الأشجار. غالبًا ما آتي في هذا الاتجاه عندما أرغب في التفكير."

التفتت فجأة:

– "أنت تفعل؟"

– "لماذا أنتِ مندهشة هكذا؟"

– "أنا— لا أعرف." هزت كتفيها. "أفترض أنك لا تبدو من ذلك النوع."

– "النوع الذي يفكر؟" حقًا، يا للسخافة.

قالت وهي ترمقه بنظرة نزقة:

– "بالطبع لا. عنيت النوع الذي يحتاج للابتعاد ليفعل ذلك."

– "اعذري تطفلي، لكنكِ لا تبدين من ذلك النوع أيضًا."

فكرت في ذلك للحظة، ثم قالت:

– "لست كذلك."

ضحك خافتًا عند سماع ذلك:

– "لا بد أنك خضتِ محادثة طويلة مع شقيقك."

رمشت بدهشة. لكنها لم تسهب في الشرح. وهو ما لم يبدُ من شيمها مرة أخرى. سألت:

– "فيما جئت تفكر هنا؟"

فتح فمه للرد، لكن قبل أن ينطق بكلمة، قالت:

– "هيرميون، على ما أفترض."

لم يبدُ هناك جدوى من الإنكار. قال:

– "أخوكِ واقع ـفي حبها."

بدا أن ذلك أخرجها من شرودها:

– "ريتشارد؟ لا تكن سخيفاً."

نظر إليها غريغوري بعدم تصديق:

– "لا أصدق أنكِ لم تلاحظي ذلك."

– "أنا لا أصدق أنك لاحظت. بحق السماء، إنها تعتبره أخاً."

– "قد يكون ذلك صحيحًا، لكنه لا يبادلها الشعور نفسه."

– "سيد بريـ..."

لكنه أوقفها برفع يده:

– "مهلًا، مهلًا، يا ليدي لوسيندا، أجرؤ على القول إنني شهدت حمقى واقعين ـفي الحب أكثر مما شهدتِ أنتِ—"

انفجرت الضحكة حرفيًا من فمها. قالت بمجرد أن تمكنت من الكلام:

– "سيد بريدجيرتون، لقد كنت الرفيقة الدائمة لـهيرميون واتسون طوال السنوات الثلاث الماضية. هيرميون واتسون،" أضافت، تحسبًا لعدم فهمه المعنى. "ثق بي حين أقول لك إنه لا يوجد أحد شهد حمقى يعانون من لوعة الحب أكثر مني."

للحظة لم يعرف غريغوري كيف يرد. كان معها حق ـفي ذلك.

قالت مع هزة رأس رافضة:

– "ريتشارد ليس واقعًا ـفي حب هيرميون." ثم أطلقت نخرة. نخرة أنثوية مهذبة، لكنها نخرة مع ذلك. نخرة موجهة إليه.

قال، لأنه يملك سبعة أشقاء، وبالتأكيد لم يكن يعرف كيف ينسحب برشاقة من جدال:

– "أسمح لنفسي بالخلاف معكِ."
قالت بنبرة واثقة تمامًا:
– "لا يمكن أن يكون واقعًا في حبها. هناك شخص آخر."
– "أوه، حقًا؟" لم يكلف غريغوري نفسه عناء رفع سقف آماله.
– "حقًا. إنه يثرثر دائمًا عن فتاة التقى بها عبر أحد أصدقائه. أعتقد أنها كانت شقيقة أحدهم. لا أستطيع تذكر اسمها. ماري، ربما."
ماري. همف. كان يعلم أن فينسوورث يفتقر للخيال.
تابعت الليدي لوسيندا:
– "وبالتالي، هو ليس واقعًا في حب هيرميون."
على الأقل بدت الآن تشبه نفسها أكثر. بدا العالم أكثر ثباتًا مع نباح لوسي أبيرناثي مثل جرو "تيرير". كان يشعر بعدم توازن تقريبًا حين كانت تحدق بكآبة في الأشجار.
قال غريغوري بتنهيدة متعالية:
– "صدّقي ما تشائين. لكن اعلمي هذا: شقيقك سيداوي قلبًا مكسورًا عما قريب."
سخرت قائلة:
– "أوه، حقًا؟ لأنك واثق جدًا من نجاحك؟"
– "لأنني واثق من فشله هو."
– "أنت حتى لا تعرفه."
– "والآن تدافعين عنه؟ قبل لحظات فقط قلتِ إنه غير مهتم."
– "هو ليس كذلك." عضت شفتها. "لكنه أخي. ولو كان مهتمًا، كان عليّ دعمه، ألا تظن ذلك؟"
رفع غريغوري حاجبًا:
– "يا إلهي، ما أسرع تحول ولاءاتك."
بدت وكأنها تعتذر تقريبًا:
– "إنه إيرل. وأنت... لست كذلك."

– "ستصبحين أمًا رائعة في المجتمع الراقي."

تصلب ظهرها:

– "عفوًا؟"

– "تبيعين صديقتك لمن يدفع أكثر. ستكونين متمرسة جيدًا بحلول الوقت الذي ترزقين فيه بابنة."

قفزت واقفة، وعيناها تقدحان غضبًا وسخطًا:

– "هذا شيء فظيع لتقوله. اعتباري الأهم كان دائمًا سعادة هيرميون. وإذا كان من الممكن إسعادها بواسطة إيرل... يصادف أنه أخي..."

أوه، رائع. الآن ستحاول التوفيق بين هيرميون وفينسوورث. أحسنت يا غريغوري. أحسنت صنعًا بالفعل.

قال وهو ينهض واقفًا:

– "يمكن إسعادها بوسطتي أنا."

وكان ذلك صحيحًا. لقد أضحكها مرتين هذا الصباح، حتى لو لم تفعل هي المثل له.

قالت الليدي لوسيندا:

– "بالطبع يمكن ذلك. ويا للسماء، ربما سيحدث ذلك إن لم تفسد الأمر. ريتشارد أصغر من أن يتزوج على أي حال. إنه في الثانية والعشرين فقط."

رمقها غريغوري بفضول. الآن عادت لتبدو وكأنها تعتبره المرشح الأفضل. ما خطبها بحق السماء؟

أضافت وهي تدس خصلة من شعرها الأشقر الداكن خلف أذنها بنفاد صبر عندما عبثت الرياح بها:

– "وهو ليس واقعًا في حبها. أنا متأكدة تمامًا من ذلك."

بدا أن أيًا منهما ليس لديه ما يضيفه، وبما أنهما كانا واقفين بالفعل، أشار غريغوري نحو المنزل:

– "هل نعود؟"

أومأت، وانطلقا بخطى متمهلة.

لاحظ غريغوري:

– "هذا لا يحل مشكلة السيد إدموندز."

رمقته بنظرة مضحكة.

سألها:

– "لماذا تلك النظرة؟"

وفعلًا ضحكت بخفوت. حسنًا، ربما ليست ضحكة مكتملة، لكنها فعلت ذلك الشيء المتمثل في إخراج الهواء من الأنف حين يكون المرء مستمتعًا.

قالت وهي لا تزال تبتسم:

– "لا شيء. أنا منبهرة نوعًا ما، في الواقع، لأنك لم تتظاهر بعدم تذكر اسمه."

– "ماذا، هل كان علي مناداته بالسيد إدواردز، ثم السيد إلينغتون، ثم السيد إيدفيس، و—"

رمقته لوسي بنظرة ماكرة:

– "لكنتِ خسرت كل احترامي، أؤكد لك."

وضع يده على قلبه وقال:

– "يا للهول. أوه، يا للهول."

نظرت إليه من فوق كتفها بابتسامة عابثة:

– "كانت وشيكة."

بدا غير مبالٍ:

– "أنا رامٍ سيء، لكنني أعرف كيف أتفادى رصاصة."

الآن أثار ذلك فضولها:

– "لم أعرف رجلًا قط يعترف بأنه رامٍ سيء."

هز كتفيه:

– "هناك أشياء لا يمكن للمرء تجنبها ببساطة. سأظل دائمًا ذلك البريدجيرتون الذي يمكن لشقيقته التغلب عليه في المدى القريب."

– "تلك التي أخبرتني عنها؟"

اعترف:

– "جميعهن."

– "أوه."

قطبت جبينها. يجب أن يكون هناك نوع من العبارات المقررة لمثل هذا الموقف. ماذا يقول المرء عندما يعترف رجل بنقص ما؟ لم تتذكر أنها سمعت أحدهم يفعل ذلك من قبل، لكن بالتأكيد، في وقت ما من التاريخ، فعل رجل ما ذلك. وكان على شخص ما الرد.

رمشت، منتظرة أن يتبادر لذهنها شيء ذو مغزى.

لم يتبادر شيء.

ثم—

– "هيرميون لا تجيد الرقص."

خرجت الكلمات من فمها فجأة، بلا أي توجيه من عقلها.

يا إلهي، هل كان من المفترض أن يكون هذا ذا مغزى؟

توقف، والتفت إليها بتعبير فضولي. أو ربما كان مذهولًا أكثر. الأرجح كلاهما. وقال الشيء الوحيد الذي تخيلت أنه يمكن قوله في ظل هذه الظروف:

– "عفوًا؟"

كررت لوسي، بما أنها لم تستطع التراجع:

– "إنها لا تجيد الرقص. لهذا السبب ترفض الرقص. لأنها لا تستطيع."

ثم انتظرت أن تنشق الأرض وتبتلعها. لم يساعد أن السيد بريدجيرتون كان يحدق فيها حاليًا وكأنها مختلة قليلًا.

رسمت ابتسامة ضعيفة، وهو كل ما ملأ اللحظة الطويلة المستحيلة حتى قال أخيرًا:

– "لا بد أن هناك سببًا لإخباركِ لي بهذا."

أطلقت لوسي زفرة متوترة. لم يبدُ غاضبًا— بل فضوليًا أكثر من أي شيء آخر. وهي لم تقصد إهانة هيرميون. لكن عندما قال إنه لا يجيد الرماية، بدا منطقيًا بطريقة غريبة أن تخبره أن هيرميون لا تجيد الرقص. الأمر متناسب،

حقًا. يُفترض بالرجال الرماية، وبالنساء الرقص، وبالأصدقاء الموثوقين إبقاء أفواههم الحمقاء مغلقة.

بوضوح، ثلاثتهم بحاجة لبعض التعليمات.

قالت لوسي أخيرًا:

– "ظننت أن ذلك سيجعلك تشعر بتحسن. لأنك لا تجيد الرماية."

قال:

– "أوه، أنا أستطيع الرماية. هذا هو الجزء السهل. أنا فقط لا أستطيع التصويب."

ابتسمت لوسي، لم تستطع تمالك نفسها:

– "يمكنني أن أريك."

التف رأسه نحوها بسرعة:

– "أوه، يا إلهي. لا تخبريني أنك تعرفين كيف تطلقين النار."

قالت بحيوية:

– "بشكل جيد جدًا، في الواقع."

هز رأسه:

– "لم يكن يومي ينقصه إلا هذا."

احتجت:

– "إنها مهارة مثيرة للإعجاب."

– "أنا متأكد من ذلك، لكن لدي بالفعل أربع إناث في حياتي يتفوقن علي. آخر ما أحتاجه هو—أوه، يا إلهي مرة أخرى، أرجوكِ لا تقولي إن الآنسة واتسون رامية بارعة أيضًا."

رمشت لوسي:

– "أتدرين، لست متأكدة."

– "حسنًا، لا يزال هناك أمل إذن."

تمتمت:

– "أليس ذلك غريبًا؟"

رمقها بنظرة جامدة:

– "أن لدي أمل؟"

– "لا، أن..." لم تستطع قولها. يا للسماء، بدا الأمر سخيفاً حتى لها.

– "آه، إذن لا بد أنكِ تظنين أنه من الغريب أنك لا تعرفين ما إذا كانت الآنسة واتسون تجيد الرماية."

وها هو ذا. خمن الأمر على أي حال. اعترفت:

– "نعم. لكن مرة أخرى، لماذا قد أعرف؟ الرماية لم تكن جزءًا من المنهج الدراسي عند الآنسة موس."

قال بابتسامة مائلة:

– "لراحة بال السادة في كل مكان، أؤكد لكِ. من علمكِ؟"

قالت:

– "أبي."

وكان الأمر غريبًا، لأن شفتيها انفرجتا قبل أن تجيب. للحظة ظنت أنها فوجئت بالسؤال، لكن لم يكن ذلك هو السبب.

لقد فوجئت بإجابتها.

رد غريغوري:

– "يا للسماء، هل كنتِ قد تجاوزتِ مرحلة المشي حتى؟"

قالت لوسي، التي لا تزال في حيرة من رد فعلها الغريب:

– "بالكاد."

ربما كان السبب فقط أنها لا تفكر بوالدها كثيرًا. لقد رحل منذ زمن طويل لدرجة أنه لم تكن هناك أسئلة كثيرة تشكل إجابتها "إيرل فينسوورث الراحل".

تابعت:

– "كان يظنها مهارة مهمة. حتى للفتيات. منزلنا يقع بالقرب من ساحل دوفر، وكان هناك دائمًا مهربون. معظمهم كانوا ودودين—الجميع كان يعرف من هم، حتى القاضي."

تمتم السيد بريدجيرتون:

– "لا بد أنه استمتع بالبراندي الفرنسي."

ابتسمت لوسي وهي تتذكر:

– "وكذلك والدي. لكن ليس كل المهربين كانوا معروفين لنا. بعضهم، أنا متأكدة، كانوا خطرين للغاية. و..." مالت نحوه. لا يمكن للمرء حقًا قول شيء كهذا دون الميل للأمام. أين المتعة في ذلك؟

حثها قائلًا:

– "و...؟"

خفضت صوتها:

– "أعتقد أنه كان هناك جواسيس."

– "في دوفر؟ قبل عشر سنوات؟ بالتأكيد كان هناك جواسيس. رغم أنني أتساءل عن جدوى تسليح الأطفال الرضع."

ضحكت لوسي:

– "كنت أكبر من ذلك بقليل. أعتقد أننا بدأنا عندما كنت في السابعة. واصل ريتشارد الدروس بمجرد وفاة والدي."

– "أفترض أنه رامٍ بارع أيضًا."

أومأت بأسف:

– "آسفة."

استأنفا نزهتهما نحو المنزل. قال السيد بريدجيرتون بنبرة عرضية نوعًا ما:

– "لن أتحداه في مبارزة إذن."

– "أفضل ألا تفعل."

التفت إليها بتعبير لا يمكن وصفه إلا بالمكر:

– "يا ليدي لوسيندا، أعتقد أنكِ أعلنتِ للتو عن عاطفتكِ تجاهي."

انفتح فمها مثل سمكة عاجزة عن الكلام:

– "أنا لـ... ما الذي قد يقودك لهذا الاستنتاج؟"

ولماذا شعرت بخديها يسخنان فجأة؟

قال، وبدا مرتاحًا بشكل لافت لنقائصه:

– "لا يمكن أبدًا أن تكون مباراة عادلة. رغم أنه ـ في الحقيقة، لا أعرف ما إذا كان هناك رجل ـ في بريطانيا يمكن أن أخوض معه مباراة عادلة."

كانت لا تزال تشعر ببعض الدوار بعد مفاجأتها السابقة، لكنها تمكنت من القول:

– "أنا متأكدة من أنك تبالغ."

قال بعفوية تقريبًا:

– "لا. شقيقك سيترك بالتأكيد رصاصة ـ في كتفي." توقف، مفكرًا ـ في الأمر. "بافتراض أنه لم يكن ينوي وضع واحدة ـ في قلبي."

– "أوه، لا تكن سخيفًا."

هز كتفيه:

– "بغض النظر، لا بد أنكِ قلقة على سلامتي أكثر مما كنتِ تدركين."

تمتمت:

– "أنا قلقة على سلامة الجميع."

همس:

– "نعم، ستكونين كذلك."

تراجعت لوسي:

– "لماذا يبدو ذلك وكأنه إهانة؟"

– "هل بدا كذلك؟ أؤكد لكِ أنه لم يكن مقصودًا."

حدقت فيه بارتياب لفترة طويلة حتى رفع يديه أخيرًا مستسلمًا. قال:

– "كانت مجاملة، أقسم لكِ. وإن كانت قد قُدمت على مضض."

– "على الإطلاق!" نظر إليها، ومن الواضح أنه عاجز عن قمع ابتسامة.

– "أنت تضحك علي."

أصر:

– "لا." ثم ضحك بالطبع. "آسف. الآن أنا أضحك."

– "يمكنك على الأقل محاولة أن تكون لطيفًا وتقول إنك تضحك معي."

– "يمكنني." ابتسم، وتحولت عيناه لتصبح شيطانية بشكل إيجابي. "لكن ستكون كذبة."

كادت تضربه على كتفه:

– "أوه، أنت فظيع."

– "لعنة وجود إخوتي، أؤكد لكِ."

– "حقًا؟" لم تكن لوسي يومًا لعنة وجود أي شخص، وبدا الأمر جذابًا نوعًا ما في تلك اللحظة. "كيف ذلك؟"

– "أوه، كما هو الحال دائمًا. أحتاج للاستقرار، إيجاد هدف، الاجتهاد."

– "الزواج؟"

– "ذلك أيضًا."

– "هل هذا هو سبب ولعك بـهيرميون؟"

توقف—للحظة فقط. لكن التوقف كان موجودًا. شعرت لوسي به.

قال:

– "لا. كان شيئًا آخر تمامًا."

قالت بسرعة، شاعرة بالحماقة لطرح السؤال:

– "بالطبع."

لقد أخبرها بكل شيء الليلة الماضية—عن الحب الذي يحدث فجأة، وعن عدم وجود خيار في المسألة. هو لم يرد هيرميون لإرضاء شقيقه؛ لقد أراد هيرميون لأنه لم يستطع ألا يريدها.

وجعلها ذلك تشعر بمزيد من الوحدة، ولو قليلًا.

قال وهو يشير إلى باب غرفة الرسم، الذي لم تدرك حتى أنهما وصلا إليه:

– "لقد عدنا."

– "نعم، بالطبع." نظرت إلى الباب، ثم نظرت إليه، ثم تساءلت لماذا تشعر بهذا الحرج الآن وقد حان وقت الوداع. "شكرًا لك على الرفقة."

– "السعادة كانت لي بالكامل."

خطت لوسي خطوة نحو الباب، ثم التفتت لتواجهه بـ"أوه!" صغيرة.

ارتفع حاجباه:

– "هل هناك خطب ما؟"

– "لا. لكن يجب أن أعتذر—لقد عكست اتجاهك تمامًا. قلت إنك تحب الذهاب في ذلك الاتجاه—نحو البحيرة— عندما تحتاج للتفكير. ولم تتمكن من ذلك."

نظر إليها بفضول، مائلًا رأسه قليلًا جدًا إلى الجانب. وعيناه—أوه، تمنت لو تستطيع وصف ما رأته هناك. لأنها لم تفهمه، لم تستوعب تمامًا كيف جعلها ذلك تميل رأسها بالتوافق معه، وكيف جعلها تشعر وكأن اللحظة تمتد... أطول... وأطول... حتى تكاد تدوم مدى الحياة.

سألت بصوت خافت... خافت جدًا يكاد يكون همسًا:

– "ألم ترغب في وقت لنفسك؟"

ببطء، هز رأسه. قال وكأن الكلمات تأتيه في تلك اللحظة بالذات، وكأن الفكرة نفسها جديدة وليست تمامًا ما توقعه:

– "كنت أرغب."

قال مرة أخرى:

– "كنت أرغب، لكن الآن لا."

نظرت إليه، ونظر إليها. وفجأة قفزت الفكرة إلى رأسها—

إنه لا يعرف السبب.

هو لم يعرف لماذا لم يعد يرغب في أن يكون بمفرده.

وهي لم تعرف لماذا كان ذلك ذا مغزى.





الفصل التاسع

وفيه تأخذ قصتنا منعطفًا آخر.



كانت الليلة التالية هي ليلة الحفل التنكري. كان من المفترض أن يكون حدثًا فخمًا، ولكن ليس فخمًا جدًا بالطبع – إذ لن يحتمل أنتوني، شقيق غريغوري، كل هذا الاضطراب في حياته الريفية المريحة. ومع ذلك، كان الحفل سيمثل ذروة فعاليات التجمع المنزلي. سيحضر جميع الضيوف، إلى جانب مائة آخرين تقريبًا – بعضهم جاء من لندن، والبعض الآخر مباشرة من منازلهم الريفية. تم تهوية وتجهيز كل غرفة نوم حتى آخر واحدة لاستقبال النزلاء، ورغم ذلك، كان عدد لا بأس به من رواد الحفل يقيمون في منازل الجيران، أو – لقلة حظهم – في النُزل القريبة.

كانت نية كيت الأصلية هي إقامة حفل تنكري كامل الأزياء – كانت تتوق لتشكيل نفسها بهيئة ميدوسا (مما لم يفاجئ أحدًا) – لكنها تخلت عن الفكرة أخيرًا بعد أن أخبرها أنتوني أنه إذا نفذت ما تريده، فسوف يختار هو زيه الخاص.

النظرة التي رمقها بها كانت كافية على ما يبدو لتعلن انسحابها الفوري.

أخبرت غريغوري لاحقًا أنه لم يغفر لها بعد إلباسه زي "كيوبيد" في حفل "بيلينغتون" التنكري العام الماضي.

تمتم غريغوري:

– "هل كان الزي ملائكيًا أكثر من اللازم؟"

أجابت:

– "لكن من الجانب المشرق، بتُّ أعرف الآن تمامًا كيف كان شكله عندما كان طفلًا. كان فاتنًا للغاية، في الواقع."

قال غريغوري وهو يجفل:

– "حتى هذه اللحظة، لست متأكدًا أنني كنت أدرك تمامًا مدى حب أخي لك."

ابتسمت وأومأت:

– "كثيرًا جدًا. كثيرًا جدًا بالفعل."

وهكذا تم التوصل إلى حل وسط. لا أزياء تنكرية، فقط أقنعة. لم يمانع أنتوني ذلك على الإطلاق، لأنه سيمكنه من التخلي عن واجباته كمضيف تمامًا إذا اختار ذلك (فمن سيلاحظ غيابه، على أية حال؟)، وانكبت كيت على تصميم قناع تخرج منه ثعابين "ميدوسية" في كل اتجاه. (ولم تنجح في ذلك).

بناءً على إصرار كيت، وصل غريغوري إلى قاعة الرقص في تمام الثامنة والنصف، وهو موعد بدء الحفل المعلن. عنى ذلك، بالطبع، أن الضيوف الوحيدين الحاضرين كانوا هو وأخوه وكيت، لكن كان هناك ما يكفي من الخدم يتجولون في الأرجاء ليجعلوا المكان لا يبدو فارغًا تمامًا، وأعلن أنتوني أنه مسرور بهذا التجمع.

قال بسعادة:

– "الحفل أفضل بكثير دون تدافع الجميع في كل مكان."

سأله غريغوري وهو يلتقط كأسًا من الشمبانيا من صينية قُدمت له:

– "متى أصبحت معارضًا هكذا للتعامل الاجتماعي؟"

أجاب أنتوني بلامبالاة:

– "ليس الأمر كذلك على الإطلاق. ببساطة فقدت صبري تجاه الغباء من أي نوع."

أكدت زوجته:

– "إنه لا يتقدم في العمر بشكل جيد."

إذا كان أنتوني قد استاء من تعليقها، فهو لم يظهر ذلك. قال لـ غريغوري:

– "أنا ببساطة أرفض التعامل مع الحمقى." ثم أشرق وجهه. "لقد خفض ذلك التزاماتي الاجتماعية إلى النصف."

تمتم غريغوري بسخرية:

– "ما فائدة امتلاك لقب نبيل إذا لم يستطع المرء رفض دعواته؟"

كان رد أنتوني:

– "بالضبط. بالضبط."

التفت غريغوري إلى كيت.

– "ليس لديك اعتراضات على هذا؟"

أجابت وهي تمد عنقها لتفحص قاعة الرقص بحثًا عن أي كوارث في اللحظة الأخيرة:

– "أوه، لدي الكثير من الاعتراضات. لدي اعتراضات دائمًا."

قال أنتوني:

– "هذا صحيح. لكنها تعرف متى لا تستطيع الفوز."

التفتت كيت إلى غريغوري رغم أن كلماتها كانت موجهة بوضوح لزوجها:

– "ما أعرفه هو كيف أختار معاركي."

قال أنتوني:

– "لا تلقِ لها بالًا. تلك طريقتها فقط في الاعتراف بالهزيمة."

قالت كيت موجهة كلامها للاشيء تحديدًا:

– "ومع ذلك يستمر، رغم أنه يعلم أنني أفوز دائمًا في النهاية."

هز أنتوني كتفيه ومنح أخاه ابتسامة خجولة غير معهودة.

– "إنها محقة، بالطبع." أنهى شرابه. "لكن لا فائدة من الاستسلام دون قتال."

لم يملك غريغوري إلا أن يبتسم. لم يولد بعد أحمقان في الحب أكبر منهما. كان مشهدًا محببًا للمراقبة، حتى وإن ترك في نفسه وخزة غيرة طفيفة.

سألته كيت:

– "كيف تسير مغازلتك؟"

انتصبت أذنا أنتوني اهتمامًا.

– "مغازلتك؟" ردد، ووجهه يتخذ تعبيره المعتاد (أطيعوني ـ أنا– الفيكونت). "من هي؟"

رمق غريغوري كيت بنظرة ساخطة. لم يكن قد شارك مشاعره مع أخيه. لم يكن متأكدًا من السبب؛ بالتأكيد جزئيًا لأنه لم يرَ أنتوني كثيرًا في الأيام القليلة الماضية. لكن كان هناك المزيد. لم يبدُ الأمر وكأنه نوع الشيء الذي يرغب المرء في مشاركته مع أخيه. خاصة أخًا يتصرف كأب أكثر بكثير مما يتصرف كأخ.

ناهيك عن... إذا لم ينجح...

حسنًا، لم يكن يرغب بشكل خاص في أن تعرف عائلته.

لكنه سينجح. لماذا يشك في نفسه؟ حتى في وقت سابق، عندما كانت الآنسة واتسون لا تزال تعامله كمصدر إزعاج ثانوي، كان واثقًا من النتيجة. لم يكن من المنطقي أن يشك في نفسه فجأة الآن – ومع نمو صداقتهما.

تجاهلت كيت، كما هو متوقع، انزعاج غريغوري. وقالت لزوجها:

– "أعشق حقًا عندما لا تعرف شيئًا ما. خاصة عندما أعرفه أنا."

التفت أنتوني إلى غريغوري.

– "أنت متأكد أنك تريد الزواج من واحدة من هؤلاء؟"

أجاب غريغوري:

– "ليس تلك تحديدًا. لكن شيئًا يشبهها إلى حد ما."

بدا تعبير كيت مستاءً نوعًا ما من وصفها بـ "تلك". لكنها تعافت بسرعة، والتفتت إلى أنتوني قائلة:

– "لقد أعلن حبه لـ..." تركت إحدى يديها ترفرف في الهواء وكأنها تطرد فكرة حمقاء. "أوه، لا يهم، أعتقد أنني لن أخبرك."

كانت صياغتها مشبوهة بعض الشيء. ربما كانت تنوي إخفاء الأمر عنه منذ البداية. لم يكن غريغوري متأكدًا أيهما وجده أكثر إرضاءً – أن كيت احترمت سره أم أن أنتوني أصيب بالحيرة.

قالت كيت لـ أنتوني بابتسامة ماكرة:

– "جرب أن تخمن. هذا سيضفي على أمسيتك إحساسًا بالهدف."

التفت أنتوني إلى غريغوري بنظرة ثابتة.

– "من هي؟"

هز غريغوري كتفيه. كان دائمًا ينحاز لـ كيت عندما يتعلق الأمر بإحباط أخيه.

– "حاشاي أن أحرمك من الإحساس بالهدف."

تمتم أنتوني: "جرو متعجرف"، وعرف غريغوري أن الأمسية بدأت بداية ممتازة.



بدأ الضيوف في التوافد، وخلال ساعة، كانت قاعة الرقص تصدح بطنين المحادثات المنخفضة والضحكات. بدا الجميع أكثر جرأة قليلًا مع وجود قناع على الوجه، وسرعان ما أصبحت المزاحات أكثر تحررًا، والنكات أكثر فجاجة.

والضحك... كان من الصعب وضع الكلمة المناسبة لوصفه، لكنه كان مختلفًا. كان هناك أكثر من مجرد المرح في الأجواء. كانت هناك حدة في الإثارة، وكأن رواد الحفل عرفوا بطريقة ما أن هذه هي الليلة ليكونوا جريئين.

ليتحرروا.

لأنه في الصباح، لن يعرف أحد.

بشكل عام، كان غريغوري يحب ليالٍ كهذه.

لكن بحلول التاسعة والنصف، بدأ يشعر بالإحباط. لم يستطع أن يكون متأكدًا، لكنه كان شبه واثق أن الآنسة واتسون لم تظهر بعد. حتى مع وجود قناع، ستجد من شبه المستحيل إبقاء هويتها سرًا. كان شعرها مذهلًا جدًا، أثيريًا جدًا في ضوء الشموع، لدرجة لا تسمح لها بالمرور كشخص آخر.

أما الليدي لوسيندا، من ناحية أخرى... فلن تواجه أي مشكلة في الاندماج. كان شعرها بالتأكيد بلون أشقر عسلي جميل، لكنه لم يكن شيئًا غير متوقع أو فريدًا. نصف سيدات المجتمع المخملي ربما يملكن شعرًا بهذا اللون.

جال ببصره في أنحاء قاعة الرقص. حسنًا جدًا، ليس النصف. وربما ولا حتى الربع. لكنه لم يكن كضوء القمر المغزول الخاص بصديقتها.

عبس. كان ينبغي للآنسة واتسون أن تكون حاضرة الآن. كواحدة من ضيوف المنزل، لا حاجة لها للتعامل مع الطرق الموحلة أو الخيول العرجاء أو حتى طابور العربات الطويل المنتظر بالخارج لتوصيل الضيوف. وبينما شك في أنها كانت سترغب في الوصول مبكرًا مثله، فبالتأكيد لم تكن لتتأخر أكثر من ساعة.

وإن لم يكن لشيء آخر، فالليدي لوسيندا لم تكن لتتسامح مع ذلك. كانت بوضوح من النوع المنضبط في المواعيد.

بطريقة جيدة.

على عكس الطريقة التي لا تطاق وكثيرة التذمر.

ابتسم لنفسه. هي لم تكن كذلك.

كانت الليدي لوسيندا تشبه كيت أكثر، أو على الأقل ستكون كذلك، بمجرد أن تكبر قليلًا. ذكية، عملية، وماكرة قليلًا فقط.

ممتعة نوعًا ما، في الواقع. كانت روحها رياضية، تلك الليدي لوسيندا.

لكنه لم يرها بين الضيوف أيضًا. أو على الأقل لم يظن أنه رآها. لم يستطع التأكد تمامًا. رأى عدة سيدات بشعر يقارب لونه لون شعرها، لكن لم تبدُ أي منهن هي تمامًا. إحداهن كانت تتحرك بطريقة خاطئة – ثقيلة جدًا، وربما متثاقلة قليلًا. وأخرى كانت بالطول الخطأ. ليس خطأً فادحًا، ربما بضع بوصات فقط. لكنه استطاع التمييز.

لم تكن هي.

كانت على الأرجح حيثما تكون الآنسة واتسون. وهو ما وجده مطمئنًا إلى حد ما. لا يمكن للآنسة واتسون أن تقع في ورطة بوجود الليدي لوسيندا.

قرقرت معدته، وقرر التخلي عن بحثه في الوقت الراهن والبحث عن القوت بدلًا من ذلك. كانت كيت، كعادتها، قد وفرت تشكيلة دسمة من الطعام لضيوفها ليتناولوها خلال الأمسية. ذهب مباشرة إلى طبق الشطائر– بدت شبيهة بتلك التي قدمتها ليلة وصوله، وقد أحب تلك كثيرًا. عشر منها ستفي بالغرض.

هممم. رأى الخيار– إهدار للخبز إن كان هناك إهدار. الجبن– لا، ليس ما يبحث عنه. ربما...

– "سيد بريدجيرتون؟"

الليدي لوسيندا. سيعرف ذلك الصوت في أي مكان.

استدار. ها هي ذي. هنأ نفسه. كان محقًا بشأن الشقراوات الأخريات المقنعات. هو بالتأكيد لم يصادفها بعد هذا المساء.

اتسعت عيناها، وأدرك أن قناعها، المغطى بقماش أزرق رمادي، كان بنفس لون عينيها تمامًا. تساءل عما إذا كانت الآنسة واتسون قد حصلت على واحد مشابه باللون الأخضر.

– "إنه أنت، أليس كذلك؟"

رد قائلًا:

– "كيف عرفتِ؟"

طرفت بعينيها.

– "لا أعرف. عرفت وحسب."

ثم انفرجت شفتاها – بما يكفي فقط للكشف عن وميض صغير جدًا من الأسنان البيضاء، وقالت:

– "إنها لوسي. الليدي لوسيندا."

تمتم وهو لا يزال ينظر إلى فمها:

– "أعرف."

ما سر الأقنعة؟ كان الأمر وكأنه بتغطية الجزء العلوي، يصبح الجزء السفلي أكثر إثارة للاهتمام.

فاتنًا تقريبًا.

كيف لم يلاحظ الطريقة التي تميل بها شفتاها قليلًا جدًا للأعلى عند الزوايا؟ أو النمش على أنفها. كان هناك سبع نمشات. سبع بالتحديد، جميعها بيضاوية الشكل، باستثناء الأخيرة، التي بدت تشبه أيرلندا نوعًا ما، في الواقع.

سألته:

– "هل كنت جائعًا؟"

طرف بعينيه، وأجبر نظراته على العودة إلى عينيها.

أشارت إلى الشطائر.

– "اللحم لذيذ جدًا. وكذلك الخيار. لست عادة ميالة لشطائر الخيار – لا تبدو مشبعة أبدًا رغم أنني أحب قرمشتها – لكن هذه عليها قليل من الجبن الطري بدلًا من الزبدة فقط. كانت مفاجأة لطيفة نوعًا ما."

توقفت ونظرت إليه، مائلة برأسها إلى الجانب وهي تنتظر رده.

وابتسم. لم يملك إلا أن يفعل. كان هناك شيء مسلٍ بشكل غير عادي فيها عندما تثرثر عن الطعام.

مد يده ووضع شطيرة خيار في طبقه.

– "مع توصية كهذه، كيف لي أن أرفض؟"

– "حسنًا، اللحم لذيذ أيضًا، إذا لم تعجبك."

مرة أخرى، تشبه نفسها تمامًا. تريد للجميع أن يكونوا سعداء. جرب هذا. وإذا لم يعجبك، جرب هذا أو هذا أو هذا. وإذا لم ينجح ذلك، خذ خاصتي.

لم تقلها قط، بالطبع، لكن بطريقة ما عرف أنها ستفعل.

نظرت لأسفل إلى طبق التقديم.

– "أتمنى لو لم تكن مختلطة ببعضها."

نظر إليها بتساؤل.

– "عفوًا؟"

قالت – بتلك الـ "حسنًا" الفريدة التي تنبئ بشرح طويل ونابع من القلب:

- " حسنًا، ألا تعتقد أنه كان من المنطقي أكثر فصل أنواع الشطائر المختلفة؟ وضع كل نوع في طبقه الصغير الخاص؟ بهذه الطريقة، إذا وجدت واحدة تعجبك، ستعرف بالضبط أين تذهب للحصول على أخرى. أو..."

عند هذه النقطة ازدادت حيوية، وكأنها تهاجم مشكلة ذات أهمية مجتمعية كبرى.

- "... إذا كانت هناك أخرى أصلًا. فكر في الأمر." لوحت بيدها نحو الطبق. "قد لا تكون هناك شطيرة لحم واحدة متبقية في الكومة. ولا يمكنك نبشها جميعًا بحثًا عنها. سيكون ذلك غير مهذب للغاية."

نظر إليها بتأمل، ثم قال:

- "تحبين الأشياء أن تكون منظمة، أليس كذلك؟"

قالت بمشاعر صادقة:

- "أوه، نعم. أحب ذلك حقًا."

فكر غريغوري في طرقه الفوضوية الخاصة. يرمي الأحذية في الخزانة، يترك الدعوات مبعثرة في كل مكان... في العام الماضي، أعطى خادمه الخاص إجازة لمدة أسبوع لزيارة والده المريض، وعندما عاد الرجل المسكين، كادت الفوضى على مكتب غريغوري وحده تقضي عليه.

نظر غريغوري إلى تعبير الليدي لوسيندا الجاد وضحك بخفوت.

على الأرجح سيصيبها بالجنون في أقل من أسبوع أيضًا.

سألته بمجرد أن أخذ قضمة:

- "هل أعجبتك الشطيرة؟ الخيار؟"

تمتم:

- "مثيرة للاهتمام جدًا."

- "أتساءل، هل يُفترض بالطعام أن يكون مثيرًا للاهتمام؟"

أنهى الشطيرة.

- "لست متأكدًا."

أومأت بشرود، ثم قالت:

- "اللحم لذيذ."

غرقا في صمت ودي وهما يجيلان النظر عبر الغرفة. كان الموسيقيون يعزفون فالسًا حيويًا، وكانت تنانير السيدات تنتفخ كأجراس حريرية وهن يدرن ويلتففن. كان من المستحيل مشاهدة المشهد وعدم الشعور بأن الليلة نفسها حية... متململة بطاقة... تنتظر القيام بخطوتها.

شيء ما سيحدث هذه الليلة. كان غريغوري واثقًا من ذلك.

حياة شخص ما ستتغير.

إذا كان محظوظًا، ستكون حياته.

بدأت يداه توخزانه. وقدماه أيضًا. كان يتطلب الأمر كل ما لديه لمجرد الوقوف ساكنًا. أراد التحرك، أراد فعل شيء ما. أراد وضع حياته قيد الحركة، مد يده والقبض على أحلامه.

أراد التحرك. لم يستطع الوقوف ساكنًا. هو...

- "هل تود الرقص؟"

لم يقصد أن يسأل. لكنه استدار، وكانت لوسي هناك بجانبه تمامًا، والكلمات تدفقت وحسب.

أضاءت عيناها. حتى مع القناع، استطاع رؤية أنها مبتهجة.

قالت وهي تكاد تتنهد:

- "نعم. أحب الرقص."

أخذ يدها وقادها إلى حلبة الرقص. كان الفالس في أوجه، وسرعان ما وجدا مكانهما في الموسيقى. بدا أنها ترفعهما، وتصهرهما كواحد. لم يحتج غريغوري إلا للضغط بيده على خصرها، فتحركت، تمامًا كما توقع. دارا، والتفا، والهواء يندفع عبر وجهيهما بسرعة كبيرة لدرجة اضطرتهما للضحك.

كان الأمر مثاليًا. كان يخطف الأنفاس. كان وكأن الموسيقى تسللت تحت جلديهما وتوجه كل حركة لهما.

ثم انتهى الأمر.

بسرعة كبيرة. بسرعة أكبر من اللازم. انتهت الموسيقى، وللحظة وقفا، لا يزالان بين أذرع بعضهما، لا يزالان ملفوفين في ذكرى الموسيقى.

قالت الليدي لوسيندا وعيناها تلمعان:

– "أوه، كان ذلك جميلًا."

أفلتها غريغوري وانحنى.

– "أنتِ راقصة رائعة، يا ليدي لوسيندا. كنت أعرف أنكِ ستكونين كذلك."

– "شكرًا لك، أنا..." اتجهت عيناها بسرعة لعينيه. "كنت تعرف؟"

– "أنا..."

لماذا قال ذلك؟ لم يقصد قول ذلك.

قال أخيرًا وهو يقودها عائدًا إلى محيط قاعة الرقص:

– "أنتِ رشيقة جدًا."

أكثر رشاقة بكثير من الآنسة واتسون، في الواقع، رغم أن ذلك كان منطقيًا بالنظر لما قالته لوسي عن قدرة صديقتها على الرقص.

أضاف، بما أنها بدت تتوقع تفسيرًا أكثر تفصيلًا:

– "يظهر ذلك في طريقة مشيك."

وكان على ذلك أن يفي بالغرض، لأنه لم يكن بصدد فحص الفكرة أكثر من ذلك.

– "أوه."

وتحركت شفتاها. قليلًا فقط. لكن ذلك كان كافيًا. وصدمته الفكرة – بدت سعيدة. وأدرك أن معظم الناس لا يبدون كذلك. يبدون مستمتعين، أو مسلين، أو راضين.

بدت الليدي لوسيندا سعيدة.

أحب ذلك نوعًا ما.

قالت وهي تنظر يمينًا ويسارًا:

– "أتساءل أين هيرميون."

سأل غريغوري متفاجئًا:

– "ألم تصل معكِ؟"

– "بلى. لكننا رأينا ريتشارد. وطلب منها الرقص. ليس لأنه واقع في حبها،" أضافت بتأكيد كبير، "بل كان مجرد تهذيب. هذا ما يفعله المرء لصديقات أخته."

ذكرها قائلًا:

– "لدي أربع أخوات. أعرف ذلك."

لكنه تذكر حينها.

– "ظننت أن الآنسة واتسون لا ترقص."

– "هي لا تفعل. لكن ريتشارد لا يعرف ذلك. لا أحد يعرف. باستثنائي. وأنت."

نظرت إليه ببعض الإلحاح.

– "أرجوك لا تخبر أحدًا. أتوسل إليك. ستموت هيرميون خجلًا."

وعدها:

– "شفتي مطبقتان."

قالت لوسي، وهي تميل قليلًا لجانب واحد محاولة لمح طاولة عصير الليمون:

– "أتخيل أنهما ذهبا لإيجاد شيء للشرب. أبدت هيرميون ملاحظة حول شعورها بالحر. إنه عذرها المفضل. ينجح دائمًا تقريبًا عندما يطلب أحدهم منها الرقص."

قال غريغوري متابعًا نظراتها:

– "لا أراهما."

– "لا، لن تراهما."

التفتت لتواجهه، وهي تهز رأسها قليلًا.

– "لا أعرف لماذا كنت أنظر. لقد مر وقت طويل."

– "أطول مما يستغرقه ارتشاف مشروب؟"

ضحكت بخفوت.

– "لا، هيرميون تستطيع جعل كأس عصير الليمون يدوم لأمسية كاملة عندما تحتاج لذلك. لكن أعتقد أن ريتشارد كان سيفقد صبره."

كان رأي غريغوري أن شقيقها سيقطع ذراعه اليمنى بسعادة لمجرد فرصة التحديق في الآنسة واتسون بينما تتظاهر بشرب عصير الليمون، لكن لم تكن هناك فائدة ترجى من محاولة إقناع لوسي بذلك.

قالت لوسي، وهي غير قلقة بوضوح:

– "أتخيل أنهما قررا التمشية قليلًا."

لكن غريغوري شعر فورًا بعدم الارتياح.

– "في الخارج؟"

هزت كتفيها.

– "أفترض ذلك. هما بالتأكيد ليسا هنا في قاعة الرقص. هيرميون لا يمكنها الاختباء في حشد. شعرها، كما تعلم."

ضغط غريغوري:

– "لكن هل تعتقدين أنه من الحكمة لهما أن يكونا وحدهما؟"

نظرت إليه الليدي لوسيندا وكأنها لا تفهم تمامًا الإلحاح في صوته.

– "ليسا وحدهما تمامًا. هناك عشرون شخصًا على الأقل في الخارج. نظرت عبر الأبواب الفرنسية."

أجبر غريغوري نفسه على الوقوف ساكنًا تمامًا بينما يفكر فيما يجب فعله. من الواضح أنه بحاجة للعثور على الآنسة واتسون، وبسرعة، قبل أن تتعرض لأي شيء قد يُعتبر غير قابل للإصلاح.

غير قابل للإصلاح.

يا إلهي.

حياة البشر قد تنقلب في لحظة واحدة. إذا كانت الآنسة واتسون حقًا في الخارج مع شقيق لوسي... إذا ضبطهما أحد...

بدأت حرارة غريبة تتصاعد بداخله، شيء غاضب وغيور وغير سار بالمرة. الآنسة واتسون قد تكون في خطر... أو قد لا تكون. ربما ترحب بتقدمات فينسوورث...

لا. لا، هي لا تفعل. كاد يجبر الفكرة على النزول في حلقه بالقوة. الآنسة واتسون تظن أنها واقعة في حب ذلك السيد إدموندز السخيف، أيًا كان. لن ترحب بتقدمات من غريغوري أو اللورد فينسوورث.

لكن هل اغتنم شقيق لوسي فرصة فوتها هو؟ الأمر يثير الحنق، يستقر في صدره كقذيفة مدفع ساخنة – هذا الشعور، هذه العاطفة، هذا الشيء اللعين... الفظيع... المقرف...

– "سيد بريدجيرتون؟"

بغيض. بغيض بالتأكيد.

– "سيد بريدجيرتون، هل هناك خطب ما؟"

حرك رأسه البوصة المطلوبة لمواجهة الليدي لوسيندا، ولكن حتى مع ذلك، استغرق الأمر عدة ثوانٍ ليركز على ملامحها. كانت عيناها قلقتين، وفمها مضغوط في خط متوتر.

قالت:

– "لا تبدو بخير."

صرّ على أسنانه:

– "أنا بخير."

– "ولكن..."

انفجر فيها تقريبًا:

– "بخير."

تراجعت للخلف.

– "بالطبع أنت كذلك."

كيف فعلها فينسوورث؟ كيف استدرج الآنسة واتسون لتنفرد به؟ لا يزال غرًا، بحق السماء، بالكاد تخرج من الجامعة ولم ينزل للندن قط. وغريغوري كان... حسنًا، أكثر خبرة من ذلك.

كان ينبغي عليه أن يكون أكثر انتباهًا.

ما كان ينبغي له أبدًا أن يسمح بهذا.

قالت لوسي وهي تبتعد ببطء:

– "ربما سأبحث عن هيرميون. أستطيع أن أرى أنك تفضل أن تكون وحدك."

اندفع قائلًا، بقوة أكبر مما تقتضيه اللباقة:

– "لا. سأنضم إليكِ. سنبحث معًا."

– "هل تعتقد أن هذا حكيم؟"

– "لماذا لا يكون حكيمًا؟"

– "أنا... لا أعرف." توقفت، حدقت فيه بعينين واسعتين غير رامشتين، وقالت أخيرًا: "أنا فقط لا أعتقد أنه كذلك. أنت نفسك شككت للتو في حكمة ذهاب ريتشارد وهيرميون معًا."

– "أنتِ بالتأكيد لا تستطيعين تفتيش المنزل بمفردك."

قالت وكأنه أحمق لمجرد اقتراحه ذلك:

– "بالطبع لا. كنت سأعثر على الليدي بريدجيرتون."

كيت؟ يا إلهي.

قال بسرعة:

– "لا تفعلي ذلك." وربما ببعض الازدراء أيضًا، رغم أن ذلك لم يكن نيته.

لكنها بوضوح استاءت لأن صوتها كان مقتضبًا وهي تسأل:

– "ولم لا؟"

مال نحوها، نبرته منخفضة وملحة:

- "إذا عثرت عليهما كيت، ولم يكونا كما ينبغي لهما أن يكونا، فسيتزوجان في أقل من أسبوعين. تذكري كلماتي."

همسهست قائلة:

- "لا تكن سخيفاً. بالطبع سيكونان كما ينبغي."

فاجأه ذلك، في الواقع، لأنه لم يخطر بباله أبدًا أنها قد تدافع عن نفسها بمثل هذه القوة.

تابعت بغضب:

- "هيرميون لن تتصرف أبدًا بطريقة غير لائقة، ولا ريتشارد كذلك، في هذا الصدد. إنه أخي. أخي."

قال غريغوري ببساطة:

- "إنه يحبها."

- "لا. هو. لا. يفعل." يا إلهي، بدت مستعدة للانفجار. "وحتى لو فعل،" استمرت في ثورتها، "وهو لا يفعل، فلن يلطخ شرفها أبدًا. أبدًا. لن يفعل. لن يفعل..."

- "لن يفعل ماذا؟"

ابتلعت ريقها.

- "لن يفعل ذلك بي."

لم يصدق غريغوري سذاجتها.

- "إنه لا يفكر فيكِ يا ليدي لوسيندا. في الواقع، أعتقد أنه من الآمن القول إنكِ لم تخطري بباله ولو مرة واحدة."

- "هذا شيء فظيع لقوله."

هز غريغوري كتفيه.

- "إنه رجل عاشق. وبالتالي، هو رجل فاقد للإدراك."

ردت بحدة:

- "أوه، هل هكذا تسير الأمور؟ هل يجعلك هذا فاقدًا للإدراك أيضًا؟"

قال باقتضاب:

– "لا."

وأدرك أن هذا صحيح بالفعل. لقد اعتاد بالفعل على هذا الشغف الغريب. استعاد توازنه. وكرجل ذي خبرة أكبر بكثير، كان، حتى عندما لا تكون الآنسة واتسون هي القضية، أكثر قدرة على امتلاك صوابه من فينسوورث.

منحته الليدي لوسيندا نظرة نفاد صبر وازدراء.

– "ريتشارد ليس واقعًا في حبها. لا أعرف كم طريقة يمكنني شرح ذلك لك بها."

قال بحزم:

– "أنتِ مخطئة."

كان يراقب فينسوورث ليومين. كان يراقبه وهو يراقب الآنسة واتسون. يضحك على نكاتها. يحضر لها شرابًا باردًا.

يقطف زهرة برية، ويدسها خلف أذنها.

إذا لم يكن ذلك حبًا، فإن ريتشارد أبيرناثي هو الأخ الأكبر الأكثر انتباهًا، ورعاية، وإيثارًا في تاريخ البشرية.

وكأخ أكبر هو نفسه – واحد أُجبر مرارًا على خدمة وصداقة صديقات أخواته – يستطيع غريغوري القول بشكل قاطع إنه لا يوجد أخ أكبر بمثل هذه المستويات من المراعاة والتفاني.

المرء يحب أخته، بالطبع، لكنه لا يضحي بكل دقيقة من يقظته لأجل أعز صديقاتها دون نوع من المقابل.

إلا إذا كان حب مثير للشفقة ومن طرف واحد هو عامل في المعادلة.

قالت الليدي لوسيندا، وهي تبدو وكأنها تود بشدة عقد ذراعيها:

– "أنا لست مخطئة. وسأحضر الليدي بريدجيرتون."

أطبق غريغوري يده حول معصمها.

– "سيكون ذلك خطأً ذا أبعاد هائلة."

جذبت يدها، لكنه لم يفلتها. هسهست:

– "لا تتعالَ عليّ."

– "أنا لا أتعالى. أنا أرشدك."

سقط فكها مفتوحًا. حقًا، وصدقًا، مفتوحًا بدهشة تامة.

كان غريغوري سيستمتع بالمشهد، لولا أنه كان غاضبًا جدًا من كل شيء آخر في العالم في تلك اللحظة.

قالت، بمجرد أن تمالكت نفسها:

– "أنت لا تُطاق."

هز كتفيه.

– "أحيانًا."

– "وواهم."

– "أحسنتِ يا ليدي لوسيندا." كواحد من ثمانية إخوة، لم يملك غريغوري إلا أن يعجب بأي رد أو تعليق ذكي في محله. "لكن كنت سأكون أكثر ميلًا للإعجاب بمهاراتك اللفظية لو لم أكن أحاول منعك من القيام بشيء غبي بشكل هائل."

نظرت إليه بعينين ضيقتين، ثم قالت:

– "لا أرغب في التحدث إليك بعد الآن."

– "أبدًا؟"

أعلنت:

– "سأحضر الليدي بريدجيرتون."

– "ستحضرينني؟ ما المناسبة؟"

كان ذلك آخر صوت أراد غريغوري سماعه.

استدار. كانت كيت تقف أمامهما، تراقب المشهد بحاجب واحد مرفوع.

لم يتحدث أحد.

نظرت كيت بوضوح إلى يد غريغوري، التي لا تزال على معصم الليدي لوسيندا. أسقطها، متراجعًا بسرعة للخلف.

سألت كيت، وصوتها بذلك المزيج المريع والمثالي من الاستفسار المثقف والسلطة الأخلاقية:

– "هل هناك شيء يجب أن أعرف عنه؟"

تذكر غريغوري أن زوجة أخيه يمكن أن تكون ذات حضور مهيب عندما تختار ذلك.

تحدثت الليدي لوسيندا – بالطبع – فورًا.

– "السيد بريدجيرتون يبدو أنه يشعر بأن هيرميون قد تكون في خطر."

تغير سلوك كيت على الفور.

– "خطر؟ هنا؟"

تمتم غريغوري:

– "لا."

رغم أن ما عناه حقًا هو: سأقتلك. يا ليدي لوسيندا، على وجه التحديد.

تابعت الحمقاء المزعجة:

– "لم أرها منذ بعض الوقت. وصلنا معًا، لكن ذلك كان قبل ساعة تقريبًا."

جالت كيت ببصرها، واستقر نظرها أخيرًا على الأبواب المؤدية للخارج.

– "ألا يمكن أن تكون في الحديقة؟ الكثير من الحفل انتقل للخارج."

هزت الليدي لوسيندا رأسها.

– "لم أرها. لقد بحثت."

لم يقل غريغوري شيئًا. كان الأمر وكأنه يشاهد العالم يتدمر أمام عينيه. وحقًا، ماذا عساه يقول ليوقف ذلك؟

قالت كيت:

– "ليست في الخارج؟"

قالت الليدي لوسيندا، بأسلوب رسمي نوعًا ما:

– "لم أظن أن هناك خطبًا ما. لكن السيد بريدجيرتون قلق على الفور."

– "كان كذلك؟" اتجه رأس كيت ليواجهه. "كنت كذلك؟ لماذا؟"

تمتم غريغوري:

– "هل يمكننا التحدث في هذا في وقت آخر؟"

تجاهلته كيت فورًا ونظرت مباشرة إلى لوسي.

– "لماذا كان قلقًا؟"

ابتلعت لوسي ريقها. ثم همست:

– "أعتقد أنها قد تكون مع أخي."

امتقع وجه كيت.

– "هذا ليس جيدًا."

أصرت لوسي:

– "ريتشارد لن يفعل أبدًا أي شيء غير لائق. أعدك."

قالت كيت:

– "إنه واقع في حبها."

لم يقل غريغوري شيئًا. لم يكن للشعور بصحة موقفه طعم أقل حلاوة من هذا قط.

نظرت لوسي من كيت إلى غريغوري، وتعبيرها يكاد يلامس حدود الذعر. همست:

– "لا. لا، أنتم مخطئون."

قالت كيت بصوت جاد:

– "لست مخطئة. ونحن بحاجة للعثور عليهما. بسرعة."

استدارت ومشت فورًا نحو الباب. تبعها غريغوري، وخطواته الطويلة تجاريها بسهولة. بدت الليدي لوسيندا متجمدة للحظة، ثم قفزت للعمل، وهرعت خلفهما. قالت بإلحاح:

– "لن يفعل أبدًا أي شيء ضد إرادة هيرميون. أعدك."

توقفت كيت. استدارت. نظرت إلى لوسي، وتعبيرها صريح وربما حزين قليلًا أيضًا، وكأنها أدركت أن الشابة الأصغر كانت، في تلك اللحظة، تفقد قليلًا من براءتها، وأنها هي، كيت، نادمة لكونها من يوجه الضربة.

قالت كيت بهدوء:

– "قد لا يضطر لذلك."

إجبارها. لم تقلها كيت، لكن الكلمات ظلت معلقة في الهواء رغم ذلك.

– "قد لا يضطر لـ... ماذا تـ..."

رأى غريغوري اللحظة التي أدركت فيها الأمر. عيناها، المتغيرتان دائمًا، لم تبدوا رماديتين أكثر من تلك اللحظة.

مفجوعتين.

همست لوسي:

– "يجب أن نجدهما."

أومأت كيت، وغادر الثلاثة الغرفة في صمت.





الفصل العاشر

حيث ينتصر الحب—

لكن ليس لبطلنا وبطلتنا.



تبعت لوسي الليدي بريدجيرتون وغريغوري إلى الردهة، محاولة كبح القلق الذي شعرت به يتصاعد بداخلها. كانت معدتها تتقلص بغرابة، وأنفاسها غير منتظمة تمامًا.

ولم يصفُ ذهنها كما ينبغي. كانت بحاجة للتركيز على الأمر الحالي. أدركت ضرورة توجيه كامل انتباهها للبحث، لكن بدا وكأن جزءًا من عقلها ينسحب بعيدًا—دوارًا، مذعورًا، وعاجزًا عن الهروب من شعور مريع بالنذير السيء.

وهو ما لم تفهمه. ألم ترغب في زواج هيرميون من شقيقها؟ ألم تخبر السيد بريدجيرتون للتو أن هذه الزيجة، رغم عدم احتماليتها، ستكون رائعة؟ ستصبح هيرميون أختها بالاسم، لا بالشعور فقط، ولم تستطع لوسي تخيل شيء أكثر ملاءمة من ذلك.

لكنها مع ذلك، شعرت...

بعدم الارتياح.

وبقليل من الغضب أيضًا.

وبالشعور بالذنب. بالطبع. فبأي حق تشعر بالغضب؟

وجههم السيد بريدجيرتون بمجرد أن انعطفوا في عدة زوايا وتلاشت أصوات الحفل التنكري في البعيد:

– "يجب أن نبحث بشكل منفصل."

انتزع قناعه، وتبعت السيدتان حذوه، تاركين الأقنعة الثلاثة على طاولة مصباح صغيرة موضوعة في فجوة غائرة في الردهة.

هزت الليدي بريدجيرتون رأسها:

– "لا يمكننا ذلك. بالتأكيد لا يمكنك العثور عليهما بمفردك. لا أرغب حتى في التفكير بعواقب وجود الآنسة واتسون بمفردها مع رجلين غير متزوجين."

ناهيك عن رد فعله هو، فكرت لوسي. بدا السيد بريدجيرتون لها رجلًا هادئ الطباع؛ لكنها لم تكن واثقة من أنه سيتمكن من العثور على الاثنين بمفردهما دون أن يظن أنه مضطر للتفوه بخطب عن الشرف والدفاع عن الفضيلة، وهو ما يؤدي دائمًا للكوارث. دائمًا. ومع الأخذ في الاعتبار عمق مشاعره تجاه هيرميون، قد يكون رد فعله أقل شرفًا وفضيلة وأكثر غضبًا وغيرة.

والأسوأ من ذلك، أنه بينما قد يفتقر السيد بريدجيرتون للقدرة على إطلاق رصاصة مستقيمة، لم تشك لوسي في قدرته على تسديد لكمة تزرع كدمة سوداء حول العين بسرعة قاتلة.

تابعت الليدي بريدجيرتون وهي تشير نحو لوسي:

– "وهي لا يمكنها البقاء وحدها. المكان مظلم. وفارغ. والسادة يرتدون أقنعة، بحق السماء. إنها تُضعف الوازع الأخلاقي."

أضافت لوسي:

– "أنا لن أعرف أين أبحث أيضًا."

كان منزلًا ضخمًا. قضت هناك ما يقرب من أسبوع، لكنها شكت في أنها رأت حتى نصفه.

قالت الليدي بريدجيرتون بحزم:

– "سنبقى معًا."

بدا السيد بريدجيرتون وكأنه يريد المجادلة، لكنه كبح جماح غضبه وقال بحدة:

– "حسنًا. لن نضيع الوقت إذن."

انطلق بخطى واسعة، ساقاه الطويلتان تفرضان إيقاعًا لن تجد أي من المرأتين سهولة في مجاراته.

فتح الأبواب بعنف وتركها مفتوحة جزئيًا، مدفوعًا برغبة عارمة للوصول للغرفة التالية تمنعه من ترك الأشياء كما وجدها. هرولت لوسي خلفه، متفقدة الغرف على الجانب الآخر من الردهة. كانت الليدي بريدجيرتون تسبقها قليلًا، تفعل الشيء نفسه.

– "أوه!"

قفزت لوسي للخلف، وأغلقت الباب بقوة.

سأل السيد بريدجيرتون بحدة:

– "هل وجدتِهما؟"

تحرك هو والليدي بريدجيرتون فورًا إلى جانبها.

قالت لوسي وهي تحمر خجلًا بجنون:

– "لا." ابتلعت ريقها. "شخص آخر."

أنت الليدي بريدجيرتون:

– "يا إلهي. أرجوكِ قولي إنها لم تكن آنسة غير متزوجة."

فتحت لوسي فمها، لكن مرت عدة ثوانٍ قبل أن تقول:

– "لا أعرف. الأقنعة، تدركين ذلك."

سألت الليدي بريدجيرتون:

– "كانا يرتديان أقنعة؟ إنهما متزوجان إذن. وليس من بعضهما البعض."

أرادت لوسي بشدة أن تسأل كيف توصلت لهذا الاستنتاج، لكنها لم تستطع حمل نفسها على فعل ذلك، وفضلًا عن ذلك، شتت السيد بريدجيرتون

أفكارها تمامًا بقطعه الطريق أمامها وفتحه الباب بقوة. شق صرخة نسائية الهواء، تلاها صوت رجولي غاضب يتفوه بكلمات لم تجرؤ لوسي على تكرارها.

دمدم السيد بريدجيرتون:

- "آسف. واصلا."

أغلق الباب وأعلن:

- "مورلي، وزوجة وينستيد."

قالت الليدي بريدجيرتون وشفتها تنفرج بدهشة:

- "أوه. لم تكن لدي أي فكرة."

سألت لوسي:

- "ألا ينبغي أن نفعل شيئًا؟"

يا للسماء، هناك أناس يرتكبون الزنا على بعد أقل من عشرة أقدام منها.

قال السيد بريدجيرتون بعبوس:

- "هذه مشكلة وينستيد. لدينا أمورنا الخاصة للاهتمام بها."

تسمرت قدما لوسي في مكانها بينما انطلق هو مجددًا عبر الردهة. ألقت الليدي بريدجيرتون نظرة على الباب، وبدا عليها رغبة شديدة في فتحه واختلاس النظر للداخل، لكنها تنهدت في النهاية وتبعت شقيق زوجها.

ظلت لوسي تحدق في الباب، محاولة معرفة ما الذي يزعج عقلها بالضبط. الزوجان على الطاولة—على الطاولة، بحق الله—كانا صدمة، لكن شيئًا آخر كان يضايقها. شيء ما في المشهد لم يكن صحيحًا تمامًا. في غير محله. خارج السياق.

أو ربما كان شيئًا يثير ذكرى ما.

ماذا كان؟

نادت الليدي بريدجيرتون:

- "هل أنتِ قادمة؟"

أجابت لوسي:

– "نعم."

ثم استغلت براءتها وصغر سنها وأضافت:

– "الصدمة، تعلمين. أحتاج فقط للحظة."

رمقتها الليدي بريدجيرتون بنظرة متعاطفة وأومأت، لكنها واصلت عملها، مفتشة الغرف على الجانب الأيسر من الردهة.

ماذا رأت؟ كان هناك الرجل والمرأة بالطبع، والطاولة المذكورة آنفًا. كرسيان، ورديان. أريكة واحدة، مخططة. وطاولة جانبية، عليها مزهرية زهور مقطوفة...

الزهور.

هذا هو.

عرفت أين هما.

إذا كانت مخطئة والجميع على حق، وكان شقيقها واقعًا في حب هيرميون حقًا، فهناك مكان واحد فقط كان ليأخذها إليه لمحاولة إقناعها بمبادلته المشاعر.

مشتل البرتقال. كان على الجانب الآخر من المنزل، بعيدًا عن قاعة الرقص. وكان مليئًا، ليس فقط بأشجار البرتقال، بل بالزهور. نباتات استوائية رائعة لا بد أنها كلفت اللورد بريدجيرتون ثروة لاستيرادها. بساتين الفاكهة الأنيقة. ورود نادرة. وحتى زهور برية متواضعة، جُلبت وأعيدت زراعتها بعناية وتفانٍ.

لا يوجد مكان أكثر رومانسية تحت ضوء القمر، ولا مكان يشعر فيه شقيقها بالراحة أكثر. كان يحب الزهور. لطالما أحبها، وكان يمتلك ذاكرة مذهلة لأسمائها، العلمية والشائعة. كان دائمًا يلتقط شيئًا ما، ويسرد معلومة صغيرة عنه—هذه تتفتح فقط في ضوء القمر، وتلك قريبة لنبتة ما جلبت من آسيا. كانت لوسي تجد الأمر مملًا بعض الشيء دائمًا، لكنها أدركت كيف يمكن أن يبدو رومانسيًا، لو لم يكن المتحدث شقيقها.

نظرت نحو الردهة. توقف آل بريدجيرتون للتحدث مع بعضهم البعض، واستطاعت لوسي أن ترى من وضعياتهم أن المحادثة كانت مشحونة.

أليس من الأفضل أن تكون هي من يجدهما؟ دون أي من آل بريدجيرتون؟

إذا وجدتهما لوسي، يمكنها تحذيرهما وتفادي الكارثة. إذا أرادت هيرميون الزواج من شقيقها... حسنًا، ليكن خيارها، لا شيئًا تضطر لفعله لأنها ضُبطت على حين غرة.

كانت لوسي تعرف الطريق لمشتل البرتقال. يمكنها أن تكون هناك في دقائق.

خطت خطوة حذرة للخلف باتجاه قاعة الرقص. لم يبدُ أن غريغوري أو الليدي بريدجيرتون قد لاحظاها.

اتخذت قرارها.

ست خطوات هادئة، متراجعة بحذر نحو الزاوية. ثم—ألقت نظرة أخيرة سريعة عبر الردهة—وخرجت عن الأنظار.

وركضت.

رفعت تنانيرها وركضت كالريح، أو على الأقل، بأقصى سرعة ممكنة في ثوبها المخملي الثقيل. لم تكن لديها فكرة عن الوقت المتاح قبل أن يلاحظ آل بريدجيرتون غيابها، وبينما لن يعرفوا وجهتها، لم يكن لديها شك في أنهم سيجدونها. كل ما كان على لوسي فعله هو العثور على هيرميون وريتشارد أولًا. إذا تمكنت من الوصول إليهما، وتحذيرهما، يمكنها دفع هيرميون خارج الباب والادعاء أنها عثرت على ريتشارد بمفرده.

لن يكون لديها الكثير من الوقت، لكنها تستطيع فعلها. كانت تعلم أنها تستطيع.

وصلت لوسي إلى القاعة الرئيسية، مبطئة وتيرتها قدر ما تجرأت أثناء عبورها. كان هناك خدم، وربما قليل من الضيوف المتأخرين أيضًا، ولم تستطع تحمل إثارة الشكوك بالركض.

تسللت خارجة وإلى الردهة الغربية، وتزحلقت عند الزاوية وهي تنطلق مجددًا ركضًا. بدأت رئتاها تحترقان، وأصبحت بشرتها رطبة بالعرق تحت ثوبها. لكنها لم تبطئ. لم يعد المكان بعيدًا الآن. يمكنها فعلها.

كانت تعلم أنها تستطيع.

كان عليها ذلك.

ثم، وبشكل مذهل، كانت هناك، عند الأبواب المزدوجة الثقيلة المؤدية لمشتل البرتقال. هبطت يدها بثقل على أحد المقابض، وكانت تنوي إدارته، لكن بدلًا من ذلك وجدت نفسها منحنية، تكافح لالتقاط أنفاسها.

لسعت عيناها، وحاولت الوقوف، لكن عندما فعلت ضربها ما يشبه جدارًا من الذعر. كان ماديًا، ملموسًا، واندفع نحوها بسرعة كبيرة لدرجة اضطرتها للتشبث بالجدار للدعم.

يا إلهي، لم تكن تريد فتح ذلك الباب. لم تكن تريد رؤيتهما. لم تكن تريد معرفة ما كانا يفعلانه، ولا كيف أو لماذا. لم تكن تريد هذا، أيًا من هذا. أرادت عودة كل شيء كما كان، قبل ثلاثة أيام فقط.

ألا يمكنها استعادة ذلك؟ ثلاثة أيام فقط. ثلاثة أيام، وستكون هيرميون لا تزال واقعة في حب السيد إدموندز، وهو ما لم يكن مشكلة حقًا بما أن شيئًا لن ينتج عنه، وستكون لوسي لا تزال—

ستكون لا تزال نفسها، سعيدة وواثقة، ومخطوبة عمليًا فقط.

لماذا كان يجب أن يتغير كل شيء؟ كانت حياة لوسي مقبولة تمامًا كما كانت. كل شخص في مكانه، وكل شيء في نظام مثالي، ولم تكن مضطرة للتفكير بجدية في كل شيء. لم تكن تهتم بما يعنيه الحب أو كيف يشعر المرء به، ولم يكن شقيقها يتوق سرًا لصديقتها المفضلة، وكان زفافها خطة ضبابية للمستقبل، وكانت سعيدة. كانت سعيدة.

وأرادت استعادة كل ذلك.

أمسكت المقبض بقوة أكبر، حاولت إدارته، لكن يدها لم تتحرك. كان الذعر لا يزال هناك، يجمد عضلاتها، ويضغط على صدرها. لم تستطع التركيز. لم تستطع التفكير.

وبدأت ساقاها ترتجفان.

أوه، يا إلهي، ستسقط. هناك في الردهة، على بعد بوصات من هدفها، ستنهار على الأرض. ثم—

– "لوسي!"

كان السيد بريدجيرتون، وكان يركض نحوها، وخطر ببالها أنها فشلت.

لقد فشلت.

لقد وصلت للمشتل. وصلت في الوقت المناسب، لكنها وقفت عند الباب. مثل بلهاء، وقفت هناك، وأصابعها على المقبض اللعين و—

– "يا إلهي يا لوسي، بماذا كنتِ تفكرين؟"

أمسكها من كتفيها، ومالت لوسي مستندة إلى قوته. أرادت السقوط فيه والنسيان. همست:

– "أنا آسفة. أنا آسفة."

لم تكن تعرف علامَ تعتذر، لكنها قالتها على أي حال.

قال وصوته يبدو مختلفًا. مبحوحًا:

– "هذا ليس مكانًا لامرأة بمفردها. الرجال كانوا يشربون. يستخدمون الأقنعة كرخصة لـ..."

صمت. ثم—

– "الناس ليسوا على طبيعتهم."

أومأت، ورفعت بصرها أخيرًا، ساحبة عينيها من الأرض إلى وجهه. ثم رأته. رأته فقط. وجهه، الذي أصبح مألوفًا جدًا لها. بدت وكأنها تعرف كل ملمح، من التجعد الطفيف لشعره إلى الندبة الصغيرة قرب أذنه اليسرى.

ابتلعت ريقها. تنفست. ليس تمامًا كما يفترض بها، لكنها تنفست. أبطأ، وأقرب للطبيعي.

قالت مرة أخرى:

– "أنا آسفة." لأنها لم تعرف ماذا تقول غير ذلك.

أقسم قائلًا وهو يتفحص وجهها بعينين ملحتين:

– "يا إلهي.. ما الذي حدث لكِ؟ هل أنتِ بخير؟ هل قام أحدهم..."

ارتخت قبضته قليلًا وهو ينظر حوله بذعر.

– "من فعل هذا؟ من جعلكِ..."

هزت لوسي رأسها:

– "لا. لم يكن أحدًا. كنت أنا فقط. أنا—أردت العثور عليهما. ظننت أنني لو—حسنًا، لم أرد لك أن—ثم أنا—ثم وصلت هنا، وأنا..."

تحركت عينا غريغوري بسرعة إلى أبواب المشتل:

– "هل هما في الداخل؟"

اعترفت لوسي:

– "لا أعرف. أظن ذلك. لم أستطع..."

بدأ الذعر ينحسر أخيرًا، يكاد يختفي حقًا، وبدا الأمر كله سخيفًا جدًا الآن. شعرت بغباء شديد. وقفت هناك عند الباب، ولم تفعل شيئًا. لا شيء.

همست أخيرًا:

– "لم أستطع فتح الباب."

لأنها كان عليها إخباره. لم تستطع شرح الأمر—لم تفهمه هي حتى—لكن كان عليها إخباره بما حدث.

لأنه وجدها.

وذلك صنع الفرق.

– "غريغوري!"

اقتحمت الليدي بريدجيرتون المشهد، مصطدمة بهما عمليًا، ومن الواضح تمامًا أنها تلهث من محاولة اللحاق بهما.

– "ليدي لوسيندا! لماذا—هل أنتِ بخير؟"

بدت قلقة جدًا لدرجة جعلت لوسي تتساءل كيف تبدو. شعرت بالشحوب. شعرت بصغر حجمها في الواقع، لكن ما الذي يمكن أن يكون في وجهها ليجعل الليدي بريدجيرتون تنظر إليها بمثل هذا القلق الواضح.

قالت لوسي، مرتادة لأنها لم ترها كما رآها السيد بريدجيرتون:

- "أنا بخير. فقط مضطربة قليلًا. أعتقد أنني ركضت بسرعة كبيرة. كان تصرفًا أحمق مني. أنا آسفة."

- "عندما التفتنا وكنتِ قد اختفيتِ—"

بدت الليدي بريدجيرتون وكأنها تحاول أن تكون حازمة، لكن القلق كان يغضن جبينها، وعيناها كانتا لطيفتين للغاية.

أرادت لوسي البكاء. لم ينظر إليها أحد هكذا من قبل. هيرميون أحبتها، ووجدت لوسي عزاءً كبيرًا في ذلك، لكن هذا كان مختلفًا. لم تكن الليدي بريدجيرتون أكبر منها بكثير—عشر سنوات، ربما خمس عشرة—لكن الطريقة التي كانت تنظر بها إليها...

كان الأمر يكاد يشبه وجود أم.

كان ذلك للحظة فقط. بضع ثوانٍ حقًا، لكنها استطاعت التظاهر. وربما التمني، قليلًا فقط.

أسرعت الليدي بريدجيرتون واضعة ذراعًا حول كتفي لوسي، وسحبتها بعيدًا عن غريغوري، الذي سمح لذراعيه بالعودة لجانبيه. سألت:

- "هل أنتِ متأكدة من أنكِ بخير؟"

أومأت لوسي:

- "أنا كذلك. الآن."

نظرت الليدي بريدجيرتون إلى غريغوري. أومأ. مرة واحدة.

لم تعرف لوسي ماذا يعني ذلك.

قالت لوسي، وهي غير متأكدة تمامًا مما شاب صوتها—استسلام أم ندم:

- "أعتقد أنهما قد يكونان في مشتل البرتقال."

قالت الليدي بريدجيرتون وهي تدفع كتفيها للخلف متجهة للباب:

– "حسنًا جدًا. لا مفر من ذلك، أليس كذلك؟"

هزت لوسي رأسها. لم يفعل غريغوري شيئًا.

أخذت الليدي بريدجيرتون نفسًا عميقًا وسحبت الباب لتفتحه. تحركت لوسي وغريغوري فورًا للأمام لاختلاس النظر للداخل، لكن المشتل كان مظلمًا، والضوء الوحيد كان ضوء القمر المتسلل عبر النوافذ الواسعة.

– "تبًا."

تراجع ذقن لوسي بدهشة. لم تسمع امرأة تشتم من قبل.

للحظة وقف الثلاثي ساكنًا، ثم تقدمت الليدي بريدجيرتون ونادت:

– "لورد فينسوورث! لورد فينسوورث، أرجوك أجب. هل أنت هنا؟"

بدأت لوسي بالمناداة على هيرميون، لكن غريغوري أطبق بيده على فمها. همس في أذنها:

– "لا. إذا كان هناك شخص آخر هنا، لا نريدهم أن يدركوا أننا نبحث عنهما معًا."

أومأت لوسي، شاعرة بالغثيان المؤلم. ظنت أنها تعرف شيئًا عن العالم، لكن مع مرور كل يوم، بدا أنها تفهم أقل فأقل. ابتعد السيد بريدجيرتون، متوغلًا أكثر في الغرفة. وقف واضعًا يديه على خصريه، وقفته واسعة وهو يمسح المشتل بحثًا عن شاغليه.

نادت الليدي بريدجيرتون مرة أخرى:

– "لورد فينسوورث!"

هذه المرة سمعوا حفيفًا. لكنه خافت. وبطيء. كأن شخصًا يحاول إخفاء وجوده.

التفتت لوسي نحو الصوت، لكن لم يتقدم أحد. عضت شفتها. ربما كان مجرد حيوان. كان هناك العديد من القطط في أوبري هول. كانت تنام في كوخ صغير قرب باب المطبخ، لكن ربما ضلت إحداها الطريق وحبست في المشتل.

لا بد أنها قطة. لو كان ريتشارد، لتقدم عندما سمع اسمه.

نظرت إلى الليدي بريدجيرتون، منتظرة لترى ما ستفعله تالياً. كانت الفيكونتيسة تنظر بتركيز إلى شقيق زوجها، متمتمة بشيء ما ومشيرة بيديها نحو اتجاه الصوت.

أومأ لها غريغوري، ثم تحرك بخطوات صامتة، ساقاه الطويلتان تقطعان الغرفة بسرعة مذهلة، حتى—

شهقت لوسي. قبل أن يتسنى لها أن ترمش، كان غريغوري قد اندفع للأمام، وصوت غريب بدائي يمزق حنجرته. ثم قفز حرفيًا ـ في الهواء، هابطًا بصوت ارتطام ودمدمة:

– "أمسكت بك!"

– "أوه لا." ارتفعت يد لوسي لتغطي فمها. السيد بريدجيرتون ثبت شخصًا على الأرض، وبدت يداه قريبتين جدًا من عنق أسيره.

هرعت الليدي بريدجيرتون نحوهم، ورأت لوسي ذلك فتذكرت قدميها أخيرًا وركضت إلى المشهد. إذا كان ريتشارد—*أوه، أرجوك لا تجعله ريتشارد—*فهي بحاجة للوصول إليه قبل أن يقتله السيد بريدجيرتون.

– "اتـ...رك...ني!"

نادت لوسي بصوت حاد:

– "ريتشارد!"

كان صوته. لا مجال للخطأ.

تلوى الشكل على أرضية المشتل، وعندها استطاعت رؤية وجهه.

– "لوسي؟" بدا مذهولًا.

– "أوه، ريتشارد." كان هناك عالم من خيبة الأمل ـ في هاتين الكلمتين.

تساءل غريغوري بحدة:

– "أين هي؟"

– "أين من؟"

شعرت لوسي بالغثيان. ريتشارد يتظاهر بالجهل. كانت تعرفه جيدًا. إنه يكذب.

صرّ غريغوري على أسنانه:

– "الآنسة واتسون."

– "لا أعرف عما تـ..."

صدر صوت غرغرة مرعب من حنجرة ريتشارد.

أمسكت الليدي بريدجيرتون بذراعه:

– "غريغوري! توقف!"

أرخى قبضته. بالكاد.

قالت لوسي:

– "ربما ليست هنا." عرفت أن ذلك غير صحيح، لكن بطريقة ما بدا الطريقة الفضلى لإنقاذ الموقف. "ريتشارد يحب الزهور. لطالما أحبها. وهو لا يحب الحفلات."

لهث ريتشارد:

– "هذا صحيح."

قالت الليدي بريدجيرتون:

– "غريغوري، يجب أن تدعه ينهض."

التفتت لوسي لتواجهها وهي تتحدث، وعندها رأته. خلف الليدي بريدجيرتون.

لون وردي. مجرد ومضة. شريط بالأحرى، بالكاد مرئي عبر النباتات.

كانت هيرميون ترتدي اللون الوردي. ذلك الظل بعينه.

اتسعت عينا لوسي. ربما كانت مجرد زهرة. كانت هناك أكوام من الزهور الوردية. التفتت عائدة إلى ريتشارد. بسرعة.

بسرعة مفرطة. رآها السيد بريدجيرتون تلتفت برأسها.

سأل بحدة:

– "ماذا رأيتِ؟"

– "لا شيء."

لكنه لم يصدقها. ترك ريتشارد وبدأ يتحرك في الاتجاه الذي كانت لوسي تنظر إليه، لكن ريتشارد تدحرج جانباً وأمسك بأحد كاحليه. سقط غريغوري مع صرخة، وسرعان ما رد، ممسكًا بقميص ريتشارد وجاذبًا إياه بقوة كافية لكشط رأسه على الأرض.

صرخت لوسي وهي تندفع للأمام:

– "لا!"

يا إلهي، سيقتلان بعضهما البعض. تارة السيد بريدجيرتون في الأعلى، وتارة ريتشارد، ثم السيد بريدجيرتون، ثم لم تعد تميز من الفائز، وطوال الوقت كانا ينهالان بالضرب على بعضهما.

أرادت لوسي بشدة الفصل بينهما، لكنها لم ترَ كيف دون المخاطرة بإصابة نفسها. كان الاثنان أبعد من ملاحظة شيء دنيوي ككائن بشري.

ربما تستطيع الليدي بريدجيرتون إيقافهما. إنه منزلها، والضيوف مسؤوليتها. يمكنها التعامل مع الموقف بسلطة أكبر مما تأمل لوسي حشده.

التفتت لوسي:

– "ليدي بريـ..."

تبخرت الكلمات في حلقها. لم تكن الليدي بريدجيرتون حيث كانت قبل لحظات.

أوه لا.

التفتت لوسي بذعر:

– "ليدي بريدجيرتون؟ ليدي بريدجيرتون؟"

ثم كانت هناك، تتحرك عائدة نحو لوسي، تشق طريقها عبر النباتات، ويدها مطبقة بإحكام حول معصم هيرميون. كان شعر هيرميون أشعث، وثوبها مجعدًا ومتسخًا، و– يا إلهي في علاك– بدت وكأنها قد تبكي.

همست لوسي:

– "هيرميون؟"

ماذا حدث؟ ماذا فعل ريتشارد؟

للحظة لم تفعل هيرميون شيئًا. وقفت هناك مثل جرو مذنب، ذراعها ممدودة برخاوة أمامها، وكأنها نسيت أن الليدي بريدجيرتون لا تزال ممسكة بمعصمها.

– "هيرميون، ماذا حدث؟"

أفلتتها الليدي بريدجيرتون، وكان الأمر وكأن هيرميون ماء أطلق من سد. بكت وهي تندفع للأمام وصوتها يتهدج:

– "أوه، لوسي.. أنا آسفة جدًا."

وقفت لوسي مصدومة، تعانقها... لكن ليس تمامًا. كانت هيرميون تتشبث بها كطفلة، لكن لوسي لم تعرف تمامًا ما تفعله بنفسها. بدت ذراعاها غريبتين، غير متصلتين بها تمامًا. نظرت خلف كتف هيرميون، لأسفل إلى الأرض. توقف الرجلان أخيرًا عن التخبط، لكنها لم تكن واثقة من أنها تكترث بعد الآن.

تراجعت لوسي مسافة كافية لتتمكن من رؤية وجهها:

– "هيرميون؟ ماذا حدث؟"

قالت هيرميون:

– "أوه، لوسي.. لقد رفرفت."



بعد ساعة، كان ريتشارد وهيرميون مخطوبين للزواج. أُعيدت الليدي لوسيندا إلى الحفل، ليس لأنها ستتمكن من التركيز على أي شيء يقال، لكن كيت أصرت.

وكان غريغوري ثملًا. أو على الأقل، يبذل قصارى جهده ليصل لتلك الحالة.

افترض أن الليلة جلبت قليلًا من النعم الصغيرة. لم يضبط اللورد فينسوورث والآنسة واتسون في وضع فاضح فعليًا. أيًا كان ما كانا يفعلانه— وكان غريغوري يبذل جهدًا كبيرًا لعدم تخيله— فقد توقفا عندما صرخت كيت باسم فينسوورث.

حتى الآن، بدا الأمر كله كمسرحية هزلية. اعتذرت هيرميون، ثم اعتذرت لوسي، ثم اعتذرت كيت، وهو ما بدا غريبًا بشكل لافت عن شخصيتها حتى أنهت جملتها بـ: "لكنكما، منذ هذه اللحظة، مخطوبان للزواج."

بدا فينسوورث مسرورًا، ذلك الوغد الصغير المزعج، ثم امتلك الوقاحة ليعطي غريغوري ابتسامة نصر صغيرة متعجرفة.

فركله غريغوري بركبته في خصيتيه.

ليس بقوة مفرطة.

كان يمكن أن يكون حادثًا. حقًا. كانا لا يزالا على الأرض، عالقين في وضعية جمود. من المعقول تمامًا أن تكون ركبته قد انزلقت.

للأعلى.

أيًا كان الحال، تأوه فينسوورث وانهار. تدحرج غريغوري جانباً في اللحظة التي تراخت فيها قبضة الإيرل، ووقف بمرونة.

قال للسيدات:

– "آسف جدًا. لست متأكدًا مما أصابه."

ويبدو أن ذلك كان كل شيء. اعتذرت له الآنسة واتسون— بعد اعتذارها أولًا للوسي، ثم كيت، ثم فينسوورث، والله وحده يعلم لماذا، إذ كان واضحًا أنه الفائز في الأمسية.

قال غريغوري بحدة:

– "لا داعي للاعتذار."

– "لا، لكنني—"

بدت منزعجة، لكن غريغوري لم يكترث كثيرًا حينها.

قالت له:

– "لقد حظيت بوقت رائع على الإفطار. أردت فقط أن تعرف ذلك."

لماذا؟ لماذا قد تقول ذلك؟ هل ظنت أن ذلك سيجعله يشعر بتحسن؟

لم ينطق غريغوري بكلمة. أومأ لها إيماءة واحدة، ثم انصرف. فليحلوا التفاصيل بأنفسهم. لم يكن لديه أي روابط بالثنائي المخطوب حديثًا، ولا

مسؤوليات تجاههم أو تجاه اللياقة. لم يهتم بمتى أو كيف سيتم إبلاغ العائلات.

لم يكن ذلك من شأنه. لا شيء من ذلك كان من شأنه.

لذا غادر. كان لديه زجاجة براندي ليعثر عليها.

وها هو الآن. في مكتب شقيقه، يشرب كحول شقيقه، متسائلًا ماذا يعني كل هذا بحق الجحيم. لقد ضاعت الآنسة واتسون منه الآن، هذا واضح. إلا إذا أراد اختطاف الفتاة بالطبع.

وهو ما لم يرد فعله. بالتأكيد. كانت ستصرخ كبلهاء طوال الطريق على الأرجح. ناهيك عن المسألة البسيطة المتمثلة في احتمال أنها قد سلمت نفسها لفينسوورث. أوه، وتدمير غريغوري لسمعته الطيبة. هناك ذلك أيضًا. لا يختطف المرء أنثى حسنة التربية—خاصة واحدة مخطوبة لإيرل—ويتوقع الخروج باسمه نظيفًا.

تساءل عما قاله فينسوورث لينفرد بها.

تساءل عما عنته هيرميون حين قالت إنها رفرفت.

تساءل عما إذا كانوا سيدعونه للزفاف.

هممم. على الأرجح. لوسي ستصر على ذلك، أليس كذلك؟ تلك المتمسكة بالأصول. أخلاق حميدة للجميع.

إذن ماذا الآن؟ بعد سنوات عديدة من الشعور بالضياع قليلًا، من الانتظار والانتظار والانتظار لتسقط قطع حياته في مكانها، ظن أنه أخيرًا قد حل اللغز. وجد الآنسة واتسون وكان مستعدًا للمضي قدمًا والغزو.

كان العالم مشرقًا وجيدًا ويلمع بالوعود.

أوه، حسنًا جدًا، كان العالم مشرقًا وجيدًا ويلمع بالوعود تمامًا من قبل. لم يكن تعيسًا على الإطلاق. في الواقع، لم يمانع الانتظار حقًا. لم يكن حتى متأكدًا من أنه أراد العثور على عروسه قريبًا جدًا. مجرد معرفته بوجود حبه الحقيقي لا يعني أنه أرادها فورًا.

كانت لديه حياة ممتعة جدًا من قبل. تباً، معظم الرجال كانوا سيضحون بأسنانهم لتبادل الأماكن معه.

ليس فينسوورث بالطبع.

الوغد الصغير اللعين ربما يخطط لكل تفاصيل ليلة زفافه في هذه الدقيقة بالذات.

اللقيط الصـ...

جرع كأسه وسكب أخرى.

إذن ماذا يعني ذلك؟ ماذا يعني أن تقابل المرأة التي جعلتك تنسى كيف تتنفس، فتقوم وتتزوج شخصًا آخر؟ ماذا يُفترض به أن يفعل الآن؟ يجلس وينتظر حتى ترسله مؤخرة عنق امرأة أخرى إلى النشوة؟

أخذ رشفة أخرى. لقد اكتفى من الأعناق. إنها مبالغ في تقديرها للغاية.

استند للخلف، واضعًا قدميه على مكتب شقيقه. سيكره أنتوني ذلك بالطبع، لكن هل هو في الغرفة؟ لا. هل اكتشف لتوه المرأة التي أمل في الزواج منها بين ذراعي رجل آخر؟ لا. والأهم من ذلك، هل استُخدم وجهه مؤخرًا ككيس ملاكمة لإيرل شاب رياضي بشكل مفاجئ؟

بالتأكيد لا.

لمس غريغوري بحذر عظمة خده الأيسر. وعينه اليمنى.

لن يبدو جذابًا غدًا، هذا مؤكد.

لكن فينسوورث لن يبدو كذلك أيضًا، فكر بسعادة.

بسعادة؟ هل هو سعيد؟ من كان ليظن؟

أطلق تنهيدة طويلة، محاولًا تقييم مدى صحوه. لا بد أنه البراندي. السعادة لم تكن مدرجة على جدول أعمال الأمسية.

رغم أن...

وقف غريغوري. كاختبار فقط. قليل من البحث العلمي. هل يستطيع الوقوف؟

استطاع.

هل يستطيع المشي؟

نعم!

آه، لكن هل يستطيع المشي باستقامة؟

تقريبًا.

هممم. لم يكن ثملًا كما ظن.

قد يخرج إذن. لا معنى لإهدار مزاج جيد غير متوقع.

شق طريقه نحو الباب ووضع يده على المقبض. توقف، مائلًا رأسه بتفكير.

لا بد أنه البراندي. حقًا، لا يوجد تفسير آخر.





الفصل الحادي عشر

وفيه يقوم بطلنا بالفعلة الوحيدة التي
لم يكن يتوقعها أبدًا.



لم تغب مفارقة الأمسية الساخرة عن ذهن لوسي وهي تشق طريقها عائدة إلى غرفتها.

وحدها.

بعد ذعر السيد بريدجيرتون بشأن اختفاء هيرميون... وبعد أن تم توبيخ لوسي بشدة لركضها بمفردها في منتصف ما تبين أنها أمسية صاخبة نوعًا ما... وبعد أن أُجبر ثنائي على الخطبة، بحق السماء - لم يلحظ أحد مغادرة لوسي للحفل التنكري بمفردها.

لم تصدق حتى الآن أن الليدي بريدجيرتون قد أصرت على إعادتها للحفل. لقد قادت لوسي عمليًا من ياقتها، وأودعتها في رعاية عمة عانس لشخص ما قبل أن تذهب لإحضار والدة هيرميون، التي - كما يُفترض - لم تكن لديها أدنى فكرة عن الإثارة التي تنتظرها.

وهكذا وقفت لوسي عند حافة قاعة الرقص كالحمقاء، تحدق في بقية الضيوف، متسائلة كيف يمكنهم ألا يكونوا مدركين لأحداث الأمسية. بدا من غير المعقول أن تنقلب حياة ثلاثة أشخاص رأسًا على عقب تمامًا، بينما يستمر بقية العالم كالمعتاد.

لا، فكرت بحزن نوعًا ما، في الواقع هم أربعة؛ فهناك السيد بريدجيرتون الذي يجب وضعه في الاعتبار. خططه للمستقبل كانت مختلفة تمامًا في بداية الأمسية.

لكن لا، بدا الجميع طبيعيين تمامًا. رقصوا، وضحكوا، وأكلوا الشطائر التي كانت لا تزال مختلطة بشكل مؤسف في طبق تقديم واحد.

كان المشهد أغرب ما يكون. ألا ينبغي لشيء أن يبدو مختلفًا؟ ألا ينبغي لشخص ما أن يقترب من لوسي ويقول، بعينين متسائلتين: تبدين متغيرة نوعًا ما. آه، عرفت. لا بد أن أخاك قد أغوى أعز صديقاتك.

لم يفعل أحد ذلك بالطبع، وعندما لمحت لوسي نفسها في المرآة، ذُهلت لرؤية أنها بدت غير متغيرة تمامًا. متعبة قليلًا، وربما شاحبة قليلًا، لكن عدا ذلك، هي نفس لوسي القديمة.

شعر أشقر، ليس أشقر جدًا. عينان زرقاوان – مرة أخرى، ليستا زرقاوين جدًا. فم غريب الشكل لا يثبت أبدًا بالطريقة التي تريدها، ونفس الأنف العادي بنفس النمشات السبع، بما في ذلك تلك القريبة من عينها التي لا يلاحظها أحد سواها.

بدا ذلك كخريطة أيرلندا. لم تكن تعرف لِمَ يثير ذلك اهتمامها، لكنه فعل دائمًا.

تنهدت. لم تذهب أبدًا إلى أيرلندا، وربما لن تفعل أبدًا. بدا سخيفًا أن يزعجها هذا فجأة، إذ لم تكن ترغب حتى في الذهاب إلى أيرلندا.

لكن إذا رغبت في ذلك، فسيتعين عليها سؤال اللورد هاسيلبي، أليس كذلك؟ لم يكن الأمر مختلفًا كثيرًا عن الاضطرار لسؤال العم روبرت الإذن لـ. حسنًا، لأي شيء، ولكن بطريقة ما...

هزت رأسها. كفى. كانت ليلة غريبة، والآن هي في مزاج غريب، عالقة بكل غرابتها في منتصف حفل تنكري.

بوضوح، ما تحتاجه هو الذهاب للنوم.

وهكذا، وبعد ثلاثين دقيقة من محاولة التظاهر بأنها تستمتع بوقتها، أصبح من الواضح أخيرًا أن العمة العانس الموكلة برعايتها لم تفهم تمامًا نطاق المهمة. لم يكن من الصعب استنتاج ذلك؛ فعندما حاولت لوسي التحدث إليها، ضيقت عينيها عبر قناعها وصرخت: "ارفعي ذقنك يا فتاة! هل أعرفك؟"

قررت لوسي أن هذه فرصة لا ينبغي تفويتها، لذا أجابت: "أنا آسفة. ظننت أنكِ شخص آخر"، وخرجت مباشرة من قاعة الرقص.

وحدها.

حقًا، كان الأمر مضحكًا تقريبًا.

تقريبًا.

لم تكن حمقاء، مع ذلك، وقد جابت ما يكفي من المنزل في تلك الأمسية لتعرف أنه بينما انتشر الضيوف إلى الغرب والجنوب من قاعة الرقص، لم يغامروا بالذهاب إلى الجناح الشمالي، حيث تحتفظ العائلة بغرفها الخاصة. من الناحية الدقيقة، لم يكن ينبغي لـ لوسي الذهاب في ذلك الاتجاه أيضًا، لكن بعد ما مرت به في الساعات القليلة الماضية، اعتقدت أنها تستحق قليلًا من الحرية.

لكن عندما وصلت إلى الرواق الطويل المؤدي للشمال، رأت بابًا مغلقًا. طرفت لوسي بعينيها دهشة؛ لم تلاحظ بابًا هناك من قبل. افترضت أن عائلة بريدجيرتون تتركه مفتوحًا عادة. ثم هبط قلبها. بالتأكيد سيكون مغلقًا – ما الغرض من باب مغلق إن لم يكن لمنع الناس من الدخول؟

لكن مقبض الباب دار بسهولة. أغلقت لوسي الباب خلفها بحذر، وهي تذوب تقريبًا من الارتياح. لم تستطع مواجهة العودة للحفل. أرادت فقط الزحف إلى السرير، والالتفاف تحت الأغطية، وإغلاق عينيها، والنوم، النوم، النوم.

بدا ذلك كالنعيم. وبقليل من الحظ، لن تكون هيرميون قد عادت بعد. أو الأفضل من ذلك، ستصر والدتها على بقائها طوال الليل في غرفتها.

نعم، الخصوصية بدت جذابة للغاية في تلك اللحظة.

كان الظلام يسود المكان وهي تمشي، والهدوء أيضًا. بعد دقيقة أو نحو ذلك، اعتادت عينا لوسي على الضوء الخافت. لم تكن هناك فوانيس أو شموع لتنير الطريق، لكن بعض الأبواب تُركت مفتوحة، مما سمح لأشعة باهتة من ضوء القمر برسم أشكال متوازية الأضلاع على السجاد. مشت ببطء، وبنوع غريب من التروي، كل خطوة محسوبة وموجهة بعناية، وكأنها تتوازن على خيط رفيع، يمتد مباشرة أسفل مركز الرواق.

واحد، اثنان...

لا شيء خارج عن المألوف. كثيرًا ما كانت تعد خطواتها. ودائمًا على السلالم. فوجئت عندما ذهبت للمدرسة وأدركت أن الآخرين لا يفعلون ذلك.

... ثلاثة، أربعة...

بدا سجاد الممر أحادي اللون في ضوء القمر، لكن لوسي كانت تعلم أن المعينات الكبيرة حمراء، والصغيرة ذهبية. تساءلت عما إذا كان من الممكن أن تخطو فقط على الذهبية.

... خمسة، ستة...

أو ربما الحمراء. الحمراء ستكون أسهل. لم تكن هذه ليلة لتحدي نفسها.

... سبعة، ثمانية، تســ...

– "أوف!"

اصطدمت بشيء ما. أو يا للسماء، بشخص ما. كانت تنظر للأسفل، متتبعة المعينات الحمراء، ولم ترَ... ولكن ألم يكن ينبغي للشخص الآخر أن يراها؟

أمسكت بها يدان قويتان من ذراعيها وثبتتاها. ثم...

– "ليدي لوسيندا؟"

تجمدت.

– "سيد بريدجيرتون؟"

كان صوته منخفضًا وناعمًا في الظلام.

– "يا لها من مصادفة."

فكت نفسها بحذر – كان قد أمسك بها من ذراعيها لمنعها من السقوط – وتراجعت للخلف. بدا ضخمًا جدًا ـفي المساحة الضيقة للرواق.

سألته:

– "ماذا تفعل هنا؟"

منحها ابتسامة سهلة بشكل مريب.

– "ماذا تفعلين أنتِ هنا؟"

شرحت قائلة:

– "ذاهبة للنوم. بدا هذا الرواق أفضل طريق." ثم أضافت بتعبير ساخر: "نظرًا لحالتي من (اللامرافقة)."

أمال رأسه. قطب جبينه. طرف بعينيه. وأخيرًا:

– "هل هذه كلمة؟"

لسبب ما جعلها ذلك تبتسم. ليس بشفتيها بالضبط، ولكن ـفي الداخل، حيث يهم الأمر.

أجابت:

– "لا أظن ذلك. لكن حقًا، لا أبالي."

ابتسم بوهن، ثم أشار برأسه إلى الغرفة التي لا بد أنه خرج منها للتو.

– "كنت ـفي مكتب أخي. أتأمل."

– "تتأمل؟"

– "هناك الكثير لنتأمله هذه الليلة، ألا تظنين ذلك؟"

– "نعم." نظرت حول الرواق. تحسبًا لوجود شخص آخر، رغم أنها كانت واثقة تمامًا من عدم وجود أحد. "لا ينبغي لي حقًا أن أكون هنا وحدي معك."

أومأ بجدية.

– "لا أريد تعطيل خطبتك العملية."

لم تكن لوسي تفكر ـفي ذلك حتى.

– "عنيتُ بعد ما حدث مع هيرميون و..." ثم بدا من غير اللائق تفصيل الأمر. "حسنًا، أنا متأكدة أنك مدرك."

– "بالفعل."

ابتلعت ريقها، ثم حاولت أن تجعل الأمر يبدو وكأنها لا تنظر إلى وجهه لترى إن كان مستاءً.

طرف بعينيه فقط، ثم هز كتفيه، وكان تعبيره...

لامباليًا؟

عضت شفتها. لا، لا يمكن أن يكون كذلك. لا بد أنها أساءت قراءته. لقد كان رجلًا عاشقًا. أخبرها بذلك.

لكن هذا ليس من شأنها. تطلب الأمر قدرًا من (التذكير الذاتي) – لتضيف كلمة أخرى إلى مجموعتها المتنامية بسرعة – لكن هذا هو الواقع. ليس من شأنها. ولا حتى قليلًا.

حسنًا، باستثناء الجزء المتعلق بأخيها وأعز صديقاتها. لا أحد يستطيع القول إن ذلك لا يخصها. لو كانت هيرميون فقط، أو ريتشارد فقط، ربما كانت هناك حجة بأنه يجب أن تبقي أنفها بعيدًا، لكن مع كليهما – حسنًا، بوضوح هي معنية بالأمر.

أما فيما يتعلق بالسيد بريدجيرتون... فليس من شأنها.

نظرت إليه. كانت ياقة قميصه مرخية، واستطاعت رؤية جزء صغير من الجلد حيث عرفت أنه لا ينبغي لها النظر.

ليس. أبدًا! شأنًا. لها. أي من ذلك.

قالت:

– "صحيح." مفسدة نبرتها الحازمة بسعلة غير إرادية تمامًا. تشنج. تشنج سعال. تخلله بشكل غامض: "يجب أن أذهب."

لكنها خرجت أشبه بـ... حسنًا، خرجت كشيء كانت واثقة تمامًا أنه لا يمكن تهجئته بالأحرف الستة والعشرين للغة الإنجليزية. السيريلية قد تفي بالغرض. أو ربما العبرية.

استفسر قائلًا:

– "هل أنتِ بخير؟"

لهثت قائلة:

- "بخير تمامًا." ثم أدركت أنها عادت للنظر إلى تلك البقعة التي لم تكن حتى عنقه. كانت أقرب لصدره، مما يعني أنها كانت مكانًا غير مناسب تمامًا.

انتزعت عينيها بعيدًا، ثم سعلت مرة أخرى، هذه المرة عن عمد. لأنه كان عليها فعل شيء ما. وإلا ستعود عيناها مباشرة إلى حيث لا ينبغي أن تكونا.

راقبها، بنظرة تشبه نظرة البومة قليلًا، وهي تستعيد توازنها.

- "أفضل؟"

أومأت برأسها.

- "أنا مسرور."

مسرور؟ مسرور؟ ماذا يعني ذلك؟

هز كتفيه.

- "أكره عندما يحدث ذلك."

مجرد أنه إنسان، يا لوسي أيتها الحمقاء. إنسان يعرف شعور الحلق المتهيج.

كانت تفقد عقلها. كانت واثقة تمامًا من ذلك.

اندفعت قائلة:

- "يجب أن أذهب."

- "يجب عليكِ."

- "يجب علي حقًا."

لكنها وقفت هناك وحسب.

كان ينظر إليها بطريقة غريبة للغاية. عيناه ضيقتان – ليس بتلك الطريقة الغاضبة التي يربطها الناس عادة بالعيون المزمومة، بل وكأنه يفكر بجدية بالغة في شيء ما.

يتأمل. هذا هو. كان يتأمل، تمامًا كما قال.

باستثناء أنه كان يتأملها هي.

سألت بتردد:

– "سيد بريدجيرتون؟"

ليس أنها كانت تعرف ما قد تستفسر منه عندما يلتفت إليها.

– "هل تشربين، يا ليدي لوسيندا؟"

تشرب؟

– "عفوًا؟"

منحها نصف ابتسامة خجولة.

– "براندي. أعرف أين يحتفظ أخي بالنوع الجيد."

– "أوه." يا إلهي. "لا، بالطبع لا."

تمتم:

– "مؤسف."

أضافت، لأنها، حسنًا، شعرت وكأن عليها التوضيح:

– "لا أستطيع حقًا."

رغم أنها بالطبع لا تشرب الكحوليات.

وبالطبع هو يعرف ذلك.

هز كتفيه.

– "لا أعرف لماذا سألت."

قالت:

– "يجب أن أذهب."

لكنه لم يتحرك.

وهي كذلك لم تفعل.

تساءلت عن طعم البراندي.

وتساءلت عما إذا كانت ستعرف يومًا.

سألها:

– "كيف استمتعتِ بالحفل؟"

– "الحفل؟"

– "ألم تُجبري على العودة؟"

أومأت وهي تقلب عينيها.

– "تم اقتراح ذلك بشدة."

– "آه، إذن هي سحبتكِ."

لدهشة لوسي الكبيرة، ضحكت بخفوت.

– "أقرب ما يكون لذلك. ولم يكن معي قناعي، مما جعلني بارزة قليلًا."

– "كفطر عيش الغراب؟"

– "كـ...؟"

نظر إلى فستانها وأومأ نحو اللون.

– "فطر أزرق."

نظرت إلى نفسها ثم إليه.

– "سيد بريدجيرتون، هل أنت ثمل؟"

مال للأمام بابتسامة ماكرة وسخيفة قليلًا. رفع يده، وقاس بإبهامه وسبابته مسافة بوصة بينهما.

– "قليلًا فقط."

رمقته بشك.

– "حقًا؟"

نظر لأسفل إلى أصابعه بحاجب معقود، ثم أضاف بوصة أخرى أو نحو ذلك للمسافة بينهما.

– "حسنًا، ربما بهذا القدر."

لم تكن لوسي تعرف الكثير عن الرجال أو الكثير عن الكحوليات، لكنها عرفت ما يكفي عن الاثنين معًا لتسأل:

– "أليس هذا هو الحال دائمًا؟"

– "لا." رفع حاجبيه ونظر إليها بتعالي. "عادة ما أعرف بالضبط كم أنا ثمل."

لم يكن لدى لوسي أي فكرة عما تقوله ردًا على ذلك.

قال، وبدا متفاجئًا من ذلك:

– "لكن هل تعلمين، الليلة لست متأكدًا."

– "أوه."

لأنها كانت في أوج فصاحتها هذا المساء.

ابتسم.

شعرت بمعدتها تتقلص بغرابة.

حاولت أن تبتسم له بالمثل. يجب عليها حقًا أن تذهب.

لذا بطبيعة الحال، لم تتحرك.

مال رأسه إلى الجانب وأطلق زفرة تفكير، وخطر لها أنه يفعل بالضبط ما قال إنه يفعله – يتأمل.

قال ببطء:

– "كنت أفكر... أنه بالنظر لأحداث الأمسية..."

مالت للأمام بترقب. لماذا يدع الناس أصواتهم تتلاشى دائمًا عندما يكونون على وشك قول شيء ذي معنى؟

نكزته قائلة:

– "سيد بريدجيرتون؟"

لأنه كان يحدق الآن في لوحة ما على الجدار.

التوت شفتاه بتفكير.

– "ألا تعتقدين أنه كان يجب أن أكون منزعجًا أكثر قليلًا؟"

انفرجت شفتاها بدهشة.

– "أنت لست منزعجًا؟"

كيف يعقل ذلك؟

هز كتفيه.

– "ليس بالقدر الذي ينبغي، نظرًا لأن قلبي توقف عن النبض عمليًا في المرة الأولى التي رأيت فيها الآنسة واتسون."

ابتسمت لوسي بتكلف.

عاد رأسه للوضع العمودي، ونظر إليها وطرف بعينيه – صافيًا تمامًا، وكأنه توصل للتو لاستنتاج بديهي.

– "وهذا هو سبب شكيـ في البراندي."

– "فهمت." لم تفهم بالطبع، لكن ماذا عساها تقول؟ "أنت... آه... بالتأكيد بدوت منزعجًا."

شرح قائلًا:

– "كنت غاضبًا."

– "ألست كذلك الآن؟"

فكر في الأمر.

– "أوه، لا زلت غاضبًا."

وشعرت لوسي بالحاجة للاعتذار. وهو ما عرفت أنه سخيف، لأن شيئًا من هذا لم يكن خطأها. لكنه كان متجذرًا فيها، هذه الحاجة للاعتذار عن كل شيء. لم تستطع منع نفسها. أرادت للجميع أن يكونوا سعداء. لطالما فعلت. كان الأمر أكثر ترتيباً هكذا. أكثر نظامًا.

قالت:

– "أنا آسفة لأنني لم أصدقك بشأن أخي. لم أكن أعرف. حقًا، لم أكن أعرف."

نظر إليها، وكانت عيناه طيبتين. لم تكن واثقة متى حدث ذلك، لأنه قبل لحظة، كان مستهترًا ولامباليًا. لكن الآن... كان مختلفاً.

قال:

– "أعرف أنكِ لم تعرفي. ولا داعي للاعتذار."

– "كنتُ مذهولة تمامًا مثلك عندما وجدناهما."

قال برفق، وكأنه يحاول تجنيب مشاعرها الأذى. جعلها لا تشعر بأنها بلهاء لعدم رؤيتها للواضح:

– "لم أكن مذهولًا جدًا."

أومأت.

– "لا، أفترض أنك لم تكن لتكون كذلك. لقد أدركت ما كان يحدث، وأنا لم أفعل."

وحقًا، شعرت وكأنها نصف عاقلة. كيف أمكنها أن تكون غافلة تمامًا هكذا؟ إنها هيرميون وأخوها، بحق السماء. إذا كان لأحد أن يكتشف قصة حب ناشئة، كان يجب أن تكون هي.

ساد صمت – محرج – ثم قال:

– "سأكون بخير."

قالت لوسي مطمئنة:

– "أوه، بالطبع ستكون."

وشعرت بالاطمئنان، لأنه بدا جميلًا وطبيعيًا أن تكون هي من يحاول تصحيح كل شيء. هذا ما تفعله. تهرع في الأرجاء. تتأكد أن الجميع سعداء ومرتاحون.

تلك هي من تكون.

لكنه سأل حينها – أوه لماذا سأل –:

– "وهل ستكونين أنتِ كذلك؟"

لم تقل شيئًا.

أوضح:

– "بخير. هل ستكونين بخير" – توقف، ثم هز كتفيه – "أنتِ أيضًا؟"

قالت بسرعة كبيرة قليلًا:

– "بالطبع."

ظننت أن هذا هو النهاية، لكنه قال:

– "هل أنتِ متأكدة؟ لأنكِ بدوتِ قليلاً..."

ابتلعت ريقها، منتظرة تقييمه بعدم ارتياح.

أكمل:

– "... مضطربة."

قالت سعيدة بوجود إجابة:

– "حسناً، كنت متفاجئة. لذا بطبيعة الحال كنت مرتبكة نوعًا ما."

لكنها سمعت تلعثمًا طفيفًا في صوتها، وتساءلت أيهما كانت تحاول إقناعه.

لم يقل شيئًا.

ابتلعت ريقها. كان الأمر غير مريح. كانت غير مرتاحة، ومع ذلك استمرت في الحديث، استمرت في شرح كل شيء. وقالت:

– "لست واثقة تمامًا مما حدث."

ومع ذلك، لم يتحدث.

– "شعرت بقليل من... هنا..." ذهبت يدها إلى صدرها، إلى البقعة حيث شعرت بالشلل الشديد. نظرت إليه، تتوسل إليه بعينيها عمليًا ليقول شيئًا، ليغير الموضوع وينهي المحادثة.

لكنه لم يفعل. والصمت جعلها تشرح.

لو سأل سؤالًا، قال ولو كلمة مواساة واحدة، لما أخبرته. لكن الصمت كان أكثر مما يحتمل. كان يجب ملؤه.

قالت، مختبرة الكلمات وهي تغادر شفتيها:

– "لم أستطع التحرك."

كان الأمر وكأنه بالتحدث، تؤكد أخيرًا ما حدث.

– "وصلت للباب، ولم أستطع فتحه."

نظرت إليه، باحثة عن إجابات. لكنه بالطبع لم يملك أيًا منها.

– "أنا– أنا لا أعرف لماذا غلبني الشعور هكذا."

بدا صوتها لاهثًا، متوترًا حتى.

– "أعني– كانت هيرميون. وأخي. أنا– أنا آسفة لألمك، لكن هذا كله مرتب جدًا، حقًا. إنه لطيف. أو على الأقل يجب أن يكون كذلك. هيرميون ستكون أختي. لطالما أردت أختًا."

قال بابتسامة نصفية:

– "إنهن مسليات أحيانًا."

وجعل ذلك لوسي تشعر بتحسن. كان من المدهش كم فعل ذلك. وكان كافيًا لتدفق كلماتها، هذه المرة بلا تردد، ودون حتى تلعثم.

– "لم أستطع تصديق أنهما ذهبا معًا. كان يجب أن يقولا شيئًا. كان يجب أن يخبراني أنهما يهتمان ببعضهما. ما كان يجب أن أكتشف الأمر بتلك الطريقة. هذا ليس صوابًا."

أمسكت ذراعه ونظرت إليه، وعيناها صادقتان وملحتان.

– "هذا ليس صوابًا يا سيد بريدجيرتون. هذا ليس صوابًا."

هز رأسه، لكن قليلًا فقط. بالكاد تحركت ذقنه، وكذلك شفتاه وهو يقول:

– "لا."

همست، وهي لا تتحدث عن هيرميون بعد الآن. لكن الأمر لم يهم، سوى أنها لم تكن تريد التفكير بعد الآن. ليس في ذلك. ليس في المستقبل.

– "كل شيء يتغير." همست: "كل شيء يتغير، ولا أستطيع إيقافه."

بطريقة ما كان وجهه أقرب وهو يقول مرة أخرى:

– "لا."

– "إنه كثير جدًا."

لم تستطع التوقف عن النظر إليه، لم تستطع تحريك عينيها عن عينيه، وكانت لا تزال تهمس بها – "إنه كثير جدًا" – عندما لم يعد هناك أي مسافة بينهما.

وشفتاه... لمستا شفتيها.

كانت قبلة.

لقد قُبِّلت.

هي. لوسي. لمرة واحدة كان الأمر عنها. كانت في مركز عالمها. كانت الحياة. وكانت تحدث لها.

كان الأمر مذهلًا، لأن كل شيء بدا كبيرًا جدًا، ومختلفاً جدًا. ومع ذلك كانت مجرد قبلة صغيرة – ناعمة، مجرد لمسة، خفيفة لدرجة أنها كادت تدغدغها. شعرت باندفاع، برعشة، بخفة واغزة في صدرها. بدا جسدها ينبض

بالحياة، وفي الوقت نفسه يتجمد في مكانه، خوفاً من أن أي حركة خاطئة قد تجعل كل شيء يختفي.

لكنها لم ترد له أن يختفي. ساعدها الله، هي أرادت هذا.

أرادت هذه اللحظة، وأرادت هذه الذكرى، وأرادت...

أرادت وحسب.

كل شيء. أي شيء يمكنها الحصول عليه.

أي شيء يمكنها الشعور به.

أحاطت ذراعاه بها، ومالت نحوه، متنهدة ضد فمه بينما تلامس جسدها مع جسده. هذا هو، فكرت بشكل خافت. هذه هي الموسيقى. هذه سيمفونية.

هذه رفرفة. أكثر من رفرفة.

أصبح فمه أكثر إلحاحًا، وانفتحت له، منتشية بدفء قبلته. كانت تتحدث إليها، تنادي روحها. كانت يداه تمسكانها بقوة أكبر، وأكبر، والتفت يداها حوله، لتستقرا أخيرًا حيث يلتقي شعره بياقته.

لم تكن تقصد لمسه، لم تفكر حتى في الأمر. بدت يداها تعرفان أين تذهبان، كيف تجدانه، وتقربانه أكثر. تقوس ظهرها، وازدادت الحرارة بينهما.

واستمرت القبلة... واستمرت.

شعرت بها في أحشائها، شعرت بها في أصابع قدميها. بدت هذه القبلة في كل مكان، تسري عبر جلدها كله، لتصل مباشرة إلى روحها.

همس غريغوري، وقد غادرت شفتاه شفتيها أخيرًا لتشعل مسارًا حارًا على طول فكها وصولًا إلى أذنها:

– "لوسي. يا إلهي، يا لوسي."

لم ترغب في الكلام، لم ترغب في فعل أي شيء يكسر اللحظة. لم تكن تعرف بماذا تناديه، لم تستطع تمامًا قول "غريغوري"، لكن "السيد بريدجيرتون" لم يعد لقبًا مناسبًا بعد الآن.

كان أكثر من ذلك الآن. أكثر بالنسبة لها.

كانت محقة سابقًا. كل شيء يتغير. لم تعد تشعر بنفس الشعور. شعرت بأنها...

استيقظت.

تقوس عنقها وهو يعض شحمة أذنها بخفة، وأنّت – أصوات ناعمة غير مفهومة انزلقت من شفتيها كأغنية. أرادت أن تغرق فيه. أرادت أن تنزلق إلى السجادة وتأخذه معها. أرادت ثقله، حرارته، وأرادت أن تلمسه – أرادت أن تفعل شيئًا. أرادت أن تتصرف. أرادت أن تكون جريئة.

حركت يديها إلى شعره، دافنة أصابعها في خصلاته الحريرية. أطلق أنينًا صغيرًا، وكان صوت صوته فقط كافيًا لجعل قلبها يخفق أسرع. كان يفعل أشياء مذهلة بعنقها – شفتيه، لسانه، أسنانه – لم تعرف أيها بالضبط، لكن أحدها كان يشعل النار فيها.

تحركت شفتاه أسفل عمود حلقها، تمطر نارًا على بشرتها. ويداه – كانتا قد تحركتا. كانتا تحيطان بها، تضغطانها نحوه، وكل شيء بدا ملحًا للغاية.

لم يعد الأمر يتعلق بما تريده. بل بما تحتاجه.

هل هذا ما حدث لـ هيرميون؟ هل ذهبت ببراءة للتنزه مع ريتشارد ثم... هذا؟

فهمت لوسي الأمر الآن. فهمت ما يعنيه أن تريد شيئًا تعرف أنه خطأ، أن تسمح بحدوثه رغم أنه قد يؤدي لفضيحة و...

ثم قالتها. جربتها. همست:

– "غريغوري."

مختبرة الاسم على شفتيها. بدا وكأنه تدليل، حميمية، وكأنها تستطيع تغيير العالم وكل شيء حولها بكلمة واحدة فقط.

إذا قالت اسمه، يمكن أن يكون لها، ويمكنها نسيان كل شيء آخر، يمكنها نسيان...

هاسيلبي.

يا إلهي، إنها مخطوبة. لم يعد الأمر مجرد تفاهم بعد الآن. الأوراق وُقّعت. وهي...

قالت وهي تضغط بيديها على صدره:

– "لا. لا، لا أستطيع."

سمح لها بدفعه بعيدًا. أدارت رأسها، خائفة من النظر إليه. كانت تعلم... إذا رأت وجهه...

كانت ضعيفة. لن تستطيع المقاومة.

قال:

– "لوسي."

وأدركت أن سماع صوته كان بنفس صعوبة رؤية وجهه.

هزت رأسها، ولا تزال لا تنظر إليه.

– "لا أستطيع فعل هذا. إنه خطأ."

– "لوسي."

وهذه المرة شعرت بأصابعه على ذقنها، تحثها برفق على مواجهته.

قال:

– "أرجوكِ اسمحي لي بمرافقتك للأعلى."

– "لا!"

خرجت الكلمة بصوت عالٍ جدًا، فتوقفت، وابتلعت ريقها بعدم ارتياح. قالت، سامحة أخيرًا لعينيها بلقاء عينيه:

– "لا أستطيع المخاطرة."

كان ذلك خطأ. الطريقة التي كان ينظر بها إليها – عيناه كانتا صارمتين، لكن كان هناك المزيد. لمحة من الليونة، لمسة من الدفء. وفضول. وكأنه... وكأنه لم يكن واثقًا تمامًا مما يراه. وكأنه ينظر إليها للمرة الأولى.

يا للسماء، كان ذلك الجزء الذي لم تستطع تحمله. لم تكن واثقة حتى من السبب. ربما لأنه كان ينظر إليها هي. ربما لأن التعبير كان يشبهه هو جدًا. ربما كلاهما.

ربما لم يكن الأمر مهمًا.

لكنه أرعبها رغم ذلك.

قال:

– "لن يتم ثنيي. سلامتك مسؤوليتي."

تساءلت لوسي عما حدث للرجل المرح والمخمور قليلًا الذي كانت تتجاذب معه أطراف الحديث قبل لحظات. حل محله شخص آخر تمامًا. شخص مسيطر تمامًا.

قال:

– "لوسي."

ولم يكن ذلك سؤالًا بالضبط، بل تذكيرًا. سيحصل على ما يريد في هذا الأمر، وسيكون عليها الإقرار بذلك.

قالت، محاولة مرة أخيرة على أية حال:

– "غرفتي ليست بعيدة. حقًا، لست بحاجة لمساعدتك. إنها أعلى تلك السلالم فقط."

وأسفل الرواق وحول زاوية، لكنه لم يكن بحاجة لمعرفة ذلك.

– "سأرافقكِ إلى السلالم إذن."

عرفت لوسي أن المجادلة لا طائل منها. لن يلين. كان صوته هادئًا، لكنه كان يحمل حدة لم تكن واثقة أنها سمعتها هناك من قبل.

– "وسأبقى هناك حتى تصلي لغرفتك."

– "هذا ليس ضروريًا."

تجاهلها قائلًا:

– "اطرقي ثلاث مرات عندما تفعلين."

– "أنا لن..."

– "إذا لم أسمع طَرْقك، سأصعد بنفسي لأتأكد شخصيًا من سلامتك."

عقد ذراعيه، وبينما كانت تنظر إليه تساءلت عما إذا كان سيكون نفس الرجل لو كان هو الابن البكر. كان فيه تسلط غير متوقع. قررت أنه كان ليصلح

كفيكونت ممتاز، رغم أنها لم تكن واثقة أنها كانت ستحبه بهذا القدر. اللورد بريدجيرتون كان يرعبها بصراحة، رغم أنه لا بد وأن يمتلك جانبًا ألين، نظرًا لعشقه الواضح لزوجته وأطفاله.

ومع ذلك...

– "لوسي."

ابتلعت ريقها وجزت على أسنانها، كارهة اضطرارها للاعتراف بأنها كذبت.

قالت بضجر:

– "حسنًا جدًا. إذا كنت ترغب في سماع طرقي، فمن الأفضل أن تأتي إلى أعلى الدرج."

أومأ وتبعها، طوال الطريق إلى أعلى الدرجات السبع عشرة.

قال:

– "سأراكِ غدًا."

لم تقل لوسي شيئًا. كان لديها شعور بأن ذلك لن يكون حكيمًا.

كرر قائلًا:

– "سأراكِ غدًا."

أومأت، بما أن ذلك بدا مطلوبًا، ولم ترَ كيف كان من المفترض أن تتجنبه على أية حال.

وأرادت أن تراه. لم يكن ينبغي لها أن ترغب في ذلك، وعرفت أنه لا يجب عليها فعله، لكنها لم تستطع منع نفسها.

قالت:

– "أشك في أننا سنغادر. من المفترض أن أعود لعمي، وريتشارد... حسنًا، سيكون لديه أمور ليهتم بها."

لكن تفسيراتها لم تغير تعبيره. كان وجهه لا يزال حازمًا، وعيناه مثبتتين بثبات على عينيها لدرجة جعلتها ترتعد.

كان كل ما قاله:

- "سأراكِ في الصباح."

أومأت مرة أخرى، ثم غادرت، بأسرع ما يمكنها دون أن تركض. دارت حول الزاوية ورأت غرفتها أخيرًا، على بعد ثلاثة أبواب فقط.

لكنها توقفت. هناك تمامًا عند الزاوية، خارج مرمى بصره.

وطرقت ثلاث مرات.

فقط لأنها تستطيع.





الفصل الثاني عشر

حيث لم يُحسم أي شيء.



عندما جلس غريغوري لتناول الإفطار في اليوم التالي، كانت كيت هناك بالفعل، بوجه متجهم ومرهق.

- "أنا آسفة جدًا."

كان هذا أول ما قالته عندما جلست بجانبه.

ما قصة الاعتذارات؟ تساءل في نفسه. لقد انتشرت بشكل وبائي في الأيام القليلة الماضية.

- "أعلم أنك كنت تأمل—"

قاطعها قائلًا وهو يلقي نظرة خاطفة على طبق الطعام الذي تركته على الجانب الآخر من الطاولة، على بعد مقعدين:

- "لا شيء."

- "لكن—"

قال:

- "كيت."

وحتى هو لم يتعرف تمامًا على صوته. بدا أكبر سناً، إن كان ذلك ممكنًا. وأكثر قسوة.

صمتت، وشفتها لا تزال منفرجة، وكأن كلماتها تجمدت على لسانها.

كرر قوله:

– "لا شيء."

ثم عاد لتناول بيضه. لم يكن يريد التحدث عن الأمر، ولا الاستماع للتفسيرات. ما حدث قد حدث، ولم يكن بيده حيلة لتغييره.

لم يكن غريغوري متأكدًا مما كانت تفعله كيت بينما كان يركز على طعامه—افترض أنها كانت تنظر في أرجاء الغرفة، لتقييم ما إذا كان أي من الضيوف يستطيع سماع محادثتهما. بين الحين والآخر كان يسمعها تتحرك في مقعدها، تغير وضعيتها دون وعي تحسبًا لقول شيء ما.

انتقل إلى لحمه المقدد.

ثم—وهو يعلم أنها لن تستطيع إبقاء فمها مغلقًا لفترة طويلة—

– "لكن هل أنت—"

التفت. ونظر إليها بحدة. ونطق بكلمة واحدة:

– "لا تفعلي."

للحظة ظل تعبيرها خاليًا. ثم اتسعت عيناها، ومالت زاوية فمها للأعلى. قليلًا فقط. سألت:

– "كم كان عمرك عندما التقينا؟"

ما الذي تفعله بحق الشيطان؟ قال بنفاد صبر، محاولًا تذكر زفافها من أخيه:

– "لا أعرف."

كان هناك الكثير من الزهور اللعينة. بدا وكأنه عطس لأسابيع.

– "ثلاثة عشر عامًا، ربما. اثنا عشر؟"

نظرت إليه بفضول:

– "أعتقد أنه لا بد أن يكون صعبًا أن تكون أصغر بكثير من إخوتك."

وضع شوكته جانبًا.

تابعت:

– "أنتوني وبينديكت وكولين— جميعهم متتابعون. مثل البط، لطالما فكرت في ذلك، رغم أنني لست حمقاء لأقوله. ثم— همم. كم سنة بينك وبين كولين؟"

– "عشر سنوات."

– "هل هذا كل شيء؟" بدت كيت متفاجئة، ولم يكن متأكدًا إن كان يعتبر ذلك مجاملة بشكل خاص.

استطردت وهي تضغط بإصبع واحد على ذقنها وكأن ذلك يشير إلى تفكير عميق:

– "هناك ست سنوات كاملة بين كولين وأنتوني. أكثر من ذلك قليلًا، في الواقع. لكنني أفترض أنه عادة ما يتم تجميعهم معًا، بوجود بينديكت في الوسط."

انتظر.

قالت بحيوية:

– "حسنًا، لا يهم. الجميع يجد مكانه في الحياة، في النهاية. والآن—"

حدق فيها بذهول. كيف يمكنها تغيير الموضوع هكذا؟ قبل أن يكون لديه أي فكرة عما كانت تتحدث عنه.

تابعت:

– "—أفترض أنه يجب عليّ إبلاغك ببقية أحداث الليلة الماضية. بعد مغادرتك." تنهدت كيت—أو أنَّت في الواقع— وهي تهز رأسها. "كانت الليدي واتسون منزعجة قليلًا لأن ابنتها لم تكن تحت مراقبة دقيقة، رغم أنه حقًا، خطأ من هذا؟ ثم انزعجت لأن موسم الآنسة واتسون في لندن انتهى قبل أن تتاح لها فرصة إنفاق المال على خزانة ملابس جديدة. لأنه، في النهاية، ليس وكأنها ستظهر لأول مرة في المجتمع الآن."

توقفت كيت، منتظرة أن يقول غريغوري شيئًا. رفع حاجبيه في هزة كتف صغيرة جدًا، تكفي فقط للقول إنه ليس لديه ما يضيفه للمحادثة.

منحته كيت ثانية أخرى، ثم واصلت:

– "لكن الليدي واتسون تداركت الأمر بسرعة نوعًا ما حين أُشير إليها أن فينسوورث إيرل، مهما كان صغر سنه."

توقفت، لاوية شفتيها:

– "إنه صغير نوعًا ما، أليس كذلك؟"

قال غريغوري، رغم أنه ظن فينسوورث مجرد رضيع في الليلة السابقة:

– "ليس أصغر مني بكثير."

بدا أن كيت تفكر في ذلك لبعض الوقت. قالت ببطء:

– "لا. هناك فرق. هو ليس... حسنًا، لا أعرف. على أي حال—"

لماذا تصر على تغيير الموضوع كلما بدأت في قول شيء يرغب في سماعه بالفعل؟

تابعت بسرعة أكبر:

– "—تمت الخطبة، وأعتقد أن جميع الأطراف المعنية راضية."

افترض غريغوري أنه لا يُحسب كطرف معني. لكن مرة أخرى، شعر بالانزعاج أكثر من أي شيء آخر. لم يكن يحب الهزيمة. في أي شيء.

حسنًا، باستثناء الرماية. لقد تخلى عن ذلك منذ زمن طويل.

كيف لم يخطر بباله، ولو لمرة واحدة، أنه قد لا يفوز بالآنسة واتسون في النهاية؟ لقد تقبل أن الأمر لن يكون سهلًا، لكن بالنسبة له، كان الأمر محسومًا. مقدرًا.

لقد كان يحرز تقدمًا معها بالفعل. لقد ضحكت معه، يا إلهي. ضحكت. بالتأكيد كان لذلك معنى.

قالت كيت:

– "سيغادرون اليوم. جميعهم. بشكل منفصل، بالطبع. ستنصرف الليدي والآنسة واتسون للتحضير للزفاف، واللورد فينسوورث سيأخذ شقيقته للمنزل. لهذا السبب جاء، في النهاية."

لوسي. كان عليه رؤية لوسي.

كان يحاول ألا يفكر فيها.

بنتائج متباينة.

لكنها كانت هناك، طوال الوقت، تحوم في خلفية عقله، حتى وهو يغلي غضبًا لخسارة الآنسة واتسون.

لوسي. كان من المستحيل الآن التفكير فيها كـ الليدي لوسيندا. حتى لو لم يقبلها، لكانت ستظل لوسي. هذا هو جوهرها. الاسم يناسبها تمامًا.

لكنه قبَلها. وكان ذلك رائعًا.

لكن الأهم من كل شيء، كان غير متوقع.

كل شيء في الأمر فاجأه، حتى حقيقة أنه فعله. إنها لوسي. لم يكن من المفترض أن يقبَل لوسي.

لكنها كانت ممسكة بذراعه. وعيناها— ما سر عينيها؟ كانت تنظر إليه، تبحث عن شيء ما.

تبحث فيه عن شيء ما.

لم يقصد فعل ذلك. حدث الأمر فحسب. شعر بالانجذاب، بانجذاب لا يقاوم نحوها، والمسافة بينهما تقلصت وتقلصت...

ثم كانت هناك. بين ذراعيه.

أراد أن يذوب حتى الأرض، أن يفقد نفسه فيها ولا يتركها أبدًا.

أراد تقبيلها حتى ينهار كلاهما من شدة الشغف.

أراد أن—

حسنًا. أراد فعل الكثير، لقول الحقيقة. لكنه كان ثملًا قليلًا أيضًا.

ليس كثيرًا. لكن بما يكفي للتشكيك في صدق استجابته.

وكان غاضبًا. وغير متوازن.

ليس من لوسي بالطبع، لكنه كان واثقًا تمامًا من أن ذلك أثّر على حكمه.

مع ذلك، كان يجب أن يراها. إنها شابة حسنة التربية. لا يقبل المرء فتاة مثلهن دون تقديم تفسيرات. وكان يجب عليه الاعتذار أيضًا، رغم أن ذلك لم يكن حقًا ما يرغب بفعله.

لكنه كان ما ينبغي عليه فعله.

نظر إلى كيت:

– "متى سيغادرون؟"

– "الليدي والآنسة واتسون؟ بعد الظهر، أعتقد."

لا، كاد يصرخ، عنيت الليدي لوسيندا. لكنه تدارك نفسه وحافظ على نبرة غير مبالية وهو يقول بدلًا من ذلك:

– "وفينسوورث؟"

– "قريبًا، أظن. الليدي لوسيندا نزلت للإفطار بالفعل." فكرت كيت للحظة. "أعتقد أن فينسوورث قال إنه يرغب في الوصول للمنزل بحلول العشاء. لكن يمكنهم قطع الرحلة في يوم واحد. إنهم لا يعيشون بعيدًا جدًا."

تمتم غريغوري بشرود:

– "بالقرب من دوفر."

قطبت كيت جبينها:

– "أعتقد أنك محق."

عبس غريغوري في طعامه. كان قد فكر في انتظار لوسي هنا؛ لن تستطيع تفويت الإفطار. لكن إذا كانت قد أكلت بالفعل، فإن وقت مغادرتها يقترب.

وكان بحاجة للعثور عليها.

وقف. بحدة بعض الشيء— فصدم فخذه بحافة الطاولة، مما جعل كيت تنظر إليه بتعبير مذهول.

سألت:

– "لن تنهي إفطارك؟"

هز رأسه:

– "لست جائعًا."

نظرت إليه بعدم تصديق واضح. لقد كانت فردًا من العائلة لأكثر من عشر سنوات، في النهاية.

– "كيف يعقل ذلك؟"

تجاهل السؤال:

– "أتمنى لكِ صباحًا جميلًا."

– "غريغوري؟"

التفت. لم يرد ذلك، لكن كانت هناك حدة طفيفة في صوتها، كافية ليعرف أنه بحاجة للانتباه.

امتلأت عينا كيت بالشفقة—والتوجس.

– "لن تذهب للبحث عن الآنسة واتسون، أليس كذلك؟"

قال:

– "لا."

وكان الأمر مضحكًا تقريبًا، لأن ذلك كان آخر ما يخطر بباله.



حدقت لوسي في صناديقها الموضبة، وهي تشعر بالتعب. والحزن. والتشوش. والسماء تعلم ماذا أيضًا.

معصورة. هكذا شعرت. راقبت الخادمات بمناشف الحمام، كيف كنّ يلوينها ويعصرنها لاستخراج آخر قطرة ماء.

إلى هذا آل الأمر إذن.

كانت هي منشفة الحمام.

– "لوسي؟"

كانت هيرميون، تدخل غرفتهما بهدوء. كانت لوسي قد نامت بالفعل عندما عادت هيرميون الليلة الماضية، وكانت هيرميون نائمة عندما غادرت لوسي للإفطار.

عندما عادت لوسي، كانت هيرميون قد ذهبت. وبطرق عديدة، كانت لوسي ممتنة لذلك.

شرحت هيرميون:

– "كنت مع والدتي. سنغادر بعد الظهر."

أومأت لوسي. كانت الليدي بريدجيرتون قد وجدتها عند الإفطار وأخبرتها بخطط الجميع. وبحلول الوقت الذي عادت فيه لغرفتها، كانت أغراضها كلها موضبة وجاهزة للتحميل في العربة.

انتهى الأمر إذن.

قالت هيرميون، وهي تجلس على حافة السرير لكن مع الحفاظ على مسافة محترمة من لوسي:

– "أردت التحدث معكِ. أردت أن أشرح."

ظلت نظرات لوسي مثبتة على صناديقها:

– "لا يوجد ما تشرحينه. أنا سعيدة جدًا لأنكِ ستتزوجين ريتشارد."

تمكنت من رسم ابتسامة متعبة. "ستصبحين أختي الآن."

– "لا يبدو صوتك سعيدًا."

– "أنا متعبة."

صمتت هيرميون للحظة، ثم، عندما بدا واضحًا أن لوسي انتهت من الكلام، قالت:

– "أردت التأكد من أنكِ تعرفين أنني لم أكن أخفي أسرارًا عنكِ. لن أفعل ذلك أبدًا. آمل أنكِ تعلمين أنني لن أفعل ذلك أبدًا."

أومأت لوسي، لأنها كانت تعلم ذلك، حتى لو شعرت بالتخلي عنها، وربما بقليل من الخيانة الليلة الماضية.

ابتلعت هيرميون ريقها، ثم شدّت فكها، ثم أخذت نفسًا. وعرفت لوسي في تلك اللحظة أنها كانت تتدرب على كلماتها لساعات، وتقلبها في ذهنها، باحثة عن التركيبة الصحيحة تمامًا لقول ما تشعر به.

كان هذا بالضبط ما كانت لوسي لتفعله، ومع ذلك، بطريقة ما جعلها ذلك ترغب في البكاء.

ولكن رغم كل تدريب هيرميون، عندما تحدثت كانت لا تزال تغير رأيها، وتختار كلمات وعبارات جديدة.

– "لقد أحببت حقًا—لا. لا. ما أعنيه هو، أنني ظننت حقًا أنني أحببت السيد إدموندز. لكنني أظن أنني لم أفعل. لأنه أولًا كان هناك السيد بريدجيرتون، ثم... ريتشارد."

رفعت لوسي بصرها بحدة:

– "ماذا تعنين، أولًا كان هناك السيد بريدجيرتون؟"

أجابت هيرميون، مرتبكة بالسؤال:

– "أنا... لست متأكدة، في الواقع. عندما شاركته الإفطار كان الأمر وكأنني استيقظت من حلم طويل وغريب. أتذكرين، لقد تحدثت إليكِ عن ذلك؟ أوه، لم أسمع موسيقى أو أي شيء من هذا القبيل، ولم أشعر حتى... حسنًا، لا أعرف كيف أشرح الأمر، لكن رغم أنني لم أكن مأخوذة بأي شكل—كما كنت مع السيد إدموندز—أنا... أنا تساءلت. بشأنه. وعما إذا كان بإمكاني الشعور بشيء ما. إذا حاولت. ولم أرَ كيف يمكن أن أكون واقعة في حب السيد إدموندز إذا كان السيد بريدجيرتون يجعلني أتساءل."

أومأت لوسي. غريغوري بريدجيرتون جعلها تتساءل هي الأخرى. لكن ليس عما إذا كان بإمكانها. ذلك عرفته. أرادت فقط معرفة كيف تجعل نفسها لا تفعل.

لكن هيرميون لم ترَ ضيقها. أو ربما أخفته لوسي جيدًا. في كلتا الحالتين، واصلت هيرميون شرحها:

– "ثم... مع ريتشارد... لست متأكدة كيف حدث الأمر، لكننا كنا نمشي، ونتحدث، وبدا كل شيء ممتعًا جدًا. بل أكثر من ممتع. كلمة ممتع تبدو مملة، ولم يكن الأمر كذلك. شعرت... بالصواب. وكأنني عدت للمنزل."

ابتسمت هيرميون، بعجز تقريبًا، وكأنها لا تصدق تمامًا حظها الجيد. وكانت لوسي سعيدة لأجلها. حقًا كانت كذلك. لكنها تساءلت كيف يمكن الشعور بهذا القدر من السعادة والحزن في الوقت نفسه. لأنها لن تشعر أبدًا بذلك الشعور. وحتى لو لم تكن تؤمن به من قبل، فهي تؤمن به الآن. وذلك جعل الأمر أسوأ بكثير.

قالت لوسي بهدوء:

– "أنا آسفة إن لم أبدُ سعيدة لأجلكِ الليلة الماضية. أنا سعيدة. جدًا. كانت الصدمة، هذا كل شيء. تغييرات كثيرة في وقت واحد."

قالت هيرميون وعيناها تلمعان:

– "لكنها تغييرات جيدة يا لوسي. تغييرات جيدة."

تمنت لوسي لو تستطيع مشاركتها ثقتها. أرادت احتضان تفاؤل هيرميون، لكنها شعرت بدلًا من ذلك بأنها غارقة. لكنها لم تستطع قول ذلك لصديقتها. ليس الآن، وهي تتوهج بالسعادة.

لذا ابتسمت لوسي وقالت:

– "ستحظين بحياة جيدة مع ريتشارد."

وكانت تعني ذلك أيضًا.

أمسكت هيرميون يدها بكلتا يديها، وضغطت عليها بقوة بكل الصداقة والحماس بداخلها:

– "أوه، لوسي، أعرف ذلك. أعرفه منذ زمن طويل، وهو شقيقك، لذا لطالما جعلني أشعر بالأمان. بالراحة، حقًا. لا أضطر للقلق بشأن ما يظنه بي. بالتأكيد أخبرتِه بكل شيء بالفعل، الجيد والسيء، ولا يزال يعتقد أنني رائعة نوعًا ما."

اعترفت لوسي:

– "إنه لا يعرف أنكِ لا تجيدين الرقص."

هزت هيرميون كتفيها:

– "لا يعرف؟ سأخبره إذن. ربما يستطيع تعليمي. هل لديه أي موهبة في ذلك؟"

هزت لوسي رأسها.

قالت هيرميون وابتسامتها حالمة ومتأملة ومبتهجة في آن واحد:

– "أترين؟ نحن متطابقان تمامًا. أصبح كل شيء واضحًا جدًا. من السهل جدًا التحدث معه، والليلة الماضية... كنت أضحك، وكان يضحك، وبدا الأمر كله... رائعًا. لا أستطيع الشرح حقًا."

لكنها لم تكن بحاجة للشرح. كانت لوسي مرتعبة لأنها عرفت بالضبط ما تعنيه هيرميون.

– "ثم كنا في المشتل، وكان المكان جميلًا جدًا مع ضوء القمر المتسلل عبر الزجاج. كان كل شيء مبقعًا وضبابيًا و... ثم نظرت إليه." أصبحت عينا هيرميون ضبابيتين وغير مركزتين، وعرفت لوسي أنها غارقة في الذكرى.

غارقة وسعيدة.

قالت هيرميون مرة أخرى:

– "نظرت إليه، وكان ينظر إليّ. لم أستطع إزاحة نظري. ببساطة لم أستطع. ثم قبلنا بعضنا. كان الأمر... لم أفكر فيه حتى. حدث فحسب. كان أكثر شيء طبيعي ورائع في العالم."

أومأت لوسي بحزن.

– "أدركت أنني لم أفهم من قبل. مع السيد إدموندز—أوه، ظننت نفسي واقعة في حبه بعنف، لكنني لم أعرف ما هو الحب. كان وسيمًا جدًا، وجعلني أشعر بالخجل والإثارة، لكنني لم أتشوق أبدًا لتقبيله. لم أنظر إليه وأميل نحوه، ليس لأنني أردت ذلك، بل فقط لأن... لأن..."

لأن ماذا؟ أرادت لوسي الصراخ. لكن حتى لو كانت لديها الرغبة، فقد افتقرت للطاقة.

أنهت هيرميون بهدوء، وبدت مندهشة وكأنها لم تدرك ذلك بنفسها حتى تلك اللحظة:

– "لأنه المكان الذي أنتمي إليه."

فجأة بدأت لوسي تشعر بغرابة شديدة. شعرت بتوتر في عضلاتها، وتملكتها رغبة جنونية في قبض يديها. ماذا تعني؟ لماذا تقول هذا؟ قضى

الجميع وقتًا طويلًا يخبرونها أن الحب شيء سحري، شيء جامح لا يمكن السيطرة عليه يأتي كعاصفة رعدية.

والآن هو شيء آخر؟ مجرد راحة؟ شيء هادئ؟ شيء يبدو لطيفًا في الواقع؟ سمعت نفسها تسأل بحدة:

– "ماذا حدث لسماع الموسيقى؟ ولرؤية مؤخرة رأسه والمعرفة؟"

هزت هيرميون كتفيها بعجز:

– "لا أعرف. لكنني ما كنت لأثق في ذلك، لو كنت مكانك."

أغمضت لوسي عينيها بألم. لم تكن بحاجة لتحذير هيرميون. لم تكن لتثق بذلك النوع من المشاعر أبدًا. لم تكن من النوع الذي يحفظ قصائد الحب، ولن تكون كذلك أبدًا. لكن النوع الآخر—الذي فيه ضحك، وراحة، وشعور باللطف—ذلك ستثق به في غمضة عين.

ويا إلهي، هذا ما شعرت به مع السيد بريدجيرتون.

كل ذلك وموسيقى أيضًا.

شعرت لوسي بالدم ينسحب من وجهها. لقد سمعت موسيقى عندما قبلته. كانت سيمفونية حقيقية، بتصاعدات محلقة وقرع طبول وحتى ذلك الإيقاع الخفي النابض الذي لا يلاحظه المرء أبدًا حتى يتسلل ويسيطر على إيقاع قلبه.

لقد طافت لوسي. ووخزها جسدها. وشعرت بكل تلك الأشياء التي قالت هيرميون إنها شعرت بها مع السيد إدموندز—وكل ما قالت إنها شعرت به مع ريتشارد أيضًا.

كل ذلك مع شخص واحد.

إنها واقعة في حبه. إنها واقعة في حب غريغوري بريدجيرتون.

لم يكن الإدراك ليكون أكثر وضوحًا... أو أكثر قسوة.

سألت هيرميون بتردد:

– "لوسي؟" ثم مرة أخرى: "لوس؟"

سألت لوسي فجأة:

– "متى الزفاف؟"

لأن تغيير الموضوع كان الشيء الوحيد الذي يمكنها فعله. التفتت، ونظرت مباشرة إلى هيرميون وثبتت بصرها عليها لأول مرة في المحادثة.

– "هل بدأتِ بوضع الخطط؟ هل سيكون في فينشلي؟"

التفاصيل. التفاصيل كانت خلاصها. ولطالما كانت كذلك.

بدا تعبير هيرميون مرتبكًا، ثم قلقًا، ثم قالت:

– "أنا... لا، أعتقد أنه سيكون في الدير. إنه أفخم قليلًا. و... هل أنتِ متأكدة من أنكِ بخير؟"

قالت لوسي بحدة:

– "بخير تمامًا."

وبدا صوتها مثل صوتها المعتاد، لذا ربما يعني ذلك أنها ستبدأ بالشعور كذلك أيضًا.

– "لكنك لم تذكري متى."

– "أوه. قريبًا. قيل لي إن هناك أشخاصًا كانوا بالقرب من المشتل الليلة الماضية. لست متأكدة مما سُمع—أو نُقل—لكن الهمس قد بدأ، لذا سنحتاج لتسوية الأمر كله على وجه السرعة." منحتها هيرميون ابتسامة عذبة. "أنا لا أمانع. ولا أظن أن ريتشارد يمانع أيضًا."

تساءلت لوسي أيهما ستصل للمذبح أولًا. أملت أن تكون هيرميون.

طرق الباب. كانت خادمة، يتبعها خادمان، لإخراج صناديق لوسي.

شرحت لوسي، رغم أنها لم ترَ شقيقها منذ أحداث الليلة السابقة:

– "ريتشارد يرغب في انطلاقة مبكرة."

على الأرجح كانت هيرميون تعرف عن خططهم أكثر مما تعرف هي.

قالت هيرميون وهي ترافقها للباب:

– "فكري في الأمر يا لوسي. كلتانا سنصبح كونتيسة. أنا كونتيسة فينسوورث، وأنتِ كونتيسة دافنبورت. سنشكل ثنائيًا رائعًا، نحن الاثنتين."

عرفت لوسي أنها تحاول تشجيعها، لذا استخدمت كل ذرة من طاقتها لتجبر ابتسامتها على الوصول لعينيها وهي تقول:

– "سيكون ذلك ممتعًا جدًا، أليس كذلك؟"

أمسكت هيرميون يدها وضغطت عليها:

– "أوه، سيكون كذلك يا لوسي. سترين. نحن في فجر يوم جديد، وسيكون مشرقًا بالفعل."

عانقت لوسي صديقتها. كانت الطريقة الوحيدة التي فكرت فيها لإخفاء وجهها عن الأنظار.

لأنه لم تكن هناك طريقة لتصنع ابتسامة هذه المرة.



وجدها غريغوري في الوقت المناسب تمامًا. كانت في الممر الأمامي، وحيدة بشكل مدهش، باستثناء حفنة من الخدم يهرولون في المكان. استطاع رؤية جانب وجهها، وذقنها المرفوع قليلًا وهي تراقب تحميل صناديقها في العربة. بدت... متماسكة. متمالكة نفسها بعناية.

نادى:

– "ليدي لوسيندا."

سكنت تمامًا قبل أن تلتفت. وعندما فعلت، بدت عيناها متألمتين.

قال، رغم أنه لم يعد متأكدًا من شعوره:

– "أنا سعيد لأنني لحقت بكِ."

لم تكن سعيدة لرؤيته. لم يتوقع ذلك.

قالت:

– "سيد بريدجيرتون."

كانت زاويتا فمها مشدودتين، وكأنها تظن أنها تبتسم.

كان هناك مائة شيء مختلف يمكنه قوله، لذا اختار بالطبع الأقل معنى والأكثر وضوحًا:

– "أنتِ تغادرين."

قالت بعد توقف قصير جدًا:

– "نعم. ريتشارد يرغب في انطلاقة مبكرة."

نظر غريغوري حوله:

– "هل هو هنا؟"

– "ليس بعد. أتصور أنه يودع هيرميون."

– "آه. نعم." تنحنح. "بالطبع."

نظر إليها، ونظرت إليه، وصمتا.

موقف محرج.

قال:

– "أردت أن أقول إنني آسف."

هي... هي لم تبتسم. لم يكن متأكدًا من تعبيرها، لكنه لم يكن ابتسامة. قالت:

– "بالطبع."

بالطبع؟ بالطبع؟

قالت ناظرة فوق كتفه قليلًا:

– "أنا أقبل اعتذارك. أرجوك، لا تفكر في الأمر مرة أخرى."

كان هذا ما عليها قوله، بالتأكيد، لكنه ظل يزعج غريغوري. لقد قبلها، وكان الأمر مذهلًا، وإذا رغب في تذكره، فسيفعل ذلك، واللعنة.

سأل:

– "هل سأراكِ في لندن؟"

نظرت إليه حينها، وعيناها تلاقيان عينيه أخيرًا. كانت تبحث عن شيء ما. كانت تبحث عن شيء فيه، ولم يظن أنها وجدته.

بدت شديدة الوجوم، شديدة التعب.

شديدة الاختلاف عن طبيعتها.

أجابت:

– "أتوقع ذلك. لكن الأمر لن يكون كما كان. أنا مخطوبة، كما ترى."

ذكرها مبتسمًا:

– "مخطوبة عمليًا."

– "لا." هزت رأسها، ببطء واستسلام. "أنا كذلك حقًا الآن. لهذا جاء ريتشارد لإعادتي للمنزل. لقد أنهى عمي الاتفاقيات. أعتقد أن إعلان الزواج سيقرأ قريبًا. لقد تم الأمر."

انفرجت شفتاه دهشة:

– "أفهم."

وتسارعت أفكاره. وتسارعت وتسارعت، ولم تصل لشيء على الإطلاق. قال، لأنه ماذا عساه يقول غير ذلك:

– "أتمنى لكِ الأفضل."

أومأت، ثم أمالت رأسها نحو العشب الأخضر الواسع أمام المنزل:

– "أعتقد أنني سآخذ جولة في الحديقة. أمامي رحلة طويلة."

قال مؤديًا انحناءة مهذبة:

– "بالطبع."

لم تكن ترغب في رفقته. لم تكن لتوضح ذلك أكثر حتى لو نطقت بالكلمات.

قالت:

– "كان من دواعي سروري معرفتك."

التقت عيناها بعينيه، ولأول مرة في المحادثة، رآها، رأى أعماق كل شيء بداخلها، منهكًا ومكدومًا.

ورأى أنها تودعه.

قالت:

– "أنا آسفة..." توقفت، ونظرت جانباً. إلى جدار حجري. "أنا آسفة لأن الأمور لم تسر كما أملت."

أنا لست آسفًا، فكر في نفسه، وأدرك أن ذلك صحيح. ومضت أمامه فجأة صورة حياته متزوجًا من هيرميون واتسون، وكان...

يشعر بالملل.

يا إلهي، كيف لم يدرك ذلك إلا الآن؟ هو والآنسة واتسون غير متناسبين على الإطلاق، وفي الحقيقة، لقد نجا بأعجوبة.

لم يكن من المرجح أن يثق في حكمه المرة القادمة عندما يتعلق الأمر بمسائل القلب، لكن ذلك بدا أفضل بكثير من زواج ممل. افترض أن عليه شكر الليدي لوسيندا على ذلك، رغم أنه لم يكن متأكدًا من السبب. فهي لم تمنع زواجه من الآنسة واتسون؛ بل في الواقع، شجعته في كل منعطف.

لكن بطريقة ما كانت مسؤولة عن استعادته لصوابه. إذا كان هناك شيء واحد حقيقي يمكن معرفته ذلك الصباح، فهو هذا.

أشارت لوسي للعشب مرة أخرى:

- "سآخذ تلك الجولة."

أومأ مودعًا وراقبها وهي تمشي مبتعدة. كان شعرها مصففًا بعناية في كعكة، وخصلاتها الشقراء تعكس ضوء الشمس مثل العسل والزبدة.

انتظر لبعض الوقت، ليس لأنه توقع منها الالتفات، أو حتى لأنه أمل أن تفعل.

بل تحسبًا فقط.

لأنها قد تفعل. قد تلتفت، وقد يكون لديها ما تقوله له، وحينها قد يجيب، وقد تقوم هي بـ—

لكنها لم تفعل. واصلت المشي. لم تلتفت، لم تنظر للخلف، وهكذا أمضى دقائقه الأخيرة يحدق في مؤخرة عنقها.

وكل ما استطاع التفكير فيه هو—

هناك شيء ليس على ما يرام.

لكنه، وحياته على المحك، لم يعرف ما هو.





الفصل الثالث عشر

وفيه تلقي بطلتنا نظرة خاطفة على مستقبلها.



بعد شهر واحد.

كان الطعام فاخرًا، وترتيب المائدة مذهلًا، والمحيط فخمًا يفوق الوصف.

أما لوسي، فكانت بائسة.

حضر اللورد هاسيلبي ووالده، إيرل دافنبورت، إلى منزل فينسوورث في لندن لتناول العشاء. كانت الفكرة فكرة لوسي، وهي حقيقة تجدها الآن ساخرة بشكل مؤلم. زفافها على بعد أسبوع واحد فقط، ومع ذلك، حتى هذه الليلة، لم تكن قد رأت زوجها المستقبلي قط.

على الأقل ليس منذ تحول الزفاف من "محتمل" إلى "وشيك".

كانت قد وصلت هي وعمها إلى لندن قبل أسبوعين، وبعد انقضاء أحد عشر يومًا دون لمحة واحدة من خطيبها، اقتربت من عمها وسألته عما إذا كان بإمكانهم ترتيب نوع من اللقاء. بدا عليه الانزعاج، رغم أن لوسي كانت واثقة تمامًا من أن ذلك ليس لأنه اعتبر الطلب أحمق. لا، بل مجرد وجودها أمامه كان كافيًا لاستحضار هذا التعبير. كانت تقف أمامه، واضطر هو لرفع بصره.

العم روبرت لم يكن يحب المقاطعة.

لكنه رأى الحكمة على ما يبدو في السماح لزوجين مخطوبين بتبادل كلمة أو اثنتين قبل لقائهما في الكنيسة، لذا أخبرها باقتضاب أنه سيتولى الترتيبات.

وبتشجيع من انتصارها الصغير، سألت لوسي أيضًا عما إذا كان بإمكانها حضور إحدى المناسبات الاجتماعية العديدة التي كانت تجري عمليًا خارج بابها مباشرة. بدأ الموسم الاجتماعي في لندن، وكانت لوسي تقف كل ليلة عند نافذتها، تراقب العربات الأنيقة وهي تمر. ذات مرة، كان هناك حفل في الجهة المقابلة لساحة "سانت جيمس" مباشرة من منزل فينسوورث. التفت طوابير العربات حول الساحة، وأطفأت لوسي الشموع في غرفتها حتى لا يظهر خيالها في النافذة وهي تراقب الأحداث. نفد صبر عدد من رواد الحفل من الانتظار، وبما أن الطقس كان جميلًا، نزلوا في جانبها من الساحة وساروا بقية الطريق.

أخبرت لوسي نفسها أنها تريد فقط رؤية الفساتين، لكن في قلبها كانت تعرف الحقيقة.

كانت تبحث عن السيد بريدجيرتون.

لم تكن تعرف ماذا ستفعل لو رأته بالفعل. ربما ستتوارى عن الأنظار، كما افترضت. لا بد أنه يعلم أن هذا هو منزلها، وبالتأكيد سيكون فضوليًا بما يكفي لإلقاء نظرة على الواجهة، حتى لو لم يكن وجودها في لندن حقيقة معروفة على نطاق واسع.

لكنه لم يحضر ذلك الحفل، أو إذا فعل، فقد أنزلته عربته عند عتبة الباب الأمامي مباشرة.

أو ربما لم يكن في لندن على الإطلاق. لم تكن لدى لوسي أي طريقة للمعرفة. كانت محاصرة في المنزل مع عمها وعمتها المسنة هارييت، الصماء قليلًا، التي أُحضرت من أجل اللياقة الاجتماعية. كانت لوسي تغادر المنزل لزيارة الخياطة والمشي في الحديقة، لكن عدا ذلك، كانت وحيدة تمامًا، مع عم لا يتحدث، وعمة لا تسمع.

لذا لم تكن مطلعة عمومًا على الشائعات. سواء عن غريغوري بريدجيرتون أو عن أي شخص آخر، في هذا الصدد.

وحتى في المناسبات النادرة التي رأت فيها شخصًا تعرفه، لم تستطع أن تسأل عنه. سيعتقد الناس أنها مهتمة، وهو ما كانت عليه بالطبع، لكن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، يمكن أن يعرف ذلك أبدًا.

كانت ستتزوج من شخص آخر. خلال أسبوع. وحتى لو لم تكن كذلك، لم يُظهر غريغوري بريدجيرتون أي إشارة على أنه قد يكون مهتمًا بأخذ مكان هاسيلبي.

لقد قبلها، هذا صحيح، وبدا قلقًا على سلامتها، لكن إذا كان يعتقد أن القبلة تتطلب عرضًا للزواج، فلم يُشر إلى ذلك. لم يكن يعلم أن خطبتها لـ هاسيلبي قد تم الانتهاء منها – ليس عندما قبّلها، ولا في صباح اليوم التالي عندما وقفا بشكل محرج في الممر. لم يكن بوسعه إلا الاعتقاد بأنه يقبّل فتاة غير مرتبطة تمامًا. والمرء ببساطة لا يفعل شيئًا كهذا إلا إذا كان مستعدًا وراغبًا في التقدم للمذبح.

لكن ليس غريغوري. عندما أخبرته أخيرًا، لم يبدُ عليه الألم. لم يبدُ حتى منزعجًا بشكل طفيف. لم تكن هناك توسلات لإعادة النظر، أو لمحاولة إيجاد مخرج. كل ما رأته في وجهه – وقد نظرت، أوه، كم نظرت – كان... لا شيء.

وجهه، عيناه – كانا فارغين تقريبًا. ربما لمسة من المفاجأة، لكن لا حزن ولا ارتياح. لا شيء يشير إلى أن خطبتها تعني له شيئًا، بطريقة أو بأخرى.

أوه، لم تكن تعتقد أنه نذل، وكانت واثقة تمامًا من أنه كان سيتزوجها لو كان ذلك ضروريًا. لكن لم يرَهما أحد، وبالتالي، بالنسبة لبقية العالم، لم يحدث ذلك أبدًا.

لم تكن هناك عواقب. لأي منهما.

لكن ألم يكن من الجميل لو بدا منزعجًا قليلًا فقط؟ لقد قبّلها، واهتزت الأرض – بالتأكيد شعر بذلك. ألم يكن ينبغي له أن يرغب في المزيد؟ ألم يكن ينبغي له أن يرغب، إن لم يكن في الزواج منها، فعلى الأقل في إمكانية القيام بذلك؟

بدلًا من ذلك قال: "أتمنى لكِ الأفضل"، وبدا ذلك نهائيًا للغاية.

بينما كانت تقف هناك، تراقب صناديقها وهي تُحمل إلى العربة، شعرت بقلبها ينكسر. شعرت به، هناك تمامًا ـ في صدرها. كان مؤلمًا. وبينما كانت تمشي مبتعدة، ازداد الأمر سوءًا، ضاغطًا ومعتصرًا حتى ظنت أنه سيسرق أنفاسها. بدأت تتحرك أسرع – بأسرع ما يمكنها مع الحفاظ على مشية طبيعية، ثم أخيرًا دارت حول زاوية وانهارت على مقعد، تاركة وجهها يسقط عاجزًا بين يديها.

وصلّت ألا يراها أحد.

أرادت أن تنظر للخلف. أرادت أن تختلس نظرة أخيرة إليه وتحفظ وقفته في ذاكرتها – تلك الطريقة الفريدة التي يقف بها، يداه خلف ظهره، ساقاه متباعدتان قليلًا. عرفت لوسي أن مئات الرجال يقفون بنفس الطريقة، لكن عليه كانت مختلفة. يمكنه أن يكون مواجهًا للاتجاه الآخر، على بعد ياردات وياردات، وستعرف أنه هو.

كان يمشي بشكل مختلف أيضًا، باسترخاء وسهولة قليلًا، وكأن جزءًا صغيرًا من قلبه لا يزال ـ في السابعة من عمره. كان ذلك ـ في الكتفين، الوركين ربما – نوع الشيء الذي لن يلاحظه أحد تقريبًا، لكن لوسي كانت دائمًا تنتبه للتفاصيل.

لكنها لم تنظر للخلف. كان ذلك سيجعل الأمر أسوأ فقط. ربما لم يكن يراقبها، لكن لو كان... ورآها تستدير...

كان ليكون ذلك مدمرًا. لم تكن واثقة من السبب، لكنه كان ليكون كذلك.

لم ترد له أن يرى وجهها. تمكنت من البقاء متماسكة خلال محادثتهما، لكن بمجرد أن استدارت، شعرت بنفسها تتغير. انفرجت شفتاها، وشهقت نفسًا عميقًا، وكان الأمر وكأنها قد أفرغت نفسها من الداخل.

كان فظيعًا. ولم ترد له أن يرى ذلك.

إلى جانب ذلك، لم يكن مهتمًا. كاد أن يتعثر ـ في كلماته ليعتذر عن القبلة. كانت تعلم أن هذا ما يجب عليه فعله؛ المجتمع يملي ذلك (أو إن لم يكن ذلك، فرحلة سريعة للمذبح). لكنه آلمها رغم ذلك. أرادت أن تعتقد أنه شعر بجزء

ضئيل جدًا مما شعرت به. ليس أن شيئًا قد ينتج عن ذلك، لكنه كان سيجعلها تشعر بتحسن.

أو ربما أسوأ.

وفي النهاية، لم يكن الأمر مهمًا. لم يهم ما عرفه قلبها أو لم يعرفه، لأنها لا تستطيع فعل أي شيء به. ما فائدة المشاعر إن لم يستطع المرء استخدامها لغاية ملموسة؟ كان عليها أن تكون عملية. هذا ما كانت عليه. كان ذلك هو الثابت الوحيد لها في عالم يدور بسرعة أكبر بكثير مما يريحها.

لكن مع ذلك – هنا في لندن – أرادت رؤيته. كان الأمر سخيفًا وأحمق وبالتأكيد غير حكيم، لكنها أرادته رغم كل شيء. لم تكن مضطرة حتى للتحدث معه. في الواقع، ربما لا ينبغي لها التحدث معه. لكن لمحة...

لمحة لن تؤذي أحدًا.

لكن عندما سألت العم روبرت عما إذا كان بإمكانها حضور حفلة، رفض، مصرحًا بأنه لا جدوى تذكر من إضاعة الوقت أو المال على الموسم الاجتماعي بينما هي تمتلك بالفعل النتيجة المرجوة – عرض زواج.

علاوة على ذلك، أخبرها أن اللورد دافنبورت يرغب في تقديم لوسي للمجتمع كـ "ليدي هاسيلبي"، وليس كـ "ليدي لوسيندا أبيرناثي". لم تكن لوسي متأكدة من سبب أهمية ذلك، خاصة وأن عددًا لا بأس به من أفراد المجتمع يعرفونها بالفعل باسم الليدي لوسيندا أبيرناثي، سواء من المدرسة أو من عملية "الصقل الاجتماعي" التي خضعت لها هي وهيرميون في ذلك الربيع. لكن العم روبرت أشار (بطريقته الفريدة، أي دون كلمة واحدة) إلى أن المقابلة انتهت، وكان قد أعاد انتباهه بالفعل إلى الأوراق على مكتبه.

للحظة وجيزة، ظلت لوسي في مكانها. إذا نادت باسمه، قد ينظر للأعلى. أو قد لا يفعل. لكن إذا فعل، فسيكون صبره قليلًا، وستشعر وكأنها مصدر إزعاج، ولن تتلقى أي إجابات لأسئلتها على أية حال.

لذا أومأت برأسها وغادرت الغرفة. رغم أن الله وحده يعلم لماذا كلفت نفسها عناء الإيماء. العم روبرت لا ينظر للأعلى أبدًا بمجرد أن يصرفها.

والآن ها هي ذي، في العشاء الذي طلبته بنفسها، وتتمنى – بحرارة – لو أنها لم تفتح فمها أبدًا.

كان هاسيلبي جيدًا، لطيفًا تمامًا حتى. لكن والده...

صلت لوسي ألا تعيش في مقر إقامة دافنبورت. أرجوك أرجوك دع هاسيلبي يمتلك منزله الخاص.

في "ويلز". أو ربما فرنسا.

اللورد دافنبورت، بعد التذمر من الطقس، ومجلس العموم، والأوبرا (التي وجدها، على التوالي، ممطرة، ومليئة بالحمقى سيئي التربية، وبحق السماء ليست حتى بالإنجليزية!)، حوّل عينه الناقدة نحوها.

تطلب الأمر كل شجاعة لوسي لعدم التراجع بينما كان يتقدم نحوها. بدا أشبه بسمكة بدينة، بعينين جاحظتين وشفتين سميكتين ولحيمتين. حقًا، لم تكن لوسي لتتفاجأ لو مزق قميصه ليكشف عن خياشيم وحراشف.

ثم... ييييع... ارتجفت لمجرد تذكر الأمر. اقترب منها، اقترب لدرجة أن أنفاسه الساخنة والكريهة نفخت حول وجهها.

وقفت بجمود، بالوضع المثالي الذي غُرس فيها منذ الولادة.

طلب منها أن تظهر أسنانها.

كان الأمر مهينًا.

فحصها اللورد دافنبورت وكأنها فرس معدة للتناسل، بل وصل به الأمر إلى وضع يديه على وركيها ليقيسهما تحسبًا لمدى صلاحيتهما للإنجاب! شهقت لوسي، ورمقت عمها بنظرة استغاثة ذعرة، لكن وجهه كان جامدًا كالصخر، يحدق بإصرار في بقعة لا تمت لوجهها بصلة.

والآن وقد جلسوا لتناول الطعام... يا للسماء! كان اللورد دافنبورت يخضعها لاستجواب. سأل كل سؤال يمكن تصوره عن صحتها، مغطيًا مجالات كانت واثقة تمامًا أنها لا تليق بمجلس مختلط، ثم، وفقط عندما ظنت أن الأسوأ قد انتهى...

– "هل تجيدين الجداول؟"

طرفت لوسي بعينيها.

– "عفوًا؟"

قال بنفاد صبر:

– "الجداول. جداول الضرب. الستة، والسبعة."

للحظة لم تستطع لوسي الكلام. هل يريد منها حل مسائل حسابية؟

طالبها بحدة:

– "حسنًا؟"

تمتمت:

– "بالطبع."

نظرت مرة أخرى لعمها، لكنه كان يحافظ على تعبيره بعدم الاهتمام المتعمد.

قال دافنبورت، وفمه يستقر في خط حازم بين خديه المترهلين:

– "أريني. جدول السبعة سيفي بالغرض."

– "أنا... آه..."

بشعور يائس تمامًا، حاولت حتى التقاء عينيها بعيني العمة هارييت، لكن تلك الأخيرة كانت غافلة تمامًا عن مجريات الأمور، ولم تنبس ببنت شفة في الواقع منذ بدأت الأمسية.

قاطع هاسيلبي:

– "أبي، بالتأكيد أنت..."

قال اللورد دافنبورت بفظاظة:

– "الأمر كله يتعلق بالنسل. مستقبل العائلة يكمن في رحمها. ومن حقنا أن نعرف نوع البضاعة التي سنحصل عليها."

انفرجت شفتا لوسي بصدمة. ثم أدركت أنها حركت يدها نحو بطنها. تركتها تسقط بسرعة. قفزت عيناها ذهابًا وإيابًا بين الأب والابن، غير متأكدة مما إذا كان يفترض بها التحدث.

كان اللورد دافنبورت يقول:

– "آخر شيء تريده هو امرأة تفكر أكثر من اللازم، لكن يجب أن تكون قادرة على فعل شيء أساسي كالضرب الحسابي. يا إلهي، يا بني، فكر في العواقب."

نظرت لوسي إلى هاسيلبي. نظر إليها بدوره. بنظرة اعتذار.

ابتلعت ريقها وأغمضت عينيها للحظة تستمد فيها القوة. عندما فتحتهما، كان اللورد دافنبورت يحدق مباشرة فيها، وشفتاه تنفرجان، وأدركت أنه سيتحدث مرة أخرى، وهو ما لم تكن لتتحمله إطلاقًا، و...

اندفعت الكلمات منها، مقاطعة إياه بأفضل ما استطاعت:

– "سبعة، أربعة عشر، واحد وعشرون... ثمانية وعشرون، خمسة وثلاثون، اثنان وأربعون..."

تساءلت عما سيفعله لو أخطأت في الحساب. هل سيلغي الزواج؟

– "... تسعة وأربعون، ستة وخمسون..."

كان الأمر مغريًا. مغريًا جدًا.

– "... ثلاثة وستون، سبعون، سبعة وسبعون..."

نظرت إلى عمها. كان يأكل. لم يكن ينظر إليها حتى.

– "... اثنان وثمانون، تسعة وثمانون..."

أعلن اللورد دافنبورت بصوت جهوري، متزامنًا تمامًا مع رقم اثنين وثمانين:

– "إيه، هذا يكفي."

تلاشى الشعور بالدوار في صدرها بسرعة. لقد تمردت – ربما لأول مرة في حياتها كلها – ولم يلاحظ أحد.

لقد انتظرت طويلًا جدًا.

تساءلت عما كان يجب عليها فعله أيضًا.

قال هاسيلبي بابتسامة مشجعة:

– "أحسنتِ صنعًا."

تمكنت لوسي من رد الابتسامة. لم يكن سيئًا حقًا. في الواقع، لولا وجود غريغوري، لظنت أنه خيار جيد إلى حد ما. ربما كان شعر هاسيلبي خفيفًا قليلًا، وفي الواقع كان هو نفسه نحيلًا قليلًا أيضًا، لكن ذلك لم يكن شيئًا يدعو للشكوى حقًا. خاصة وأن شخصيته – وهي بالتأكيد أهم جانب في أي رجل – كانت مقبولة تمامًا. تمكنا من إجراء محادثة قصيرة قبل العشاء بينما كان والده وعمها يناقشان السياسة، وكان ساحرًا للغاية. حتى أنه ألقى نكتة جافة جانبية عن والده، مصحوبة بقلبة عين جعلت لوسي تضحك بخفوت.

حقًا، لا ينبغي لها أن تشتكي.

وهي لم تفعل. ولن تفعل. تمنت فقط شيئًا آخر.

سأل اللورد دافنبورت، وعيناه ضيقتان بما يكفي لجعل سؤاله غير ودي بالتحديد:

– "أثق في أنكِ أبليتِ حسنًا في مدرسة الآنسة موس؟"

أجابت لوسي وهي تطرف بعينيها دهشة:

– "نعم، بالطبع."

ظنت أن المحادثة قد ابتعدت عنها.

قال دافنبورت وهو يمضغ قطعة من لحم الضأن المشوي:

– "مؤسسة ممتازة. إنهم يدركون ما ينبغي للفتاة معرفته وما لا ينبغي. ابنة وينسلو ذهبت إلى هناك. وابنة فوردهام أيضًا."

تمتمت لوسي، بما أن الرد بدا متوقعًا:

– "نعم. كلتاهما فتاتان لطيفتان جدًا."

كذبت لوسي. كانت سيبيللا وينسلو طاغية صغيرة بغيضة تجد متعة في قرص أذرع الطالبات الأصغر سنًا.

لكن لأول مرة هذا المساء، بدا اللورد دافنبورت مسرورًا بها. سأل:

– "أنتِ تعرفينهما جيدًا إذن؟"

راوغت لوسي:

– "آه، نوعًا ما. الليدي جوانا كانت أكبر قليلًا، لكن المدرسة ليست كبيرة. لا يمكن للمرء ألا يعرف الطالبات الأخريات."

أومأ اللورد دافنبورت باستحسان، واهتزت خدوده المترهلة مع الحركة.

– "جيد."

حاولت لوسي ألا تنظر.

تابع قائلًا:

– "هؤلاء هم الناس الذين ستحتاجين لمعرفتهم. علاقات يجب عليكِ تنميتها."

أومأت لوسي بامتثال، بينما كانت تضع قائمة ذهنية بكل الأماكن التي تفضل أن تكون فيها. باريس، البندقية، اليونان... أليسوا في حرب؟ لا يهم. لا تزال تفضل أن تكون في اليونان.

– "... مسؤولية تجاه الاسم... معايير معينة للسلوك..."

هل الطقس حار جدًا في الشرق؟ لطالما أعجبت بالمزهريات الصينية.

– "... لن أتسامح مع أي انحراف عن..."

ما اسم تلك المنطقة المريعة من المدينة؟ "سانت جايلز"؟ نعم، تفضل أن تكون هناك أيضًا.

– "... التزامات. التزامات!"

صاحب الكلمة الأخيرة ضربة بقبضته على الطاولة، مما تسبب في قعقعة الفضيات وجعل لوسي تنتفض في مقعدها. حتى العمة هارييت رفعت نظرها عن طعامها.

انتبهت لوسي فجأة، وبما أن كل العيون كانت عليها، قالت:

– "نعم؟"

مال اللورد دافنبورت نحوها، بتهديد تقريبًا.

– "يومًا ما ستكونين ليدي دافنبورت. وستكون عليكِ التزامات. التزامات كثيرة."

تمكنت لوسي من مط شفتيها بما يكفي ليُحسب كرد.

يا إلهي، متى ستنتهي هذه الأمسية؟

اقترب اللورد دافنبورت أكثر، ورغم أن الطاولة كانت عريضة ومثقلة بالطعام، تراجعت لوسي غريزيًا للخلف.

– "لا يمكنكِ الاستخفاف بمسؤولياتك،" تابع، وصوته يرتفع بشكل مخيف. "هل تفهمينني يا فتاة؟"

تساءلت لوسي عما سيحدث لو أمسكت رأسها بيديها وصرخت.

يا إلهي في السماوات، ضع حدًا لهذا العذاب!!!

نعم، فكرت بشكل تحليلي تقريبًا، قد ينجح ذلك في إبعاده. ربما سيحكم عليها بأنها مختلة عقليًا و...

سمعت نفسها تقول:

– "بالطبع يا لورد دافنبورت."

كانت جبانة. جبانة بائسة.

ثم، وكأنه لعبة تعمل بالزنبرك انتهى شحنها، عاد اللورد دافنبورت للجلوس في مقعده، هادئًا تمامًا.

قال وهو يربت على زاوية فمه بمنديله:

– "يسرني سماع ذلك. يطمئنني أن أرى أنهم لا يزالون يعلمون الإذعان والاحترام في مدرسة الآنسة موس. لست نادمًا على خياري بإرسالك إلى هناك."

توقفت شوكة لوسي في منتصف الطريق إلى فمها.

– "لم أكن أدرك أنك من قمت بالترتيبات."

نخر قائلًا، وهو ينظر إليها وكأنها ضعيفة العقل:

– "كان عليّ فعل شيء ما. ليس لديكِ أم لتتأكد من تعليمك بشكل صحيح لدورك في الحياة. هناك أشياء ستحتاجين لمعرفتها لتكوني كونتيسة. مهارات يجب أن تمتلكيها."

قالت باحترام، بعد أن قررت أن إظهار الوداعة والطاعة المطلقة سيكون أسرع طريقة لإنهاء العذاب:

– "بالطبع. وآه، شكرًا لك."

سأل هاسيلبي:

– "على ماذا؟"

التفتت لوسي إلى خطيبها. بدا فضوليًا بصدق.

شرحت، موجهة إجابتها بعناية لـ هاسيلبي:

– "حسنًا، على إرسالي لمدرسة الآنسة موس."

ربما إذا لم تنظر للورد دافنبورت، سينسى أنها موجودة.

سأل هاسيلبي:

– "هل استمتعتِ بها إذن؟"

أجابت، مندهشة نوعًا ما من الشعور اللطيف جدًا بطرح سؤال مهذب عليها:

– "نعم، كثيرًا جدًا. كانت رائعة. كنت سعيدة للغاية هناك."

فتح هاسيلبي فمه للرد، لكن لرعب لوسي، كان الصوت الذي خرج هو صوت والده.

زأر اللورد دافنبورت بعنجهية:

– "الأمر لا يتعلق بما يجعل المرء سعيدًا!"

لم تستطع لوسي إبعاد عينيها عن مشهد فم هاسيلبي الذي لا يزال مفتوحًا. حقًا، فكرت في لحظة غريبة من الهدوء المطلق، كان ذلك مخيفًا تقريبًا.

أغلق هاسيلبي فمه والتفت إلى والده بابتسامة مشدودة.

– "عمّا يتعلق الأمر إذن؟"

ولم تملك لوسي إلا أن تعجب بالغياب التام للاستياء في صوته.

أجاب والده، سامحًا لإحدى قبضتيه بالضرب على الطاولة بطريقة غير لائقة تمامًا:

– "يتعلق بما يتعلمه المرء. وبمن يصادق."

تدخلت لوسي باعتدال، ليس أن أحدًا كان يستمع إليها:

– "حسنًا، لقد أتقنتُ جداول الضرب."

زمجر دافنبورت:

– "ستكون كونتيسة. كونتيسة!"

نظر هاسيلبي لوالده برباطة جأش. وتمتم:

– "لن تكون كونتيسة إلا عندما تموت أنت."

سقط فك لوسي مفتوحًا.

تابع هاسيلبي، وهو يضع قطعة صغيرة جدًا من السمك في فمه بلامبالاة:

– "لذا حقًا، لن يهمك الأمر كثيرًا، أليس كذلك؟"

التفتت لوسي للورد دافنبورت، وعيناها واسعتان جدًا جدًا.

احتقن جلد الإيرل. كان لونًا فظيعًا – غاضبًا، داكنًا، وعميقًا، زاده سوءًا العرق الذي كان يقفز حرفيًا في صدغه الأيسر. كان يحدق في هاسيلبي، وعيناه مزمومتان بغضب. لم يكن هناك حقد، ولا رغبة في الأذى أو الضرر، ولكن رغم أن الأمر لم يكن منطقيًا على الإطلاق، كانت لوسي لتُقسم في تلك اللحظة أن دافنبورت يكره ابنه.

وكل ما قاله هاسيلبي هو:

– "يا له من طقس جميل لدينا."

وابتسم.

ابتسم!

حدقت فيه لوسي بذهول. السماء كانت تمطر بغزارة منذ أيام. لكن الأهم من ذلك، ألم يدرك أن والده على بعد تعليق وقح واحد من الإصابة بسكتة دماغية؟ بدا اللورد دافنبورت مستعدًا للبصق، وكانت لوسي واثقة تمامًا من أنها تستطيع سماع صرير أسنانه من الجانب الآخر للطاولة.

وعندها، وبينما كانت الغرفة تنبض بالغضب تقريبًا، تدخل العم روبرت لرأب الصدع.

قال وصوته مستوٍ وسلس ومشبع بالحسم، وكأنه يقول "انتهينا من ذلك إذن":

- "أنا مسرور لأننا قررنا إقامة الزفاف هنا في لندن. كما تعلمون، تزوج فينسوورث في الدير منذ أسبوعين فقط، وبينما يذكرنا ذلك بتاريخ الأسلاف - أعتقد أن الإيرلات السبعة الأخيرين أقاموا حفلات زفافهم في مقر الإقامة - حقًا، لم يتمكن أحد تقريبًا من الحضور."

شكت لوسي أن للأمر علاقة بالطبيعة المتعجلة للحدث بقدر ما له علاقة بموقعه، لكن لم يبدُ هذا الوقت المناسب لإبداء الرأي في الموضوع. وكانت قد أحبت الزفاف لصغره. كان ريتشارد وهيرميون سعيدين للغاية، وكل الحضور جاءوا بدافع الحب والصداقة. كانت حقًا مناسبة بهيجة.

حتى غادرا في اليوم التالي لرحلة شهر العسل إلى "برايتون". لم تشعر لوسي أبدًا بالبؤس والوحدة كما شعرت عندما وقفت في الممر ولوحت لهما مودعة.

سيعودان قريبًا، ذكّرت نفسها. قبل زفافها. ستكون هيرميون وصيفتها الوحيدة، وسيقوم ريتشارد بتسليمها لعريسها.

وفي غضون ذلك، لديها العمة هارييت لتؤنسها. واللورد دافنبورت. وهاسيلبي، الذي كان إما عبقريًا تمامًا أو مجنونًا بالكامل.

ضغطت فقاعة من الضحك - ساخرة، وسخيفة، وغير لائقة للغاية - في حلقها، لتفلت عبر أنفها بشخير غير أنيق.

نخر اللورد دافنبورت:

- "هاه؟"

قالت بسرعة وهي تسعل بأفضل ما يمكنها:

- "لا شيء. قليل من الطعام. عظمة سمكة، على الأرجح."

كان الأمر مضحكًا تقريبًا. كان ليكون مضحكًا حتى، لو كانت تقرؤه في كتاب. قررت أنه كان يجب أن يكون كتابًا ساخرًا، لأنه بالتأكيد لم يكن رواية رومانسية.

ولم تستطع تحمل فكرة أنها قد تتحول إلى مأساة.

نظرت حول الطاولة إلى الرجال الثلاثة الذين يشكلون حياتها حاليًا.

سيكون عليها أن تحقق الأفضل من هذا الوضع. لم يكن هناك شيء آخر لتفعله. لا معنى للبقاء بائسة، مهما كانت صعوبة النظر للجانب المشرق. وحقًا، كان يمكن للأمر أن يكون أسوأ.

لذا فعلت ما تجيده، وحاولت النظر للأمر كله من وجهة نظر عملية، مفهرسة ذهنيًا كل الطرق التي كان يمكن أن يكون بها الوضع أسوأ.

لكن بدلًا من ذلك، ظل وجه غريغوري بريدجيرتون يلوح في ذهنها — وكل الطرق التي كان يمكن للأمر أن يكون بها أفضل.





الفصل الرابع عشر

حيث يلتقي بطلنا وبطلتنا مجددًا،
وتغمر السعادة طيور لندن.



عندما رآها غريغوري، هناك في هايد بارك في يومه الأول بعد عودته إلى لندن، كانت أول فكرة قفزت لذهنه هي—

حسنًا، بالطبع.

بدا من الطبيعي تمامًا أن يصادف لوسي أبيرناثي في ما كان حرفيًا ساعته الأولى في الخارج بلندن. لم يعرف السبب؛ لم يكن هناك سبب منطقي لتقاطع طرقهما. لكنها كانت حاضرة بقوة في أفكاره منذ افترقا في كينت. ورغم أنه ظن أنها لا تزال هناك في فينسوورث، لم يُفاجأ بغرابة من كون وجهها هو أول وجه مألوف يراه عند عودته بعد شهر في الريف.

وصل إلى المدينة في الليلة السابقة، منهكًا بشكل غير معتاد بعد رحلة طويلة عبر طرق غمرتها المياه، وذهب مباشرة إلى الفراش. عندما استيقظ— في وقت أبكر من المعتاد، في الواقع—كان العالم لا يزال رطبًا من الأمطار، لكن الشمس قد أشرقت وكانت تلمع بوضوح.

ارتدى غريغوري ملابسه فورًا للخروج. أحب رائحة الهواء النظيفة بعد مطر عاصف وجيد—حتى في لندن. لا، خاصة في لندن. كان هذا هو الوقت الوحيد الذي تفوح فيه رائحة المدينة هكذا—كثيفة ومنعشة، تشبه رائحة أوراق الشجر تقريبًا.

احتفظ غريغوري بجناح صغير من الغرف في مبنى صغير ومرتب في ماريليبون، ورغم أن أثاثه كان قليلًا وبسيطًا، إلا أنه أحب المكان نوعًا ما. شعر فيه وكأنه في منزله.

دعاه شقيقه ووالدته، في مناسبات متعددة، للعيش معهم. وظن أصدقاؤه أنه مجنون لرفضه؛ كلا المسكنين كانا أكثر فخامة بكثير، والأهم من ذلك، يضمان طاقم خدم أفضل من مسكنه المتواضع. لكنه فضّل استقلاليته. لم يكن الأمر أنه يمانع إملاءهم عليه ما يفعله— فهم يعرفون أنه لن يستمع، وهو يعرف أنه لن يستمع، لكن في الغالب، ظل الجميع متقبلين للأمر بروح طيبة.

ما لم يستطع تحمله تمامًا هو التدقيق. حتى لو تظاهرت والدته بعدم التدخل في حياته، كان يعلم أنها تراقبه دائمًا، وتدون ملاحظات عن جدول علاقاته الاجتماعية.

وتعلق عليه. كانت فيوليت بريدجيرتون، عندما تميل لذلك، قادرة على التحدث في موضوع الشابات، وبطاقات الرقص، وتقاطعاتهما (فيما يخص ابنها غير المتزوج) بسرعة وسهولة تجعل رأس رجل بالغ يدور.

وكثيرًا ما فعلت.

كانت هناك هذه الشابة وتلك الشابة، وهل يتفضل بالتأكد من الرقص مع كلتيهما— مرتين— في السهرة التالية، وفوق كل شيء، يجب ألا ينسى أبدًا، أبدًا الشابة الأخرى. تلك الواقفة عند الجدار، ألم يرها، تقف بمفردها. خالتها، يجب أن يتذكر، صديقة شخصية مقربة.

كان لدى والدة غريغوري الكثير من الصديقات الشخصيات المقربات.

نجحت فيوليت بريدجيرتون في تزويج سبعة من أبنائها الثمانية زيجات سعيدة، والآن يتحمل غريغوري العبء الوحيد لحماسها في التوفيق بينه وبين الزوجة المناسبة. كان يعشقها بالطبع، ويعشق اهتمامها الكبير برفاهيته وسعادته، لكن في بعض الأحيان كانت تجعله يرغب في شد شعره.

وأنتوني كان أسوأ. لم يكن مضطرًا حتى لقول شيء. مجرد وجوده كان عادة كافيًا لجعل غريغوري يشعر بطريقة ما أنه لا يرقى لاسم العائلة. كان من

الصعب شق طريق المرء في العالم مع اللورد بريدجيرتون القدير ينظر دائمًا فوق كتفه. وبقدر ما استطاع غريغوري التحديد، لم يرتكب شقيقه الأكبر خطأً واحدًا في حياته.

مما جعل أخطاءه هو تبدو أكثر فداحة.

لكن، لحسن الحظ، كانت هذه مشكلة يسهل حلها أكثر من غيرها. انتقل غريغوري ببساطة للعيش بمفرده. تطلب الأمر جزءًا لا بأس به من مخصصاته للحفاظ على مسكنه الخاص، صغيرًا كان، لكنه كان يستحق ذلك، كل بنس أخير فيه.

حتى شيء بسيط كهذا—مجرد مغادرة المنزل دون أن يتساءل أحد عن السبب أو المكان (أو في حالة والدته، إلى مَن)—كان رائعًا. ومقويًا. كان غريبًا كيف يمكن لنزهة بسيطة أن تجعل المرء يشعر بأنه سيد نفسه، لكنها فعلت.

ثم كانت هناك. لوسي أبيرناثي. في هايد بارك حين كان من المفترض بحكم المنطق أن تكون لا تزال في كينت.

كانت تجلس على مقعد، ترمي قطعًا من الخبز لمجموعة رثة من الطيور، وتذكر غريغوري ذلك اليوم الذي عثر عليها فيه في الفناء الخلفي لأوبري هول. كانت تجلس على مقعد حينها أيضًا، وبدت هادئة جدًا. بالنظر للوراء، أدرك غريغوري أن شقيقها ربما أخبرها للتو بأن خطبتها قد تمت رسميًا.

تساءل لماذا لم تقل له شيئًا.

تمنى لو قالت له شيئًا.

لو عرف أنها مرتبطة، لما قبلها أبدًا. كان ذلك يتعارض مع كل قواعد السلوك التي ألزم نفسه بها. الرجل النبيل لا يعتدي على عروس رجل آخر. ببساطة لا يُفعل ذلك. لو عرف الحقيقة، لكان ابتعد عنها تلك الليلة، ولكان—

تجمد. لم يكن يعرف ما كان ليفعله. كيف أعاد صياغة المشهد في ذهنه مرات لا تحصى، ولم يدرك إلا الآن أنه لم يصل أبدًا للنقطة التي يدفعها فيها بعيدًا؟

لو عرف، هل كان ليبعدها منذ اللحظة الأولى؟ اضطر للإمساك بذراعيها ليثبتها، لكن كان بإمكانه توجيهها نحو وجهتها عندما أفلتها. لم يكن الأمر ليكون صعباً—مجرد حكّة بسيطة للقدمين. كان بإمكانه إنهاء الأمر حينها، قبل أن تتاح الفرصة لأي شيء أن يبدأ.

لكن بدلاً من ذلك، ابتسم، وسألها عما تفعله هناك، ثم—يا إلهي، بمَ كان يفكر؟—سألها إن كانت تشرب البراندي.

وبعد ذلك—حسناً، لم يكن متأكداً كيف حدث الأمر، لكنه تذكره كله. كل تفصيل صغير. الطريقة التي نظرت بها إليه، يدها على ذراعه. كانت تتشبث به، وللحظة شعر وكأنها تحتاجه. كان يمكنه أن يكون صخرتها، ومحور ارتكازها.

لم يسبق له أن كان محوراً لأي شخص.

لكن لم يكن الأمر كذلك. لم يقبّلها لهذا السبب. قبّلها لأن...

لأن...

تباً، لم يكن يعرف لماذا قبّلها. كانت هناك تلك اللحظة فقط—تلك اللحظة الغريبة الغامضة—وكان كل شيء هادئاً جداً—صمتٌ رائع، سحري، وآسر بدا وكأنه يتسرب إلى داخله ويسرق أنفاسه.

المنزل كان ممتلئاً، يضج بالضيوف حتى، لكن الرواق كان لهما وحدهما. كانت "لوسي" تحدق فيه، عيناها تبحثان، ثم... بطريقة ما... أصبحت أقرب. لم يتذكر أنه تحرك، أو خفض رأسه، لكن وجهها صار على بعد بوصات قليلة.

والشيء التالي الذي أدركه...

أنه كان يقبلها.

منذ تلك اللحظة، كان قد ضاع تماماً. بدا الأمر وكأنه فقد كل معرفة بالكلمات، وبالعقلانية والتفكير. أصبح عقله شيئاً غريباً بدائياً يسبق اللغة. أصبح العالم لوناً وصوتاً، حرارةً وإحساساً. وكأن جسده قد ابتلع عقله بالكامل.

والآن يتساءل—حين يسمح لنفسه بالتساؤل—ما إذا كان بإمكانه إيقاف ذلك. لو لم تقل هي "لا"، لو لم تضغط بيديها على صدره وتطلب منه التوقف—

هل كان سيفعل ذلك من تلقاء نفسه؟

هل كان يستطيع فعل ذلك؟

قوّم كتفيه. وشدّ فكّه. بالطبع كان يستطيع. إنها "لوسي" بحق السماء. كانت رائعة جداً، بطرق عديدة، لكنها لم تكن من النوع الذي يفقد الرجال صوابهم لأجله. لقد كان انحرافاً مؤقتاً. جنون لحظي جلبه صخب أمسية غريبة ومقلقة.

حتى الآن، وهي تجلس على مقعد في "هايد بارك" مع أسطول صغير من الحمام عند قدميها، كانت بوضوح هي لوسي القديمة ذاتها. لم تره بعد، وشعر بنوع من الرفاهية في مجرد مراقبتها. كانت بمفردها، باستثناء خادمتها التي كانت تفرك إبهاميها بملل على بعد مقعدين.

وكان فمها يتحرك.

ابتسم "غريغوري". كانت لوسي تتحدث إلى الطيور. تخبرهم شيئاً ما. على الأرجح كانت تعطيهم اتجاهات، أو ربما تحدد موعداً لمناسبات مستقبلية لرمي الخبز.

أو تخبرهم أن يمضغوا ومناقيرهم مغلقة.

ضحك بخفوت. لم يستطع منع نفسه.

التفتت. التفتت ورأته. اتسعت عيناها، وانفرجت شفتاها، واصطدم الأمر به مباشرة في منتصف صدره—

كان من الجيد رؤيتها.

وهو ما بدا له رد فعل غريبًا نوعًا ما، بالنظر إلى الطريقة التي افترقا بها.

قال وهو يتقدم نحوها:

– "ليدي لوسيندا.. يا لها من مفاجأة. لم أظن أنكِ في لندن."

للحظة، بدا وكأنها عاجزة عن تحديد كيفية التصرف، ثم ابتسمت— ربما بتردد أكبر مما اعتاد عليه منها— ومدت يدها بشريحة من الخبز.

تمتم قائلًا:

– "للطيور؟ أم لي؟"

تغيرت ابتسامتها، وبدت مألوفة أكثر.

– "أيهما تفضل. وإن كان يجب أن أحذرك—إنه خبز يابس قليلًا."

اختلجت شفتاه:

– "لقد جربتِه إذن؟"

وعندها، بدا وكأن شيئًا من ذلك لم يحدث قط. القبلة، والمحادثة المربكة في الصباح التالي... لقد اختفى كل ذلك. عادا إلى صداقتهما الصغيرة الغريبة، وصار كل شيء على ما يرام في العالم.

زمت شفتيها، وكأنها تظن أنه يجب عليها توبيخه، بينما كان هو يضحك خافتًا، لأنه كان يستمتع جدًا باستفزازها.

قالت بجمود تام:

– "إنه إفطاري الثاني."

جلس على الطرف المقابل من المقعد وشرع في تمزيق خبزه إلى قطع صغيرة. وعندما تجمعت لديه حفنة بحجم جيد، ألقاها دفعة واحدة، ثم استند للخلف لمراقبة الهيجان التالي من المناقير والريش.

لاحظ أن لوسي كانت تلقي فتاتها بمنهجية، واحدة تلو الأخرى، بفارق ثلاث ثوانٍ بالضبط.

لقد عدّ الثواني. وكيف له ألا يفعل؟

قالت بعبوس:

– "لقد هجرني السرب."

ابتسم غريغوري ابتسامة عريضة بينما قفزت آخر حمامة نحو وليمة بريدجيرتون. وألقى حفنة أخرى قائلًا:

– "أنا دائمًا أقيم أفضل الحفلات."

التفتت، وانخفض ذقنها وهي ترمقه بنظرة جافة من فوق كتفها:

– "أنا لا تُطاق."

رمقها بنظرة عابثة:

– "تلك واحدة من أفضل خصالي."

– "وفقًا لمن؟"

قال بتواضع:

– "حسنًا، يبدو أن والدتي تحبني كثيرًا."

انفجرت ضاحكة.

شعر وكأنه انتصر.

– "أما أختي... فليس كثيرًا."

ارتفع أحد حاجبيها:

– "تلك التي أنت مولع بتعذيبها؟"

قال بنبرة تعليمية نوعًا ما:

– "أنا لا أعذبها لأنني أحب ذلك. أفعل ذلك لأنه ضروري."

– "لمن؟"

– "لبريطانيا كلها. ثقي بي."

نظرت إليه بشك:

– "لا يمكن أن تكون بهذا السوء."

– "أفترض ذلك. يبدو أن والدتي تحبها كثيرًا، رغم أن ذلك يحيرني."

ضحكت مرة أخرى، وكان الصوت... جيدًا. كلمة عادية، بالتأكيد، لكنها بطريقة ما وصلت لجوهر الأمر. كان ضحكها ينبع من الداخل—دافئًا، وغنيًا، وصادقًا.

ثم التفتت، وأصبحت عيناها جادتين تمامًا:

– "أنت تحب المزاح، لكنني أراهن بكل ما أملك أنك ستضحي بحياتك لأجلها."

تظاهر بالتفكير في الأمر:

– "كم تملكين؟"

– "عار عليك يا سيد بريدجيرتون. أنت تتهرب من السؤال."

قال بهدوء:

– "بالطبع سأفعل. إنها أختي الصغيرة. لي وحدي حق تعذيبها، وحق حمايتها."

– "أليست متزوجة الآن؟"

هز كتفيه، محدقًا عبر الحديقة:

– "نعم، أفترض أن سانت كلير يمكنه الاعتناء بها الآن، أعان الله الرجل." التفت إليها، مانحًا إياها ابتسامة مائلة. "آسف."

لكنها لم تكن متعجرفة لتشعر بالإهانة. بل في الواقع، فاجأته تمامًا بقولها— بقدر كبير من الشعور:

– "لا داعي للاعتذار. هناك أوقات لا يوصل فيها يأس المرء سوى ذكر اسم الرب."

– "لماذا ينتابني شعور بأنكِ تتحدثين من واقع تجربة حديثة؟"

أكدت قائلة:

– "الليلة الماضية."

– "حقًا؟" مال نحوها باهتمام شديد. "ماذا حدث؟"

لكنها هزت رأسها فقط:

– "لا شيء."

– "ليس إذا كنتِ قد وصلتِ لدرجة التجديف."

تنهدت:

– "لقد أخبرتك أنك لا تُطاق، أليس كذلك؟"

– "مرة اليوم، وبالتأكيد عدة مرات من قبل."

رمقته بنظرة جافة، وزادت زرقة عينيها حدة وهي تثبتهما عليه:

– "لقد كنت تحصي المرات؟"

توقف. كان سؤالًا غريبًا، ليس لأنها طرحته— فبحق السماء، كان ليسأل الشيء نفسه لو قُدم له الطعم ذاته. بل كان غريبًا لأن لديه شعورًا مخيفًا بأنه لو فكر في الأمر طويلًا بما يكفي، قد يعرف الإجابة بالفعل.

كان يستمتع بالحديث مع لوسي أبيرناثي. وعندما تقول شيئًا له...

كان يتذكره.

وهذا أمر غريب.

قال، بما أنه بدا وقتًا مناسبًا لتغيير الموضوع:

- "أتساءل.. هل كلمة 'يُطاق' موجودة في القاموس؟"

فكرت في ذلك:

- "أعتقد أنها يجب أن تكون، ألا تظن؟"

- "لم ينطق بها أحد قط في حضوري."

- "هل يفاجئك هذا؟"

ابتسم ببطء. بتقدير.

- "أنتِ، يا ليدي لوسيندا، تملكين لسانًا لاذعًا بذكاء."

تقوس حاجباها، وفي تلك اللحظة بدت شيطانية بشكل إيجابي:

- "هذا أحد أفضل أسراري المحفوظة."

بدأ يضحك.

- "أنا أكثر من مجرد فضولية، كما تعلم."

ازدادت ضحكته. دوت عميقًا في بطنه، حتى اهتز جسده بها.

كانت تراقبه بابتسامة متسامحة، ولسبب ما وجد ذلك مهدئًا. بدت دافئة... ومسالمة حتى.

وكان سعيدًا بكونه معها. هنا على هذا المقعد. كان من الممتع نوعًا ما مجرد التواجد في حضرتها. لذا التفت. وابتسم.

- "هل لديك قطعة خبز أخرى؟"

ناولته ثلاثًا:

- "أحضرت الرغيف بأكمله."

بدأ بتمزيقه:

- "هل تحاولين تسمين السرب؟"

ردت وهي تستأنف جدول إطعامها البطيء والبخيل:

- "لدي رغبة في فطيرة الحمام."

كان غريغوري واثقًا تمامًا من أن الأمر من نسج خياله، لكنه كان ليقسم أن الطيور كانت تنظر بشوق في اتجاهه. سأل:

– "هل تأتين هنا كثيرًا؟"

لم تجب على الفور، ومال رأسها، وكأنها اضطرت للتفكير في إجابتها. وهو أمر غريب، لأنه سؤال بسيط نوعًا ما.

قالت:

– "أحب إطعام الطيور. إنه أمر مريح."

ألقى حفنة أخرى من قطع الخبز وابتسم ابتسامة ملتوية:

– "أتظنين ذلك؟"

ضاقت عيناها وألقت قطعتها التالية بحركة دقيقة، عسكرية تقريبًا، من معصمها. والقطعة التالية خرجت بالطريقة نفسها. والتي تلتها أيضًا. التفتت إليه بشفتين مزمومتين:

– "إنه مريح إذا لم تكن تحاول إشعال أعمال شغب."

رد، بكل براءة:

– "أنا؟ أنتِ من تجبرينهم على القتال حتى الموت، كل ذلك من أجل كسرة بائسة من الخبز اليابس."

– "إنه رغيف خبز فاخر جدًا، مخبوز جيدًا ولذيذ للغاية، للعلم."

قال بكياسة مبالغ فيها:

– "في مسائل التغذية، سأذعن لكِ دائمًا."

نظرت إليه لوسي بجفاف:

– "معظم النساء لن يجدن ذلك مجاملة."

– "آه، لكنك لستِ معظم النساء. وأيضًا،" أضاف: "لقد رأيتك تتناولين الإفطار."

انفرجت شفتاها، لكن قبل أن تتمكن من شهق استيائها، قاطعها بـ:

– "كانت تلك مجاملة، بالمناسبة."

هزت لوسي رأسها. إنه حقًا لا يُطاق. وكانت ممتنة جدًا لذلك. عندما رأته لأول مرة، واقفًا هناك يراقبها وهي تطعم الطيور، هبطت معدتها، وشعرت بالغثيان، ولم تعرف ماذا تقول أو كيف تتصرف، أو أي شيء حقًا.

لكنه تقدم متمهلًا، وكان... نفسه تمامًا. جعلها تشعر بالراحة فورًا، وهو أمر، في ظل الظروف، كان مذهلًا حقًا.

فهي، في النهاية، واقعة في حبه.

لكنه ابتسم حينها، تلك الابتسامة الكسولة المألوفة، وألقى نكتة ما عن الحمام، وقبل أن تدرك ذلك، كانت تبتسم في المقابل. وشعرت بأنها عادت لطبيعتها، وهو ما كان مطمئنًا للغاية.

لم تشعر بأنها نفسها منذ أسابيع.

وهكذا، وبروح "جعل الأمور تمضي بأفضل حال"، قررت عدم التفكير في عاطفتها غير المناسبة تجاهه، وبدلًا من ذلك أن تكون ممتنة لأنها تستطيع التواجد في حضرته دون أن تتحول إلى حمقاء خرقاء ومتلعثمة.

يبدو أن هناك نعمًا صغيرة متبقية في العالم.

سألته، عاقدة العزم على الحفاظ على محادثة ممتعة وطبيعية تمامًا:

– "هل كنت في لندن طوال هذا الوقت؟"

تراجع مندهشاً. بوضوح، لم يتوقع ذلك السؤال.

– "لا. عدت الليلة الماضية فقط."

– "أفهم."

توقفت لوسي لاستيعاب ذلك. كان غريبًا، لكنها لم تفكر حتى في احتمالية عدم وجوده في المدينة. لكن ذلك يفسر— حسنًا، لم تكن متأكدة مما يفسره. أنها لم تلمحه؟ ليس وكأنها ذهبت لأي مكان سوى منزلها، والحديقة، وصانعة الفساتين.

– "هل كنت في أوبري هول إذن؟"

– "لا، غادرت بعد وقت قصير من رحيلك وذهبت لزيارة أخي. يعيش مع زوجته وأطفاله في ويلتشير، بعيدًا بسعادة عن كل ما هو متحضر."

– "ويلتشير ليست بعيدة جدًا."

هز كتفيه:

– "نصف الوقت لا تصلهم حتى صحيفة التايمز. يزعمون أنهم غير مهتمين."

– "كم هذا غريب." لم تكن لوسي تعرف أحدًا لا يتلقى الصحيفة، حتى في أكثر المقاطعات عُزلةً.

أومأ:

– "وجدت الأمر منعشًا نوعًا ما هذه المرة، مع ذلك. لم تكن لدي أي فكرة عما يفعله أي شخص، ولم أمانع ذلك قليلًا."

– "هل أنت عادة ثرثار هكذا؟"

رمقها بنظرة جانبية:

– "الرجال لا يثرثرون. نحن نتحدث فقط."

قالت:

– "أفهم. هذا يفسر الكثير."

ضحك.

– "هل أنت في المدينة منذ فترة طويلة؟ افترضت أنك كنت في استجمام ريفي أيضًا."

أجابت:

– "أسبوعان. نحن وصلنا مباشرة بعد الزفاف."

– "نحن؟ هل شقيقك والآنسة واتسون هنا إذن؟"

كرهت أنها كانت تتصيد اللهفة في صوته، لكنها افترضت أنه لا حيلة لها في ذلك.

– "إنها الليدي فينسوورث الآن، ولا، هما في رحلة شهر العسل. أنا هنا مع عمي."

– "لأجل الموسم؟"

– "لأجل زفافي."

أوقف ذلك تدفق المحادثة السلس.

مدت يدها في حقيبتها وأخرجت شريحة خبز أخرى.

– "سيقام خلال أسبوع."

حدق فيها مصدومًا:

– "بهذه السرعة؟"

– "يقول العم روبرت إنه لا جدوى من المماطلة."

– "أفهم."

وربما كان يفهم. ربما كان هناك نوع من الإتيكيت لكل هذا لم تتعلمه هي، الفتاة الريفية المنعزلة. ربما لم يكن هناك جدوى من تأجيل المحتوم. ربما كان كل ذلك جزءًا من فلسفة "جعل الأمور تمضي بأفضل حال" التي كانت تعمل بجد لتبنيها.

قال:

– "حسنًا."

رمش بضع مرات، وأدركت أنه لا يعرف ماذا يقول. كان رد فعل غير معهود منه بالمرة، ووجدته مرضيًا. كان الأمر يشبه قليلاً عدم معرفة هيرميون بالرقص. إذا كان غريغوري بريدجيرتون قد عجز عن الكلام، فإذن هناك أمل لبقية البشرية.

أخيرًا استقر على قول:

– "تهانيّ."

– "شكرًا لك."

تساءلت عما إذا كان قد تلقى دعوة. كان العم روبرت واللورد دافنبورت عازمين على إقامة المراسم أمام الجميع تمامًا. قالوا إنها ستكون ظهورها الكبير الأول، وأرادوا أن يعرف العالم كله أنها زوجة هاسيلبي.

قالت، دون أي سبب على الإطلاق:

– "سيكون في كنيسة سانت جورج."

– "هنا ـ في لندن؟" بدا متفاجئًا. "كنت أظن أنكِ ستتزوجين ـ في فينسوورث آبي."

فكرت لوسي، كم هو غريب جدًا أن هذا لم يكن مؤلمًا — مناقشة زفافها القادم معه. شعرت بالخدر أكثر، ـ في الواقع. شرحت وهي تمد يدها ـ في سلتها لشريحة أخرى من الخبز:

– "كانت رغبة عمي."

سأل غريغوري، وهو ينظر إليها بفضول معتدل:

– "لا يزال عمكِ رب الأسرة؟ شقيقك هو الإيرل. ألم يبلغ سن الرشد؟"

رمت لوسي الشريحة بأكملها على الأرض، ثم راقبت باهتمام مرضي الحمام وهو يصاب بشيء من الجنون. أجابت:

– "بلى. العام الماضي. لكنه كان راضيًا بالسماح لعمي بإدارة شؤون العائلة بينما كان يتابع دراساته العليا ـ في كامبريدج. أتوقع أنه سيتولى مكانه قريبًا الآن بعد أن أصبح" — منحته ابتسامة اعتذار — "متزوجًا."

طمأنها:

– "لا تقلقي بشأن مشاعري. لقد تعافيت تمامًا."

– "حقًا؟"

منحها هزة كتف صغيرة:

– "للحقيقة، أعد نفسي محظوظًا."

سحبت شريحة خبز أخرى، لكن أصابعها تجمدت قبل أن تقطع قطعة منها. سألت وهي تلتفت إليه باهتمام:

– "أحقًا؟ كيف يعقل ذلك؟"

رمش بدهشة:

– "أنتِ صريحة، أليس كذلك؟"

واحمرت خجلًا. شعرت به، ورديًا ودافئًا ومريعًا تمامًا على خديها.

– "أنا آسفة. كان ذلك وقحًا للغاية مني. الأمر فقط أنك كنت جدًا..."

قاطعها:

- "لا تقولي المزيد."

وحينها شعرت بسوء أكبر، لأنها كانت على وشك الوصف—ربما بتفاصيل دقيقة—كم كان مريضًا بالحب تجاه هيرميون. وهو ما لم تكن لتتمنى سرده لو كانت في مكانه.

- "أنا آسفة."

التفت. وتأملها بنوع من الفضول المتأمل.

- "أنتِ تقولين ذلك كثيرًا."

- "أنا آسفة؟"

- "نعم."

- "أنا... لا أعرف." صرت على أسنانها، وشعرت بتوتر شديد. بعدم الارتياح. لماذا يشير إلى شيء كهذا؟ قالت:

- "هذا ما أفعله." قالتها بحزم، لأنه... حسنًا، هكذا فقط. يجب أن يكون ذلك سببًا كافيًا.

أومأ. وذلك جعلها تشعر بسوء أكبر. أضافت بدفاعية، رغم أنه كان يوافقها الرأي، بحق السماء:

- "هذا ما أنا عليه. أنا أهدئ الأمور وأجعل الأشياء صحيحة."

وعند ذلك، قذفت بآخر قطعة خبز إلى الأرض.

ارتفع حاجباه، والتفتا معًا لمشاهدة الفوضى التالية. تمتم:

- "أحسنتِ صنعًا."

قالت:

- "أنا أجعل الأمور تمضي بأفضل حال.. دائمًا."

قال بهدوء:

- "هذه صفة جديرة بالثناء."

وعند ذلك، بطريقة ما، غضبت. غضبت حقًا، بصدق، وبشكل وحشي. لم تكن تريد أن تُمدَح بوصفها ترضى بالخيار الثاني. كان ذلك مثل الفوز بجائزة أجمل حذاء في سباق جري. شيء غير ذي صلة وليس هو المغزى.

سألت وصوتها يزداد حدة:

– "وماذا عنك؟ هل تجعل الأمور تمضي بأفضل حال؟ هل لهذا السبب تزعم أنك تعافيت؟ ألم تكن أنت من تغنى بحماسة بمجرد التفكير في الحب؟ قلت إنه كل شيء، وإنه لا يترك لك خيارًا. قلت—"

قاطعت نفسها، مرعوبة من نبرتها. كان يحدق فيها وكأنها فقدت عقلها، وربما فعلت.

تمتمت آملة أن ينهي ذلك المحادثة:

– "لقد قلت أشياء كثيرة."

كان عليها الذهاب. كانت جالسة على المقعد لمدة خمس عشرة دقيقة على الأقل قبل وصوله، وكان الجو رطبًا وعاصفًا، وخادمتها لم تكن ترتدي ملابس دافئة بما يكفي، وإذا فكرت مليًا في الأمر، فمن المحتمل أن لديها مائة شيء بحاجة للقيام به في المنزل.

أو على الأقل كتاب يمكنها قراءته.

قال غريغوري بهدوء:

– "أنا آسف إذا أزعجتكِ."

لم تستطع حمل نفسها تمامًا على النظر إليه.

قال:

– "لكنني لم أكذب عليكِ. بصدق، لم أعد أفكر في الآنسة— عذرًا، الليدي فينسوورث[1]— بأي تواتر كبير، إلا، ربما، لإدراك أننا لم نكن لنناسب بعضنا في النهاية."

التفتت إليه، وأدركت أنها تريد تصديقه. أرادت ذلك حقًا.

لأنه إذا كان بإمكانه نسيان هيرميون، فربما يمكنها هي نسيانه.

قال وهو يهز رأسه، وكأنه محتار تمامًا مثلها:

[1] هنا طبعاً هو يقصد هيرميون، لكن بما أنها تزوجت ريتشارد فينسوورث لذا أصبحت الليدي فينسوورث وليس الآنسة واتسون.

– "لا أعرف كيف أشرح الأمر. ولكن إذا وقعتِ يومًا في الحب بجنون وبشكل لا يمكن تفسيره..."

تجمدت لوسي. لن يقولها. بالتأكيد، لا يمكنه قولها.

هز كتفيه:

– "حسنًا، لا ينبغي أن تثقي بذلك."

يا إلهي. كلمات هيرميون. بالضبط.

حاولت تذكر كيف ردت على هيرميون. لأنه كان عليها قول شيء ما. وإلا سيلاحظ الصمت، ثم سيلتفت، وسيراها تبدو مضطربة للغاية. ثم سيسأل أسئلة، ولن تعرف الإجابات، و—

قالت، والكلمات تتدفق عمليًا من فمها:

– "من غير المحتمل أن يحدث لي ذلك."

التفت، لكنها أبقت وجهها موجهًا للأمام بدقة. وتمنت بشدة لو أنها لم ترمِ كل الخبز. كان سيكون من الأسهل بكثير تجنب النظر إليه لو أمكنها التظاهر بالانشغال بشيء آخر.

سأل:

– "ألا تؤمنين بأنك ستقعين في الحب؟"

قالت محاولة أن تبدو مرحة ومحنكة:

– "حسنًا، ربما. لكن ليس ذلك."

– "ذلك؟"

أخذت نفسًا، كارهة أنه يجبرها على الشرح. قالت:

– "ذلك النوع اليائس من الأشياء الذي تتنصلان منه أنت وهيرميون الآن. أنا لست من ذلك النوع، ألا تظن؟"

عضت شفتها، ثم سمحت لنفسها أخيرًا بالالتفات في اتجاهه. لأنه ماذا لو استطاع أن يعرف أنها تكذب؟ ماذا لو شعر بأنها واقعة في الحب بالفعل— في حبه؟ ستموت خجلًا بما يفوق التصور، لكن ألن يكون من الأفضل معرفة أنه يعرف؟ على الأقل حينها، لن تضطر للتساءل.

الجهل ليس نعمة. ليس لشخص مثلها.

تابعت لأنها لم تستطع تحمل الصمت:

– "الأمر كله خارج الموضوع، على أي حال. سأتزوج اللورد هاسيلبي خلال أسبوع، ولن أحيد أبدًا عن عهودي. أنا—"

– "هاسيلبي؟" التف جسد غريغوري بالكامل وهو يستدير ليواجهها. "أنت تتزوجين هاسيلبي؟"

قالت وهي ترمش بعنف:

– "نعم." ما نوع رد الفعل هذا؟ "ظننت أنك تعرف."

– "لا. لم أكن—" بدا مصدومًا. مذهولًا.

يا للسماء.

هز رأسه:

– "لا أستطيع تخيل سبب عدم معرفتي."

– "لم يكن سرًا."

– "لا." قالها بقوة نوعًا ما. "أعني، لا. لا، بالطبع لا. لم أقصد التلميح."

سألته مختارة كلماتها بعناية فائقة:

– "هل تكنّ للورد هاسيلبي تقديرًا منخفضًا؟"

أجاب غريغوري وهو يهز رأسه—لكن قليلًا فقط، وكأنه لم يكن يدرك تمامًا أنه يفعل ذلك:

– "لا. لا. أعرفه منذ عدد من السنوات. كنا في الكلية معًا. والجامعة."

سألت لوسي:

– "هل أنتما في نفس العمر إذن؟"

وخطر ببالها أن هناك خطأً ما إذا كانت لا تعرف عمر خطيبها. لكن مرة أخرى، لم تكن متأكدة من عمر غريغوري أيضًا.

أومأ:

– "إنه... ودود للغاية. سيعاملك جيدًا." تنحنح. "برفق."

رددت:

– "برفق؟"

بدا اختيارًا غريبًا للكلمات.

التقت عيناه بعينيها، وحينها فقط أدركت أنه لم ينظر إليها بدقة منذ أخبرته باسم خطيبها. لكنه لم يتحدث. بدلًا من ذلك اكتفى بالتحديق فيها، وعيناه شديدتا الكثافة لدرجة أنهما بدتا وكأنهما تغيران لونهما. كانتا بنيتين مع أخضر، ثم خضراوين مع بني، ثم بدا وكأن كل شيء يغبش.

همست:

– "ما الأمر؟"

قال، لكن صوته لم يبدُ مثل المعتاد:

– "لا شيء ذو أهمية. أنا..." ثم أشاح بوجهه، كاسرًا السحر. تنحنح وقال: "أختي. إنها تقيم سهرة غدًا. هل تودين الحضور؟"

قالت لوسي، رغم أنها عرفت أنه لا ينبغي لها:

– "أوه نعم، سيكون ذلك رائعًا."

لكن مر وقت طويل جدًا منذ حظيت بأي نوع من التفاعل الاجتماعي، ولن تتمكن من قضاء الوقت برفقته بمجرد زواجها. لا ينبغي لها تعذيب نفسها الآن، بالتوق لشيء لا يمكنها الحصول عليه، لكنها لم تستطع منع نفسها.

اغتنمي الفرصة.

الآن. لأنه حقًا، متى ستتاح فرصة أخرى—

قالت، وقد حولت خيبة الأمل صوتها لأنين تقريبًا:

– "أوه، لكنني لا أستطيع."

– "لماذا لا؟"

أجابت متنهدة:

– "إنه عمي. واللورد دافنبورت—والد هاسيلبي."

– "أعرف من هو."

– "بالطبع. أنا آسـ..." قاطعت نفسها. لن تقولها. "لا يرغبان في أن أظهر للمجتمع بعد."

- "عفوًا؟ لماذا؟"

هزت لوسي كتفيها:

- "لا جدوى من تقديمي للمجتمع بصفتي الليدي لوسيندا أبيرناثي بينما سأصبح الليدي هاسيلبي خلال أسبوع."

- "هذا سخيف."

عبست:

- "هذا ما يقولانه. ولا أعتقد أنهما يرغبان في تحمل النفقات أيضًا."

قال غريغوري بحزم:

- "ستحضرين غدًا مساءً. سأحرص على ذلك."

سألت لوسي بشك:

- "أنت؟"

أجاب وكأنها فقدت عقلها:

- "ليس أنا. والدتي. ثقي بي، عندما يتعلق الأمر بمسائل الخطاب الاجتماعي واللطف، يمكنها إنجاز أي شيء. هل لديكِ مرافق؟"

أومأت لوسي:

- "عمتي هارييت. إنها ضعيفة قليلًا، لكنني واثقة من أنها تستطيع حضور حفلة إذا سمح عمي."

قال غريغوري بثقة:

- "سيسمح. الأخت المعنية هي الكبرى لدي. دافني." ثم أوضح: "صاحبة السمو دوقة هاستينغز. عمكِ لن يقول لا لدوقة، أليس كذلك؟"

قالت ببطء:

- "لا أظن ذلك." لم تستطع لوسي التفكير في أي شخص قد يقول لا لدوقة.

قال غريغوري وهو ينهض ويمد يده لمساعدتها على الوقوف:

- "تم الأمر إذن. ستتلقين خبرًا من دافني بحلول الظهيرة."

ابتلعت ريقها. سيكون لمسه حلوًا ومرًا في آن، لكنها وضعت يدها في يده. شعرت بالدفء، والراحة. والأمان.

تمتمت وهي تسحب يدها لتتمكن من لف كلتيهما حول مقبض سلتها:

- "شكرًا لك."

أومأت لخادمتها، التي بدأت فورًا بالمشي إلى جانبها.

قال وهو ينحني بشكل رسمي تقريبًا لوداعها:

- "حتى الغد."

رددت لوسي، متسائلة عما إذا كان ذلك حقيقيًا:

- "حتى الغد."

لم تعرف عمها يغير رأيه من قبل قط. لكن ربما...

من الممكن.

على أمل.





الفصل الخامس عشر

حيث يدرك بطلنا أنه ليس بحكمة والدته،
وأنه، على الأرجح، لن يكون كذلك أبدًا.



بعد ساعة، كان غريغوري ينتظر في غرفة الرسم بمنزل رقم خمسة، شارع بروتون، وهو مقر إقامة والدته في لندن منذ أن أصرت على إخلاء "بريدجيرتون هاوس" عقب زواج أنتوني. كان ذلك المنزل منزله هو أيضًا، حتى عثر على سكنه الخاص قبل عدة سنوات.

عاشت والدته هناك بمفردها الآن، منذ زواج شقيقته الصغرى. كان غريغوري يحرص على زيارتها مرتين على الأقل أسبوعيًا عندما يكون في لندن، لكنه لم يتوقف أبدًا عن الشعور بالدهشة من مدى الهدوء الذي يخيم على المنزل الآن.

صاحت والدته وهي تدخل الغرفة متهادية بابتسامة عريضة:

– "حبيبي! لم أتوقع رؤيتك حتى المساء. كيف كانت رحلتك؟ وأخبرني بكل شيء عن بينديكت وصوفي والأطفال. إنها لجريمة حقًا أن أرى أحفادي بقلة هكذا."

ابتسم غريغوري بتسامح. كانت والدته قد زارت ويلتشير قبل شهر واحد فقط، وهي تفعل ذلك عدة مرات في السنة. نقل لها بامتثال أخبار أطفال بينديكت الأربعة، مع تركيز إضافي على فيوليت الصغيرة، سميّتها. ثم، بمجرد أن استنفدت مخزونها من الأسئلة، قال:

– "في الواقع يا أمي، لدي طلب أود سؤالك إياه."

كانت وقفة فيوليت رائعة دائمًا، لكنها مع ذلك بدت وكأنها تزيد اعتدالًا:

– "حقًا؟ ما الذي تحتاجه؟"

أخبرها عن لوسي، مختصرًا الحكاية قدر الإمكان، خشية أن تتوصل لأي استنتاجات غير لائقة حول اهتمامه بها.

كانت والدته تميل لرؤية أي أنثى غير متزوجة كعروس محتملة. حتى أولئك اللواتي تحدد موعد زفافهن في نهاية الأسبوع.

قالت:

– "بالطبع سأساعدك. سيكون هذا لعب أطفال."

ذكرها غريغوري:

– "عمها عازم على إبقائها معزولة."

لوحت بيدها مستخفة بتحذيره:

– "لعب أطفال يا بني العزيز. اترك الأمر لي. سأنجزه في وقت قصير."

قرر غريغوري عدم الخوض في الموضوع أكثر. إذا قالت والدته إنها تعرف كيف تضمن حضور شخص ما لحفل راقص، فهو يصدقها. الاستمرار في الاستجواب لن يؤدي إلا لدفعها للاعتقاد بأن لديه دافعًا خفيًا.

وهو ما لم يكن لديه.

هو ببساطة استلطف لوسي. واعتبرها صديقة. وأراد لها أن تحظى بقليل من المرح.

كان تصرفًا نبيلًا، حقًا.

تمتمت فيوليت مفكرة:

– "سأجعل شقيقتك ترسل دعوة مع ملاحظة شخصية. وربما سأقوم بزيارة لعمها مباشرة. سأكذب وأخبره أنني التقيت بها في الحديقة."

اختلجت شفتا غريغوري:

– "تكذبين؟ أنتِ؟"

كانت ابتسامة والدته شيطانية بشكل إيجابي:

– "لن يهم إن لم يصدقني. هذه إحدى ميزات التقدم ﭬ العمر. لا أحد يجرؤ على معارضة تنين عجوز مثلي."

رفع غريغوري حاجبيه، رافضًا ابتلاع الطعم. ربما تكون فيوليت بريدجيرتون أمًا لثمانية أبناء بالغين، لكن ببشرتها الحليبية الخالية من التجاعيد وابتسامتها العريضة، لم تبدُ كشخص يمكن وصفه بالعجوز. ﭬ الواقع، كثيرًا ما تساءل غريغوري لمَ لم تتزوج مرة أخرى. لم يكن هناك نقص في الأرامل الوسيمين الذين يتوقون لمرافقتها للعشاء أو الرقص. شك غريغوري ﭬ أن أيًا منهم كان ليقفز فرحًا بفرصة الزواج من والدته، لو أنها أبدت اهتمامًا فقط.

لكنها لم تفعل، وكان على غريغوري الاعتراف بأنه كان، وبشكل أناني نوعًا ما، مسرورًا بذلك. ورغم تطفلها، كان هناك شيء مريح للغاية ﭬ تكريسها الكامل لأبنائها وأحفادها.

توفي والده منذ أكثر من أربعة وعشرين عامًا. لم يكن لدى غريغوري أدنى ذكرى عن الرجل. لكن والدته تحدثت عنه كثيرًا، وكلما فعلت، تغير صوتها. كانت عيناها ترقان، وتتحرك زوايا شفتيها—قليلًا فقط، بما يكفي ليرى غريغوري الذكريات ترتسم على وجهها.

في تلك اللحظات كان يفهم سبب إصرارها الشديد على أن يختار أبناؤها أزواجهم عن حب.

ولطالما خطط للامتثال لذلك. كان الأمر ساخرًا حقًا، بالنظر للمهزلة التي حدثت مع الآنسة واتسون.

في تلك اللحظة وصلت خادمة بصينية شاي، ووضعتها على الطاولة المنخفضة بينهما.

قالت والدته وهي تناوله كوبًا مُعدًا بالضبط كما يحبه—بلا سكر، مع رشة صغيرة من الحليب:

– "الطاهية صنعت البسكويت المفضل لديك."

سأل:

– "هل توقعتِ زيارتي؟"

قالت فيوليت وهي تأخذ رشفة من الشاي الخاص بها:

– "ليس بعد ظهر اليوم، لا. لكنني علمت أنك لن تستطيع البقاء بعيداً لفترة طويلة. في النهاية ستحتاج لشيء يقيم أودك."

منحها غريغوري ابتسامة مائلة. كان ذلك صحيحًا. مثل العديد من الرجال في عمره ومكانته، لم يكن لديه مساحة في شقته لمطبخ حقيقي. كان يأكل في الحفلات، وفي ناديه، وبالطبع، في منازل والدته وإخوته.

تمتم وهو يقبل الطبق الذي كدست فيه ست قطع من البسكويت:

– "شكرًا لكِ."

تأملت فيوليت صينية الشاي للحظة، ورأسها مائل قليلًا إلى الجانب، ثم وضعت قطعتين في طبقها الخاص. قالت وهي تنظر إليه:

– "أنا متأثرة جدًا لأنك تطلب مساعدتي بخصوص الليدي لوسيندا."

سأل بفضول:

– "أحقًا؟ لمن غيركِ قد ألجأ في أمر كهذا؟"

أخذت قضمة رقيقة من البسكويت:

– "لا، أنا الخيار البديهي بالطبع، لكن لا بد أنك تدرك أنك نادرًا ما تلجأ لعائلتك عندما تحتاج لشيء ما."

سكن غريغوري، ثم التفت ببطء نحوها. كانت عينا والدته—الزرقاوان وذواتا البصيرة المقلقة—مثبتتين على وجهه. ما الذي يمكن أن تعنيه بذلك؟ لا أحد يحب عائلته أكثر منه.

قال أخيرًا:

– "لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا."

لكن والدته اكتفت بالابتسام:

– "أتظن ذلك؟"

تصلب فكه:

– "أظن ذلك."

قالت وهي تمد يدها عبر الطاولة لتربت على ذراعه:

– "أوه، لا تأخذ الأمر بحساسية. لا أقصد القول إنك لا تحبنا. لكنك تفضل القيام بالأمور بنفسك."

– "مثل ماذا؟"

– "أوه، كالعثور على زوجة لنفسك—"

قاطعها في التو واللحظة:

– "هل تحاولين إخباري أن أنتوني وبينديكت وكولين رحبوا بتدخلكِ عندما كانوا يبحثون عن زوجات؟"

– "لا، بالطبع لا. لا رجل يفعل ذلك. ولكن—" لوحت بإحدى يديها في الهواء، وكأنها تمحو الجملة. "سامحني. كان هذا مثالًا سيئًا مني."

أطلقت تنهيدة صغيرة وهي تحدق من النافذة، وأدرك غريغوري أنها مستعدة لترك الموضوع. لكن لدهشته، هو لم يكن كذلك.

سأل:

– "ما الخطأ في أن يفضل المرء القيام بالأمور بنفسه؟"

التفتت إليه، وبدت وكأنها لم تطرح للتو موضوعًا قد يسبب عدم الارتياح.

– "لا شيء على الإطلاق. أنا فخورة جدًا بأنني ربيت أبناءً يعتمدون على أنفسهم. في النهاية، ثلاثة منكم عليهم شق طريقهم في العالم." توقفت، متأملةً هذا، ثم أضافت: "بمساعدة من أنتوني، بالطبع. كنت سأشعر بخيبة أمل كبيرة لو لم يعتنِ ببقيتكم."

قال غريغوري بهدوء:

– "أنتوني سخي للغاية."

قالت فيوليت مبتسمة:

– "نعم، هو كذلك، أليس كذلك؟ بماله وبوقته. إنه يشبه والدك كثيرًا في هذا الجانب." نظرت إليه بعينين حزينتين. "أنا آسفة جدًا لأنك لم تعرفه قط."

– "أنتوني كان أبًا جيدًا لي."

قالها غريغوري لأنه علم أن ذلك سيجلب لها السعادة، لكنه قالها أيضًا لأنها الحقيقة.

انطبقت شفتا والدته وتشددتا، وللحظة ظن غريغوري أنها قد تبكي. أخرج منديله فورًا ومده إليها.

قالت وهي تأخذه وتجفف عينيها:

– "لا، لا، هذا ليس ضروريًا. أنا بخير تمامًا. مجرد قليل من..." ابتلعت ريقها، ثم ابتسمت. لكن عينيها كانتا لا تزالان تلمعان. "يومًا ما ستفهم— عندما يكون لديك أطفالك— كم كان سماع ذلك رائعًا."

وضعت المنديل جانبًا والتقطت الشاي. رشفته بتفكير، وأطلقت تنهيدة صغيرة من الرضا.

ابتسم غريغوري لنفسه. كانت والدته تعشق الشاي. كان الأمر يتجاوز الولاء البريطاني المعتاد. كانت تدعي أنه يساعدها على التفكير، وهو أمر كان عادة ليمتدحه كشيء جيد، لولا أنه في كثير من الأحيان كان هو موضوع أفكارها، وبعد كوبها الثالث تكون عادة قد ابتكرت خطة شاملة ومخيفة لتزويجه من ابنة أي صديقة قامت بزيارتها مؤخرًا.

لكن هذه المرة، على ما يبدو، لم يكن عقلها منشغلًا بالزواج. وضعت كوبها، وفي اللحظة التي ظن فيها أنها مستعدة لتغيير الموضوع، قالت:

– "لكنه ليس والدك."

توقف، وكوب الشاي في منتصف الطريق إلى فمه.

– "عفوًا؟"

– "أنتوني. إنه ليس والدك."

قال ببطء:

– "نعم؟"

لأنه حقًا، ما الذي يمكن أن ترمي إليه؟

تابعت:

– "إنه شقيقك. كما هو حال بينديكت وكولين، وعندما كنت صغيرًا—أوه، كم تمنيت أن تكون جزءًا من شؤونهم."

حافظ غريغوري على سكونه التام.

– "لكنهم بالطبع لم يكونوا مهتمين باصطحابك معهم، وحقًا، من يلومهم؟"

تمتم بحدة:

– "من يلومهم بالفعل؟"

قالت والدته وهي تلتفت إليه بتعبير فيه قليل من الندم وقليل من نفاد الصبر:

– "أوه، لا تغضب يا غريغوري. كانوا إخوة رائعين، وحقًا، صبورين جدًا معظم الوقت."

– "معظم الوقت؟"

صححت:

– "بعض الوقت. لكنك كنت أصغر منهم بكثير. ببساطة لم يكن هناك الكثير من القواسم المشتركة لتفعلوه معًا. ثم عندما كبرت، حسنًا..."

تلاشت كلماتها، وتنهدت. مال غريغوري للأمام.

– "حسنًا؟"

– "أوه، لا شيء."

– "أمي."

قالت:

– "حسنًا جدًا."

وعرف في تلك اللحظة أنها تعي تمامًا ما تقوله، وأن أي تنهدات أو تلكؤ في الكلام كانت مجرد مؤثرات مقصودة.

قالت فيوليت:

– "أعتقد أنك تظن أن عليك إثبات نفسك لهم."

نظر إليها بدهشة:

– "أليس عليّ ذلك؟"

انفرجت شفتا والدته، لكنها لم تصدر صوتًا لعدة ثوانٍ. قالت أخيرًا:

– "لا. لماذا تظن أن عليك ذلك؟"

يا له من سؤال سخيف. كان ذلك لأن—كان ذلك لأن—

تمتم:

– "إنه ليس من نوع الأشياء التي يسهل صياغتها في كلمات."

– "حقًا؟" رشفت من شايها. "يجب أن أقول، لم يكن هذا رد الفعل الذي توقعته."

شعر غريغوري بفكه ينطبق.

– "ما الذي توقعتِه، بالتحديد؟"

– "بالتحديد؟" نظرت إليه مع لمحة كافية من المرح في عينيها لتثير غيظه تمامًا. "لست متأكدة من أنني أستطيع أن أكون دقيقة، لكنني أفترض أنني توقعت منك الإنكار."

قال بهزة كتف غير مبالية متعمدة:

– "مجرد عدم رغبتي في أن يكون الأمر كذلك لا يجعله غير حقيقي."

قالت فيوليت:

– "إخوتك يحترمونك."

– "لم أقل إنهم لا يفعلون."

– "هم يدركون أنك رجل مستقل."

فكر غريغوري أن هذا ليس صحيحًا تمامًا.

تابعت فيوليت:

– "طلب المساعدة ليس علامة ضعف."

أجاب:

– "لم أعتقد يومًا أنه كذلك. ألم أطلب مساعدتك للتو؟"

قالت ببعض التجاهل:

– "في مسألة لا يمكن أن تتعامل معها إلا أنثى. لم يكن لديك خيار سوى اللجوء إليّ."

كان ذلك صحيحًا، لذا لم يعلق غريغوري.

قالت:

– "أنت معتاد على أن تُنجَز الأمور لك."

– "أمي."

قالت بسرعة:

– "هياسنث كذلك أيضًا. أعتقد أنه لا بد أن يكون من أعراض كونكما الأصغر. وحقًا، لم أقصد التلميح بأن أيًا منكما كسول أو مدلل أو خبيث بأي شكل."

سأل:

– "ماذا عنيتِ إذن؟"

نظرت إليه بابتسامة ماكرة قليلًا:

– "بالتحديد؟"

شعر ببعض توتره يتلاشى. قال مع إيماءة لتقدير تلاعبها بالكلمات:

– "بالتحديد."

– "عنيت فقط أنك لم تضطر أبدًا للعمل بجد خاص لأجل أي شيء. أنت محظوظ جدًا من هذه الناحية. الأشياء الجيدة تبدو وكأنها تحدث لك."

– "وبصفتك والدتي، هذا يزعجك... كيف؟"

قالت بتنهيدة:

– "أوه، غريغوري. أنا لست منزعجة على الإطلاق. لا أتمنى لك سوى الأشياء الجيدة. أنت تعلم ذلك."

لم يكن متأكدًا تمامًا من الرد المناسب على هذا، لذا التزم الصمت، مكتفيًا برفع حاجبيه في تساؤل.

قالت فيوليت بعبوس:

– "لقد عقدتُ الأمر، أليس كذلك؟ كل ما أحاول قوله هو أنك لم تضطر أبدًا لبذل الكثير من الجهد لتحقيق أهدافك. سواء كان ذلك نتيجة لقدراتك أو لطبيعة أهدافك، لست متأكدة."

لم يتحدث. عثرت عيناه على بقعة معقدة بشكل خاص في القماش المزخرف الذي يغطي الجدران، وتسمر بصره عليها، عاجزًا عن التركيز على أي شيء آخر بينما عقله يعتمل.

ويتوق.

ثم، وقبل حتى أن يدرك ما يفكر فيه، سأل:

– "ما علاقة هذا بإخوتي؟"

رمشت بعدم فهم، ثم تمتمت أخيرًا:

– "أوه، تعني بشأن شعورك بالحاجة لإثبات نفسك؟"

أومأ.

زمت شفتيها. فكرت. ثم قالت:

– "لست متأكدة."

فتح فمه. لم تكن هذه الإجابة التي توقعها.

قالت:

– "أنا لا أعرف كل شيء."

وشك في أنها المرة الأولى التي تعبر فيها تلك المجموعة المعينة من الكلمات شفتيها.

قالت ببطء وتفكير:

– "أفترض أنك... حسنًا، إنه مزيج غريب، على ما أظن. أو ربما ليس غريبًا جدًا، حين يكون للمرء هذا العدد الكبير من الإخوة والأخوات الأكبر سنًا."

انتظر غريغوري بينما كانت تجمع أفكارها. كانت الغرفة هادئة، والهواء ساكنًا تمامًا، ومع ذلك شعر وكأن شيئًا ما يضغط عليه، يحيط به من كل جانب.

لم يكن يعرف ما ستقوله، لكن بطريقة ما...

كان يعلم...

أنه أمر مهم.

ربما أهم من أي شيء سمعه من قبل.

قالت والدته:

– "أنت لا ترغب في طلب المساعدة، لأنك تهتم كثيرًا بأن يراك إخوتك رجلًا ناضجًا. ومع ذلك في الوقت نفسه... حسنًا، الحياة جاءتك سهلة، لذا أعتقد أنك أحيانًا لا تحاول."

انفرجت شفتاه.

سارعت للإضافة:

– "ليس الأمر أنك ترفض المحاولة. فقط أنك في معظم الوقت لا تضطر لذلك. وعندما يكون هناك شيء سيتطلب جهدًا كبيرًا جدًا... إذا كان شيئًا لا يمكنك تدبيره بنفسك، تقرر أن الأمر لا يستحق العناء."

وجد غريغوري عينيه تنجذبان مرة أخرى نحو تلك البقعة على الجدار، حيث يلتوي غصن الكرمة بغرابة. قال بصوت هادئ:

– "أعرف ما يعنيه السعي لأجل شيء ما." والتفت إليها حينها، ناظرًا في وجهها مباشرة. "أن تريده بشدة وتدرك أنه قد لا يكون لك."

– "تعرف؟ أنا سعيدة." مدت يدها لشايها، ثم بدا أنها غيرت رأيها ورفعت بصرها. "هل حصلت عليه؟"

– "لا."

تحولت عيناها لتصبح حزينة قليلًا.

– "أنا آسفة."

قال بتصلب:

– "أنا لست كذلك. ليس بعد الآن."

– "أوه. حسنًا." تحركت في مقعدها. "إذن أنا لست آسفة. أتصور أنك أصبحت رجلًا أفضل بسبب ذلك الآن."

مال دافع غريغوري الأولي نحو الشعور بالإهانة، لكن لدهشته الكبيرة، وجد نفسه يقول:

– "أعتقد أنكِ محقة."

ولدهشته الأكبر، كان يعني ذلك.

ابتسمت والدته بحكمة:

– "أنا سعيدة جدًا لأنك قادر على رؤية الأمر بهذا المنظور. معظم الرجال لا يستطيعون." نظرت إلى الساعة وأطلقت صيحة مفاجأة صغيرة. "يا إلهي، الوقت. وعدت بورتيا فيذرينغتون بزيارتها بعد الظهر."

نهض غريغوري مع وقوف والدته.

قالت وهي تسرع نحو الباب:

– "لا تقلق بشأن الليدي لوسيندا. سأهتم بكل شيء. وأرجوك، أكمل شايك. أنا أقلق عليك حقًا، تعيش وحيدًا بلا امرأة تعتني بك. عام آخر من هذا، وستصبح جلدًا على عظم."

رافقها إلى الباب قائلًا:

– "فيما يخص التلميحات نحو الزواج، كان ذلك فجًا بشكل خاص."

– "أكان كذلك؟" رمقته بنظرة ذات مغزى. "كم هو لطيف بالنسبة لي أنني لم أعد أحاول حتى أن أكون لبقة. لقد وجدت أن معظم الرجال لا يلاحظون أي شيء ما لم يكن واضحًا وضوح الشمس، على أي حال."

– "حتى أبناؤك."

– "خاصة أبنائي."

ابتسم بسخرية:

– "لقد جنيت ذلك على نفسي، أليس كذلك؟"

– "لقد كتبت لي دعوة عمليًا."

حاول مرافقتها إلى القاعة الرئيسية، لكنها صرفته قائلة:

– "لا، لا، هذا ليس ضروريًا. اذهب وأكمل شايك. طلبت من المطبخ إحضار شطائر عندما تم الإعلان عن وصولك. ستصل في أي لحظة وستذهب هباءً بالتأكيد إذا لم تأكلها."

قرقرت معدة غريغوري في تلك اللحظة بالضبط، فانحنى وقال:

– "أنتِ أم رائعة، هل تعلمين ذلك؟"

– "لأنني أطعمك؟"

– "حسنًا، نعم، ولكن ربما لبعض الأشياء الأخرى أيضًا."

وقفت على أطراف أصابعها وقبلته على خده:

– "لم تعد طفلي المدلل، أليس كذلك؟"

ابتسم غريغوري. كان هذا لقب التدليل الذي تطلقه عليه منذ أن وعى على الدنيا.

– "سأكون كذلك ما دمتِ ترغبين في ذلك يا أمي. ما دمتِ ترغبين في ذلك."





الفصل السادس عشر

وفيه يقع بطلنا في الحب. مجددًا.



عندما يتعلق الأمر بالمكائد الاجتماعية، كانت فيوليت بريدجيرتون بارعة تمامًا كما ادعت. وبالفعل، عندما وصل غريغوري إلى "هاستينغز هاوس" في الليلة التالية، أخبرته شقيقته دافني، دوقة هاستينغز الحالية، أن الليدي لوسيندا أبيرناثي ستحضر الحفل بالفعل.

وجد نفسه مسرورًا بشكل لا يمكن تفسيره بهذه النتيجة.

كانت لوسي تبدو محبطة للغاية عندما أخبرته أنها لن تتمكن من الذهاب، وحقًا، ألا ينبغي للفتاة أن تستمتع بليلة أخيرة من الاحتفال قبل أن تتزوج هاسيلبي؟

هاسيلبي.

لا يزال غريغوري غير قادر تمامًا على تصديق ذلك. كيف لم يعرف أنها ستتزوج هاسيلبي؟ لم يكن هناك ما يمكنه فعله لإيقاف ذلك، وحقًا، لم يكن هذا من شأنه، لكن يا إلهي، إنه هاسيلبي.

ألا ينبغي إخبار لوسي؟

كان هاسيلبي شخصًا ودودًا تمامًا، واضطر غريغوري للاعتراف بأنه يتمتع بذكاء مقبول جدًا. لن يضربها، ولن يكون قاسيًا، لكنه لم... هو لا يستطيع...

لن يكون زوجًا لها.

مجرد التفكير في الأمر جعله يكتئب. لن تحظى لوسي بزواج طبيعي، لأن هاسيلبي لا يحب النساء. ليس بالطريقة التي يفترض بالرجل أن يحبهن بها.

سيكون هاسيلبي لطيفاً معها، وربما يوفر لها مخصصًا ماليًا سخيًا للغاية، وهو أكثر مما تحظى به العديد من النساء في زيجاتهن، بغض النظر عن ميول أزواجهن.

لكن لم يبدُ من العدل أن لوسي، من بين كل الناس، مقدر لها حياة كهذه. إنها تستحق أكثر من ذلك بكثير. منزلًا مليئًا بالأطفال. والكلاب. وربما قطة أو اثنتين. بدت من النوع الذي يرغب في حديقة حيوان مصغرة.

والزهور. في منزل لوسي ستكون الزهور في كل مكان، كان واثقاً من ذلك. الفاوانيا الوردية، والورود الصفراء، وتلك الزهرة الزرقاء ذات السيقان الطويلة التي تحبها كثيرًا.

الدلفينيوم. هذا هو اسمها.

توقف. تذكر. دلفينيوم.

قد تدعي لوسي أن شقيقها هو البستاني في العائلة، لكن غريغوري لم يستطع تخيلها تعيش في منزل بلا ألوان.

سيكون هناك ضحك وضجيج وفوضى رائعة – رغم محاولاتها الحفاظ على كل ركن من حياتها مرتبًا ومنظمًا. استطاع رؤيتها بسهولة في مخيلته، تضطرب وتنظم، محاولة إبقاء الجميع على جدول زمني مناسب.

كاد ذلك يجعله يضحك بصوت عالٍ، لمجرد التفكير فيه. لن يهم إن كان هناك جيش من الخدم ينفض الغبار ويرتب ويلمع ويكنس. مع الأطفال، لا شيء يبقى أبدًا حيث وضعه المرء.

كانت لوسي مديرة. هذا ما يجعلها سعيدة، ويجب أن يكون لديها منزل لتديره.

أطفال. الكثير منهم.

ربما ثمانية.

جال ببصره في قاعة الرقص، التي بدأت تمتلئ ببطء. لم يرَ لوسي، ولم يكن المكان مزدحمًا بعد لدرجة قد تفوتها عليه.

رأى، مع ذلك، والدته.

كانت تتجه نحوه.

قالت وهي تمد يديها نحوه عندما وصلت إليه:

– "غريغوري، تبدو وسيمًا بشكل خاص هذا المساء."

أخذ يديها ورفعهما إلى شفتيه.

– "قيلت بكل صدق وحيادية الأم،" تمتم.

قالت بابتسامة:

– "هراء. إنها حقيقة أن جميع أطفالي أذكياء ووسيمون للغاية. لو كان الأمر مجرد رأيي، ألا تعتقد أن أحدهم كان ليصحح لي الآن؟"

– "وكأن أحدهم يجرؤ."

أجابت، محافظة على وجه خالٍ من التعبير بشكل مثير للإعجاب:

– "حسنًا، نعم، أفترض ذلك. لكنني سأكون عنيدة وأصر على أن هذه النقطة غير قابلة للنقاش."

قال بجدية تامة:

– "كما تشائين يا أمي. كما تشائين."

– "هل وصلت الليدي لوسيندا؟"

هز غريغوري رأسه.

– "ليس بعد."

قالت متأملة:

– "أليس من الغريب أنني لم أقابلها؟ قد يظن المرء، بما أنها في المدينة منذ أسبوعين بالفعل... آه حسنًا، لا يهم. أنا واثقة أنني سأجدها مبهجة إذا كنت قد بذلت كل هذا الجهد لتأمين حضورها هذا المساء."

رمقها غريغوري بنظرة. كان يعرف هذه النبرة. مزيج مثالي من اللامبالاة والدقة المطلقة، تُستخدم عادة أثناء التنقيب عن المعلومات. كانت والدته أستاذة في ذلك.

وبالتأكيد، كانت تربت على شعرها بحذر ولا تنظر إليه تمامًا وهي تقول:

– "قلت إنك تعرفت عليها أثناء زيارتك لأنتوني، أليس كذلك؟"

لم يرَ سببًا للتظاهر بأنه لا يعرف ما ترمي إليه. قال بتأكيد كبير:

– "إنها مخطوبة للزواج يا أمي." ثم أضاف زيادة في التأكيد: "في غضون أسبوع واحد."

– "نعم، نعم، أعرف. لابن اللورد دافنبورت. إنها زيجة متفق عليها منذ زمن طويل، كما فهمت."

أومأ غريغوري. لم يستطع تخيل أن والدته تعرف الحقيقة بشأن هاسيلبي. لم تكن حقيقة معروفة جيدًا. كانت هناك همسات، بالطبع. دائمًا ما تكون هناك همسات. لكن لا أحد يجرؤ على تكرارها في وجود السيدات.

قالت فيوليت:

– "تلقيت دعوة للزفاف."

– "حقاً؟"

– "سيكون حدثًا كبيرًا جدًا، كما فهمت."

صرّ غريغوري على أسنانه قليلًا.

– "ستكون كونتيسة."

– "نعم، أفترض ذلك. ليس من النوع الذي يمكن إقامته بشكل مصغر."

– "لا."

تنهدت فيوليت.

– "أعشق حفلات الزفاف."

– "حقًا؟"

– "نعم." تنهدت مرة أخرى، بدراما أكبر، ليس أن غريغوري كان ليتخيل ذلك ممكنًا. أضافت: "الأمر كله رومانسي للغاية. العروس، العريس..."

– "كلاهما يعتبران قياسيين في المراسم، كما فهمت."

رمقته والدته بنظرة حادة.

– "كيف ربيت ابنًا غير رومانسي هكذا؟"

قرر غريغوري أنه لا يمكن أن تكون هناك إجابة على ذلك.

قالت فيوليت:

– "تبًا لك إذن، أنا أخطط للحضور. أنا لا أرفض دعوة لزفاف أبدًا تقريبًا."

ثم جاء الصوت:

– "من سيتزوج؟"

استدار غريغوري. كانت شقيقته الصغرى، هياسنث. مرتدية الأزرق وتدس أنفها في شؤون الجميع كالمعتاد.

أجابت فيوليت:

– "اللورد هاسيلبي والليدي لوسيندا أبيرناثي."

– "أوه نعم." عبست هياسنث. "تلقيت دعوة. في سانت جورج، أليس كذلك؟"

أومأت فيوليت.

– "متبوعًا بحفل استقبال في فينسوورث هاوس."

جالت هياسنث ببصرها في الغرفة. كانت تفعل ذلك كثيرًا، حتى عندما لم تكن تبحث عن أحد بعينه.

– "أليس من الغريب أنني لم أقابلها؟ هي شقيقة إيرل فينسوورث، أليست كذلك؟" هزت كتفيها. "غريب أنني لم أقابله هو أيضًا."

قال غريغوري:

– "لا أعتقد أن الليدي لوسيندا قد قُدمت للمجتمع رسميًا. ليس بعد، على الأقل."

قالت والدته:

– "إذن الليلة ستكون ظهورها الأول. كم هذا مثير لنا جميعًا."

التفتت هياسنث إلى شقيقها بعينين حادتين كالموسى.

– "وكيف حدث أنك تعرفت على الليدي لوسيندا يا غريغوري؟"

فتح فمه، لكنها كانت تقول بالفعل:

– "ولا تقل إنك لست كذلك، لأن دافني أخبرتني بكل شيء بالفعل."

– "إذن لماذا تسألين؟"

عبست هياسنث.

– "لم تخبرني كيف التقيتما."

– "قد ترغبين في مراجعة فهمك لكلمة (كل شيء)." التفت غريغوري لوالدته. "المفردات والاستيعاب لم يكونا أبدًا نقاط قوتها."

قلبت فيوليت عينيها.

– "كل يوم أتعجب كيف تمكنتما أنتما الاثنان من الوصول لسن البلوغ."

مازحها غريغوري:

– "خفتِ أن نقتل بعضنا البعض؟"

– "لا، بل خشيت أن أقوم بهذه المهمة بنفسي."

قالت هياسنث، وكأن دقيقة المحادثة السابقة لم تحدث قط:

– "حسنًا، قالت دافني إنك كنت قلقًا للغاية بشأن تلقي الليدي لوسيندا دعوة، وفهمت أن أمي كتبت حتى رسالة تقول فيها كم تستمتع بصحبتها، وهو ما نعرف جميعًا أنه كذبة صريحة، إذ لم يقابل أي منا الـ..."

قاطعها غريغوري:

– "هل تتوقفين عن الكلام أبدًا؟"

أجابت هياسنث:

– "ليس من أجلك. كيف تعرفها؟ والأهم من ذلك، ما مدى معرفتك بها؟ ولماذا أنت حريص جدًا على تقديم دعوة لامرأة ستتزوج في غضون أسبوع؟"

ثم، وبشكل مذهل، توقفت هياسنث عن الكلام بالفعل.

تمتمت فيوليت:

– "كنت أتساءل عن ذلك بنفسي."

نظر غريغوري من أخته إلى أمه وقرر أنه لم يعنِ أيًا من ذلك الهراء الذي قاله لـ لوسي عن كون العائلات الكبيرة مصدر راحة. إنهم مصدر إزعاج وتطفل ومجموعة كاملة من الأشياء الأخرى، التي لم يستطع استحضار الكلمات المناسبة لها في تلك اللحظة.

وهو ما قد يكون للأفضل، إذ لم يكن من المرجح أن يكون أي منها مهذبًا.

مع ذلك، التفت للمرأتين بصبر شديد وقال:

– "تم تقديمي لليدي لوسيندا في كينت. في الحفل المنزلي لكيت وأنتوني الشهر الماضي. وطلبت من دافني دعوتها هذا المساء لأنها شابة ودودة، وقد صادفتها أمس في الحديقة. عمها حرمها من موسم اجتماعي، واعتقدت أنه سيكون عملًا طيبًا أن أوفر لها فرصة للهرب لأمسية واحدة."

رفع حاجبيه، متحديًا إياهما بصمت أن تردا.

فعلتا ذلك بالطبع. ليس بالكلمات – فالكلمات لم تكن لتكون فعالة بقدر النظرات المشككة التي كانتا تقذفانها باتجاهه.

كاد ينفجر:

– "أوه، بحق السماء. إنها مخطوبة. للزواج."

لم يكن لهذا تأثير يذكر.

عبس غريغوري.

– "هل أبدو كمن يحاول إيقاف الزفاف؟"

طرفت هياسنث بعينيها. عدة مرات، بالطريقة التي تفعلها دائمًا عندما تفكر بجدية أكبر من اللازم في شيء ليس من شأنها. لكن لدهشته الكبيرة، أطلقت همهمة قبول صغيرة وقالت:

– "أفترض لا." جالت ببصرها في الغرفة. "أود مقابلتها، رغم ذلك."

أجاب غريغوري:

– "أنا متأكد أنكِ ستفعلين." وهنأ نفسه، كما يفعل مرة واحدة على الأقل شهريًا، على عدم خنق أخته.

قالت فيوليت:

– "كتبت كيت أنها جميلة."

التفت إليها غريغوري بشعور غارق.

– "كيت كتبت لكِ؟"

يا إلهي، ماذا كشفت؟ كان سيئًا بما يكفي أن أنتوني عرف بمهزلة الآنسة واتسون – لقد استنتج ذلك بالطبع – لكن إذا عرفت والدته، فستصبح حياته جحيمًا مطلقًا.

ستقتله باللطف. كان واثقًا من ذلك.

أجابت فيوليت بهزة كتف رقيقة:

– "كيت تكتب لي مرتين في الشهر. تخبرني بكل شيء."

تمتم غريغوري:

– "هل أنتوني على علم؟"

قالت فيوليت وهي تمنحه نظرة فوقية:

– "لا فكرة لدي. هذا ليس من شأنه حقًا."

يا إلهي.

تمكن غريغوري بالكاد من عدم قولها بصوت عالٍ.

تابعت والدته:

– "فهمت أن شقيقها ضُبط في وضع مريب مع ابنة اللورد واتسون."

– "حقًا؟" كانت هياسنث تتفحص الحشد، لكنها استدارت عائدة لسماع ذلك.

أومأت فيوليت بتأمل.

– "كنت أتساءل لماذا كان ذلك الزفاف مستعجلًا جدًا."

قال غريغوري، بنبرة تشبه النخر قليلًا:

– "حسنًا، هذا هو السبب."

– "همممم." جاء هذا من هياسنث.

كان هذا نوع الصوت الذي لا يرغب أحد أبدًا في سماعه من هياسنث.

التفتت فيوليت لابنتها وقالت:

– "كانت ضجة كبيرة."

قال غريغوري، وهو يزداد انزعاجًا بالثانية:

– "في الواقع، تم التعامل مع الأمر بتكتم."

قالت هياسنث:

– "دائمًا ما تكون هناك همسات."

حذرتها فيوليت:

– "إياكِ أن تضيفي إليها."

وعدت هياسنث ملوحة بيدها وكأنها لم تتحدث في غير دورها طوال حياتها:

– "لن أنبس بكلمة."

أطلق غريغوري شخيرًا ساخرًا.

– "أوه، أرجوكِ."

احتجت قائلة:

– "لن أفعل. أنا ممتازة في كتمان الأسرار طالما أعرف أنها أسرار."

– "آه، إذن ما تعنيه هو أنكِ لا تملكين أي حس بالكتمان؟"

ضيقت هياسنث عينيها.

رفع غريغوري حاجبيه.

تدخلت فيوليت:

– "كم عمركما؟ يا للسماء، أنتما الاثنان لم تتغيرا قيد أنملة منذ كنتما طفلين. أتوقع نصف توقع أن تبدآ بشد شعر بعضكما البعض في الحال."

أطبق غريغوري فكه في خط مستقيم وحدق بإصرار للأمام. لا شيء يضاهي توبيخًا من الأم لجعل المرء يشعر بأنه بطول ثلاثة أقدام.

قالت هياسنث، متقبلة التوبيخ بابتسامة:

– "أوه، لا تكوني جامدة يا أمي. هو يعلم أنني أغيظه هكذا فقط لأنني أحبه أكثر من الجميع."

ابتسمت له، مشرقة ودافئة.

تنهد غريغوري، لأنه كان صحيحًا، ولأنه كان يشعر بنفس الطريقة، ولأنه، رغم ذلك، كان مرهقًا أن يكون أخاها. لكنهما كانا أصغر سنًا بكثير من بقية إخوتهما، ونتيجة لذلك، كانا دائمًا ثنائيًا إلى حد ما.

قالت هياسنث لـ فيوليت:

– "هو يبادلني الشعور، بالمناسبة. لكن كرجل، لن يقول ذلك أبدًا."

أومأت فيوليت.

– "صحيح."

التفتت هياسنث لـ غريغوري.

– "ولأكون واضحة تمامًا، لم أشد شعرك أبدًا."

بالتأكيد هذه إشارته للمغادرة. أو لفقدان عقله. حقًا، الأمر متروك له.

قال غريغوري:

– "هياسنث، أنا أعشقك. أنتِ تعرفين ذلك. أمي، أعشقكِ أيضًا. والآن أنا مغادر."

نادت فيوليت:

– "انتظر!"

استدار. كان ينبغي أن يعرف أن الأمر لن يكون بهذه السهولة.

– "هل ترافقني؟"

– "إلى ماذا؟"

– "إلى ماذا، إلى الزفاف بالطبع."

يا إلهي، ما هذا الطعم المريع في فمه؟

– "زفاف من؟ الليدي لوسيندا؟"

حدقت فيه والدته بأكثر العيون الزرقاء براءة.

– "لا أحب الذهاب وحدي."

أشار برأسه في اتجاه أخته.

– "خذي هياسنث."

أجابت فيوليت:

– "سترغب في الذهاب مع غاريث."

غاريث سانت كلير كان زوج هياسنث منذ ما يقرب من أربع سنوات. أحبه غريغوري بشدة، ونشأت بينهما صداقة جيدة، ولهذا عرف أن غاريث يفضل تقشير جفنيه (وتركهما كذلك لفترة غير محددة) على الجلوس خلال مناسبة اجتماعية طويلة ومملة طوال اليوم.

بينما كانت هياسنث، كما لم تمانع هي قول ذلك، مهتمة دائمًا بالشائعات، مما يعني أنها بالتأكيد لن ترغب في تفويت زفاف مهم كهذا. شخص ما سيشرب أكثر مما ينبغي، وشخص آخر سيرقص أقرب مما ينبغي، وهياسنث ستكره أن تكون آخر من يعلم.

حثته والدته:

– "غريغوري؟"

– "أنا لن أذهب."

– "لكن..."

– "لم تتم دعوتي."

– "بالتأكيد سهو. سيتم تصحيحه، أنا واثقة، بعد جهودك هذا المساء."

– "أمي، بقدر ما أود أن أتمنى لليدي لوسيندا الخير، ليس لدي رغبة في حضور زفافها أو زفاف أي شخص. إنها مناسبات عاطفية للغاية."

صمت.

ليس علامة جيدة أبدًا.

نظر إلى هياسنث. كانت تنظر إليه بعينين واسعتين كالبومة.

– "أنت تحب حفلات الزفاف."

نخر. بدا ذلك أفضل رد.

قالت:

– "بلى تحبها. في زفافي، أنت..."

– "هياسنث، أنتِ أختي. الأمر مختلف."

– "نعم، لكنك حضرت أيضًا زفاف فيليسيتي ألبانسديل، وأتذكر بوضوح..."

أدار غريغوري ظهره لها قبل أن تتمكن من سرد تفاصيل مرحه.

– "أمي، شكرًا لكِ على الدعوة، لكنني لا أرغب في حضور زفاف الليدي لوسيندا."

فتحت فيوليت فمها وكأنها ستسأل سؤالًا، لكنها أغلقته.

– "حسنًا جدًا."

ارتاب غريغوري فورًا. لم يكن من عادة والدته الاستسلام بهذه السرعة. لكن المزيد من التقصي في دوافعها سيقضي على أي فرصة للهروب السريع.

كان قرارًا سهلًا.

قال:

– "أودعكما.(adieu)"

طالبته هياسنث:

– "أين تذهب؟ ولماذا تتحدث الفرنسية؟"

التفت لأمه.

– "إنها لكِ بالكامل."

تنهدت فيوليت.

– "نعم. أعرف."

التفتت هياسنث إليها فورًا.

– "ماذا يعني ذلك؟"

– "أوه، بحق السماء يا هياسنث، أنتِ..."

استغل غريغوري اللحظة وانسل مبتعدًا بينما كان انتباههما منصبًا على بعضهما البعض.

كان الحفل يزداد ازدحامًا، وخطر له أن لوسي ربما تكون قد وصلت بالفعل بينما كان يتحدث مع والدته وأخته. إذا كان الأمر كذلك، فلن تكون قد وصلت بعيدًا جدًا داخل قاعة الرقص، ولذا بدأ يشق طريقه نحو خط

الاستقبال. كانت عملية بطيئة؛ فقد كان خارج المدينة لأكثر من شهر، وبدا أن الجميع لديهم ما يقولونه له، ولا شيء منه يثير الاهتمام ولو من بعيد.

تمتم للورد تريفيلستام، الذي كان يحاول إثارة اهتمامه بحصان لا يستطيع تحمل تكلفته:

– "حظًا موفقًا في ذلك. أنا متأكد أنك لن تواجه صعوبة..."

خانه صوته.

لم يستطع الكلام.

لم يستطع التفكير.

يا إلهي، ليس مرة أخرى.

– "بريدجيرتون؟"

عبر الغرفة، بجوار الباب تمامًا. ثلاثة سادة، سيدة مسنة، وسيدتان، و... هي.

كانت هي. وكان يُسحب، بتأكيد وكأن هناك حبلًا بينهما. كان بحاجة للوصول إلى جانبها.

– "بريدجيرتون، هل هناك..."

تمكن غريغوري من القول وهو يندفع متجاوزًا تريفيلستام:

– "عفوًا."

كانت هي. باستثناء...

كانت "هي" مختلفة. لم تكن هيرميون واتسون. كانت – لم يكن متأكدًا من تكون؛ لم يستطع رؤيتها إلا من الخلف. لكن ها هو ذا – نفس الشعور الرائع والرهيب. جعله يشعر بالدوار. جعله يشعر بالنشوة. كانت رئتاه جوفاوان. كان هو أجوف.

وكان يريدها.

كان الأمر تمامًا كما تخيله دائمًا – ذلك الإحساس السحري، المتوهج تقريبًا، بمعرفة أن حياته قد اكتملت، وأنها هي "المنشودة".

باستثناء أنه مر بهذا من قبل. وهيرميون واتسون لم تكن "المنشودة".

يا إلهي، هل يمكن لرجل أن يقع في الحب بجنون وغباء مرتين؟

ألم يقل لـ لوسي للتو أن تكون حذرة وخائفة، وأنه إذا غمرها شعور كهذا، فلا يجب أن تثق به؟

ومع ذلك...

ومع ذلك ها هي ذي.

وها هو ذا.

والأمر يحدث كله من جديد.

كان تمامًا كما حدث مع هيرميون. لا، كان أسوأ. كان جسده يوخزه؛ لم يستطع إبقاء أصابع قدميه ثابتة في حذائه. أراد القفز من جلده، الاندفاع عبر الغرفة و... فقط... فقط...

فقط يراها.

أرادها أن تستدير. أراد رؤية وجهها. أراد معرفة من تكون.

أراد أن يعرفها.

لا.

لا، قال لنفسه، محاولًا إجبار قدميه في الاتجاه الآخر. هذا جنون. يجب أن يغادر. يجب أن يغادر الآن.

لكنه لم يستطع. حتى مع صراخ كل ركن عقلاني في روحه بأن يستدير ويمشي مبتعدًا، كان متجذرًا في مكانه، ينتظرها أن تستدير.

يدعو الله أن تستدير.

ثم فعلت.

وكانت...

لوسي.

تعثر وكأنه ضُرب.

لوسي؟

لا. لا يمكن أن يكون ممكنًا. هو يعرف لوسي.

هي لا تفعل هذا به.

لقد رآها عشرات المرات، وقبلها حتى، ولم يشعر بهذا قط، وكأن العالم قد يبتلعه بالكامل إذا لم يصل لجانبها ويمسك يدها في يده.

لا بد من وجود تفسير. لقد شعر بهذا من قبل. مع هيرميون.

لكن هذه المرة – لم يكن الأمر نفسه تمامًا. مع هيرميون كان دوارًا، جديدًا. كانت هناك نشوة الاكتشاف، الغزو. لكن هذه كانت لوسي.

كانت لوسي، و...

تدفق كل شيء عائدًا. إمالة رأسها وهي تشرح لماذا يجب فرز الشطائر بشكل صحيح. النظرة المنزعجة بشكل مبهج على وجهها عندما حاولت أن تشرح له لماذا كان يفعل كل شيء بشكل خاطئ في مغازلته للآنسة واتسون.

الطريقة التي بدا بها الأمر صحيحًا جدًا بمجرد الجلوس على مقعد معها في "هايد بارك" ورمي الخبز للحمام.

والقبلة. يا إلهي، القبلة.

كان لا يزال يحلم بتلك القبلة.

وأرادها أن تحلم بها أيضًا.

خطا خطوة. واحدة فقط – للأمام قليلًا وإلى الجانب ليتمكن من رؤية ملامحها الجانبية بشكل أفضل. كان كل شيء مألوفًا الآن – إمالة رأسها، الطريقة التي تتحرك بها شفتاها عندما تتحدث. كيف لم يتعرف عليها فورًا، حتى من الخلف؟ الذكريات كانت هناك، مخبأة في زوايا عقله، لكنه لم يرد – لا، لم يسمح لنفسه – بالاعتراف بوجوده.

ثم رأته. لوسي رأته. رآه أولًا في عينيها، اللتين اتسعتا وتألقتا، ثم في انحناء شفتيها.

ابتسمت. له.

ملأه ذلك. حتى كاد ينفجر، ملأه. كانت مجرد ابتسامة واحدة، لكنها كانت كل ما يحتاجه.

بدأ يسير. كان بالكاد يشعر بقدميه، ولم يكن يملك إلا قدرًا ضئيلًا من السيطرة الواعية على جسده. كان يتحرك فحسب، مدفوعًا بمعرفة عميقة في داخله بأنه لا بد أن يصل إليها.

قال، حين صار إلى جوارها، ناسِيًا أنهما محاطان بالغرباء، والأسوأ من ذلك، بالأصدقاء، وأنه لا ينبغي له أن يتجرأ على مناداتها باسمها الأول:

– «لوسي».

لكن لم يكن هناك اسم آخر يستقر على شفتيه كما ينبغي.

قالت هي:

– «السيد بريدجيرتون».

غير أن عينيها كانتا تقولان: غريغوري.

وعرف.

كان يحبها.

كان ذلك الإحساس أغرب ما يكون... وأروعه. إحساسًا باعثًا على النشوة. وكأن العالم قد انفتح له فجأة. صار واضحًا. جليًّا. لقد فهم. فهم كل ما يحتاج إلى فهمه، وكان كل ذلك حاضرًا هناك، في عينيها.

قال، وهو ينحني بانحناءة عميقة فوق يدها:

– «الليدي لوسيندا، هل تأذنين لي بهذه الرقصة؟»





الفصل السابع عشر

في هذا الفصل، تتدخل شقيقة بطلنا لتدفع بالأحداث قُدمًا.



كانت تلك اللحظات جنة.

دعك من الملائكة، وانسَ أمر القديس بطرس وتلك القيثارات المتلألئة؛ فالجنة الحقيقية هي رقصة بين ذراعي الحبيب. وعندما لا يتبقى لهذا الحبيب سوى أسبوع واحد قبل أن يتزوج من شخص آخر تمامًا، يصبح لزامًا عليه أن يتشبث بتلك الجنة بكلتا يديه.

مجازيًا، بطبيعة الحال.

ابتسمت لوسي وهي تتمايل وتدور. يا لها من صورة خيالية؛ ماذا سيقول الناس لو اندفعت نحوه وأمسكت به بكلتا يديها؟

ولم تفلته أبدًا.

سيقول أغلبهم إنها فقدت عقلها، وسيقول قلة إنها عاشقة. أما الأذكياء فسيقولون الأمرين معًا.

سألها غريغوري وهو ينظر إليها... بنظرة مغايرة:

- "بمَ تفكرين؟"

أشاحت بوجهها عنه ثم التفتت إليه مجددًا، وقد غمرها شعور بالجرأة، وكأن سحرًا مسّها.

- "ألا تود أن تعرف؟"

تجاوز السيدة التي عن يساره وعاد إلى مكانه، ثم أجاب وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

- "بلى، أود ذلك."

لكنها اكتفت بالابتسام وهزت رأسها. كانت ترغب في تلك اللحظة أن تتقمص شخصية أخرى؛ شخصية أقل تقليدية، وأكثر اندفاعًا بكثير.

لم تكن راغبة في أن تظل لوسي القديمة، ليس الليلة. لقد سئمت التخطيط، وملت من استرضاء الآخرين، وضجرت من عدم الإقدام على أي فعل دون دراسة كل الاحتمالات والعواقب.

إذا فعلتُ هذا، فسيحدث ذاك، ولكن إذا فعلتُ ذاك، فسيترتب عليه كذا وكذا، مما سيؤدي إلى نتيجة مختلفة تمامًا، قد تعني أن...

كان الأمر كافيًا لإصابة أي فتاة بالدوار، وكافيًا ليجعلها تشعر بالشلل والعجز عن الإمساك بزمام حياتها.

لكن ليس الليلة. فبفضل معجزة مذهلة تُدعى دوقة هاستينغز - أو ربما الأرملة ليدي بريدجيرتون، لم تكن لوسي متأكدة تمامًا - كانت ترتدي ثوبًا من الحرير الأخضر الرائع، وتحضر أكثر الحفلات الراقصة بريقًا مما تخيلته يومًا.

وكانت ترقص مع الرجل الذي أيقنت أنها ستحبه حتى نهاية الزمان.

قال لها:

- "تبدين مختلفة."

لامست يده وهما يتبادلان المواقع، فتشبثت أصابعه بأصابعها في لحظة كان ينبغي أن تكون مجرد تلامس عابر:

- "وأشعر باختلاف أيضًا."

رفعت رأسها ورأته يحدق فيها. كانت عيناه دافئتين ومليئتين بحدة المشاعر، وكان يراقبها بالطريقة نفسها التي...

يا إلهي، كان ينظر إليها بالطريقة نفسها التي كان ينظر بها إلى هيرميون.

سرى شعور بالوخز في جسدها، شعرت به حتى أطراف أصابعها، وفي أماكن لم تجرؤ حتى على التفكير فيها.

تبادلا المواقع مرة أخرى، لكنه هذه المرة مال نحوها، ربما أكثر مما ينبغي، وقال:

– "أنا أشعر باختلاف أيضًا."

استدار رأسها نحوه بسرعة، لكنه كان قد أعطاها ظهره بالفعل. كيف يختلف شعوره؟ ولماذا؟ وماذا يقصد؟

دارت حول الرجل الذي يقف إلى يسارها، ثم مرت بجانب غريغوري.

همس لها:

– "هل أنتِ سعيدة بحضورك الليلة؟"

أومأت برأسها، لأنها كانت قد ابتعدت مسافة لا تسمح لها بالرد دون رفع صوتها.

لكنهما عادا ليلتقيا مجددًا، فهمس:

– "وأنا كذلك."

عادا إلى مكانيهما الأصليين وتوقفا بانتظار مرور ثنائي آخر. رفعت لوسي بصرها إليه. إلى عينيه.

لم تبارح عيناه وجهها قط.

وحتى في ضوء الليل المتراقص – وسط مئات الشموع والمشاعل التي أضاءت قاعة الرقص المتلألئة – استطاعت أن تلمح ذلك البريق في عينيه. الطريقة التي كان ينظر بها إليها... كانت نظرة حارقة، متملكة، وفخورة.

جعلتها ترتعد.

جعلتها تشك في قدرتها على الوقوف.

ثم انتهت الموسيقى، وأدركت لوسي أن بعض العادات متأصلة بعمق، فقد وجدت نفسها تنحني في تحية وتومئ للمرأة التي بجانبها وتبتسم، وكأن حياتها لم تنقلب رأسًا على عقب خلال الرقصة السابقة.

أخذ غريغوري بيدها وقادها إلى جانب القاعة، حيث تجتمع المرافقات لمراقبة من هم في عهدتهن من فوق حواف أكواب الليمون. لكن قبل أن يصلا إلى وجهتهما، انحنى وهمس في أذنها:

- "أحتاج للتحدث معكِ."

طارت عيناها إليه.

أضاف:

- "على انفراد."

شعرت به يبطئ من خطواتهما، ربما ليمنحهما مزيدًا من الوقت للحديث قبل إعادتها إلى العمة هارييت. سألته:

- "ما الأمر؟ هل حدث خطب ما؟"

هز رأسه:

- "ليس بعد الآن."

سمحت لنفسها أن تأمل. قليلًا فقط، لأنها لم تكن تقوى على تحمل انكسار القلب إذا كانت مخطئة، ولكن ربما... ربما كان يحبها. ربما كان يرغب في الزواج منها. زفافها بعد أقل من أسبوع، لكنها لم تنطق بعهود الزواج بعد.

ربما كانت هناك فرصة. ربما كان هناك سبيل.

بحثَت في وجه غريغوري عن أدلة، عن إجابات. لكن عندما ألحت عليه لمعرفة المزيد، اكتفى بهز رأسه وهمس:

- "المكتبة. إنها تقع بعد غرف السيدات ببابين. قابليني هناك بعد ثلاثين دقيقة."

- "هل جننت؟"

ابتسم قائلاً:

- "قليلاً فقط."

- "غريغوري، أنا..."

نظر في عينيها، فأسكتها. الطريقة التي كان ينظر بها إليها...

حبست أنفاسها.

همست:

- "لا أستطيع."

مهما كانت مشاعرهما، فهي لا تزال مخطوبة لرجل آخر. وحتى لو لم تكن كذلك، فإن تصرفًا كهذا لن يجلب سوى الفضيحة.

– "لا يمكنني الانفراد بك. أنت تعرف ذلك."

– "يجب عليكِ ذلك."

حاولت أن تهز رأسها رفضًا، لكنها عجزت عن الحركة.

قال:

– "لوسي، يجب عليكِ ذلك."

أومأت برأسها. ربما كان هذا أكبر خطأ ترتكبه في حياتها، لكنها لم تستطع الرفض.

قال غريغوري بصوت بدا مرتفعًا بشكل مبالغ فيه وهو يحيي عمتها هارييت:

– "سيدة أبيرناثي، أعيد الليدي لوسيندا إلى رعايتك."

أومأت العمة هارييت، رغم أن لوسي شكت في أنها لم تفهم كلمة مما قاله غريغوري، ثم التفتت إلى لوسي وصرخت:

– "سأجلس!"

ضحك غريغوري، ثم قال:

– "يجب أن أرقص مع أخريات."

أجابت لوسي:

– "بالطبع."

رغم أنها شكت في أنها لم تكن واعية تمامًا للتعقيدات الدقيقة التي ينطوي عليها ترتيب لقاء سري. كذبت قائلة:

– "أرى شخصًا أعرفه."

ولحسن حظها، رأت بالفعل شخصًا تعرفه؛ إحدى معارفها من أيام الدراسة. لم تكن صديقة مقربة، لكن وجهها كان مألوفًا بما يكفي لتبادل التحيات.

لكن قبل أن تتمكن لوسي من التحرك، سمعت صوتًا أنثويًا ينادي اسم غريغوري.

لم تستطع لوسي رؤية صاحبة الصوت، لكنها رأت غريغوري. كان قد أغلق عينيه وبدا عليه الألم الشديد.

– "غريغوري!"

اقترب الصوت، فالتفتت لوسي إلى يسارها لترى شابة لا يمكن إلا أن تكون إحدى شقيقات غريغوري. الصغرى على الأرجح، وإلا فقد حافظت على شبابها بشكل مذهل.

قالت المرأة:

– "لا بد أن هذه هي الليدي لوسيندا."

لاحظت لوسي أن شعرها كان بنفس لون شعر غريغوري؛ بني كستنائي غني ودافئ. لكن عينيها كانتا زرقاوين، حادتين وثاقبتين.

قال غريغوري بنبرة تشبه نبرة رجل يؤدي واجبًا ثقيلاً:

– "ليدي لوسيندا، اسمحي لي أن أقدم لكِ شقيقتي، الليدي سانت كلير."

قالت بحزم:

– "هياسنث. يجب أن نتخلى عن الرسميات. أنا واثقة أننا سنكون صديقتين مقربتين. والآن، عليكِ أن تخبريني بكل شيء عن نفسك. وبعد ذلك أريد أن أسمع عن حفلة أنتوني وكيت الشهر الماضي. كنت أود الذهاب، لكننا ارتبطنا بموعد سابق. سمعت أنها كانت ممتعة للغاية."

نظرت لوسي، المذهولة من الإعصار البشري الواقف أمامها، إلى غريغوري طلبًا للنصيحة، لكنه اكتفى بهز كتفيه وقال:

– "هذه هي الشقيقة التي أهوى تعذيبها."

التفتت إليه هياسنث:

– "عذرًا؟"

انحنى غريغوري:

– "يجب أن أذهب."

ثم فعلت هياسنث بريدجيرتون سانت كلير أغرب شيء. ضاقت عيناها، ونظرت من شقيقها إلى لوسي ثم عادت إليه مرة أخرى. ثم مرة أخرى. ومرة أخيرة. ثم قالت:

– "ستحتاج إلى مساعدتي."

بدأ غريغوري:

– "هايـ..."

قاطعته:

– "ستحتاج إليها. لديك خطط. لا تحاول الإنكار."

لم تصدق لوسي أن هياسنث استنتجت كل ذلك من مجرد انحناءة وعبارة "يجب أن أذهب". فتحت فمها لتسأل، لكن كل ما خرج منها كان: "كيف..." قبل أن يقاطعها غريغوري بنظرة تحذيرية.

قالت هياسنث لغريغوري:

– "أعلم أنك تخفي شيئًا ما، وإلا لما بذلت كل هذا الجهد لضمان حضورها هذا المساء."

حاولت لوسي القول:

– "كان يحاول فقط أن يكون لطيفًا."

قالت هياسنث وهي تربت على ذراعها بطمأنينة:

– "لا تكوني ساذجة، هو لا يفعل ذلك أبدًا."

احتجت لوسي:

– "هذا ليس صحيحًا."

قد يكون غريغوري شيطانًا صغيرًا، لكن قلبه طيب وصادق، ولن تسمح لأحد – حتى شقيقته – بقول عكس ذلك.

نظرت إليها هياسنث بابتسامة مسرورة، وقالت ببطء وكأنها تتخذ قرارًا في التو واللحظة:

– "أنتِ تعجبينني. أنتِ مخطئة بالطبع، لكنك تعجبينني على أي حال."

ثم التفتت إلى أخيها:

– "إنها تعجبني."

– "نعم، لقد قلتِ ذلك."

– "وأنت بحاجة إلى مساعدتي."

راقبت لوسي الشقيقين وهما يتبادلان نظرة عجزت عن فهم مغزاها.

قالت هياسنث بصوت خافت:

– "ستحتاج إلى مساعدتي. الليلة، ولاحقًا أيضًا."

حدق غريغوري في شقيقته بتركيز، ثم قال بصوت هادئ لدرجة اضطرت لوسي للميل نحوه لتسمعه:

– "أحتاج للتحدث مع الليدي لوسيندا. على انفراد."

ابتسمت هياسنث ابتسامة خفيفة:

– "يمكنني تدبير ذلك."

ساور لوسي شعور بأن هذه المرأة قادرة على فعل أي شيء.

سألت هياسنث:

– "متى؟"

أجاب غريغوري:

– "في أي وقت أسهل."

جالت هياسنث ببصرها في أنحاء الغرفة، رغم أن لوسي لم تستطع تخيل نوع المعلومات التي كانت تجمعها والتي قد تكون ذات صلة بالقرار.

أعلنت بدقة جنرال عسكري:

– "ساعة واحدة. غريغوري، اذهب وافعل ما تفعله عادة في هذه المناسبات. ارقص. اجلب عصير الليمون. دع الناس يروك مع فتاة ويتفورد تلك التي يسعى والداها خلفك منذ أشهر."

ثم التفتت إلى لوسي بلمعة سلطوية في عينيها:

– "أما أنتِ، فستبقين معي. سأعرفكِ على كل من تحتاجين لمعرفته."

سألت لوسي:

– "ومن أحتاج لمعرفته؟"

- "لست متأكدة بعد. الأمر لا يهم حقًا."

لم تملك لوسي إلا التحديق فيها بذهول.

قالت هياسنث:

- "بعد خمس وخمسين دقيقة بالضبط، ستمزق الليدي لوسيندا فستانها."

- "سأفعل؟"

أجابت هياسنث:

- "أجل، ستمزقينه. أنا بارعة في هذا النوع من الأمور."

سأل غريغوري بشك:

- "ستقومين بتمزيق فستانها؟ هنا في قاعة الرقص؟"

لوحت هياسنث بيدها بلامبالاة:

- "لا تقلق بشأن التفاصيل. فقط اذهب وقم بدورك، وقابلها في غرفة ملابس دافني بعد ساعة واحدة."

همست لوسي بصوت مخنوق:

- "في غرفة نوم الدوقة؟"

قالت هياسنث:

- "إنها دافني بالنسبة لنا. والآن، انصرفوا جميعًا."

حدقت لوسي فيها ورمشت بعينيها. ألم يكن المفترض أن تبقى بجانب هياسنث؟

قالت هياسنث:

- "أقصد هذا الشخص."

عندها قام غريغوري بأكثر التصرفات إدهاشاً. أمسك بيد لوسي، هناك في وسط قاعة الرقص حيث يمكن لأي شخص أن يراهما، وقبّل يدها. قال لها وهو يتراجع خطوة للخلف مع إيماءة مهذبة:

- "أتركك في أيدٍ أمينة."

ثم رمق شقيقته بنظرة تحذير قبل أن يضيف:

– "مهما كان تصديق ذلك صعبًا."

ثم انصرف، ليدلل على الأرجح بعض الفتيات المسكينات اللواتي لا يعلمن أنهن مجرد بيادق بريئة في خطة شقيقته الرئيسية.

نظرت لوسي إلى هياسنث، وقد أنهكها هذا اللقاء بأكمله. كانت هياسنث تبتسم لها بإشراق.

قالت:

– "أحسنتِ صنعًا."

رغم أن لوسي شعرت أنها كانت تهنئ نفسها. تابعت هياسنث:

– "والآن، لماذا يحتاج أخي للتحدث معكِ؟ ولا تقولي إنه ليس لديكِ أي فكرة، لأنني لن أصدقك."

قلّبت لوسي الردود الممكنة في ذهنها وقررت أخيرًا أن تقول: "ليس لدي أي فكرة". لم تكن الحقيقة تمامًا، لكنها لم تكن لتبوح بأسرار آمالها وأحلامها لامرأة التقتها قبل دقائق فقط، بغض النظر عن كونها شقيقة من تكون.

جعلها ذلك تشعر وكأنها كسبت نقطة.

بدت هياسنث مرتابة:

– "حقًا؟"

– "حقًا."

من الواضح أن هياسنث لم تقتنع.

– "حسنًا، أنتِ ذكية على الأقل. سأعطيكِ هذه النقطة."

قررت لوسي ألا تخضع. قالت:

– "هل تعلمين، كنت أظن أنني أكثر الأشخاص تنظيمًا وسيطرة ممن أعرفهم، لكنني أعتقد أنكِ أسوأ مني."

ضحكت هياسنث:

– "أوه، أنا لست منظمة على الإطلاق. لكنني مسيطرة. وسنتفاهم بشكل رائع."

ثم شبكت ذراعها بذراع لوسي:

- "مثل الأخوات."

بعد ساعة واحدة، أدركت لوسي ثلاثة أشياء عن هياسنث، الليدي سانت كلير.

أولاً: أنها تعرف الجميع، وتعرف كل شيء عن الجميع.

ثانيًا: أنها كنز من المعلومات عن شقيقها. لم تضطر لوسي لطرح سؤال واحد، ولكن بحلول وقت مغادرتهما قاعة الرقص، كانت تعرف لون غريغوري المفضل (الأزرق) وطعامه المفضل (الجبن بجميع أنواعه)، وأنه كان يلثغ في صغره.

تعلمت لوسي أيضًا أنه لا ينبغي للمرء أبدًا أن يرتكب خطأ الاستهانة بشقيقة غريغوري الصغرى. لم تكتفِ هياسنث بتمزيق فستان لوسي، بل نفذت ذلك ببراعة ودهاء كافيين ليدرك أربعة أشخاص وقوع الحادث (والحاجة للإصلاح). وقد أحدثت كل الضرر في الحاشية، وذلك للحفاظ على حشمة لوسي بشكل ملائم.

كان الأمر مثيرًا للإعجاب حقًا.

أسرّت لها هياسنث وهي تقودها خارج قاعة الرقص:

- "لقد فعلت هذا من قبل."

لم تتفاجأ لوسي.

أضافت هياسنث بجدية تامة:

- "إنها موهبة مفيدة. من هنا، هذا الطريق."

تبعتها لوسي صاعدة سلمًا خلفيًا.

تابعت هياسنث، مظهّرة موهبة لافتة في التمسك بموضوع حديثها كالغراء:

- "هناك عدد قليل جدًا من الأعذار المتاحة للنساء اللواتي يرغبن في مغادرة مناسبة اجتماعية. وعلينا أن نتقن استخدام كل سلاح في ترسانتنا."

بدأت لوسي تقتنع بأنها عاشت حياة محمية للغاية.

فتحت هياسنث بابًا ونظرت إلى الداخل:

– "آه، ها نحن ذا. إنه لم يصل بعد. جيد. هذا يمنحني الوقت."

– "لأي شيء؟"

– "لإصلاح فستانك. أعترف أنني نسيت هذا التفصيل عندما صغت خطتي. لكنني أعرف أين تحتفظ دافني بالإبر."

راقبت لوسي هياسنث وهي تتجه بخطوات واسعة نحو طاولة الزينة وتفتح درجًا.

قالت بابتسامة انتصار:

– "في المكان الذي ظننته تمامًا. أحب عندما أكون محقة. هذا يجعل الحياة أكثر سهولة، ألا توافقينني الرأي؟"

أومأت لوسي برأسها، لكن عقلها كان مشغولاً بسؤالها الخاص. ثم طرحته:

– "لماذا تساعدينني؟"

نظرت إليها هياسنث وكأنها معتوهة:

– "لا يمكنكِ العودة إلى الداخل بفستان ممزق. ليس بعد أن أخبرنا الجميع أننا ذهبنا لإصلاحه."

– "لا، لا أقصد ذلك."

– "أوه."

رفعت هياسنث إبرة وتأملتها بتفكير:

– "هذه ستفي بالغرض. أي لون خيط تعتقدين؟"

– "أبيض، وأنتِ لم تجيبي على سؤالي."

قطعت هياسنث خيطًا من بكرة ومررته عبر ثقب الإبرة:

– "أنتِ تعجبينني. وأنا أحب أخي."

قالت لوسي بصوت خافت:

– "تعلمين أنني مخطوبة."

جلست هياسنث عند قدمي لوسي، وبدأت تخيط الحاشية بغرز سريعة وغير متقنة:

– "أعلم."

– "بعد أسبوع. أقل من أسبوع."

– "أعلم. لقد دُعيت."

– "أوه."

افترضت لوسي أنه كان عليها معرفة ذلك.

– "إم... هل تخططين للحضور؟"

رفعت هياسنث بصرها:

– "هل ستفعلين أنتِ؟"

انفرجت شفتا لوسي. حتى تلك اللحظة، كانت فكرة عدم الزواج من هاسيلبي شيئًا خياليًا باهتًا، مجرد شعور من نوع "يا ليتني لم أكن مضطرة للزواج منه". ولكن الآن، مع نظرات هياسنث الفاحصة، بدأ الأمر يبدو أكثر واقعية. لا يزال مستحيلاً بالطبع، أو على الأقل...

حسنًا، ربما...

ربما ليس مستحيلاً تمامًا. ربما مستحيل في أغلبه فقط.

قالت لوسي وهي تتساءل من تحاول إقناعه بالضبط:

– "لقد وُقعت الأوراق."

عادت هياسنث إلى خياطتها:

– "هل وُقعت حقًا؟"

– "عمي هو من اختاره. تم الترتيب للأمر منذ زمن طويل."

– "مممم."

"مممم"؟ ماذا يعني ذلك بحق السماء؟

حاولت لوسي البحث عن الكلمات وهي تشعر بالخجل من أنها تفرغ أثقالها لشخص شبه غريب، لشقيقة غريغوري نفسها، يا للسماء. لكن هياسنث لم تكن تقول شيئًا؛ كانت تجلس هناك وعيناها مركزتان على الإبرة التي تدخل وتخرج من حاشية فستانها. وإذا لم تتحدث هياسنث، كان على لوسي أن تفعل. لأن... لأن...

حسنًا، لأنها فعلت.

قالت لوسي وصوتها يكاد يرتجف:

- "وهو لم... أخوكِ لم... لم يقطع لي أي وعود. لم يوضح أي نوايا."

عند ذلك، رفعت هياسنث رأسها. جالت ببصرها في الغرفة، وكأنها تقول: "انظري إلينا، نصلح ثوبك في غرفة نوم دوقة هاستينغز". ثم همست:

- "ألم يفعل؟"

أغمضت لوسي عينيها بألم. هي لم تكن مثل هياسنث سانت كلير. لم يكن المرء يحتاج سوى لربع ساعة في رفقتها ليعلم أنها ستجرؤ على فعل أي شيء، وتغتنم أي فرصة لتأمين سعادتها الخاصة. ستتحدى التقاليد، وتقف في وجه أقسى النقاد، وتخرج سليمة تمامًا، جسدًا وروحًا.

لم تكن لوسي بهذه الصلابة. لم تكن تحكمها العواطف. كان مرشدها دائمًا هو المنطق السليم. والعملية.

ألم تكن هي من أخبرت هيرميون أنها بحاجة للزواج من رجل يوافق عليه والداها؟

ألم تخبر غريغوري أنها لا تريد حبًا عنيفًا وجارفًا؟ وأنها ليست من ذلك النوع؟

هي ليست ذلك النوع من الأشخاص. لم تكن كذلك. عندما كانت مربيتها ترسم لها خطوطًا لتلوينها، كانت دائمًا تلون داخل الخطوط.

همست:

- "لا أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك."

أطالت هياسنث النظر إليها للحظة مؤلمة قبل أن تعود إلى خياطتها. قالت بهدوء:

- "لقد أخطأتُ في الحكم عليكِ."

كانت الكلمات بمثابة صفعة على وجه لوسي.

- "ما... ما..."

ماذا قلتِ؟

لكن شفتي لوسي لم تطاوعاها لتشكيل الكلمات. لم ترغب في سماع الإجابة. وعادت هياسنث إلى طبيعتها الصارمة، ورفعت رأسها بنظرة منزعجة وقالت:

– "لا تتحركي كثيرًا."

تمتمت لوسي:

– "آسفة."

وفكرت: لقد قلتها مرة أخرى. أنا متوقعة جدًا، وتقليدية للغاية، وبلا خيال.

– "ما زلتِ تتحركين."

– "أوه."

يا إلهي، ألا تستطيع فعل أي شيء بشكل صحيح هذا المساء؟

– "آسفة."

وخزتها هياسنث بالإبرة:

– "ما زلتِ تتحركين."

كادت لوسي تصرخ:

– "أنا لا أتحرك!"

ابتسمت هياسنث لنفسها:

– "هذا أفضل."

نظرت لوسي إلى الأسفل وعبست:

– "هل أنزف؟"

نهضت هياسنث واقفة وقالت:

– "إذا كنتِ كذلك، فهذا ليس خطأ أحد سواكِ."

– "عذرًا؟"

لكن هياسنث كانت قد وقفت بالفعل، وارتسمت على وجهها ابتسامة رضا.

أعلنت وهي تشير إلى عملها اليدوي:

– "ها قد انتهينا. بالتأكيد ليست جيدة كالجديدة، لكنها ستجتاز أي فحص هذا المساء."

ركعت لوسي لتفحص حاشية فستانها. كانت هياسنث سخية في مدح نفسها. كانت الخياطة فوضوية.

قالت هياسنث بلامبالاة وهزت كتفيها:

– "لم أكن يومًا موهوبة في استخدام الإبرة."

نهضت لوسي وهي تقاوم الرغبة في تمزيق الغرز وإصلاحها بنفسها. تمتمت:

– "كان بإمكانك إخباري."

تقوست شفتا هياسنث في ابتسامة بطيئة وماكرة:

– "يا إلهي، لقد أصبحتِ حادة الطباع فجأة."

صدمت لوسي نفسها عندما قالت:

– "لقد كنتِ جارحة."

أجابت هياسنث وكأنها لا تكترث كثيرًا:

– "ربما."

نظرت نحو الباب بتعبير متسائل:

– "كان ينبغي أن يكون هنا الآن."

خفق قلب لوسي بشكل غريب في صدرها. همست:

– "ما زلتِ تخططين لمساعدتي؟"

التفتت هياسنث إليها، والتقت عيناها بعيني لوسي في تقييم بارد:

– "أنا آمل أن تكوني قد أخطأتِ في الحكم على نفسك."



تأخر غريغوري عشر دقائق عن الموعد. لم يكن بيده حيلة؛ فبمجرد رقصه مع شابة، كان لزامًا عليه تكرار المجاملة لنصف دزينة أخريات. ورغم صعوبة التركيز في المحادثات التي كان من المفترض أن يجريها، لم يمانع التأخير. كان ذلك يعني أن لوسي وهياسنث قد ابتعدتا تمامًا قبل أن ينسل

خارجًا من الباب. كان ينوي إيجاد طريقة لجعل لوسي زوجته، لكن لا داعي للبحث عن فضيحة.

شق طريقه إلى غرفة نوم شقيقته؛ لقد قضى ساعات لا تحصى في منزل هاستينغز وكان يعرف طريقه جيدًا. عند وصوله إلى وجهته، دخل دون أن يطرق الباب، فانفتح الباب ذو المفصلات المزيّتة جيدًا دون أي صوت.

– "غريغوري."

جاء صوت هياسنث أولاً. كانت تقف بجانب لوسي، التي بدت...

منكوبة.

ماذا فعلت هياسنث بها؟

اندفع غريغوري نحوها:

– "لوسي؟ هل هناك خطب ما؟"

هزت لوسي رأسها:

– "لا شيء مهم."

التفت إلى شقيقته بعينين متهمتين.

هزت هياسنث كتفيها:

– "سأكون في الغرفة المجاورة."

– "تسترقين السمع عند الباب؟"

– "سأنتظر عند مكتب دافني. إنه في منتصف الغرفة، وقبل أن تعترض، لا يمكنني الذهاب أبعد من ذلك. إذا جاء أحد ستحتاج إلي لأقتحم المكان وأجعل كل شيء يبدو لائقًا."

كانت وجهة نظرها وجيهة، رغم كره غريغوري للاعتراف بذلك، فأومأ لها بحدة وراقبها تغادر الغرفة، منتظرًا صوت قفل الباب قبل أن يتحدث.

سأل لوسي:

– "هل قالت شيئًا قاسيًا؟ يمكن أن تكون فاقدة للباقة بشكل مخزٍ، لكن قلبها عادة في المكان الصحيح."

هزت لوسي رأسها وقالت بهدوء:

– "لا. أعتقد أنها ربما قالت الشيء الصحيح تمامًا."

حدق فيها متسائلاً:

– "لوسي؟"

بدت عيناها اللتان كانتا غائمتين وكأنهما تركزان الآن. سألت:

– "ما الذي كنت تريد إخباري به؟"

– "لوسي."

قال اسمها وهو يتساءل عن أفضل طريقة لطرح الموضوع. كان يتدرب على الخطب في ذهنه طوال الوقت الذي كان يرقص فيه في الطابق السفلي، ولكن الآن بعد أن أصبح هنا، لم يعرف ماذا يقول.

أو بالأحرى، كان يعرف. لكنه لم يعرف الترتيب، ولا النبرة. هل يخبرها أنه يحبها؟ يكشف قلبه لامرأة تنوي الزواج من آخر؟ أم يختار الطريق الأكثر أمانًا ويشرح لها لماذا لا تستطيع الزواج من هاسيلبي؟

قبل شهر، كان الخيار سيكون واضحًا. كان رومانسيًا، مولعًا باللفتات الكبرى. كان ليعلن حبه، واثقًا من الاستقبال السعيد. كان ليأخذ يدها. ويجثو على ركبتيه.

كان ليقبلها.

لكن الآن...

لم يعد واثقًا تمامًا. كان يثق بلوسي، لكنه لم يثق بالقدر.

قال:

– "لا يمكنكِ الزواج من هاسيلبي."

اتسعت عيناها:

– "ماذا تعني؟"

تجتب الإجابة المباشرة:

– "لا يمكنكِ الزواج منه. سيكون ذلك كارثة. سيكون... يجب أن تثقي بي. لا يجب أن تتزوجيه."

هزت رأسها:

– "لماذا تخبرني بهذا؟"

لأنني أريدك لنفسي.

– "لأن... لأن..."

بحث عن الكلمات:

– "لأنكِ أصبحتِ صديقتي. وأتمنى لكِ السعادة. لن يكون زوجًا جيدًا لكِ يا لوسي."

جاء صوتها منخفضًا، أجوف، ومفطرًا للقلب، على غير عادتها:

– "لماذا لا؟"

– "إنه..."

يا إلهي، كيف يقولها؟ هل ستفهم حتى ما يعنيه؟

– "إنه لا... بعض الناس..."

نظر إليها. كانت شفتها السفلى ترتجف.

ابتلع ريقه، وأخرج الكلمات بأسرع ما يمكن:

– "إنه يفضل الرجال. على النساء. بعض الرجال هكذا."

وانتظر. للحظة طويلة لم تبدِ أي رد فعل، وقفت هناك كتمثال تراجيدي. بين الحين والآخر كانت ترمش، لكن عدا ذلك، لا شيء. وأخيرًا...

– "لماذا؟"

لماذا؟ لم يفهم.

– "لماذا هو..."

قاطعت بقوة:

– "لا. لماذا أخبرتني؟ لماذا تقول ذلك؟"

– "أخبرتك لأ..."

– "لا، لم تفعل ذلك لتكون لطيفًا. لماذا أخبرتني؟ هل كان ذلك لمجرد القسوة؟ لتجعلني أشعر بما تشعر به، لأن هيرميون تزوجت أخي وليس أنت؟"

انفجرت الكلمة منه، وأمسك بها، محاوطًا ذراعيها بيده:

– "لا! لا يا لوسي. لن أفعل ذلك أبدًا. أريدك أن تكوني سعيدة. أريد..."

أريدها. كان يريدها، ولم يعرف كيف يقول ذلك. ليس الآن، وهي تنظر إليه وكأنه كسر قلبها.

همست:

– "كنت سأكون سعيدة معه."

– "لا. لا، لم تكوني لتكوني كذلك. أنتِ لا تفهمين، إنه..."

صرخت:

– "بلى، كنت سأكون! ربما لم أكن لأحبه، لكنني كنت سأكون سعيدة. كان هذا ما توقعته. هل تفهم؟ كان هذا ما استعددت له. وأنت... أنت..."

انتزعت نفسها منه، واستدارت حتى لا يعود بإمكانه رؤية وجهها:

– "لقد أفسدت الأمر."

– "كيف؟"

رفعت عينيها إليه، وكانت النظرة فيهما صارخة وعميقة لدرجة أنه لم يستطع التنفس. قالت:

– "لأنك جعلتني أريدك أنت بدلاً منه."

خفق قلبه بعنف في صدره. قال لأنه لم يستطع قول أي شيء آخر:

– "لوسي... لوسي."

اعترفت:

– "لا أعرف ماذا أفعل."

أمسك وجهها بين يديه:

– "قبليني. فقط قبليني."

هذه المرة، عندما قبلها، كان الأمر مختلفاً. كانت المرأة نفسها بين ذراعيه، لكنه لم يكن الرجل نفسه. كانت حاجته إليها أعمق وأكثر جوهرية.

كان يحبها.

قبلها بكل ما أوتي من قوة، بكل نَفَس، بكل نبضة أخيرة من قلبه. وجدت شفتاه خدها، وجبينها، وأذنيها، وطوال الوقت، كان يهمس باسمها كصلاة... لوسي لوسي لوسي.

أرادها. احتاج إليها.

كانت كالهواء.

كالطعام.

كالماء.

انتقل فمه إلى عنقها، ثم نزولاً إلى الحافة الدانتيل لصدر ثوبها. كانت بشرتها تحترق سخونة تحته، وبينما كانت أصابعه تزيح الثوب عن أحد كتفيها، شهقت...

لكنها لم توقفه.

همست وأصابعها تغوص في شعره بينما تتحرك شفتاه على عظمة الترقوة:

– "غريغوري... غريغوري، يا إلـ... غريغوري."

تحركت يده بتبجيل فوق منحنى كتفها. كانت بشرتها تتوهج بياضًا ونعومة في ضوء الشموع، وصدمه شعور قوي بالتملك. وبالفخر.

لم يرها أي رجل آخر هكذا، ودعا الله ألا يراها أي رجل آخر أبدًا.

همس بإلحاح وكلماته تلفح بشرتها:

– "لا يمكنكِ الزواج منه يا لوسي."

تأوهت:

– "غريغوري، لا تفعل."

– "لا يمكنكِ."

ولأنه كان يعلم أنه لا يستطيع السماح لهذا بالتمادي أكثر، اعتدل، وطبع قبلة أخيرة على شفتيها قبل أن يبتعد قليلاً، مجبرًا إياها على النظر في عينيه.

كرر:

– "لا يمكنكِ الزواج منه."

– "غريغوري، ما الذي يمكنني..."

أمسك ذراعيها بقوة. وقالها أخيرًا.

– "أنا أحبك."

انفرجت شفتاها. لم تستطع الكلام.

قال مرة أخرى:

– "أنا أحبك."

كانت لوسي قد شكت – وأملت – لكنها لم تسمح لنفسها حقًا بالتصديق. لذا، عندما وجدت الكلمات أخيرًا، قالت:

– "أتحبني؟"

ابتسم، ثم ضحك، ثم أسند جبهته على جبهتها. تعهد قائلاً:

– "بكل قلبي. لقد أدركت ذلك للتو. أنا أحمق. رجل أعمى. أنا..."

قاطعته وهي تهز رأسها:

– "لا. لا توبخ نفسك. لا أحد يلاحظني فورًا بوجود هيرميون."

شدت أصابعه عليها بقوة أكبر:

– "إنها لا تساوي شيئًا مقارنة بكِ."

بدأ شعور دافئ يسري في عظامها. ليست رغبة، ولا عاطفة، بل سعادة خالصة ونقية. همست:

– "أنت تعني ذلك حقًا."

– "بما يكفي لزعزعة السماء والأرض للتأكد من أنكِ لن تذهبي في زفافك إلى هاسيلبي."

شحب وجهها.

– "لوسي؟"

لا. يمكنها فعل ذلك. ستفعل ذلك. كان الأمر مضحكًا تقريبًا. لقد أمضت ثلاث سنوات تخبر هيرميون أن عليها أن تكون عملية، وتتبع القواعد. وسخرت عندما كانت هيرميون تتحدث عن الحب والعاطفة وسماع الموسيقى. والآن...

أخذت نفسًا عميقًا لتقوية عزيمتها. والآن ستفسخ خطوبتها.

التي رُتبت منذ سنوات.

مع ابن إيرل.

قبل خمسة أيام من الزفاف.

يا إلهي، الفضيحة.

تراجعت خطوة للوراء، ورفعت ذقنها لتتمكن من رؤية وجه غريغوري. كانت عيناه تراقبانها بكل الحب الذي كانت تشعر به هي نفسها.

همست، لأنها لم تقلها بعد:

– "أنا أحبك. أنا أحبك أيضًا."

للمرة الأولى، ستتوقف عن التفكير في الجميع. لن تأخذ ما يُعطى لها وتحاول التأقلم معه. ستسعى نحو سعادتها الخاصة، وتصنع قدرها بيدها.

لن تفعل ما هو متوقع.

ستفعل ما تريده.

لقد حان الوقت.

ضغطت على يدي غريغوري. وابتسمت. لم تكن ابتسامة مترددة، بل واسعة وواثقة، مليئة بآمالها، مليئة بأحلامها – وبالمعرفة بأنها ستحققها جميعًا.

سيكون الأمر صعبًا. سيكون مخيفًا.

لكنه سيستحق العناء.

قالت بكلمات حازمة وواثقة:

– "سأتحدث مع عمي. غدًا."

جذبها غريغوري نحوه في قبلة أخيرة، سريعة ومفعمة بالوعود. سأل:

– "هل أرافقك؟ أزوره لأطمئنه بشأن نواياي؟"

سألت لوسي الجديدة، الجريئة والمقدامة:

– "وما هي نواياك؟"

اتسعت عينا غريغوري دهشةً، تلتها نظرة استحسان، ثم احتوت يداه كفيها.

استشعرت حركته بلمستها قبل أن تدركها ببصرها؛ انزلقت كفاه برفق على امتداد ذراعيها وهو يهبط ببطء... حتى استقر جاثيًا على ركبة واحدة، يرفع بصره إليها وكأن لا وجود لامرأة تفوقها حسنًا في هذا الوجود.

ارتفعت يدها بتلقائية لتغطي فمها، وأدركت حينها أن جسدها يرتجف.

قال بصوت مفعم بالعاطفة والثقة:

– "ليدي لوسيندا أبيرناثي، هل تمنحينني الشرف العظيم بأن تصبحي زوجتي؟"

حاولت أن تنطق، وحاولت أن تومئ، لكن الكلمات والحركة خانتاها.

قال مُلحًا:

– "تزوجيني يا لوسي. كوني لي."

وهذه المرة، استطاعت.

همست:

– "نعم."

ثم هتفت بحرارة:

– "نعم! أوه، نعم!"

وقف ليضمها إليه، وقال:

– "سأجعلكِ أسعد النساء، أعدكِ بذلك."

هزت رأسها وهي تغالب دموعها:

– "لا حاجة للوعود. فمن المستحيل ألا أكون سعيدة معك."

فتح فمه، ربما ليضيف شيئًا آخر، لكن طرقًا خافتًا وسريعًا على الباب قاطعه.

إنها هياسنث.

قال غريغوري بسرعة:

– "اذهبي. دعي هياسنث تعيدكِ إلى قاعة الرقص. سألحق بكما لاحقًا."

أومأت لوسي، وراحت تعدّل ثوبها حتى عاد كل شيء إلى موضعه الصحيح. ثم همست وعيناها تتعلقان بعينيه بقلق:

– "شعري..."

طمأنها قائلاً:

– "إنه رائع. تبدين مثالية."

أسرعت نحو الباب وهي تسأل:

– "هل أنت متأكد؟"

حرك شفتيه دون صوت بكلمة أحبك، ونطقت عيناه بالمعنى ذاته.

فتحت لوسي الباب، فاندفعت هياسنث إلى الداخل قائلة بتذمر:

– "يا للسماء، كم أنتما بطيئان! علينا العودة فورًا."

اتجهت بخطوات واسعة نحو الباب المؤدي للممر، ثم توقفت فجأة، ونقلت بصرها بين لوسي وشقيقها. استقرت نظراتها أخيرًا على لوسي، ورفعت حاجبًا واحدًا في تساؤل صامت.

استجمعت لوسي قامتها بوقفة واثقة، وقالت بهدوء:

– "لم تُخطئي الحكم عليّ."

اتسعت عينا هياسنث، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة:

– "جيد."

وأدركت لوسي أنه كان كذلك حقًا. كان جيدًا جدًا، وبلا شك.





الفصل الثامن عشر

حيث تكتشف بطلتنا اكتشافًا مريعًا.



تستطيع فعل ذلك.

يمكنها ذلك.

تحتاج فقط إلى طرق الباب.

ومع ذلك، وقفت هناك، خارج باب مكتب عمها، أصابعها مكورة في قبضة، وكأنها مستعدة للطرق.

ولكن ليس تمامًا.

كم من الوقت وقفت هكذا؟ خمس دقائق؟ عشرة؟ في كلتا الحالتين، كان الوقت كافيًا لوصمها بالحمقاء السخيفة. والجبانة.

كيف حدث هذا؟ ولماذا؟ في المدرسة، كانت معروفة بأنها قادرة وعملية. كانت الفتاة التي تعرف كيف تنجز الأمور. لم تكن خجولة. ولم تكن خائفة.

لكن عندما يتعلق الأمر بالعم روبرت...

تنهدت. لطالما كانت هكذا مع عمها. كان صارمًا جدًا، وصموتًا جدًا. مختلفًا تمامًا عما كان عليه والدها الضاحك.

شعرت وكأنها فراشة عندما غادرت للمدرسة، لكن كلما عادت، بدا وكأنها حُشرت مرة أخرى في شرنقتها الصغيرة الضيقة. أصبحت باهتة، وهادئة.

ووحيدة.

ولكن ليس هذه المرة. أخذت نفسًا، وشدّت كتفيها. هذه المرة ستقول ما تحتاج لقوله. ستجعل صوتها مسموعًا.

رفعت يدها. وطرقت.

وانتظرت.

– "تفضلي."

– "عمي روبرت،" قالت وهي تدخل مكتبه. بدا المكان مظلمًا، حتى مع ضوء شمس الأصيل المتسلل عبر النافذة.

قال وهو يلقي نظرة خاطفة عليها قبل أن يعود لأوراقه:

– "لوسيندا. ما الأمر؟"

– "أحتاج للتحدث معك."

دوّن ملاحظة، وعبس لعمله، ثم جفف حبره.

– "تحدثي."

تنحنحت لوسي. سيكون الأمر أسهل بكثير لو نظر إليها فقط. كرهت التحدث إلى قمة رأسه، كرهت ذلك.

قالت مرة أخرى:

– "عمي روبرت."

نخر بردٍ ما لكنه استمر في الكتابة.

– "عمي روبرت."

رأت حركاته تتباطأ، ثم أخيرًا، رفع نظره. سأل بانزعاج واضح:

– "ما الأمر يا لوسيندا؟"

– "نحتاج لإجراء محادثة بخصوص اللورد هاسيلبي." ها قد قالتها.

سأل ببطء:

– "هل هناك مشكلة؟"

سمعت نفسها تقول:

– "لا."

رغم أن ذلك لم يكن الحقيقة على الإطلاق. لكنه ما تقوله دائمًا إذا سأل أحدهم عما إذا كانت هناك مشكلة. كان أحد تلك الأشياء التي تخرج تلقائيًا، مثل "اعذرني"، أو "أستميحك عذرًا".

كان ما دُربت على قوله.

هل هناك مشكلة؟

لا، بالطبع لا. لا، لا تهتم برغباتي. لا، أرجوك لا تقلق نفسك بسببي.

– "لوسيندا؟" كان صوت عمها حادًا، ومزعجًا تقريبًا.

قالت مرة أخرى، بصوت أعلى هذه المرة، وكأن ارتفاع الصوت سيمنحها الشجاعة:

– "لا. أعني نعم، هناك مشكلة. وأحتاج للتحدث معك بشأنها."

منحها عمها نظرة ضجرة.

بدأت قائلة، وهي تشعر وكأنها تمشي على رؤوس أصابعها في حقل من القنافذ:

– "عمي روبرت.. هل كنت تعلم..." عضت شفتها، ناظرة في كل مكان إلا وجهه. "أقصد القول، هل كنت على دراية..."

انفجر فيها:

– "قوليها!"

قالت لوسي بسرعة، يائسة لإنهاء الأمر فحسب:

– "اللورد هاسيلبي. إنه لا يحب النساء."

للحظة، لم يفعل العم روبرت شيئًا سوى التحديق. ثم...

ضحك.

لقد ضحك.

– "عمي روبرت؟" بدأ قلب لوسي يخفق بسرعة مفرطة. "هل كنت تعرف هذا؟"

أجاب بحدة:

– "بالطبع كنت أعرف. لماذا تظنين أن والده حريص جدًا على الحصول عليكِ؟ هو يعلم أنكِ لن تتحدثي."

لماذا لن تتحدث؟

قال العم روبرت بقسوة، قاطعًا أفكارها:

– "يجب أن تشكريني. نصف رجال المجتمع وحوش. أنا أزوجك للوحيد الذي لن يزعجك."

– "لكن—"

– "هل لديكِ أدنى فكرة عن عدد النساء اللواتي يوددن أخذ مكانك؟"

– "ليس هذا هو المغزى يا عمي روبرت."

تحولت عيناه إلى جليد.

– "عفوًا؟"

وقفت لوسي ساكنة تمامًا، مدركة فجأة أن هذه هي اللحظة الحاسمة. هذه هي لحظتها. لم تعارضه من قبل قط، وربما لن تفعل مرة أخرى أبدًا.

ابتلعت ريقها. ثم قالتها:

– "لا أرغب في الزواج من اللورد هاسيلبي."

صمت. لكن عينيه...

كانت عيناه تنذران بعاصفة.

واجهت لوسي نظراته بانفصال بارد. شعرت بقوة جديدة غريبة تنمو بداخلها. لن تتراجع. ليس الآن، ليس وبقية حياتها على المحك.

زم عمها شفتيه ولوّاهما، بينما بدا باقي وجهه وكأنه منحوت من صخر. أخيرًا، وحين تيقنت لوسي أن الصمت سيكسرها، سأل بصوت مقتضب:

– "هل لي أن أسأل لماذا؟"

قالت لوسي، متمسكة بأول عذر خطر ببالها:

– "أنا—أنا أريد أطفالًا."

قال:

– "أوه، ستحصلين عليهم."

ثم ابتسم، وتجمد الدم في عروقها.

همست:

– "عمي روبرت؟"

هز كتفيه:

– "قد لا يحب النساء، لكنه سيكون قادرًا على القيام بالمهمة بما يكفي ليمنحكِ طفلًا شقيًا. وإذا لم يستطع..."

– "ماذا؟" شعرت لوسي بالذعر يتصاعد في صدرها. "ماذا تعني؟"

– "دافنبورت سيتولى الأمر."

شهقت لوسي:

– "والده؟"

– "في كلتا الحالتين، سيكون وريثًا ذكرًا مباشرًا، وهذا كل ما يهم."

طارت يد لوسي إلى فمها.

– "أوه، لا أستطيع. لا أستطيع."

فكرت في اللورد دافنبورت، بأنفاسه الكريهة ووجنتيه المترهلتين. وعينيه القاسيتين، القاسيتين للغاية. لن يكون لطيفًا. لم تكن تعرف كيف عرفت، لكنه لن يكون لطيفًا.

مال عمها للأمام في مقعده، وعيناه تضيقان بتهديد:

– "لدينا جميعًا مكانتنا في الحياة يا لوسيندا، ومكانتك هي أن تكوني زوجة نبيل. واجبك هو توفير وريث. وستفعلين ذلك، بأي طريقة يراها دافنبورت ضرورية."

ابتلعت لوسي ريقها. لطالما فعلت ما يُطلب منها. لطالما قبلت أن العالم يعمل بطرق معينة. الأحلام يمكن تعديلها؛ النظام الاجتماعي لا.

خُذ ما يُعطى لك، واجعل الأمور تمضي بأفضل حال.

كان هذا ما قالته دائمًا. وكان ما فعلته دائمًا.

لكن ليس هذه المرة.

نظرت للأعلى، مباشرة في عيني عمها.

– "لن أفعل ذلك." قالتها، ولم يهتز صوتها. "لن أتزوجه."

– "مـ...اذا...قلـ...تِ؟" خرجت كل كلمة كأنها جملة صغيرة مستقلة، حادة وباردة.

ابتلعت لوسي.

– "قلت—"

زأر وهو يضرب بيديه على مكتبه وينهض واقفًا:

– "أعرف ما قلتِه! كيف تجرؤين على مجادلتي؟ لقد ربيتك، وأطعمتك، وأعطيتك كل شيء لعين تحتاجينه. لقد راعيت وحميت هذه العائلة لعشر سنوات، بينما لا شيء من هذا—لا شيء منه—سيؤول لي."

حاولت القول:

– "عمي روبرت."

لكنها بالكاد سمعت صوتها. كل كلمة قالها كانت صحيحة. هو لا يملك هذا المنزل. ولا يملك الدير أو أيًا من ممتلكات فينسوورث الأخرى. ليس لديه شيء سوى ما قد يختار ريتشارد منحه إياه بمجرد تولي منصبه بالكامل كإيرل.

قال عمها بصوت منخفض جدًا لدرجة الارتجاف:

– "أنا ولي أمركِ. هل تفهمين؟ ستتزوجين هاسيلبي، ولن نتحدث في هذا الأمر مرة أخرى."

حدقت لوسي في عمها برعب. كان ولي أمرها لعشر سنوات، وطوال ذلك الوقت، لم تره يفقد أعصابه قط. كان استياؤه يُقدم باردًا دائمًا.

قال بحدة وهو يزيح بعض الكتب بغضب عن مكتبه:

– "إنه ذلك الأحمق من آل بريدجيرتون، أليس كذلك؟"

سقطت الكتب على الأرض بصوت ارتطام عالٍ. قفزت لوسي للخلف.

– "أخبريني!"

لم تقل شيئًا، تراقب عمها بحذر وهو يتقدم نحوها.

زأر:

– "أخبريني!"

قالت بسرعة وهي تتراجع خطوة أخرى للوراء:

– "نعم. كيف—كيف عرفت؟"

– "هل تظنينني أحمق؟ والدته وشقيقته تطلبان رفقتك في اليوم نفسه؟" شتم بصوت خافت. "من الواضح أنهن كن يتآمرن لسرقتك."

– "لكنك سمحت لي بالذهاب للحفل."

– "لأن شقيقته دوقة، أيتها الحمقاء الصغيرة! حتى دافنبورت وافق على أنه يجب عليك الحضور."

– "لكن—"

أقسم العم روبرت:

– "يا للمسيح."

مما أصاب لوسي بصدمة أسكتتها.

– "لا أصدق غباءك. هل وعدك بالزواج حتى؟ هل أنت مستعدة حقًا للتخلي عن وريث إيرلية من أجل احتمالية مع ابن رابع لفيكونت؟"

همست لوسي:

– "نعم."

لا بد أن عمها رأى التصميم على وجهها، لأنه شحب.

– "ماذا فعلتِ؟" تساءل بحدة. "هل سمحتِ له بلمسك؟"

فكرت لوسي في قبلتهما، واحمرت خجلًا.

هسهس قائلًا:

– "أيتها البقرة الغبية. حسنًا، من حسن حظك أن هاسيلبي لن يعرف كيف يفرق بين العذراء والعاهرة."

– "عمي روبرت!" ارتجفت لوسي رعبًا. لم تكن قد اكتسبت من الجرأة ما يكفي لتسمح له بوقاحة أن يظنها غير طاهرة. "لن أفعل أبدًا—لم أفعل—كيف يمكنك التفكير بي هكذا؟"

انفجر فيها:

– "لأنك تتصرفين كحمقاء لعينة. منذ هذه الدقيقة، لن تغادري هذا المنزل حتى تخرجين لزفافك. إذا اضطررت لوضع حراس على باب غرفة نومك، سأفعل."

صرخت لوسي:

– "لا! كيف يمكنك فعل هذا بي؟ ما الذي يهم؟ نحن لسنا بحاجة لأموالهم. ولسنا بحاجة لعلاقاتهم. لماذا لا يمكنني الزواج عن حب؟"

في البداية لم يبدِ عمها أي رد فعل. وقف كأنه متجمد، والحركة الوحيدة كانت لعرق ينبض في صدغه. ثم، حين ظنت لوسي أنها قد تبدأ بالتنفس مرة أخرى، شتم بعنف واندفع نحوها، مثبتاً إياها ضد الحائط.

شهقت:

– "عمي روبرت!"

كانت يده على ذقنها، تجبر رأسها على اتخاذ وضعية غير طبيعية.

حاولت البلع، لكنه كان شبه مستحيل مع تقوس رقبتها بشدة هكذا. تمكنت من القول، لكنه كان بالكاد أنيناً:

– "لا.. أرجوك... توقف."

لكن قبضته ازدادت إحكامًا، وضغط ساعده على الترقوة، وعظام معصمه تغرز بألم في جلدها.

هسهس:

– "ستتزوجين اللورد هاسيلبي. ستتزوجينه، وسأخبرك بالسبب."

لم تقل لوسي شيئًا، فقط حدقت فيه بعينين مذعورتين.

– "أنتِ، يا عزيزتي لوسيندا، الدفعة الأخيرة لدين قديم مستحق للورد دافنبورت."

همست:

– "ماذا تعني؟"

قال العم روبرت بصوت قاتم:

– "ابتزاز. نحن ندفع لدافنبورت منذ سنوات."

سألت لوسي:

- "لكن لماذا؟"

ما الذي يمكن أن يكونوا قد فعلوه ليستحق الابتزاز؟

التوت شفتا عمها بسخرية:

- "والدك، إيرل فينسوورث الثامن المحبوب، كان خائنًا."

شهقت لوسي، وشعرت وكأن حلقها يضيق، ينعقد في عقدة. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا. ظنت ربما علاقة خارج الزواج. ربما إيرل لم يكن حقًا من آل أبيرناثي. لكن خيانة؟ يا إلهي... لا.

قالت محاولة التفاهم معه:

- "عمي روبرت.. لا بد أن هناك خطأً. سوء فهم. والدي... لم يكن خائنًا."

- "أوه، أؤكد لك أنه كان، ودافنبورت يعرف ذلك."

فكرت لوسي في والدها. كانت لا تزال تراه في مخيلتها—طويلًا، وسيمًا، بعينين زرقاوين ضاحكتين. كان ينفق المال بحرية مفرطة؛ حتى كطفلة صغيرة كانت تعرف ذلك. لكنه لم يكن خائنًا. لا يمكن أن يكون كذلك. كان لديه شرف النبلاء. تذكرت ذلك. كان في وقفته، وفي الأشياء التي علمها إياها.

قالت والكلمات تحرق حلقها:

- "أنت تكذب. أو مضلل."

قال عمها وهو يحررها فجأة ويخطو عبر الغرفة نحو دورق البراندي:

- "هناك دليل."

سكب كأسًا وأخذ جرعة طويلة.

- "ودافنبورت يملكه."

- "كيف؟"

أجاب بحدة:

- "لا أعرف كيف. أعرف فقط أنه يملكه. لقد رأيته."

ابتلعت لوسي ريقها وعانقت ذراعيها لصدرها، لا تزال تحاول استيعاب ما يخبرها به.

- "أي نوع من الأدلة؟"

قال بوجوم:

- "رسائل. مكتوبة بخط يد والدك."

- "يمكن أن تكون مزورة."

صرخ وهو يضرب بكأسه:

- "عليها ختمه!"

اتسعت عينا لوسي وهي تشاهد البراندي ينسكب من جانب الكأس وعن حافة المكتب.

سألها عمها بحدة:

- "هل تظنين أنني سأقبل شيئًا كهذا دون التحقق منه بنفسي؟ كانت هناك معلومات—تفاصيل—أشياء لا يمكن لأحد غير والدك معرفتها. هل تظنين أنني كنت لأدفع ابتزاز دافنبورت كل هذه السنوات لو كان هناك احتمال بأن الأمر كذب؟"

هزت لوسي رأسها. عمها كان أشياء كثيرة، لكنه لم يكن أحمق.

- "جاء إليّ بعد ستة أشهر من وفاة والدك. وأنا أدفع له منذ ذلك الحين."

سألت:

- "لكن لماذا أنا؟"

ضحك عمها بمرارة:

- "لأنك ستكونين العروس المثالية المستقيمة المطيعة. ستعوضين عن عيوب هاسيلبي. كان على دافنبورت تزويج الصبي من شخص ما، واحتاج لعائلة لا تتحدث." رمقها بنظرة ثابتة. "ونحن لن نتحدث. لا نستطيع. وهو يعرف ذلك."

هزت رأسها موافقة. لن تتحدث أبدًا عن أمور كهذه، سواء كانت زوجة هاسيلبي أم لا. هي تحب هاسيلبي. لا ترغب في جعل حياته صعبة. لكنها لا ترغب في أن تكون زوجته أيضًا.

قال عمها ببطء:

- "إذا لم تتزوجيه، ستُدمر عائلة أبيرناثي بأكملها. هل تفهمين؟"

وقفت لوسي متجمدة.

- "نحن لا نتحدث عن تجاوز في الطفولة، أو أصل غجري في شجرة العائلة. والدك ارتكب خيانة عظمى. باع أسرار الدولة للفرنسيين، مررها لعملاء يتنكرون كمهربين على الساحل."

همست لوسي:

- "لكن لماذا؟ نحن لم نكن بحاجة للمال."

رد عمها بتهكم لاذع:

- "كيف تظنين أننا حصلنا على المال؟ ووالدك—" شتم بصوت خافت. "كان دائمًا يميل للخطر. ربما فعل ذلك من أجل الإثارة. أليست هذه نكتة علينا جميعًا؟ الإيرلية نفسها في خطر، وكل ذلك لأن والدك أراد قليلًا من المغامرة."

قالت لوسي:

- "أبي لم يكن هكذا."

لكن في داخلها لم تكن واثقة تمامًا. كانت في الثامنة فقط حين قُتل على يد قاطع طريق في لندن. قيل لها إنه هب للدفاع عن سيدة، لكن ماذا لو كان ذلك كذبًا أيضًا؟ هل قُتل بسبب أفعاله الخائنة؟ كان والدها، لكن كم كانت تعرف عنه حقًا؟

لكن بدا أن العم روبرت لم يسمع تعليقها. قال، وكلماته منخفضة ودقيقة:

- "إذا لم تتزوجي هاسيلبي، سيكشف اللورد دافنبورت الحقيقة عن والدك، وستجلبين العار على منزل فينسوورث بأكمله."

هزت لوسي رأسها. لا بد من وجود طريقة أخرى. لا يمكن أن يقع كل هذا على عاتقها.

ضحك العم روبرت بازدراء:

– "تظنين ذلك؟ من تظنين سيعاني يا لوسيندا؟ أنتِ؟ حسنًا، نعم، أفترض أنك ستعانين، لكن يمكننا دائمًا إرسالك لمدرسة ما وتركك تتعفنين كمعلمة. ربما ستستمتعين بذلك."

خطا بضع خطوات ـفي اتجاهها، وعيناه لا تغادران وجهها أبدًا.

– "لكن فكري ـفي شقيقك. كيف سيكون حاله كابن لخائن معروف؟ الملك سيجرده بالتأكيد من لقبه. ومن معظم ثروته أيضًا."

قالت لوسي:

– "لا."

لا. لم ترغب ـفي تصديق ذلك. ريتشارد لم يرتكب خطأً. بالتأكيد لا يمكن لومه على خطايا والده.

هوت ـفي كرسي، محاولة بيأس ترتيب أفكارها ومشاعرها.

خيانة. كيف أمكن لوالدها فعل شيء كهذا؟ كان ذلك ضد كل ما تربت على الإيمان به. ألم يكن والدها يحب إنجلترا؟ ألم يخبرها أن آل أبيرناثي عليهم واجب مقدس تجاه كل بريطانيا؟

أم كان ذلك العم روبرت؟ أغمضت لوسي عينيها بقوة، محاولة التذكر. شخص ما قال ذلك لها. كانت متأكدة من ذلك. استطاعت تذكر مكان وقوفها، أمام صورة الإيرل الأول. تذكرت رائحة الهواء، والكلمات بالضبط، و—تبًا لكل شيء، تذكرت كل شيء ما عدا الشخص الذي نطق بها.

فتحت عينيها ونظرت لعمها. على الأرجح كان هو. بدا كشيء قد يقوله. لم يكن يختار التحدث معها كثيرًا، لكن حين يفعل، كان الواجب دائمًا موضوعًا شائعًا.

همست:

– "أوه، أبي."

كيف أمكنه فعل هذا؟ بيع أسرار لنابليون—لقد عرض حياة آلاف الجنود البريطانيين للخطر. أو حتى—

تقلصت معدتها. يا إلهي، ربما كان مسؤولًا عن موتهم. من يدري ما كشفه للعدو، وكم من الأرواح فُقدت بسبب أفعاله؟

قال عمها:

– "الأمر بيدك يا لوسيندا. إنها الطريقة الوحيدة لإنهاء الأمر."

هزت رأسها، غير مستوعبة:

– "ماذا تعني؟"

– "بمجرد أن تصبحي من آل دافنبورت، لن يكون هناك المزيد من الابتزاز. أي عار يجلبونه علينا سيقع على عاتقهم هم أيضًا." سار نحو النافذة، واستند بثقل على الحافة ناظرًا للخارج. "بعد عشر سنوات، سأكون أخيرًا—سنكون أخيرًا أحرارًا."

لم تقل لوسي شيئًا. لم يكن هناك ما يقال. نظر العم روبرت إليها من فوق كتفه، ثم استدار وسار نحوها، مراقبًا إياها عن كثب طوال الطريق. قال:

– "أرى أنك أدركتِ أخيرًا خطورة الموقف."

نظرت إليه بعينين مسكونتين بالألم. لم يكن هناك شفقة في وجهه، لا تعاطف ولا عاطفة. مجرد قناع بارد من الواجب. لقد فعل ما كان متوقعًا منه، وسيتعين عليها فعل المثل.

فكرت في غريغوري، في وجهه حين طلب منها الزواج به. إنه يحبها. لم تكن تعرف أي نوع من المعجزات أدى لذلك، لكنه يحبها.

وهي تحبه.

يا إلهي، كان الأمر مضحكًا تقريبًا. هي، التي سخرت دائمًا من الحب الرومانسي، قد وقعت. كليًا وبلا أمل، وقعت في الحب—بما يكفي لرمي كل ما ظنت أنها تؤمن به جانبًا. لأجل غريغوري كانت مستعدة للدخول في فضيحة وفوضى. لأجل غريغوري كانت لتتحدى النميمة والهمسات والتلميحات.

هي، التي كانت تجن إذا لم تكن أحذيتها مرتبة في خزانتها، كانت مستعدة لترك ابن إيرل قبل أربعة أيام من الزفاف! إن لم يكن هذا حبًا، فهي لا تعرف ما هو.

إلا أن الأمر انتهى الآن. آمالها، أحلامها، المخاطر التي تاقت لخوضها— كلها انتهت.

لم يكن لديها خيار. إذا تحدت اللورد دافنبورت، ستدمر عائلتها. فكرت في ريتشارد وهيرميون— سعيدين جدًا، وعاشقين جدًا. كيف يمكنها الحكم عليهما بحياة من العار والفقر؟

إذا تزوجت هاسيلبي لن تكون حياتها كما أرادت لنفسها، لكنها لن تعاني. هاسيلبي عاقل. ولطيف. إذا ناشدته، فبالتأكيد سيحميها من والده. وستكون حياتها...

مريحة.

روتينية.

أفضل بكثير مما سيؤول إليه حال ريتشارد وهيرميون إذا أُعلن عار والدها للملأ. تضحيتها لا شيء مقارنة بما ستجبر عائلتها على تحمله إذا رفضت.

ألم تكن ذات مرة لا تريد شيئًا أكثر من الراحة والروتين؟ ألا يمكنها تعلم الرغبة في ذلك مرة أخرى؟

قالت وهي تحدق بلا رؤية في النافذة:

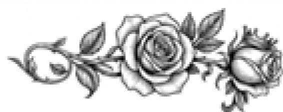
– "سأتزوجه."

كانت تمطر. متى بدأ المطر؟

– "جيد."

جلست لوسي في كرسيها، ساكنة تمامًا. شعرت بالطاقة تُسحب من جسدها، تنساب عبر أطرافها، وتتسرب من أصابع يديها وقدميها. يا رب، كانت متعبة. منهكة. وظلت تفكر في أنها تريد البكاء.

لكن لم يكن لديها دموع. حتى بعد أن نهضت وسارت ببطء عائدة لغرفتها— لم يكن لديها دموع.



في اليوم التالي، عندما سألها رئيس الخدم إن كانت موجودة لاستقبال السيد بريدجيرتون، وهزت رأسها بالنفي—لم يكن لديها دموع.

وفي اليوم الذي تلاه، عندما اضطرت لتكرار الإشارة نفسها—لم يكن لديها دموع.

لكن في اليوم الذي تلاه، بعد قضاء عشرين ساعة ممسكة ببطاقة زيارته، تمرر إصبعها برفق فوق اسمه، تتتبع كل حرف—المبجل غريغوري بريدجيرتون—بدأت تشعر بها، تلسع خلف عينيها.

ثم لمحت طيفه واقفاً على الرصيف، ينظر لأعلى نحو واجهة فينسوورث هاوس.

ورآها. عرفت أنه فعل؛ اتسعت عيناه وتوتر جسده، واستطاعت الشعور بذلك، بكل ذرة من حيرته وغضبه.

تركت الستارة تسقط. بسرعة. ووقفت هناك، ترتجف، وتنتفض، ومع ذلك عاجزة عن الحركة. تجمدت قدماها على الأرض، وبدأت تشعر به مرة أخرى—ذلك الذعر المندفع المريع في معدتها.

كان خطأً. كان كل شيء خطأً جدًا، ومع ذلك عرفت أنها تفعل ما يجب فعله.

وقفت هناك. عند النافذة، تحدق في تموجات الستارة. وقفت هناك بينما ازدادت أطرافها توترًا وتشنجًا، ووقفت هناك وهي تجبر نفسها على التنفس. وقفت هناك بينما بدأ قلبها يعتصر، أقوى وأقوى، ووقفت هناك بينما بدأ كل شيء يهدأ ببطء.

ثم، بطريقة ما، شقت طريقها إلى السرير واستلقت.

وعندها، أخيرًا، رأت دموعها.





الفصل التاسع عشر

وفيه يتولى بطلنا زمام الأمور.. وحبيبتنا أيضًا.



بحلول يوم الجمعة، كان غريغوري قد وصل إلى حافة اليأس. ثلاث مرات قصد لوسي في منزل فينسوورث، وثلاث مرات رُدَّ خائبًا.

كان الوقت ينفد منه.

وكان الوقت ينفد منهما معًا.

ما الذي يحدث بحق الجحيم؟ حتى لو كان عم لوسي قد رفض طلبها بإيقاف الزفاف – ولا بد أنه لم يكن مسرورًا بذلك؛ فهي في النهاية تحاول التخلي عن إيرل مستقبلي – فمن المؤكد أن لوسي كانت ستحاول الاتصال به.

كانت تحبه.

كان يدرك ذلك تمامًا كما يدرك صوت نفسه، ونبض قلبه. كان يوقن بذلك يقينه بأن الأرض كروية، وأن عينيها زرقاوان، وأن حاصل جمع الاثنين مع الاثنين هو أربعة دائمًا وأبدًا.

لوسي تحبه. إنها لا تكذب. لا تستطيع أن تكذب.

ولن تكذب. ليس بشأن أمر كهذا.

وهذا يعني أن ثمة خطبًا ما. لا تفسير غير ذلك.

بحث عنها في الحديقة، وانتظر لساعات عند المقعد الذي تحب إطعام الحمام عنده، لكنها لم تظهر. راقب بابها، آملًا أن يعترض طريقها وهي خارجة لقضاء بعض الحاجات، لكنها لم تغامر بالخروج.

ثم، بعد المرة الثالثة التي مُنع فيها من الدخول، رآها. مجرد لمحة عبر النافذة؛ أسدلت الستائر بسرعة. لكن ذلك كان كافيًا. لم يتمكن من رؤية وجهها – ليس بما يكفي لتبين تعابيرها – ولكن كان هناك شيء في طريقة حركتها، في تلك الطريقة المتعجلة، وشبه المسعورة التي أرخت بها الستائر.

ثمة خطب ما.

هل هي محتجزة رغماً عنها؟ هل تم تخديرها؟

تسارعت الاحتمالات في عقل غريغوري، وكل واحد منها أشد سوءًا من سابقه.

والآن، حلَّ ليل الجمعة. زفافها بعد أقل من اثنتي عشرة ساعة. ولا همسة – لا نأمة – من شائعة. لو كان هناك أدنى تلميح بأن زفاف هاسيلبي-أبيرناثي قد لا يتم كما هو مخطط له، لكان غريغوري قد سمع به. على الأقل، كانت هياسنث ستقول شيئًا. هياسنث تعرف كل شيء، وعادة قبل أن يعرف أصحاب الشأن أنفسهم.

وقف غريغوري في الظلال عبر الشارع من منزل فينسوورث واستند بجذعه إلى شجرة، يحدق، ويحدق فقط. هل كانت تلك نافذتها؟ تلك التي رآها من خلالها في وقت سابق من ذلك اليوم؟ لم يكن هناك ضوء شموع يتسلل من خلالها، لكن الستائر ربما كانت ثقيلة وسميكة. أو ربما ذهبت للنوم. الوقت متأخر. ولديها زفاف في الصباح.

يا إلهي.

لا يمكنه السماح لها بالزواج من اللورد هاسيلبي. لا يمكنه ذلك. إذا كان هناك شيء واحد يعرفه بقلبه، فهو أنه و لوسيندا أبيرناثي خُلقا ليكون زوجًا وزوجة. وجهها هو الوجه الذي يفترض به أن يتأمله فوق البيض ولحم الخنزير المقدد والرنجة والقد والخبز المحمص كل صباح.

خرجت ضحكة قصيرة من أنفه، لكنها كانت تلك الضحكة العصبية اليائسة، الصوت الذي يصدره المرء عندما يكون البديل الوحيد هو البكاء. كان

على لوسي أن تتزوجه، ولو فقط ليتمكنا من تناول كميات هائلة من الطعام معًا كل صباح.

نظر إلى نافذتها.

أو ما كان يأمل أنها نافذتها. مع حظه العاثر، ربما كان يتغزل بنافذة حمام الخدم.

كم من الوقت وقف هناك؟ لم يكن يدري. لأول مرة في ذاكرته، شعر بالعجز، وكان هذا على الأقل – مراقبة نافذة لعينة – شيئًا يمكنه السيطرة عليه.

فكر في حياته. كانت حياة محظوظة بلا شك. وفرة في المال، عائلة محبة، وأصدقاء كثر. كان يتمتع بصحته، وبرجاحة عقله، وحتى تلك الكارثة مع هيرميون واتسون، كان لديه إيمان لا يتزعزع بحكمه الخاص. قد لا يكون أكثر الرجال انضباطًا، وربما كان ينبغي عليه إيلاء المزيد من الاهتمام لكل تلك الأشياء التي كان أنتوني يحب إزعاجه بها، لكنه كان يعرف الصواب، وكان يعرف الخطأ، وكان يعرف – كان يعرف تمامًا – أن حياته ستُرسم على لوحة سعيدة وراضية.

كان ببساطة من هذا النوع من الأشخاص.

لم يكن سوداويًا. ولم يكن عرضة لنوبات الغضب.

ولم يضطر أبدًا للعمل بجد.

نظر إلى النافذة، متأملًا.

لقد أصبح متواكلًا. كان واثقًا جدًا من نهايته السعيدة لدرجة أنه لم يصدق – وما زال لا يستطيع التصديق تمامًا – أنه قد لا يحصل على ما يريد.

لقد عرض الزواج. وهي قبلت. صحيح أنها كانت موعودة لهاسيلبي، وما زالت كذلك في الواقع.

ولكن أليس من المفترض أن ينتصر الحب الحقيقي؟ ألم يفعل ذلك لجميع إخوته وأخواته؟ لماذا بحق الجحيم هو سيئ الحظ هكذا؟

فكر في والدته، وتذكر النظرة التي كانت تعلو وجهها عندما شرحت شخصيته ببراعة. أدرك أنها كانت محقة في معظم الأشياء.

لكن في معظمها فقط.

صحيح أنه لم يضطر أبدًا للعمل بجد في أي شيء. لكن تلك كانت جزءًا فقط من القصة. هو لم يكن كسولًا. كان سيعمل حتى تهرأ أصابعه وعظامه لو فقط...

لو كان لديه سبب.

حدق في النافذة.

لديه سبب الآن.

أدرك أنه كان ينتظر. ينتظر أن تقنع لوسي عمها بتحريرها من خطبتها. ينتظر قطع الأحجية التي تشكل حياته لتسقط في مكانها حتى يتمكن من وضع القطعة الأخيرة في مكانها بصرخة انتصار "وجدتها!".

ينتظر.

ينتظر الحب. ينتظر دعوة ما.

ينتظر الوضوح، تلك اللحظة التي سيعرف فيها بالضبط كيف يمضي قدمًا.

انتهى وقت الانتظار، وانتهى وقت نسيان القدر والمصير.

حان وقت العمل.

العمل الشاق.

لن يمنحه أحد تلك القطعة ما قبل الأخيرة من الأحجية؛ عليه أن يجدها بنفسه.

كان بحاجة لرؤية لوسي. ويجب أن يكون ذلك الآن، بما أنه يبدو ممنوعًا من زيارتها بالطريقة التقليدية.

عبر الشارع، ثم انسل حول الزاوية إلى خلفية المنزل. كانت نوافذ الطابق الأرضي مغلقة بإحكام، والظلام دامس. في أعلى الواجهة، كانت بضع ستائر ترفرف في النسيم، لكن لم تكن هناك طريقة تمكن غريغوري من تسلق المبنى دون أن يقتل نفسه.

تفقد محيطه. إلى اليسار، الشارع. وإلى اليمين، الزقاق والإسطبلات. وأمامه...

مدخل الخدم.

نظر إليه متأملًا. حسنًا، ولِمَ لا؟

تقدم ووضع يده على المقبض.

فدار في يده.

كاد غريغوري يضحك من فرط البهجة. على الأقل، عاد ليؤمن – حسنًا، ربما قليلًا فقط – بالقدر والمصير وكل تلك الترهات. بالتأكيد لم يكن هذا حدثًا معتادًا. لا بد أن خادمًا قد تسلل للخارج، ربما لموعد غرامي خاص به. إذا كان الباب مفتوحًا، فمن الواضح أن غريغوري كان مقدرًا له الدخول.

أو أنه فقد عقله.

قرر أن يؤمن بالقدر.

أغلق غريغوري الباب بهدوء خلفه، ثم منح عينيه دقيقة لتعتاد على الظلام. بدا أنه في خزانة مؤونة كبيرة، مع مطبخ على اليمين. كانت هناك فرصة لا بأس بها لأن بعض الخدم الأدنى درجة ينامون في مكان قريب، لذا خلع حذاءه، وحمله في يد واحدة بينما توغل أعمق داخل المنزل.

كانت قدماه المغطيتان بالجوارب صامتتين وهو يتسلل صاعدًا السلالم الخلفية، شاقًا طريقه إلى الطابق الثاني – الطابق الذي اعتقد أنه يضم غرفة نوم لوسي. توقف عند البسطة، لبرهة قصيرة من التعقل قبل أن يخرج إلى الردهة.

بمَ كان يفكر؟ ليس لديه أدنى فكرة عما قد يحدث إذا أُمسك به هنا. هل يخرق القانون؟ ربما. لا يستطيع تخيل كيف لا يكون كذلك. وبينما مكانته كشقيق لفيكونت ستحميه من حبل المشنقة، إلا أنها لن تمحو سجله حين يكون المنزل الذي اختار غزوه ملكًا لإيرل.

لكن كان عليه رؤية لوسي. لقد انتهى من الانتظار.

أخذ لحظة على البسطة لتحديد اتجاهه، ثم مشى نحو مقدمة المنزل. كان هناك بابان في النهاية. توقف، راسمًا صورة لواجهة المنزل في ذهنه، ثم مد يده نحو الباب الأيسر. إذا كانت لوسي بالفعل في غرفتها عندما رآها، فهذا هو الباب الصحيح. وإذا لم تكن...

حسنًا، إذًا هو ليس لديه أدنى فكرة. لا فكرة على الإطلاق. وها هو ذا، يتلصص في منزل إيرل فينسوورث بعد منتصف الليل.

يا إلهي.

أدار المقبض ببطء، مطلقًا زفير ارتياح عندما لم يصدر أي طقطقة أو صرير. فتح الباب بما يكفي لمرور جسده، ثم أغلقه بعناية خلفه، وعندها فقط أخذ الوقت لفحص الغرفة.

كانت مظلمة، مع ضوء قمر شحيح يتسلل حول أغطية النوافذ. لكن عينيه كانتا قد اعتادتا بالفعل على العتمة، واستطاع تمييز قطع أثاث مختلفة – طاولة تزيين، خزانة ملابس...

وسرير.

كان سريرًا ثقيلًا وضخمًا، ذا مظلة وستائر كاملة تحيط به. إذا كان هناك أحد بالداخل بالفعل، فهي تنام بهدوء – لا شخير، لا حفيف، لا شيء.

هكذا تنام لوسي، فكر فجأة. كالموتى. لوسي ليست زهرة رقيقة، ولن تقبل بأقل من ليلة نوم هانئة تمامًا. بدا غريبًا أن يكون متيقنًا من هذا، لكنه كان كذلك.

كان يعرفها، أدرك ذلك. كان يعرفها حقًا. ليس مجرد الأشياء المعتادة. في الواقع، هو لم يكن يعرف الأشياء المعتادة. لم يكن يعرف لونها المفضل. ولا يمكنه تخمين حيوانها أو طعامها المفضل.

لكن بطريقة ما لم يكن يهم إذا كان يجهل تفضيلها للوردي أو الأزرق أو الأرجواني أو الأسود. كان يعرف قلبها. وكان يريد قلبها. ولا يمكنه السماح لها بالزواج من شخص آخر.

أزاح الستائر بحذر.

لم يكن هناك أحد.

شتم غريغوري تحت أنفاسه، حتى أدرك أن الملاءات كانت مشعثة، والوسادة تحمل أثرًا حديثًا لرأس أحدهم.

استدار بسرعة ليرى شمعدانًا يهوي نحوه بعنف عبر الهواء.

أطلق نخرة مفاجئة وانحنى، لكن ليس بالسرعة الكافية لتجنب ضربة خاطفة لصدغه. شتم مرة أخرى، هذه المرة بصوت مسموع، ثم سمع:

– "غريغوري؟"

رمش بعينيه قائلًا:

– "لوسي؟"

اندفعت نحوه قائلة:

– "ما الذي تفعله هنا؟"

أشار بنفاد صبر نحو السرير:

– "لماذا لم تنامي بعد؟"

– "لأنني سأتزوج غدًا."

– "حسنًا، لهذا أنا هنا."

حدقت فيه بذهول، وكأن وجوده كان غير متوقع لدرجة أنها لم تستطع استجماع رد الفعل الصحيح. قالت أخيرًا مشيرة إلى الشمعدان:

– "ظننتك لصًا."

سمح لنفسه بابتسامة صغيرة جدًا وهمس:

– "دون الخوض في التفاصيل، أنا كذلك."

للحظة بدا وكأنها قد تبادله الابتسامة. لكن بدلًا من ذلك، ضمت ذراعيها إلى صدرها وقالت:

– "يجب أن تذهب. الآن فورًا."

– "ليس قبل أن تتحدثي معي."

انزاحت عيناها إلى نقطة فوق كتفه:

– "لا يوجد ما يُقال."

– "ماذا عن 'أنا أحبك'؟"

همست:

– "لا تقل ذلك."

تقدم خطوة للأمام:

– "أنا أحبك."

– "غريغوري، أرجوك."

اقترب أكثر:

– "أحبك."

أخذت نفسًا. وعدلت وقفتها قائلة:

– "سأتزوج اللورد هاسيلبي غدًا."

قال:

– "لا، لن تفعلي."

انفرجت شفتاها.

مد يده وأمسك يدها. لم تسحبها.

همس:

– "لوسي."

أغمضت عينيها.

قال:

– "كوني معي."

هزت رأسها ببطء:

– "أرجوك لا تفعل."

جذبها أقرب وانتزع الشمعدان من أصابعها المتراخية:

– "كوني معي، لوسيندا أبيرناثي. كوني حبيبتي، كوني زوجتي."

فتحت عينيها، لكنها واجهت نظرته للحظة فقط قبل أن تلتفت بعيدًا.

همست:

– "أنت تجعل الأمر أسوأ بكثير."

كان الألم في صوتها لا يُحتمل. قال وهو يلمس خدها:

– "لوسي، دعيني أساعدك."

هزت رأسها، لكنها توقفت حين استقر خدها في راحة يده. ليس طويلًا. بالكاد ثانية. لكنه شعر بها.

قال وهو يميل وجهها نحوه:

– "لا يمكنك الزواج منه. لن تكوني سعيدة."

لمعت عيناها وهي تلتقي بعينيه. في ضوء الليل الخافت، بدت عيناها رماديتين داكنتين، وحزينتين بشكل مؤلم. استطاع تخيل العالم بأسره هناك، في أعماق نظرتها. كل ما احتاج لمعرفته، كل ما قد يحتاج لمعرفته أبدًا – كان هناك، بداخلها.

همس:

– "لن تكوني سعيدة يا لوسي. أنتِ تعلمين أنكِ لن تكوني كذلك."

ظلت صامتة. الصوت الوحيد كان أنفاسها، تتحرك بهدوء عبر شفتيها. ثم أخيرًا قالت:

– "سأكون قانعة."

ردد صدى كلمتها:

– "قانعة؟"

سقطت يده عن وجهه، وهبطت إلى جانبه وهو يتراجع خطوة:

– "ستكونين قانعة؟"

أومأت برأسها.

– "وهذا يكفي؟"

أومأت مرة أخرى، لكن بحركة أصغر هذه المرة.

بدأ الغضب يشتعل بداخله. هل كانت مستعدة للتخلي عنه من أجل ذلك؟ لماذا لم تكن مستعدة للقتال؟

كانت تحبه، لكن هل أحبته بما يكفي؟

سألها بحدة:

– "أهو منصبه؟ هل يعني لكِ الكثير أن تكوني كونتيسة؟"

انتظرت طويلًا قبل الرد، وعرف أنها كانت تكذب عندما قالت:

– "نعم."

قال وصوته يبدو فظيعًا. جريحًا. غاضبًا:

– "لا أصدقك."

نظر إلى يده، رامشًا بدهشة حين أدرك أنه لا يزال يمسك بالشمعدان. أراد قذفه نحو الجدار. وبدلًا من ذلك وضعه جانبًا. رأى أن يديه لم تكونا ثابتتين تمامًا.

نظر إليها. لم تقل شيئًا.

توسل قائلًا:

– "لوسي، فقط أخبريني. دعيني أساعدك."

ابتلعت ريقها، وأدرك أنها لم تعد تنظر إلى وجهه.

أخذ يديها بين يديه. توترت، لكنها لم تسحب يديها. كان جسداهما متواجهين، واستطاع رؤية الارتفاع والهبوط المضطرب لصدرها.

كان ذلك يطابق ما يشعر به في صدره.

قال:

– "أحبك."

لأنه إذا استمر في قولها، ربما تكون كافية. ربما تملأ الكلمات الغرفة، تحيط بها وتتسلل تحت جلدها. ربما تدرك أخيرًا أن هناك أشياء معينة لا يمكن إنكارها.

أضاف:

– "نحن ننتمي لبعضنا البعض. إلى الأبد."

أغمضت عينيها. رمشة واحدة ثقيلة. لكن عندما فتحتهما مرة أخرى، بدت محطمة.

قال، محاولًا وضع روحه كلها في كلمة واحدة:

– "لوسي."

ثم أضاف:

– "لوسي، أخبريني..."

قالت وهي تدير رأسها بحيث لا تنظر إليه تمامًا، وصوتها يرتجف:

– "أرجوك لا تقل ذلك. قل أي شيء آخر، لكن ليس ذلك."

– "ولِمَ لا؟"

همست حينها:

– "لأنها الحقيقة."

احتبست أنفاسه، وفي حركة واحدة سريعة سحبها إليه. لم يكن عناقًا؛ ليس تمامًا. كانت أصابعهما متشابكة، وأذرعهما مثنية بحيث التقت أيديهما بين كتفيهما.

همس باسمها.

انفرجت شفتا لوسي.

همس به مرة أخرى، بنعومة جعلت الكلمات حركة أكثر منها صوتًا.

لوسي، لوسي.

ظلت ساكنة، تكاد لا تتنفس. كان جسده قريبًا جدًا من جسدها، لكنه لا يلامسه تمامًا. ومع ذلك كانت هناك حرارة تملأ الفراغ بينهما، تدور عبر ثوب نومها، وترتعد على طول بشرتها.

شعرت بوخز.

همس:

– "دعيني أقبلك. مرة واحدة أخيرة. دعيني أقبلك مرة واحدة أخيرة، وإذا طلبتِ مني الرحيل، أقسم أنني سأفعل."

استطاعت لوسي أن تشعر بنفسها تنزلق، تنحدر نحو الاحتياج، تسقط في مكان ضبابي من الحب والرغبة حيث لا يمكن تمييز الصواب عن الخطأ بوضوح.

كانت تحبه. تحبه كثيرًا، وهو لا يمكن أن يكون لها. كان قلبها يتسابق، وأنفاسها ترتجف، وكل ما استطاعت التفكير فيه هو أنها لن تشعر بهذه

الطريقة مرة أخرى أبدًا. لن ينظر إليها أحد أبدًا بالطريقة التي ينظر بها غريغوري، في هذه اللحظة بالذات. في أقل من يوم ستتزوج رجلًا لا يرغب حتى في تقبيلها.

لن تشعر أبدًا بهذا الالتفاف الغريب في جوهر أنوثتها، تلك الرفرفة في بطنها. كانت هذه آخر مرة ستحدق فيها في شفتي شخص ما وتتوق لأن تلامسا شفتيها.

يا إلهي، لقد أرادته. أرادت هذا. قبل فوات الأوان.

وهو يحبها. يحبها. قالها، ورغم أنها لم تستطع تصديق ذلك تمامًا، إلا أنها صدقته.

بللت شفتيها.

همس:

– "لوسي."

كان اسمها سؤالًا، وتصريحًا، وتوسلًا – في آن واحد.

أومأت برأسها. ثم، لأنها علمت أنها لا تستطيع الكذب على نفسها أو عليه، قالت الكلمات.

– "قبلني."

لن يكون هناك تظاهر لاحقًا، ولا ادعاء بأن العاطفة جرفتها وجردتها من قدرتها على التفكير. القرار كان قرارها. وقد اتخذته.

للحظة لم يتحرك غريغوري، لكنها عرفت أنه سمعها. شُفطت أنفاسه بشكل متقطع، وتحولت عيناه إلى سائل خالص وهو يحدق فيها.

– "لوسي."

قالها بصوت أجش وعميق وخشن ومائة شيء آخر حولت عظامها إلى حليب.

وجدت شفتاه التجويف حيث يلتقي فكها برقبتها. تمتم:

– "لوسي."

أرادت أن تقول شيئًا في المقابل، لكنها لم تستطع. تطلب الأمر كل ما لديها لمجرد طلب قبلته.

همس وهو يسحب الكلمات على طول عنقها إلى عظمة الترقوة:

– "أحبك... أحبك. أحبك."

كانت أكثر الكلمات إيلامًا وروعة ورعبًا وعظمة كان يمكن أن يقولها.

أرادت أن تبكي – من السعادة والأسى. من اللذة والألم.

وفهمت – لأول مرة في حياتها – فهمت تلك البهجة الشائكة للأنانية الكاملة. لا ينبغي لها أن تفعل هذا. كانت تعلم أنها لا ينبغي لها، وتعلم أنه ربما يعتقد أن هذا يعني أنها ستجد طريقة للخروج من التزامها تجاه هاسيلبي.

كانت تكذب عليه. تمامًا كما لو قالت الكلمات صراحة.

لكنها لم تستطع منع نفسها.

كانت هذه لحظتها. لحظتها الوحيدة لتمسك النعيم بين يديها. وكان عليه أن يكفيها مدى الحياة.

وبدافع من النار التي بداخلها، ضغطت بيديها بعنف على وجنتيه، جاذبة فمه نحو فمها لقبلة ملتهبة. لم تكن لديها أي فكرة عما تفعله – كانت متأكدة من أن هناك قواعد لكل هذا، لكنها لم تبالِ. أرادت فقط تقبيله. لم تستطع إيقاف نفسها.

تحركت إحدى يديه إلى وركها، حارقة عبر القماش الرقيق لثوب نومها. ثم تسللت لأسفل، تعتصر وتحتوي، ولم يعد هناك مسافة بينهما. شعرت بنفسها تنزلق لأسفل، ثم أصبحا على السرير، وهي على ظهرها، وجسده مضغوط ضد جسدها، وحرارته وثقله يفرضان ذكورة طاغية ورائعة.

شعرت بأنها امرأة.

شعرت بأنها إلهة.

شعرت وكأنها تستطيع أن تلف نفسها حوله ولا تتركه أبدًا.

همست وهي تشبك أصابعها في شعره:

– "غريغوري."

سكن، وعرفت أنه ينتظر منها قول المزيد.

قالت:

- "أحبك."

قالتها لأنها الحقيقة، ولأنها احتاجت لشيء ما أن يكون حقيقيًا. غدًا سيكرهها. غدًا ستخونه، لكن في هذا، على الأقل، لن تكذب.

قالت عندما رفع رأسه ليحدق في عينيها:

- "أريدك."

حدق فيها طويلًا وبقوة، وعرفت أنه يمنحها فرصة أخيرة للتراجع.

قالت مرة أخرى:

- "أريدك."

قالتها لأنها تريده بما يتجاوز الكلمات. أرادته أن يقبلها، أن يأخذها، وأن تنسى أنها لم تكن تهمس بكلمات الحب الأبدي.

- "لو..."

وضعت إصبعًا على فمه. وهمست:

- "أريد أن أكون لك." ثم أضافت: "الليلة."

ارتجف جسده، وتحركت أنفاسه بصوت مسموع عبر شفتيه. أنّ بشيء ما، ربما اسمها، ثم التقى فمه بفمها في قبلة أعطت وأخذت وحرقت واستهلكت حتى لم تستطع لوسي إلا أن تتحرك تحته. انزلقت يداها إلى رقبته، ثم داخل معطفه، أصابعها تبحث بيأس عن الحرارة والجلد. مع شتيمة متمتمة بخشونة، نهض، لا يزال يعتليها، وانتزع معطفه وربطة عنقه.

حدقت فيه بعينين واسعتين. كان يخلع قميصه، ليس ببطء أو ببراعة، بل بسرعة محمومة أكدت رغبته.

لم يكن مسيطرًا. قد لا تكون هي مسيطرة، لكنه لم يكن كذلك أيضًا. كان عبدًا لهذه النار بقدر ما كانت هي.

ألقى قميصه جانبًا، وشهقت عند رؤيته، ذلك النثر الخفيف للشعر عبر صدره، العضلات التي نُحتت وتمددت تحت جلده.

كان جميلًا. لم تكن تدرك أن الرجل يمكن أن يكون جميلًا، لكنها كانت الكلمة الوحيدة التي يمكن أن تصفه. رفعت يدًا واحدة ووضعتها بحذر على جلده. قفز دمه ونبض تحته، وكادت تسحب يدها.

قال وهو يغطي يدها بيده:

- "لا."

لف أصابعه حول أصابعها ثم أخذها إلى قلبه.

نظر في عينيها.

لم تستطع النظر بعيدًا.

ثم عاد، جسده صلب وحار ضد جسدها، يداه في كل مكان وشفتاه في كل مكان آخر. وثوب نومها - لم يعد يبدو أنه يغطي الكثير منها. كان مرفوعًا عند فخذيها، ثم تجمع حول خصرها. كان يلمسها - ليس هناك، بل بالقرب. يلامس بطنها بخفة، يحرق بشرتها.

شهقت:

- "غريغوري."

لأن أصابعه بطريقة ما وجدت صدرها.

تأوه:

- "أوه، لوسي."

كان يحتويها، يعتصر، يداعب القمة، ويا إلهي العزيز. كيف يمكن أنها قد شعرت بذلك؟

تقوست وركاها وانتفضا، واحتاجت أن تكون أقرب. احتاجت لشيء لم تستطع تحديده تمامًا، شيء يملؤها، يكملها.

كان يشد ثوب نومها الآن، وانزلق فوق رأسها، تاركًا إياها عارية بشكل فاضح. ارتفعت إحدى يديها بشكل غريزي لتستر جسدها، لكنه أمسك بمعصمها وثبته على صدره هو. كان يعتليها، جالسًا باستقامة، يحدق فيها من علٍ وكأنها... وكأنها...

وكأنها فاتنة.

كان ينظر إليها بالطريقة التي ينظر بها الرجال دائمًا إلى هيرميون، إلا أن نظراته حملت شيئًا أكثر. مزيدًا من العاطفة، ومزيدًا من الرغبة.

شعرت وكأنه يقدسها.

همس وهو يداعب جانب ثديها بخفة:

– "لوسي... أشعر... أظن..."

انفرجت شفتاه، وهز رأسه ببطء، وكأنه لا يستوعب تمامًا ما يحدث له.

همس:

– "لقد كنت أنتظر هذا... طوال حياتي. لم أكن أعرف حتى. لم أكن أعرف."

أخذت يده ورفعتها إلى فمها، طابعة قبلة في باطن كفه.

لقد فهمت.

تسارعت أنفاسه، ثم انزلق عنها بجسده، وانتقلت يداه إلى أربطة سرواله.

اتسعت عيناها وهي تراقب.

تعهد قائلًا:

– "سأكون رفيقًا بكِ. أعدك."

قالت وهي تحاول رسم ابتسامة مرتعشة:

– "لست قلقة."

انحنت شفتاه في المقابل:

– "تبدين قلقة."

– "لست كذلك."

لكن عينيها ظلتا تجولان.

ضحك غريغوري بخفوت وهو يستلقي بجوارها:

– "قد يؤلم. قيل لي إنه كذلك في البداية."

هزت رأسها:

– "لا أبالي."

ترك يده تتجول على ذراعها:

- "فقط تذكري، إذا كان هناك ألم، فسوف يتحسن الأمر."

شعرت بذلك الإحساس يبدأ من جديد، ذلك الاحتراق البطيء في أحشائها. سألت بصوت لاهث غريب عليها:

- "يتحسن كم؟"

ابتسم حين وجدت أصابعه وركها:

- "إلى حد ما، كما قيل لي."

سألت، وهي بالكاد قادرة على الكلام الآن:

- "إلى حد ما... أم... كثيرًا؟"

تحرك فوقها، وجلده يلامس كل بوصة من جلدها. كان الأمر فاجرًا.

كان نعيمًا خالصًا.

أجاب وهو يقضم بخفة عند عنقها:

- "بل كثيرًا.. أكثر من كثيرًا في الواقع."

شعرت بساقيها تنفرجان، واستقر جسده في الفراغ بينهما. كانت تشعر به، صلبًا وحارًا يضغط عليها. تصلبت، ولا بد أنه شعر بذلك، لأن شفتيه دندنتا بـ "ششششش" ناعمة عند أذنها.

ومن هناك تحرك لأسفل.

ولأسفل.

ولأسفل.

جرّ فمه نارًا على طول عنقها إلى تجويف كتفها، ثم...

يا إلهي الرحيم.

كانت يده تطوّق صدرها، تُشكّله وتُبرزه ممتلئًا مستديرًا، ثم وجدت شفتاه طرفه.

ارتجفت تحت جسده.

ضحك بخفة، بينما وجدت يده الأخرى كتفها، مثبتًا إياها في مكانها وهو يواصل تعذيبه اللذيذ، لا يتوقف إلا لينتقل إلى الجانب الآخر.

- «غريغوري...»

أنّت لوسي، لأنها لم تكن تعرف ماذا تقول غير ذلك. كانت غارقة تمامًا في الإحساس، عاجزة كليًا أمام هجومه الحسي. لم تستطع أن تشرح، ولا أن تصلح، ولا أن تبرر. لم يكن بوسعها سوى أن تشعر... وكان ذلك أفظع وأكثر ما يمكن تخيّله إثارة ــ في آنٍ واحد.

بعضّة أخيرة، أطلق صدرها ورفع وجهه نحوها. كان تنفّسه متقطعًا، وعضلاته مشدودة.

– «المسيني»، قال بصوتٍ أجش.

انفرجت شفتاها، والتقت عيناها بعينيه.

– «في أي مكان»، توسّل.

عندها فقط أدركت لوسي أن يديها كانتا إلى جانبيها، تقبضان على الملاءات وكأنهما تحاولان إبقاءها متماسكة العقل.

– «أنا آسفة»، قالت، ثم—وبطريقة مدهشة—انفجرت ضاحكة.

ارتفع أحد جانبي فمه ــ في ابتسامة.

– «سنضطر إلى تخليصك من هذه العادة»، همس.

رفعت يديها إلى ظهره، تستكشف بشرته بخفة.

– «ألا تريدني أن أعتذر؟» سألت.

حين كان يمزح، حين كان يلاطف—كان ذلك يطمئنها، ويمنحها جرأة.

– «ليس عن هذا»، تأوّه.

مررت قدميها على ساقيه.

– «أبدًا؟»

وفي تلك اللحظة بدأت يداه تفعلان أشياء لا توصف.

– «هل تريدني أن أعتذر؟»

– «لا»، شهقت.

كان يلمسها بعمق، بطرق لم تكن تعرف أنها ممكنة. كان ينبغي أن يكون ذلك أفظع شيء ــ في العالم... لكنه لم يكن كذلك. جعلها تتمدد، تنحني، تتلوّى.

لم يكن لديها أدنى فكرة عمّا تشعر به—ولم تكن لتستطيع وصفه حتى لو كان شكسبير نفسه بين يديها.

لكنها أرادت المزيد.

كان ذلك فكرها الوحيد، الشيء الوحيد الذي تعرفه.

كان غريغوري يقودها إلى مكانٍ ما. شعرت بأنها تُسحب، تُؤخذ، تُنقل.

وكانت تريد كل شيء.

– «أرجوك»، توسّلت، وانفلتت الكلمة من شفتيها دون قصد.

– «أرجوك...»

لكن غريغوري أيضًا كان قد تجاوز الكلمات. قال اسمها. مرارًا وتكرارًا، كأن شفتيه نسيتا أي ذكرٍ آخر.

– «لوسي»، همس، وفمه ينتقل إلى التجويف بين نهديها.

– «لوسي»، أنَّ، وهو يُدخل إصبعًا فيها.

ثم شهق بالاسم:

– «لوسي!»

كانت قد لمسته. برفق، بتردّد.

لكنها كانت هي. يدها هي، لمستها هي—وشعر وكأنه اشتعل نارًا.

– «أنا آسفة»، قالت، وانتزعت يدها فجأة.

– «لا تعتذري»، قال بخشونة، لا غضبًا، بل لأنه بالكاد كان قادرًا على الكلام. أمسك يدها وأعادها.

– «هكذا أريدك»، قال، وهو يلفّها حوله.

– «بكل ما أملك، بكل ما أنا عليه».

كان أنفه على بُعد بوصة واحدة من أنفها. امتزج نَفَساهما، وأعينهما... كان الأمر كما لو أنهما صارا واحدًا.

– «أحبك»، همس، وهو يستعد. انسحبت يدها، ثم عادت إلى ظهره.

– «وأنا أحبك»، همست، ثم اتسعت عيناها، كأنها مصدومة مما قالت.

لكنه لم يهتم. لم يكن مهمًا إن كانت تقصد قولها أم لا. لقد قالتها، ولن تستطيع أبدًا أن تسحبها. كانت له.

وكان هو لها.

وبينما ثبت نفسه، يضغط برفق شديد عند مدخلها، أدرك أنه يقف على حافة هاوية. لقد انقسمت حياته الآن إلى جزأين: قبل وبعد.

لن يحب امرأة أخرى أبدًا.

ولن يستطيع أن يحب امرأة أخرى أبدًا.

ليس بعد هذا. ليس ما دامت لوسي تمشي على الأرض ذاتها. لم يكن هناك مكان لسواها.

كانت الهاوية مرعبة. مرعبة... ومثيرة، و—

قفز.

أطلقت شهقة صغيرة وهو يتقدم، لكنه حين نظر إليها، لم تبدُ متألمة. كان رأسها مائلًا إلى الخلف، وكل نَفَسٍ يخرج منها يصاحبه أنين خافت، كأنها لا تستطيع حبس رغبتها داخلها.

التفّت ساقاها حول ساقيه، وقدماها تنزلقان على طول ربليْه. وكانت وركاها تنحنيان، تضغطان، تتوسلان إليه أن يستمر.

– «لا أريد أن أؤذيك»، قال، وكل عضلة في جسده تشدّه إلى الأمام. لم يرد شيئًا في حياته كما أرادها في تلك اللحظة. ومع ذلك، لم يشعر يومًا بأنانيته أقل. كان هذا من أجلها. لا يمكنه أن يؤذيها.

– «أنت لا تفعل»، أنَّت.

ولم يعد يستطيع السيطرة على نفسه. التقط صدرها بفمه وهو يتجاوز آخر حاجز، مغروسًا فيها تمامًا.

إن كانت قد شعرت بألم، فلم تهتم. أطلقت صرخة خافتة من اللذة، وانقضّت يداها على رأسه. كانت تتلوّى تحته، وحين حاول الانتقال إلى صدرها الآخر، صارت أصابعها قاسية، تثبته في مكانه بشراسة.

وطوال ذلك الوقت، كان جسده يطالب بها، يتحرك بإيقاع يتجاوز الفكر والسيطرة.

– «لوسي... لوسي... لوسي»، أنَّ أخيرًا، وهو ينتزع نفسه بصعوبة من صدرها. كان الأمر صعبًا. أكثر مما يحتمل. كان يحتاج إلى مساحة ليتنفس، ليشهق، ليستنشق هواءً لا يبدو أنه يصل إلى رئتيه أبدًا.

– «لوسي!»

كان ينبغي أن ينتظر. كان يحاول أن ينتظر. لكنها كانت تتشبث به، تغرس أظافرها في كتفيه، وكان جسدها يرتفع عن السرير بقوة تكفي لرفعه معها.

ثم شعر بها.

تتوتر، تنقبض، ترتجف من حوله—فترك نفسه.

ترك نفسه... وانفجر العالم ببساطة.

– «أحبك»، شهق وهو ينهار فوقها. كان يظن نفسه متجاوزًا للكلمات، لكنها كانت هناك.

صارت رفيقته الآن. ثلاث كلمات صغيرة.

أحبك.

لن يكون بدونها أبدًا.

وكان ذلك شيئًا رائعًا بحق.





الفصل العشرون

وفيه يمر بطلنا بصباح تعيس للغاية.



بعد وقت ما، وبعد أن أسلم الوهن جفنيهما للنوم، ثم استيقظت فيهما العاطفة من جديد، وبعد سكون ووادعة لم يرقيا تمامًا إلى مرتبة النوم، ثم مزيد من الشغف – لأنهما عجزا ببساطة عن كبح جماح نفسيهما – حانت لحظة رحيل غريغوري.

كان ذلك أصعب ما فعله في حياته، ومع ذلك أنجزه بقلب يفيض فرحًا؛ لأنه أدرك أن هذه ليست النهاية. لم يكن حتى وداعًا؛ فالأمر ليس نهائيًا بتلك القسوة. لكن الوقت بدأ يداهمه. أوشك الفجر أن ينبلج، وبينما كان عازمًا كل العزم على الزواج من لوسي في أقرب وقت، لم يشأ أن يُلحق بها عار الانكشاف معه في الفراش صبيحة زفافها من رجل آخر.

كان هناك أيضًا أمر هاسيلبي الذي يجب مراعاته. لم يكن غريغوري يعرفه جيدًا، لكنه بدا دائمًا رجلًا دمث الخلق، ولا يستحق الإذلال العلني الذي سيعقب ذلك.

همس غريغوري وهو يلكز خدها بأنفه:

– "لوسي، لقد اقترب الصباح."

أصدرت صوتًا ناعسًا، ثم أدارت رأسها.

قالت:

– "نعم."

مجرد "نعم"، دون شكوى من ظلم الأقدار أو تذمر بأن الأمور لا ينبغي أن تكون هكذا. تلك كانت لوسي. عملية، وحكيمة، وعقلانية بشكل ساحر، وقد أحبها لكل ذلك وأكثر. لم تكن تريد تغيير العالم. أرادت فقط أن تجعله مكاناً جميلًا ورائعًا لمن تحبهم.

حقيقة أنها فعلت هذا – أنها سمحت له بممارسة الحب معها وتخطط الآن لإلغاء زفافها في صباح المراسم ذاته – أظهرت له عمق اهتمامها به. لم تكن لوسي تبحث عن لفت الانتباه أو الدراما. كانت تنشد الاستقرار والروتين، وكونها أقدمت على هذه القفزة التي تستعد لها...

هذا الأمر جعله يشعر بالتواضع أمامها.

قال:

– "يجب أن تأتي معي. الآن. لنرحل معًا قبل أن يستيقظ أهل المنزل."

تمطت شفتها السفلى قليلًا من جانب إلى آخر في تعبير يوحي بالأسف، بدت فيه فاتنة لدرجة أنه اضطر لتقبيلها. قبلة خفيفة، إذ لم يكن لديه وقت للانسياق وراء مشاعره، مجرد نقرة صغيرة على زاوية فمها. لم تعق إجابتها التي جاءت مخيبة للآمال:

– "لا أستطيع."

تراجع للخلف قائلًا:

– "لا يمكنكِ البقاء."

لكنها هزت رأسها:

– "أنا... يجب أن أفعل الشيء الصحيح."

نظر إليها باستفهام.

شرحت قائلة:

– "يجب أن أتصرف بشرف."

جلست حينها، وأصابعها تتشبث بأغطية السرير بقوة حتى ابيضت مفاصل يدها. بدت متوترة، وهو ما افترض أنه منطقي. هو كان يشعر أنه على حافة فجر جديد تمامًا، بينما هي...

كان لا يزال أمامها جبل ضخم يجب تسلقه قبل أن تصل إلى نهايتها السعيدة.

مد يده محاولًا الإمساك بإحدى يديها، لكنها لم تتجاوب. لم يكن الأمر أنها سحبت يدها منه؛ بل بدا الأمر وكأنها لم تشعر بلمسته من الأساس.

قالت، والكلمات تندفع وتتعثر من شفتيها بينما اتجهت عيناها نحوه، واسعتين ومتوسلتين:

– "لا يمكنني التسلل خلسة وترك اللورد هاسيلبي ينتظر عبثًا في الكنيسة."

لكن لبرهة فقط.

ثم أشاحت بوجهها.

ابتلعت ريقها. لم يستطع رؤية وجهها، لكنه استطاع قراءة ذلك في طريقة حركتها.

قالت بصوت خافت:

– "بالتأكيد أنت تتفهم ذلك."

وقد فهم بالفعل. كان هذا أحد أكثر الأشياء التي أحبها فيها. كان لديها حس قوي بالصواب والخطأ، يصل أحيانًا إلى حد العناد. لكنها لم تكن أبدًا واعظة، ولم تكن متعالية.

قال:

– "سأراقبك."

استدار رأسها بحدة، واتسعت عيناها في تساؤل.

قال بهدوء:

– "قد تحتاجين مساعدتي."

– "لا، لن يكون ذلك ضروريًا. أنا واثقة أنني أستطيع..."

قاطعها بقوة كافية لإسكاتها:

– "أنا أصرّ على ذلك."

رفع يده، وأصابعه مضمومة، وراحته للخارج. ثم ثنى معصمه مرة واحدة، ليوجه راحته نحو وجهه، ثم مرة أخرى ليعيدها إلى وضعها الأصلي.

– "هذه ستكون إشارتنا. سأكون في انتظارك. إذا احتجتِ مساعدتي، تعالي إلى النافذة وقومي بالإشارة."

فتحت فمها، وكأنها قد تعترض مرة أخيرة، لكنها في النهاية اكتفت بالإيماء.

وقف حينها، فاتحًا الستائر الثقيلة التي تحيط بسريرها وهو يبحث عن ملابسه. كانت ثيابه مبعثرة – سرواله هنا، وقميصه هناك بشكل مثير للدهشة، لكنه جمع ما يحتاجه بسرعة وارتدى ملابسه.

ظلت لوسي في السرير، جالسة والأغطية محشوة تحت ذراعها. وجد حشمتها ساحرة، وكاد يمازحها بشأن ذلك. لكنه قرر بدلًا من ذلك أن يمنحها ابتسامة مرحة. كانت ليلة مصيرية بالنسبة لها؛ ولا ينبغي أن تشعر بالحرج بسبب براءتها.

مشى إلى النافذة ليطل منها. لم يبزغ الفجر بعد، لكن السماء كانت معلقة في حالة ترقب، والأفق مطلي بذلك الوميض الخافت من الضوء الذي لا يُرى إلا قبل شروق الشمس. كان يتوهج بلطف، بلون أرجواني مائل للزرقة يبعث على السكينة، وكان جميلًا لدرجة أنه أشار إليها لتنضم إليه. أدار ظهره بينما ارتدت ثوب نومها، وبمجرد أن سارت عبر الغرفة بقدميها الحافيتين، سحبها برفق نحوه، مستندة بظهرها إلى صدره. أراح ذقنه على قمة رأسها.

همس:

– "انظري."

كان الليل يرقص، يتلألأ وينبض، وكأن الهواء نفسه يدرك أن لا شيء سيبقى كما كان. كان الفجر ينتظر على الجانب الآخر من الأفق، والنجوم بدأت بالفعل تبدو أقل سطوعًا في السماء.

لو استطاع تجميد الزمن لفعل. لم يسبق له أن اختبر لحظة واحدة سحرية بهذا القدر، وممتلئة... بهذا القدر. كل شيء كان هناك، كل ما هو طيب وصادق

وحقيقي. وفهم أخيرًا الفرق بين السعادة والرضا، وكم كان محظوظًا ومباركًا ليشعر بكليهما، وبكميات تحبس الأنفاس.

إنها لوسي. هي من تكمله. هي التي جعلت حياته كل ما كان يعرف أنها يمكن أن تكونه يومًا ما.

كان هذا حلمه. يتحقق، في كل مكان حوله، وهناك تمامًا بين ذراعيه.

وبينما كانا يقفان عند النافذة، انقضّ شهاب عبر السماء. رسم قوسًا عريضًا ومنخفضًا، وخُيّل إلى غريغوري أنه يسمع صوته وهو يسري، يقدح ويفرقع حتى اختفى عن الأنظار.

دفعه ذلك لتقبيلها. افترض أن قوس قزح كان سيفعل الشيء نفسه، أو ورقة برسيم رباعية، أو حتى ندفة ثلج بسيطة تهبط على كمه دون أن تذوب. كان من المستحيل ببساطة أن يشهد المرء إحدى معجزات الطبيعة الصغيرة ولا يقبلها. قبل عنقها، ثم أدارها بين ذراعيه ليتمكن من تقبيل فمها، وجبينها، وحتى أنفها.

والنمشات السبع كلها أيضًا. يا إلهي، كم يعشق نمشها.

همس:

– "أحبك."

وضعت خدها على صدره، وكان صوتها مبحوحًا، يكاد يختنق وهي تقول:

– "أحبك أيضًا."

– "هل أنتِ متأكدة أنكِ لن تأتي معي الآن؟"

كان يعرف إجابتها، لكنه سأل على أية حال.

كما هو متوقع، أومأت برأسها:

– "يجب أن أفعل هذا بنفسي."

– "كيف سيكون رد فعل عمك؟"

– "لست... متأكدة."

تراجع خطوة، ممسكًا بكتفيها وحتى أنه ثنى ركبتيه كي لا تفقد عيناه التواصل مع عينيها.

– "هل سيؤذيكِ؟"

قالت بسرعة جعلته يصدقها:

– "لا. لا. أعدك."

– "هل سيحاول إجبارك على الزواج من هاسيلبي؟ يحبسك في غرفتك؟ لأنني يمكن أن أبقى. إذا كنتِ تعتقدين أنك ستحتاجين إليّ، يمكنني البقاء هنا تمامًا."

سيخلق ذلك فضيحة أسوأ مما ينتظرهم حاليًا، ولكن إذا كانت مسألة سلامتها...

فلا شيء لن يفعله.

– "غريغوري..."

أسكتها بهزة من رأسه. بدأ قائلًا:

– "هل تدركين كيف أن تركي لكِ هنا لتواجهي هذا وحدك يتعارض كليًا وبشكل مطلق مع كل غريزة لدي؟"

انفرجت شفتاها وعيناها...

امتلأتا بالدموع.

قال وصوته عاطفي وشرس، وربما يحمل شيئًا من الوحي:

– "لقد أقسمت في قلبي على حمايتك."

لأن اليوم، كما أدرك، هو اليوم الذي أصبح فيه رجلًا حقًا. بعد ستة وعشرين عامًا من وجود لطيف، ونعم، بلا هدف، وجد غايته أخيرًا.

عرف أخيرًا لماذا وُلد.

قال:

– "لقد أقسمت بذلك في قلبي، وسأقسم به أمام الله بمجرد أن نتمكن من ذلك. ويبدو الأمر وكأن حمضًا يحرق صدري حين أترككِ وحدك."

وجدت يده يدها، وتشابكت أصابعهما.

قال وكلماته خافتة لكنها صارمة:

– "هذا ليس صوابًا."

أومأت ببطء معبرة عن موافقتها:

– "لكنه ما يجب فعله."

– "إذا كانت هناك مشكلة، إذا شعرتِ بالخطر، يجب أن تعديني بأن تعطي الإشارة. سآتي من أجلك. يمكنك اللجوء إلى والدتي. أو أي من أخواتي. لن يبالين بالفضيحة. سيهتمن فقط بسعادتك."

ابتلعت ريقها، ثم ابتسمت، واكتست عيناها مسحة من الشجن:

– "لا بد أن عائلتك رائعة."

أخذ يديها وعصرهما:

– "إنهم عائلتك الآن."

انتظر منها أن تقول شيئًا، لكنها لم تفعل. رفع يديها إلى شفتيه وقبلهما واحدة تلو الأخرى. همس:

– "قريبًا، سيكون كل هذا وراء ظهورنا."

أومأت، ثم ألقت نظرة خاطفة من فوق كتفها نحو الباب:

– "سيستيقظ الخدم قريبًا."

وغادر. انسل من الباب، حذاءه في يده، وتسلل خارجًا بالطريقة التي دخل بها.



كان الظلام لا يزال مخيمًا عندما وصل إلى الحديقة الصغيرة التي تملأ الساحة المقابلة لمنزلها. لا تزال هناك ساعات قبل الزفاف، وبالتأكيد لديه الوقت الكافي للعودة إلى المنزل لتغيير ملابسه. لكنه لم يكن مستعدًا للمخاطرة. لقد أخبرها أنه سيحميها، ولن يخلف وعده أبدًا.

ولكن خطر له حينها – أنه لا يحتاج لفعل هذا بمفرده. في الواقع، لا ينبغي له أن يفعله بمفرده. إذا احتاجته لوسي، فستحتاجه بكامل قوته وحضوره. وإذا

اضطر غريغوري للجوء إلى القوة، فبالتأكيد يمكنه الاستفادة من زوج إضافي من الأيدي.

لم يسبق له أن لجأ إلى إخوته طلبًا للمساعدة، ولم يتوسل إليهم لإخراجه من مأزق. كان شابًا يافعًا نسبيًا. شرب الخمر، وقامر، وعبث مع النساء.

لكنه لم يشرب أبدًا حد الثمالة المفرطة، ولم يقامر بأكثر مما يملك، ولم يعبث – حتى الليلة الماضية – مع امرأة خاطرت بسمعتها لتكون معه.

لم يسعَ للمسؤولية، لكنه لم يطارد المتاعب أيضًا. لطالما رآه إخوته صبيًا. حتى الآن، في عامه السادس والعشرين، شك في أنهم ينظرون إليه كرجل ناضج تمامًا. ولذا لم يطلب المساعدة. لم يضع نفسه في أي موقف قد يحتاج فيه إليها.

حتى الآن.

أحد إخوته الأكبر سنًا يعيش على مقربة. أقل من ربع ميل بالتأكيد، وربما أقرب إلى الثمن. يمكن لـ غريغوري الذهاب والعودة في عشرين دقيقة، بما في ذلك الوقت اللازم لجر كولين من فراشه.

كان غريغوري قد بدأ للتو في تحريك كتفيه للأمام والخلف، ممرنًا عضلاته استعدادًا للعدو، عندما لمح منظف مداخن يعبر الشارع. كان صغيرًا – اثني عشر عامًا، ربما ثلاثة عشر – وبالتأكيد كان تواقًا للحصول على جنيه ذهبي.

ووعد بآخر، إذا أوصل رسالة غريغوري إلى أخيه.

راقبه غريغوري وهو ينطلق حول الزاوية، ثم عبر عائدًا إلى الحديقة العامة. لم يكن هناك مكان للجلوس، ولا حتى مكان للوقوف حيث لا يكون مكشوفًا فورًا من منزل فينسوورث.

ولذا تسلق شجرة. جلس على غصن منخفض وسميك، واستند إلى الجذع، وانتظر.

قال لنفسه إن يومًا ما سيضحك على هذا. يومًا ما سيرويان هذه الحكاية لأحفادهما، وستبدو رومانسية ومثيرة للغاية.

أما الآن...

رومانسية، نعم. مثيرة، ليس كثيرًا.

فرك يديه معًا.

الأهم من ذلك كله، كان الجو باردًا.

هز كتفيه، منتظرًا أن يتوقف عن ملاحظة البرد. لم يتوقف أبدًا، لكنه لم يبالِ. ماذا تعني بضع أطراف أصابع زرقاء مقابل بقية حياته؟

ابتسم، رافعًا بصره إلى نافذتها. ها هي ذي، فكر. هناك تمامًا، خلف تلك الستارة. وهو يحبها.

إنه يحبها.

فكر في أصدقائه، ومعظمهم ساخرون، يلقون دائمًا نظرة ضجرة على أحدث تشكيلة من الفتيات المبتدئات، متنهدين بأن الزواج عمل شاق، وأن السيدات متشابهات، وأن الحب من الأفضل تركه للشعراء.

الحمقى، كلهم.

الحب موجود.

إنه هناك تمامًا، في الهواء، في الريح، في الماء. على المرء فقط أن ينتظره.

أن يراقبه.

ويقاتل من أجله.

وهو سيفعل. والله شاهده، سيفعل. ما على لوسي سوى الإشارة، وسوف ينقذها.

إنه رجل عاشق.

لا شيء يمكن أن يوقفه.



قال كولين:

- "تدرك طبعًا أن هذه ليست الطريقة التي نويت قضاء صباح السبت بها."

أجاب غريغوري بإيماءة فقط. كان أخوه قد وصل قبل أربع ساعات، محييًا إياه بعبارته المعهودة المتسمة بضبط النفس: "هذا مثير للاهتمام".

أخبر غريغوري كولين بكل شيء، حتى أحداث الليلة الماضية. لم يكن يحب سرد حكايات عن لوسي، لكن لا يمكن للمرء حقًا أن يطلب من أخيه الجلوس في شجرة لساعات دون شرح السبب.

ووجد غريغوري راحة معينة في إفراغ ما في جعبته لـ كولين. لم يلقِ عليه محاضرة. ولم يحكم عليه.

في الواقع، لقد تفهم.

عندما أنهى غريغوري حكايته، شارحًا باقتضاب سبب انتظاره خارج منزل فينسوورث، اكتفى كولين بالإيماء وقال:

– "لا أفترض أن معك شيئًا للأكل."

هز غريغوري رأسه وابتسم.

من الجيد أن يكون للمرء أخ.

تمتم كولين:

– "تخطيط سيء للغاية من جانبك."

لكنه كان يبتسم أيضًا.

عادوا بنظرهم إلى المنزل، الذي بدأت تدب فيه علامات الحياة منذ فترة طويلة. سُحبت الستائر، وأضيئت الشموع ثم أطفئت مع تحول الفجر إلى صباح.

سأل كولين وهو يضيق عينيه نحو الباب:

– "ألم يكن مفترضًا أن تخرج الآن؟"

قطب غريغوري جبينه. كان يتساءل عن الشيء نفسه. كان يخبر نفسه أن غيابها يبشر بالخير. لو كان عمها سيجبرها على الزواج من هاسيلبي، ألم تكن لتغادر إلى الكنيسة الآن؟ وفقًا لساعة جيبه، التي لم تكن – باعتراف الجميع – أدق الساعات، من المقرر أن تبدأ المراسم في أقل من ساعة.

لكنها لم تشر لطلب مساعدته أيضًا.

وهذا لم يريحه.

فجأة انتبه كولين.

– "ما الأمر؟"

أشار كولين برأسه نحو اليمين:

– "عربة، يتم إحضارها من جهة الإسطبلات."

اتسعت عينا غريغوري رعبًا بينما فُتح الباب الأمامي لـ منزل فينسوورث.

تدفق الخدم للخارج، يضحكون ويهللون بينما توقفت المركبة أمام المنزل.

كانت بيضاء، مكشوفة، ومزدانة بزهور وردية مثالية وشرائط واسعة وردية اللون، تتدلى خلفها، ترفرف في النسيم الخفيف.

كانت عربة زفاف.

ولم يبدُ أن أحدًا يجد ذلك غريبًا.

بدأ جلد غريغوري يوخزه. وعضلاته تحترق.

قال كولين واضعًا يدًا كابحة على ذراع غريغوري:

– "ليس بعد."

هز غريغوري رأسه. بدأت رؤيته الجانبية تتلاشى، وكل ما استطاع رؤيته هو تلك العربة اللعينة.

قال:

– "يجب أن أحضرها. يجب أن أذهب."

أمره كولين:

– "انتظر. انتظر لترى ما سيحدث. قد لا تخرج. قد..."

لكنها خرجت.

ليس أولًا. كان ذلك شقيقها، وزوجته الجديدة على ذراعه.

ثم جاء رجل أكبر سنًا – عمها على الأرجح – وتلك المرأة المسنة التي قابلها غريغوري في حفل أخته.

ثم...

لوسي.

في فستان زفاف.

همس:

- "يا إلهي."

كانت تمشي بحرية. لا أحد يجبرها.

قالت لها هيرميون شيئًا، همست في أذنها.

وابتسمت لوسي.

ابتسمت.

بدأ غريغوري يشهق.

كان الألم ملموسًا. حقيقيًا. انطلق عبر أحشائه، واعتصر أعضاءه حتى لم يعد قادرًا على الحركة.

لم يستطع سوى التحديق.

والتفكير.

همس كولين:

- "هل هي أخبرتك أنها لن تمضي قدمًا في الزفاف؟"

حاول غريغوري قول نعم، لكن الكلمة خنقته. حاول استرجاع محادثتهما الأخيرة، كل كلمة فيها. قالت إنها يجب أن تتصرف بشرف. قالت إنها يجب أن تفعل ما هو صواب. قالت إنها تحبه.

لكنها لم تقل أبدًا أنها لن تتزوج هاسيلبي.

همس:

- "يا إلهي."

وضع أخوه يده فوق يده وقال:

- "أنا آسف."

راقب غريغوري لوسي وهي تصعد إلى العربة المكشوفة. كان الخدم لا يزالون يهللون. كانت هيرميون تعتني بشعرها، وتعدل الطرحة، ثم تضحك عندما رفع الهواء القماش الشفاف في الهواء.

لا يمكن أن يحدث هذا.

لا بد أن هناك تفسيرًا.

قال غريغوري:

- "لا."

لأنها كانت الكلمة الوحيدة التي استطاع التفكير في قولها.

- "لا."

ثم تذكر. إشارة اليد. التلويحة. ستفعلها. ستعطيه الإشارة. مهما كان ما حدث داخل المنزل، لم تكن قادرة على إيقاف الإجراءات. لكن الآن، في العلن، حيث يمكنه أن يرى، ستعطي الإشارة.

يجب أن تفعل. هي تعلم أنه يستطيع رؤيتها.

تعلم أنه هناك.

يراقبها.

ابتلع ريقه بتشنج، ولم يرفع عينيه أبدًا عن يدها اليمنى.

سمع شقيق لوسي ينادي:

- "هل الجميع هنا؟"

لم يسمع صوت لوسي في جوقة الردود، لكن لم يشكك أحد في وجودها.

كانت هي العروس.

وكان هو أحمق، يشاهدها ترحل بعيدًا.

قال كولين بهدوء، وهما يشاهدان العربة تختفي حول الزاوية:

- "أنا آسف."

همس غريغوري:

- "الأمر غير منطقي."

قفز كولين من الشجرة ومد يده بصمت إلى غريغوري.

قال غريغوري مرة أخرى، وهو مذهول جدًا لدرجة أنه لم يفعل شيئًا سوى السماح لأخيه بمساعدته على النزول:

- "الأمر غير منطقي. هي لن تفعل هذا. إنها تحبني."

نظر إلى كولين. كانت عيناه عطوفتين، لكن مشفقتين.

قال غريغوري:

– "لا. لا. أنت لا تعرفها. هي لن... لا. أنت لا تعرفها."

وسأل كولين، الذي كانت تجربته الوحيدة مع الليدي لوسيندا أبيرناثي هي اللحظة التي كسرت فيها قلب أخيه:

– "هل تعرفها أنت؟"

تراجع غريغوري وكأنه صُفع.

– "نعم. نعم، أعرفها."

لم يقل كولين شيئًا، لكن حاجبيه ارتفعا، وكأنه يسأل: حسنًا، إذًا؟

استدار غريغوري، وعيناه تنتقلان إلى الزاوية التي اختفت عندها لوسي لتوها. للحظة وقف ساكنًا تمامًا، وكانت حركته الوحيدة هي رمشة متعمدة ومفكرة من عينيه.

استدار عائدًا، ونظر في وجه أخيه.

قال:

– "أنا أعرفها. حقًا أعرفها."

انضمت شفتا كولين معًا، وكأنه يحاول صياغة سؤال، لكن غريغوري كان قد استدار بالفعل.

كان ينظر إلى تلك الزاوية مرة أخرى.

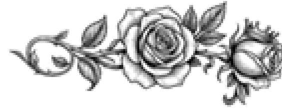
ثم بدأ يركض.





الفصل الحادي والعشرون

وفيه يخاطر بطلنا بكل شيء.



- "هل أنتِ جاهزة؟"

أجالت لوسي بصرها في أرجاء كنيسة سانت جورج البديعة من الداخل؛ الزجاج الملون الساطع، والأقواس الأنيقة، وأكوام وأكوام الزهور التي جُلبت للاحتفال بزواجها.

فكرت في اللورد هاسيلبي، الواقف مع الكاهن عند المذبح.

فكرت في الضيوف، الذين يزيد عددهم عن ثلاثمائة، وجميعهم ينتظرون دخولها متأبطة ذراع أخيها.

وفكرت في غريغوري، الذي لا بد أنه رآها تصعد إلى عربة الزفاف، مرتدية أبهى حللها.

كررت هيرميون:

- "لوسي، هل أنتِ جاهزة؟"

تساءلت لوسي عما قد تفعله هيرميون إذا أجابت بـ "لا".

هيرميون رومانسية.

وغير عملية.

ربما كانت ستخبر لوسي أنها ليست مضطرة للمضي قدمًا في الأمر، وأنه لا يهم كونهما واقفتين خارج أبواب حرم الكنيسة مباشرة، أو أن رئيس الوزراء نفسه جالس بالداخل.

كانت هيرميون لتخبرها أنه لا يهم توقيع الأوراق أو قراءة إعلانات الزواج في ثلاث أبرشيات مختلفة. لا يهم أن هروب لوسي من الكنيسة سيخلق فضيحة العقد. كانت ستخبر لوسي أنها ليست مضطرة لفعل ذلك، وأنه لا ينبغي لها أن ترضى بزواج مصلحة بينما يمكنها الحصول على زواج مليء بالشغف والحب. كانت ستقول...

- "لوسي؟"

(هذا ما قالته بالفعل).

التفتت لوسي، رامشة بحيرة، لأن هيرميون ـ في مخيلتها كانت تلقي خطابًا حماسيًا للغاية.

ابتسمت هيرميون بلطف:

- "هل أنتِ جاهزة؟"

ولأن لوسي هي لوسي، ولأنها ستظل دائمًا لوسي، أومأت برأسها.

لم يكن بوسعها فعل أي شيء آخر.

انضم إليهم ريتشارد. قال لـ لوسي، ولكن ليس قبل أن يرمق زوجته بنظرة دافئة:

- "لا أصدق أنكِ ستتزوجين."

ذكرته لوسي:

- "أنا لست أصغر منك بكثير يا ريتشارد."

ثم أمالت رأسها نحو الليدي فينسوورث الجديدة:

- "وأنا أكبر من هيرميون بشهرين."

ابتسم ريتشارد بطفولية:

- "نعم، لكنها ليست أختي."

ابتسمت لوسي لذلك، وكانت ممتنة له. كانت بحاجة إلى الابتسامات. كل ابتسامة تستطيع استجماعها.

كان يوم زفافها. لقد استحمّت وتعطرت وارتدت ما لابد أنه أفخم ثوب وقعت عليه عيناها، وشعرت...

بالخواء.

لم تستطع تخيل ما يظنه غريغوري بها. لقد سمحت له عمدًا بالاعتقاد أنها تخطط لإلغاء الزفاف. كان ذلك فظيعًا منها، وقاسيًا وغير شريف، لكنها لم تعرف ماذا تفعل غير ذلك. كانت جبانة، ولم تستطع تحمل رؤية وجهه وهي تخبره أنها لا تزال تنوي الزواج من هاسيلبي.

يا إلهي، كيف كان يمكنها شرح ذلك؟ كان سيصر على وجود طريقة أخرى، لكنه كان مثاليًا، ولم يواجه أبدًا محنة حقيقية. لم تكن هناك طريقة أخرى. ليس هذه المرة. ليس دون التضحية بعائلتها.

أطلقت زفيرًا طويلًا. يمكنها فعل هذا. حقًا. يمكنها. يمكنها.

أغمضت عينيها، وهزت رأسها نصف بوصة أو نحو ذلك بينما ترددت الكلمات في ذهنها.

أستطيع فعل هذا. أستطيع. أستطيع.

جاء صوت هيرميون القلق:

– "لوسي؟ هل أنتِ لستِ بخير؟"

فتحت لوسي عينيها، وقالت الشيء الوحيد الذي قد تصدقه هيرميون:

– "فقط أجري بعض الحسابات في رأسي."

هزت هيرميون رأسها:

– "آمل أن اللورد هاسيلبي يحب الرياضيات، لأنني أقسم يا لوسي، أنكِ مجنونة."

– "ربما."

نظرت إليها هيرميون باستفهام.

سألت لوسي:

– "ما الأمر؟"

رمشت هيرميون عدة مرات قبل أن تجيب أخيرًا:

– "لا شيء حقًا. فقط أن هذا لا يبدو مثلكِ تمامًا."

– "لا أعرف ما تعنين."

– "أن تتفقي معي حين أصفك بالجنون؟ هذا ليس ما ستقولينه على الإطلاق."

تذمرت لوسي:

– "حسنًا، من الواضح أنه ما قلته بالفعل، لذا لا أعرف ما..."

– "أوه، كفى. لوسي التي أعرفها ستقول شيئًا مثل: 'الرياضيات مسعى مهم للغاية، وحقًا يا هيرميون، يجب أن تفكري في ممارسة الحساب بنفسك'."

جفلت لوسي:

– "هل أنا حقًا متطفلة هكذا؟"

أجابت هيرميون وكأنها مجنونة حتى لتشكيكها في الأمر:

– "نعم. لكن هذا ما أحبه فيكِ أكثر شيء."

واستطاعت لوسي استجماع ابتسامة أخرى.

ربما سيكون كل شيء على ما يرام. ربما ستكون سعيدة. إذا تمكنت من الابتسام مرتين في صباح واحد، فمن المؤكد أن الأمر ليس بهذا السوء. كانت بحاجة فقط للمضي قدمًا، بعقلها وجسدها. كانت بحاجة لإتمام هذا الأمر، لجعله دائمًا، حتى تتمكن من وضع غريغوري في ماضيها وتتظاهر على الأقل باحتضان حياتها الجديدة كزوجة للورد هاسيلبي.

لكن هيرميون كانت تستأذن ريتشارد للحصول على لحظة منفردة مع لوسي، ثم أخذت يديها، وانحنت وهمست:

– "لوسي، هل أنتِ متأكدة أنكِ ترغبين في فعل هذا؟"

نظرت إليها لوسي بدهشة. لماذا تسألها هيرميون هذا؟ في اللحظة التي ترغب فيها بالهرب أكثر من أي وقت مضى.

ألم تكن تبتسم؟ ألم ترها هيرميون تبتسم؟

ابتلعت لوسي ريقها. حاولت تقويم كتفيها وقالت:

– "نعم. نعم، بالطبع. لماذا تسألين شيئًا كهذا؟"

لم تجب هيرميون على الفور. لكن عينيها – تلك العينين الخضراوين الكبيرتين اللتين تفقدان الرجال البالغين صوابهم – أجابتا نيابة عنها.

ابتلعت لوسي وأدارت وجهها، غير قادرة على تحمل ما رأته هناك.

وهمست هيرميون:

– "لوسي."

كان هذا كل شيء. مجرد "لوسي".

التفتت لوسي مرة أخرى. أرادت أن تسأل هيرميون عما تعنيه. أرادت أن تسأل لماذا قالت اسمها وكأنه مأساة. لكنها لم تفعل. لم تستطع. ولذا أملت أن ترى هيرميون أسئلتها في عينيها.

وفعلت. لمست هيرميون خدها، مبتسمة بحزن:

– "تبدين كأحزن عروس رأيتها في حياتي."

أغمضت لوسي عينيها:

– "لست حزينة. أنا فقط أشعر..."

لكنها لم تكن تعرف ماذا تشعر. بماذا يُفترض أن تشعر؟ لم يدربها أحد على هذا. طوال سنوات تعليمها، مع مربيتها ومعلمتها، والسنوات الثلاث في مدرسة الآنسة موس، لم يعطها أحد دروسًا في هذا.

لماذا لم يدرك أحد أن هذا أهم بكثير من التطريز أو الرقصات الريفية؟

– "أشعر..."

ثم فهمت.

– "أشعر وكأنني أقول وداعًا."

رمشت هيرميون بدهشة:

– "لمن؟"

لنفسي.

وهذا ما كانت تفعله. كانت تودع نفسها، وكل ما كان يمكن أن تصبحه.

شعرت بيد أخيها على ذراعها:

– "حان وقت البدء."

أومأت برأسها.

سألت هيرميون:

– "أين باقتك؟"

ثم أجابت نفسها:

– "أوه. هناك."

التقطت الزهور، مع باقتها الخاصة، من طاولة قريبة وسلمتها لـ لوسي.

همست وهي تقبل خد لوسي:

– "ستكونين سعيدة. يجب أن تكوني كذلك. ببساطة لن أحتمل عالمًا لستِ فيه سعيدة."

ارتجفت شفتا لوسي.

قالت هيرميون:

– "يا إلهي، أبدو مثلكِ الآن. هل ترين أي تأثير جيد أنتِ؟"

ثم، مع قبلة أخيرة أرسلتها في الهواء، دخلت الكنيسة الصغيرة.

قال ريتشارد:

– "دورك."

أجابت لوسي:

– "تقريبًا."

ثم حان الوقت.



كانت داخل الكنيسة، تمشي في الممر. كانت في المقدمة، تومئ للكاهن، وتنظر إلى هاسيلبي وتذكر نفسها أنه على الرغم من... حسنًا، على الرغم من عادات معينة لم تفهمها تمامًا، فإنه سيكون زوجًا مقبولًا تمامًا.

هذا ما كان عليها فعله.

إذا قالت لا...

لا يمكنها قول لا.

استطاعت رؤية هيرميون بطرف عينها، تقف بجانبها بابتسامة هادئة.

كانت هي و ريتشارد قد وصلا إلى لندن قبل ليلتين، وكانا سعيدين للغاية.

ضحكا ومازحا وتحدثا عن التحسينات التي يخططان لإجرائها في دير فينسوورث. دفيئة برتقال، هكذا ضحكا. أرادا دفيئة برتقال. وغرفة حضانة.

كيف يمكن لـ لوسي أن تسلب ذلك منهما؟ كيف يمكن أن تلقي بهما في حياة من العار والفقر؟

سمعت صوت هاسيلبي يجيب:

– "أقبل."

ثم جاء دورها.

– "هل تقبلين بهذا الرجل زوجًا لكِ، لتعيشا معًا وفق شرع الله في رباط الزوجية المقدس؟ هل تطيعينه، وتخدمينه، وتحبينه، وتكرمينه، وتصونينه في المرض والصحة؛ وتتركين كل من سواه، مخلصة له وحده، ما دمتما حيين؟"

ابتلعت ريقها وحاولت ألا تفكر في غريغوري.

– "أقبل."

لقد أعطت موافقتها. هل انتهى الأمر إذًا؟ لم تشعر باختلاف. كانت لا تزال لوسي القديمة نفسها، باستثناء أنها كانت تقف أمام أناس أكثر مما رغبت في الوقوف أمامهم مرة أخرى، وكان شقيقها يسلمها لزوجها.

وضع الكاهن يدها اليمنى في يد هاسيلبي، وتعهد بعهد الزواج، بصوت عالٍ وحازم وواضح.

انفصلا، ثم أخذت لوسي يده.

أنا، لوسيندا مارغريت كاثرين...

– "أنا، لوسيندا مارغريت كاثرين..."

...أتخذك، آرثر فيتزويليام جورج...

– "...أتخذك، آرثر فيتزويليام جورج..."

قالتها. كررت خلف الكاهن، كلمة بكلمة. قالت جزأها، حتى اللحظة التي نوت فيها إعطاء هاسيلبي عهدها، حتى اللحظة التي...

انفتح بابا الكنيسة الصغيرة بعنف.

استدارت. استدار الجميع.

غريغوري.

يا إلهي.

بدا مثل مجنون، يلهث بشدة لدرجة أنه بالكاد قادر على الكلام.

ترنح للأمام، متمسكًا بحواف المقعد للدعم، وسمعته يقول:

– "لا."

توقف قلب لوسي.

– "لا تفعلي ذلك."

انزلقت باقتها من يديها. لم تستطع الحركة، لم تستطع الكلام، لم تستطع فعل أي شيء سوى الوقوف هناك مثل تمثال وهو يمشي نحوها، غير عابئ فيما يبدو بمئات الأشخاص الذين يحدقون به.

قال مرة أخرى:

– "لا تفعلي ذلك."

ولم يكن أحد يتحدث. لماذا لا يتحدث أحد؟ بالتأكيد سيندفع شخص ما للأمام، يمسك بـ غريغوري من ذراعيه، ويسحبه بعيدًا...

لكن لم يفعل أحد. كان مشهدًا فرجويًا. كان مسرحًا، وبدا أن لا أحد يريد تفويت النهاية.

ثم...

هناك تمامًا.

هناك تمامًا أمام الجميع، توقف.

توقف. وقال:

– "أنا أحبك."

بجانبها تمتمت هيرميون:

– "يا إلهي."

أرادت لوسي البكاء.

قال مرة أخرى، وهو يواصل المشي، وعيناه لا تبارحان وجهها أبدًا:

– "أنا أحبك."

قال، واصلًا أخيرًا إلى مقدمة الكنيسة:

– "لا تفعلي ذلك. لا تتزوجيه."

همست لوسي:

– "غريغوري، لماذا تفعل هذا؟"

قال، وكأن لا يوجد تفسير آخر:

– "أنا أحبك."

اختنقت أنّة صغيرة في حلقها. حرقت الدموع عينيها، وشعر جسدها كله بالتيبس. متيبس ومتجمد. نسمة صغيرة، نفَس صغير قد يوقعها أرضًا. ولم تستطع التفكير في شيء سوى لماذا؟

و لا.

و أرجوك.

و... يا للسماء، اللورد هاسيلبي!

نظرت إليه، إلى العريس الذي وجد نفسه قد هبط إلى دور ثانوي. كان يقف صامتًا طوال هذا الوقت، يراقب الدراما المتكشفة باهتمام لا يقل عن الجمهور. بعينيها توسلت إليه للحصول على توجيه، لكنه هز رأسه فقط. كانت حركة صغيرة جدًا، أدق من أن يلحظها أي شخص آخر، لكنها رأتها، وعرفت ما تعنيه.

الأمر متروك لكِ.

التفتت مرة أخرى إلى غريغوري. كانت عيناه تشتعلان، وجثا على ركبة واحدة.

لا، حاولت أن تقول. لكنها لم تستطع تحريك شفتيها. لم تستطع إيجاد صوتها.

قال غريغوري، وشعرت به في صوته. التف حول جسدها، قبلها، عانقها:

– "تزوجيني."

ويا إلهي العزيز، لقد أرادت ذلك. أكثر من أي شيء، أرادت أن تهوي على ركبتيها وتمسك وجهه بين يديها. أرادت أن تقبله، أرادت أن تصرخ بحبها له – هنا، أمام كل من تعرفهم، وربما كل من ستعرفهم أبدًا.

لكنها أرادت كل ذلك بالأمس، واليوم الذي قبله. لم يتغير شيء. أصبح عالمها أكثر علنية، لكنه لم يتغير.

والدها لا يزال خائنًا.

عائلتها لا تزال تتعرض للابتزاز.

مصير أخيها و هيرميون لا يزال بين يديها.

نظرت إلى غريغوري، تتألم لأجله، وتتألم لأجلهما معًا.

همس:

– "تزوجيني."

انفرجت شفتاها، وقالت:

– "لا."





الفصل الثاني والعشرون

وفيه تنفلت الأمور من عقالها.



انفلتت الأمور من عقالها.

اندفع اللورد دافنبورت للأمام، وكذلك عم لوسي وشقيق غريغوري، الذي كان قد تعثر للتو على درجات الكنيسة بعد مطاردة غريغوري عبر مايفير.

اندفع شقيق لوسي للأمام لإبعاد كل من لوسي و هيرميون عن المشاجرة، لكن اللورد هاسيلبي، الذي كان يراقب الأحداث بهيئة متفرج مفتون، أمسك بذراع خطيبته بهدوء وقال:

– "سأعتني بها."

أما لوسي، فقد ترنحت إلى الخلف، وفمها مفتوح من الصدمة بينما قفز اللورد دافنبورت فوق غريغوري، هابطًا ببطنه لأسفل مثل... حسنًا، مثل شيء لم ترَ لوسي مثله من قبل.

صاح دافنبورت بانتصار:

– "لقد أمسكت به!"

فقط ليتلقى صفعة قوية بحقيبة يد تخص هياسنث سانت كلير.

أغمضت لوسي عينيها.

همس هاسيلبي في أذنها:

– "ليس زفاف أحلامك، كما أتصور."

هزت لوسي رأسها، مخدرة جدًا لدرجة أنها لم تستطع فعل أي شيء آخر. كان يجب أن تساعد غريغوري. حقًا، كان يجب عليها ذلك. لكنها شعرت بأن طاقتها قد استُنزفت تمامًا، وعلاوة على ذلك، كانت جبانة جدًا لمواجهته مرة أخرى.

ماذا لو رفضها؟

ماذا لو لم تستطع مقاومته؟

تابع هاسيلبي، ونبرته هادئة وكأنه يشاهد سباق خيل غير مثير للغاية:

– "آمل حقًا أن يتمكن من الخروج من تحت والدي. الرجل يزن عشرين حجرًا، ليس أنه سيعترف بذلك."

التفتت لوسي إليه، غير قادرة على تصديق مدى هدوئه بالنظر إلى الشغب الوشيك الذي اندلع في الكنيسة. حتى رئيس الوزراء بدا وكأنه يصد سيدة ضخمة وممتلئة الجسم ترتدي قبعة مزينة بفواكه متقنة، كانت تضرب أي شخص يتحرك.

قال هاسيلبي متابعًا نظرة لوسي:

– "لا أعتقد أنها تستطيع الرؤية. عنبها يتدلى."

من هذا الرجل الذي... يا للسماء، هل تزوجته بعد؟

لقد اتفقا على شيء ما، كانت متأكدة من ذلك، لكن لم يعلنهما أحد زوجًا وزوجة. ولكن في كلتا الحالتين، كان هاسيلبي هادئًا بشكل غريب، بالنظر إلى أحداث الصباح.

سألت لوسي:

– "لماذا لم تقل شيئًا؟"

التفت، ناظرًا إليها بفضول:

– "تعنين بينما كان سيدك بريدجيرتون يعلن حبه؟"

لا، بينما كان الكاهن يطن حول سر الزواج، أرادت أن تصرخ.

وبدلًا من ذلك، أومأت برأسها.

أمال هاسيلبي رأسه إلى الجانب:

– "أفترض أنني أردت رؤية ما ستفعلينه."

حدقت فيه بعدم تصديق. ماذا كان سيفعل لو قالت نعم؟

قال هاسيلبي:

– "أنا ممتن، بالمناسبة. وسأكون زوجًا طيبًا لكِ. لا داعي للقلق بشأن ذلك."

لكن لوسي لم تستطع التحدث. أُبعد اللورد دافنبورت عن غريغوري، وعلى الرغم من أن سيدًا آخر لم تتعرف عليه كان يسحبه للخلف، إلا أنه كان يكافح للوصول إليها.

همست، رغم أنه لا يمكن لأحد أن يسمعها، ولا حتى هاسيلبي الذي نزل لمساعدة رئيس الوزراء:

– "أرجوك. أرجوك لا تفعل."

لكن غريغوري كان عنيدًا، وحتى مع وجود رجلين يسحبانه، أحدهما ودود والآخر ليس كذلك، تمكن من الوصول إلى أسفل الدرجات. رفع وجهه، واشتعلت عيناه وهما تنظران ـ في عينيها. كانتا متألمتين، صارختين بالكرب وعدم الفهم، وكادت لوسي تتعثر من الألم المنطلق الذي رأته هناك.

سأل بحدة:

– "لماذا؟"

بدأ جسدها كله يرتجف. هل تستطيع الكذب عليه؟ هل تستطيع فعل ذلك؟ هنا، ـ في كنيسة، بعد أن جرحته بأكثر الطرق شخصية وعلنية يمكن تصورها.

– "لماذا؟"

همست:

– "لأنني اضطررت لذلك."

اشتعلت عيناه بشيء ما – خيبة أمل؟ لا. أمل؟ لا، ليس ذلك أيضًا. كان شيئًا آخر. شيئًا لم تستطع تحديده تمامًا.

فتح فمه ليتحدث، ليسألها شيئًا، لكن في تلك اللحظة انضم رجل ثالث إلى الرجلين اللذين يمسكان به، ومعًا تمكنوا من سحبه من الكنيسة.

ضمت لوسي ذراعيها إلى جسدها، بالكاد قادرة على الوقوف وهي تشاهده يُسحب بعيدًا.

– "كيف أمكنكِ؟"

التفتت. كانت هياسنث سانت كلير قد تسللت خلفها وكانت ترمقها بنظرة غاضبة وكأنها الشيطان نفسه.

قالت لوسي:

– "أنتِ لا تفهمين."

لكن عيني هياسنث اشتعلتا بالغضب. همست بفحيح:

– "أنتِ ضعيفة. أنتِ لا تستحقينه."

هزت لوسي رأسها، غير متأكدة تمامًا مما إذا كانت تتفق معها أم لا.

– "آمل أنكِ..."

– "هياسنث!"

انحرفت عينا لوسي إلى الجانب. اقتربت امرأة أخرى. كانت والدة غريغوري. تم تقديمهما لبعضهما في الحفل في منزل هاستينغز.

قالت بصرامة:

– "هذا يكفي."

ابتلعت لوسي ريقها، تحبس دموعها.

التفتت الليدي بريدجيرتون إليها وقالت وهي تسحب ابنتها بعيدًا:

– "سامحينا."

راقبت لوسي رحيلهما، وكان لديها إحساس غريب بأن كل هذا يحدث لشخص آخر، وأنه ربما مجرد حلم، مجرد كابوس، أو ربما كانت عالقة في مشهد من رواية مثيرة. ربما كانت حياتها كلها نسج خيال شخص آخر. ربما لو أغمضت عينيها فقط...

– "هل نكمل الأمر؟"

ابتلعت ريقها. كان اللورد هاسيلبي. كان والده بجانبه، ينطق بنفس المشاعر، لكن بكلمات أقل لطفًا بكثير.

أومأت لوسي.

نخر دافنبورت:

– "جيد. فتاة عاقلة."

تساءلت لوسي عما يعنيه أن يمتدحها اللورد دافنبورت. بالتأكيد لا شيء جيد.

لكن مع ذلك، سمحت له بقيادتها مرة أخرى إلى المذبح. ووقفت هناك أمام نصف المصلين الذين لم يختاروا متابعة المشهد في الخارج.

وتزوجت هاسيلبي.



– "فيمَ كنت تفكر؟"

استغرق الأمر من غريغوري لحظة ليدرك أن والدته كانت تطلب هذا من كولين، وليس منه. كانوا جالسين في عربتها، التي سُحب إليها بمجرد مغادرتهم الكنيسة. لم يكن غريغوري يعرف إلى أين هم ذاهبون. في دوائر عشوائية، على الأرجح. أي مكان لم يكن سانت جورج.

احتج كولين:

– "حاولت إيقافه."

بدت فيوليت بريدجيرتون غاضبة كما لم يرها أي منهم من قبل.

– "من الواضح أنك لم تحاول بجد كافٍ."

– "هل لديك أي فكرة عن سرعته في الجري؟"

أكدت هياسنث دون النظر إليهم:

– "سريع جدًا."

كانت جالسة قطريًا مقابل غريغوري، تحدق من النافذة بعينين ضيقتين.

لم يقل غريغوري شيئًا.

تنهدت فيوليت:

– "أوه، يا غريغوري. أوه، يا بني المسكين."

قالت هياسنث:

– "سيتعين عليك مغادرة المدينة."

وافقت والدتهما:

– "إنها محققة. لا مفر من ذلك."

لم يقل غريغوري شيئًا. ماذا كانت تعني لوسي بـ لأنني اضطررت لذلك؟ ماذا يعني ذلك؟

زمجرت هياسنث:

– "لن أستقبلها أبدًا."

ذكرها كولين:

– "ستكون كونتيسة."

– "لا يهمني لو كانت ملكة..."

– "هياسنث!" جاء هذا من والدتهم.

انفعلت هياسنث:

– "حسنًا، أنا لا أهتم. لا يحق لأحد أن يعامل أخي هكذا. لا أحد!"

حدق فيها فيوليت وكولين. بدا كولين مستمتعًا. وفيوليت منزعجة.

تابعت هياسنث:

– "سأدمرها."

قال غريغوري بصوت منخفض:

– "لا، لن تفعلي."

صمتت بقية عائلته، وشك غريغوري في أنهم لم يدركوا، حتى اللحظة التي تحدث فيها، أنه لم يكن يشارك في المحادثة.

قال:

– "ستتركيها وشأنها."

صرّت هياسنث على أسنانها.

ثبت عينيه بعينيها، بصلابة وتصميم فولاذي. وتابع:

- "وإذا تقاطعت طرقكما يومًا، ستكونين في غاية الود واللطف. هل تفهمينني؟"

لم تقل هياسنث شيئًا.

صرخ:

- "هل تفهمينني؟"

حدقت عائلته فيه بصدمة. لم يفقد أعصابه أبدًا. أبدًا.

ثم قالت هياسنث، التي لم تمتلك أبدًا حسًا عاليًا باللباقة:

- "لا، في الواقع."

قال غريغوري، وصوته يقطر جليدًا في اللحظة ذاتها التي التفت فيها كولين إليها وهسهس "اخرسي":

- "عذرًا؟"

تابعت هياسنث، واكزة كولين بكوعها في ضلوعه:

- "أنا لا أفهمك. كيف يمكنك أن تشعر بالتعاطف معها؟ لو حدث هذا لي، ألم تكن..."

قاطعها غريغوري بحدة:

- "هذا لم يحدث لكِ. وأنتِ لا تعرفينها. لا تعرفين أسباب أفعالها."

سألت هياسنث بحدة:

- "هل تعرف أنت؟"

لم يكن يعرف. وكان ذلك يقتله.

قالت والدتها بهدوء:

- "أديري الخد الآخر يا هياسنث."

تراجعت هياسنث للخلف، وجسدها متوتر من الغضب، لكنها أمسكت لسانها.

اقترحت فيوليت:

– "ربما يمكنك البقاء مع بينديكت وصوفي في ويلتشير. أعتقد أن أنتوني وكيت متوقع وصولهما إلى المدينة قريبًا، لذا لا يمكنك الذهاب إلى أوبري هول، رغم أنني متأكدة أنهم لن يمانعوا إذا أقمتِ هناك في غيابهم."

حدق غريغوري فقط من النافذة. لم يرغب في الذهاب إلى الريف.

قال كولين:

– "يمكنك السفر. إيطاليا ممتعة بشكل خاص في هذا الوقت من العام. وأنت لم تزرها، أليس كذلك؟"

هز غريغوري رأسه، مستمعًا بنصف انتباه. لم يرغب في الذهاب إلى إيطاليا.

لأنني اضطررت لذلك، هكذا قالت.

ليس لأنها أرادت ذلك. ليس لأنه كان منطقيًا.

لأنها اضطرت لذلك.

ماذا يعني ذلك؟

هل أُجبرت؟ هل كانت تتعرض للابتزاز؟

ما الذي يمكن أن تكون قد فعلته لتستحق الابتزاز؟

قالت فيوليت فجأة، واضعة يدًا متعاطفة على ذراعه:

– "كان سيكون من الصعب جدًا عليها ألا تمضي قدمًا في الأمر. اللورد دافنبورت ليس رجلًا يود أي شخص أن يكون عدوًا له. وحقًا، هناك في الكنيسة، والجميع ينظرون... حسنًا، كان على المرء أن يكون شجاعًا للغاية. ومرنًا."

تنهدت باستسلام وتوقفت، هازة رأسها.

– "ومستعدًا."

سأل كولين:

– "مستعدًا؟"

أوضحت فيوليت:

– "لما سيأتي بعد ذلك. كانت ستكون فضيحة ضخمة."

تمتم غريغوري:

– "إنها بالفعل فضيحة ضخمة."

قالت والدته:

– "نعم، ولكن ليس بقدر ما لو قالت نعم. ليس أنني سعيدة بالنتيجة. أنت تعلم أنني لا أتمنى لك سوى سعادة قلبك. لكن سيُنظر إليها باستحسان لاختيارها. سيُنظر إليها كفتاة عاقلة."

شعر غريغوري بزاوية فمه ترتفع في ابتسامة ساخرة:

– "وأنا، كأحمق عاشق."

لم يعارضه أحد.

بعد لحظة قالت والدته:

– "أنت تتقبل هذا بشكل جيد نوعًا ما، يجب أن أقول."

حقًا.

– "كنت سأظن..." توقفت. "حسنًا، لا يهم ما كنت سأظنه، المهم هو ما يحدث بالفعل."

التفت غريغوري بحدة لينظر إليها:

– "لا. ماذا كنتِ ستظنين؟ كيف يجب أن أتصرف؟"

قالت والدته، مرتبكة بوضوح من الأسئلة المفاجئة:

– "إنها ليست مسألة يجب. فقط أنني كنت سأظن أنك ستبدو... أكثر غضبًا."

حدق فيها للحظة طويلة، ثم عاد إلى النافذة. كانوا يسافرون على طول بيكاديللي، متجهين غربًا نحو هايد بارك. لماذا لم يكن أكثر غضبًا؟ لماذا لم يكن يضرب الجدار بقبضته؟ كان قد اضطر لأن يُسحب من الكنيسة ويحشر بالقوة في العربة، ولكن بمجرد أن تم ذلك، تملكه هدوء غريب، يكاد يكون خارقًا للطبيعة.

ثم تردد صدى شيء قالته والدته في ذهنه.

أنت تعلم أنني لا أتمنى لك سوى سعادة قلبك.

سعادة قلبه.

لوسي تحبه. كان متأكدًا من ذلك. لقد رأى ذلك في عينيها، حتى في اللحظة التي رفضته فيها. كان يعرف ذلك لأنها أخبرته بذلك، وهي لا تكذب بشأن أمور كهذه. لقد شعر بذلك في الطريقة التي قبلته بها، وفي دفء عناقها.

هي تحبه. ومهما كان ما جعلها تمضي قدمًا في زواجها من هاسيلبي، فهو أكبر منها. أقوى.

هي بحاجة لمساعدته.

قالت والدته بهدوء:

– "غريغوري؟"

التفت. ورمش.

قالت:

– "لقد انتفضت في مقعدك."

هل فعل؟ لم يلاحظ حتى. لكن حواسه شحذت، وعندما نظر لأسفل، رأى أنه كان يقبض أصابعه ويبسطها.

– "أوقفوا العربة."

التفت الجميع ليواجهوه. حتى هياسنث، التي كانت تحدق بتصميم من النافذة.

قال مرة أخرى:

– "أوقفوا العربة."

سألت والدته، مرتابة بوضوح:

– "لماذا؟"

أجاب، ولم تكن كذبة حتى:

– "أحتاج للهواء."

طرق كولين على الجدار:

– "سأمشي معك."

– "لا. أفضل أن أكون وحدي."

اتسعت عينا والدته:

– "غريغوري... أنت لا تخطط لـ..."

أكمل عنها:

– "اقتحام الكنيسة؟"

استند للخلف، مانحًا إياها ابتسامة جانبية غير مبالية:

– "أعتقد أنني أحرجت نفسي بما فيه الكفاية ليوم واحد، ألا تظنين ذلك؟"

تدخلت هياسنث:

– "سيكونان قد نطقا بعهودهما الآن، على أي حال."

قاوم غريغوري الرغبة في التحديق في أخته، التي يبدو أنها لا تفوت فرصة للوكز أو النغز أو الالتواء. أجاب:

– "بالضبط."

قالت فيوليت، وعيناها الزرقاوان لا تزالان مليئتين بالقلق:

– "سأشعر بتحسن لو لم تكن وحدك."

قال كولين بهدوء:

– "دعيه يذهب."

التفت غريغوري إلى أخيه الأكبر بدهشة. لم يتوقع أن يدافع عنه.

أضاف كولين:

– "إنه رجل. يمكنه اتخاذ قراراته الخاصة."

حتى هياسنث لم تحاول المعارضة.

كانت العربة قد توقفت بالفعل، وكان السائق ينتظر خارج الباب. عند إيماءة كولين، فتحه.

قالت فيوليت:

– "أتمنى ألا تذهب."

قبل غريغوري خدها وقال:

– "أحتاج للهواء. هذا كل شيء."

قفز لأسفل، ولكن قبل أن يتمكن من إغلاق الباب، مال كولين للخارج.

قال كولين بهدوء:

– "لا تفعل أي شيء أحمق."

وعده غريغوري:

– "لا شيء أحمق. فقط ما هو ضروري."

تفقد موقعه، ثم، وبما أن عربة والدته لم تتحرك، انطلق عمدًا نحو الجنوب.

بعيدًا عن سانت جورج.

ولكن بمجرد وصوله للشارع التالي، التفت عائدًا.

راكضًا.





الفصل الثالث والعشرون

وفيه يخاطر بطلنا بكل شيء. مرة أخرى.



خلال السنوات العشر التي أصبح فيها عمها وصيها، لم تعرف لوسي أبدًا أنه استضاف حفلًا. لم يكن من النوع الذي يرحب بأي نوع من المصاريف غير الضرورية –في الحقيقة، لم يكن من النوع الذي يبتسم على الإطلاق. لذا، وبشيء من الريبة، اقتربت من الاحتفال الباذخ الذي أُقيم على شرفها في منزل فينسوورث عقب مراسم الزفاف.

لا بد أن اللورد دافنبورت قد أصر على ذلك. كان العم روبرت سيكتفي بتقديم كعك الشاي في الكنيسة وينتهي الأمر. لكن لا، يجب أن يكون الزفاف حدثًا، بأكثر معاني الكلمة إسرافًا، وهكذا بمجرد انتهاء المراسم، نُقلت لوسي بسرعة إلى منزلها الذي سيصبح سابقًا قريبًا، ومُنحت وقتًا كافيًا فقط في غرفة نومها التي ستصبح سابقة قريبًا لرش بعض الماء البارد على وجهها قبل استدعائها لتحية ضيوفها في الطابق السفلي.

كان أمرًا لافتًا، كما فكرت وهي تومئ برأسها وتتلقى التمنيات الطيبة من الحضور، مدى براعة الطبقة الراقية في التظاهر بأن شيئًا لم يحدث.

أوه، سيتحدثون عن لا شيء آخر غدًا، وربما تتوقع أن تكون الموضوع الرئيسي للمحادثات للأشهر القليلة القادمة حتى. وبالتأكيد خلال العام القادم لن يذكر أحد اسمها دون أن يضيف: "تعرفين من هي. صاحبة الزفاف."

والذي سيتبعه بالتأكيد: "آه... هي تلك."

لكن الآن، وفي وجهها، لم يكن هناك سوى "يا لها من مناسبة سعيدة"، و"تبدين عروسًا جميلة". وبالطبع، بالنسبة للماكرين والجريئين – "مراسم رائعة، ليدي هاسيلبي".

ليدي هاسيلبي.

جربت الاسم في ذهنها. هي الآن ليدي هاسيلبي.

كان يمكن أن تكون السيدة بريدجيرتون.

ليدي لوسيندا بريدجيرتون، كما افترضت، حيث لم تكن مطالبة بالتخلي عن لقبها التشريفي عند الزواج من عامة الناس. كان اسمًا جميلًا – ربما ليس برقي ليدي هاسيلبي، وبالتأكيد لا يقارن بكونتيسة دافنبورت، لكن...

ابتلعت ريقها، وتمكنت بطريقة ما من عدم إزاحة الابتسامة التي ثبتتها على وجهها قبل خمس دقائق.

كانت تود أن تكون ليدي لوسيندا بريدجيرتون.

أحبت ليدي لوسيندا بريدجيرتون. كانت من النوع السعيد، بابتسامة حاضرة وحياة ممتلئة وكاملة. لديها كلب، وربما اثنان، وعدة أطفال. منزلها دافئ ومريح، تشرب الشاي مع صديقاتها، وتضحك.

ليدي لوسيندا بريدجيرتون تضحك.

لكنها لن تكون تلك المرأة أبدًا. لقد تزوجت اللورد هاسيلبي، والآن هي زوجته، ومهما حاولت، لم تستطع تخيل إلى أين قد تقودها حياتها. لم تكن تعرف ماذا يعني أن تكون ليدي هاسيلبي.

استمر الحفل بضجيجه، ورقصت لوسي رقصتها الإلزامية مع زوجها الجديد، الذي لاحظت بارتياح أنه بارع للغاية. ثم رقصت مع أخيها، مما كاد يجعلها تبكي، ثم عمها، لأنه كان متوقعًا.

قال:

– "لقد فعلتِ الشيء الصحيح يا لوسي."

لم تقل شيئًا. لم تثق بنفسها لتفعل ذلك.

– "أنا فخور بكِ."

كادت تضحك.

– "لم تكن فخورًا بي من قبل قط."

– "أنا كذلك الآن."

لم يغب عن ملاحظتها أن هذا لم يكن تناقضًا.

أعادها عمها إلى جانب ساحة الرقص، ثم – يا إلهي – كان عليها الرقص مع اللورد دافنبورت.

وقد فعلت، لأنها كانت تعرف واجبها. في هذا اليوم، خاصة، كانت تعرف واجبها.

على الأقل لم تضطر للتحدث. كان اللورد دافنبورت في ذروة فيضه العاطفي، وتولى الحديث نيابة عنهما معًا وأكثر. كان مسرورًا بـ لوسي. كانت مكسبًا رائعًا للعائلة.

وهكذا دواليك حتى أدركت لوسي أنها تمكنت من تحبيب نفسها إليه بأكثر الطرق رسوخًا. لم توافق ببساطة على الزواج من ابنه ذي السمعة المشكوك فيها؛ بل أكدت القرار أمام الطبقة الراقية بأكملها في مشهد جدير بمسرح دروري لين.

حركت لوسي رأسها بتكتم إلى الجانب. عندما يتحمس اللورد دافنبورت، يميل رذاذ لعابه للتطاير من فمه بسرعة ودقة مقلقتين. حقًا، لم تكن متأكدة أيهما أسوأ – ازدراء اللورد دافنبورت أم امتنانه الأبدي.

لكن لوسي تمكنت من تجنب والد زوجها الجديد لمعظم الاحتفالات، والحمد للسماء. تمكنت من تجنب معظم الجميع، وهو ما كان سهلًا بشكل مدهش، بالنظر إلى أنها العروس. لم ترغب في رؤية اللورد دافنبورت، لأنها تمقته، ولم ترغب في رؤية عمها، لأنها اشتبهت نوعًا ما في أنها تمقته أيضًا. ولم ترغب في رؤية اللورد هاسيلبي، لأن ذلك سيؤدي فقط إلى التفكير في ليلة زفافها القادمة، ولم ترغب في رؤية هيرميون، لأنها ستطرح أسئلة، وعندها ستبكي لوسي.

ولم ترغب في رؤية أخيها، لأنه من المؤكد أن يكون مع هيرميون، وإلى جانب ذلك، كانت تشعر بمرارة نوعًا ما، تتناوب مع الشعور بالذنب لشعورها بالمرارة. لم يكن خطأ ريتشارد أنه سعيد بجنون وهي ليست كذلك.

لكن رغم ذلك، فضلت ألا تضطر لرؤيته.

مما أبقى الضيوف، ومعظمهم لا تعرفهم. ولا أحد منهم ترغب في مقابلته.

لذا وجدت بقعة في الزاوية، وبعد بضع ساعات، كان الجميع قد شربوا كثيرًا لدرجة أن أحدًا لم يبدُ عليه ملاحظة أن العروس تجلس بمفردها.

وبالتأكيد لم يلاحظ أحد عندما هربت إلى غرفة نومها لأخذ قسط قصير من الراحة. ربما كان من سوء الأدب جدًا لعروس أن تتجنب حفلتها الخاصة، لكن في تلك اللحظة، لم تبالِ لوسي ببساطة. سيعتقد الناس أنها ذهبت لقضاء حاجتها، إذا لاحظ أحد غيابها. وبطريقة ما بدا من المناسب لها أن تكون وحدها في هذا اليوم.

تسللت صاعدة السلالم الخلفية، خشية أن تصادف أي ضيوف متجولين، ومع تنهيدة ارتياح، دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها.

أسندت ظهرها إلى الباب، تنكمش ببطء حتى شعرت وكأنه لم يتبق بداخلها شيء.

وفكرت – الآن سأبكي.

أرادت ذلك. حقًا، أرادت. شعرت وكأنها كانت تحبس ذلك بداخلها لساعات، تنتظر فقط لحظة خاصة. لكن الدموع أبت أن تأتي. كانت مخدرة جدًا، ومذهولة جدًا بأحداث الأربع والعشرين ساعة الماضية. ولذا وقفت هناك، تحدق في سريرها.

تتذكر.



يا للسماء، هل مرت اثنتا عشرة ساعة فقط منذ استلقت هناك، بدا الأمر وكأنه سنوات. كان الأمر وكأن حياتها الآن مقسمة بدقة إلى قسمين، وهي الآن وبشكل قاطع في مرحلة "ما بعد".

أغمضت عينيها. ربما إذا لم ترَ ذلك، فسيختفي.

ربما إذا...

– "لوسي."

تجمدت. يا إلهي، لا.

– "لوسي."

فتحت عينيها ببطء. وهمست:

– "غريغوري؟"

كان يبدو بحالة يرثى لها، أشعث ومتسخاً كما لا يفعله بالرجل سوى ركوب خيل مجنون. لا بد أنه تسلل بنفس الطريقة التي فعلها الليلة الماضية. لا بد أنه كان ينتظرها.

فتحت فمها، حاولت التحدث.

قال مرة أخرى:

– "لوسي."

وانساب صوته خلالها، ذاب حولها.

ابتلعت ريقها:

– "لماذا أنتَ هنا؟"

تقدم خطوة نحوها، وتألم قلبها لذلك فقط. كان وجهه وسيمًا جدًا، وعزيزًا جدًا، ومألوفًا بشكل رائع ومثالي. كانت تعرف انحناء وجنتيه، والظل الدقيق لعينه، بني بالقرب من القزحية، يذوب في الأخضر عند الحافة.

وفمه – كانت تعرف ذلك الفم، شكله، وملمسه. كانت تعرف ابتسامته، وتعرف عبوسه، وتعرف...

كانت تعرف أكثر مما ينبغي بكثير.

قالت، والتهدج في صوتها يكذب سكون وقفتها:

– "لا ينبغي أن تكون هنا."

خطا خطوة أخرى في اتجاهها. لم يكن هناك غضب في عينيه، وهو ما لم تفهمه. لكن الطريقة التي كان ينظر بها إليها – كانت حارة، ومتملكة، ولم تكن شيئًا يجب على امرأة متزوجة أن تسمح به أبدًا من رجل ليس زوجها.

قال:

– "كان علي أن أعرف السبب. لم أستطع تركك ترحلين. ليس حتى أعرف السبب."

همست:

– "لا تفعل. أرجوك لا تفعل هذا."

أرجوك لا تجعلني أندم. أرجوك لا تجعلني أتوق وأتمنى وأتساءل.

ضمت ذراعيها إلى صدرها، كما لو أنه ربما... ربما يمكنها الضغط بقوة لدرجة تمكنها من قلب نفسها من الداخل للخارج. وعندها لن تضطر للرؤية، ولن تضطر للسمع. يمكنها فقط أن تكون وحيدة، و...

– "لوسي..."

قالت بحدة هذه المرة:

– "لا تفعل."

لا تفعل.

لا تجعلني أؤمن بالحب.

لكنه تحرك أقرب فأقرب. ببطء، ولكن دون تردد. قال بصوت دافئ ومليء بالتصميم:

– "لوسي. فقط أخبريني السبب. هذا كل ما أطلبه. سأرحل وأعدك بألا أقترب منك مرة أخرى أبدًا، لكن يجب أن أعرف السبب."

هزت رأسها:

– "لا أستطيع إخبارك."

صحح لها:

– "أنتِ لن تخبريني."

صرخت والكلمة تخنقها:

– "لا. لا أستطيع! أرجوك، غريغوري. يجب أن تذهب."

للحظة طويلة لم يقل شيئًا. اكتفى بمراقبة وجهها، واستطاعت عمليًا رؤيته يفكر.

فكرت أن عليها ألا تسمح بهذا، وفقاعة من الذعر تبدأ في التصاعد بداخلها. يجب أن تصرخ. تطلب طرده. يجب أن تهرب من الغرفة قبل أن يتمكن من تدمير خططها الدقيقة للمستقبل. لكن بدلًا من ذلك وقفت هناك فقط، وقال هو:

– "أنتِ تتعرضين للابتزاز."

لم يكن سؤالًا.

لم تجب، لكنها عرفت أن وجهها فضحها.

قال وصوته ناعم وحذر:

– "لوسي، يمكنني مساعدتك. مهما كان الأمر، يمكنني إصلاحه."

قالت:

– "لا، لا يمكنك، وأنت أحمق لـ..."

قطعت كلامها، غاضبة جدًا من أن تتحدث. ما الذي جعله يعتقد أنه يستطيع الاندفاع وإصلاح الأمور وهو لا يعرف شيئًا عن محنتها؟ هل اعتقد أنها استسلمت لشيء صغير؟ شيء يمكن التغلب عليه بسهولة؟

هي لم تكن بذلك الضعف.

قالت:

– "أنت لا تعرف. ليس لديك أي فكرة."

– "إذًا أخبريني."

كانت عضلاتها ترتجف، وشعرت بالحرارة... والبرودة... وكل شيء بينهما.

قال:

– "لوسي."

وكان صوته هادئًا جدًا، ومتزنًا جدًا – كان مثل شوكة، تنخزها تمامًا حيث لا يمكنها الاحتمال.

قالت بحدة:

– "لا يمكنك إصلاح هذا."

– "هذا ليس صحيحًا. لا يوجد شيء يمكن لأي شخص أن يمسكه ضدك ولا يمكن التغلب عليه."

سألته بحدة:

– "بماذا؟ بأقواس قزح والجنيات والتمنيات الطيبة الأبدية لعائلتك؟ لن ينجح الأمر يا غريغوري. لن ينجح. قد يكون آل بريدجيرتون أقوياء، لكن لا يمكنك تغيير الماضي، ولا يمكنك ثني المستقبل ليناسب أهواءك."

قال وهو يمد يده لها:

– "لوسي."

– "لا. لا!"

دفعته بعيدًا، رافضة عرضه للمواساة.

– "أنت لا تفهم. لا يمكنك ذلك. أنتم جميعًا سعداء جدًا، مثاليون جدًا."

– "نحن لسنا كذلك."

– "بل أنتم كذلك. أنتم حتى لا تعرفون أنكم كذلك، ولا يمكنكم تخيل أن بقيتنا ليسوا كذلك، وأننا قد نكافح ونحاول ونكون صالحين ومع ذلك لا نحصل على ما نتمنى."

وخلال كل ذلك، كان يراقبها. يراقبها فقط ويتركها تقف بمفردها، تضم ذراعيها لجسدها، وتبدو صغيرة وشاحبة ووحيدة بشكل يفطر القلب.

ثم سألها.

– "هل تحبينني؟"

أغمضت عينيها:

– "لا تسألني ذلك."

– "هل تحبينني؟"

رأى فكها يشتد، ورأى كيف توتر كتفاها وارتفعا، وعرف أنها تحاول هز رأسها.

مشى غريغوري نحوها – ببطء، وباحترام.

كانت تتألم. كانت تتألم لدرجة أن ألمها انتشر في الهواء، والتف حوله، حول قلبه. توجع لأجلها. كان شيئًا ماديًا، فظيعًا وحادًا، ولأول مرة بدأ يشك في قدرته الخاصة على جعله يختفي.

سأل:

– "هل تحبينني؟"

– "غريغوري..."

– "هل تحبينني؟"

– "لا أستطيع..."

وضع يديه على كتفيها. جفلت، لكنها لم تبتعد.

لمس ذقنها، ورفع وجهها حتى تمكن من إضاعة نفسه في زرقة عينيها.

– "هل تحبينني؟"

انتحبت وهي تنهار بين ذراعيه:

– "نعم. لكن لا أستطيع. ألا تفهم؟ لا ينبغي لي. يجب أن أجعل الأمر يتوقف."

للحظة لم يستطع غريغوري الحركة. كان ينبغي أن يأتي اعترافها كراحة، وبطريقة ما كان كذلك، لكن أكثر من ذلك، شعر بدمه يبدأ في التسابق.

كان يؤمن بالحب.

ألم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الثابت في حياته؟

كان يؤمن بالحب.

كان يؤمن بقوته، بصلاحه الجوهري، بصحته. كان يوقره لقوته، ويحترمه لندرته.

وعرف، هناك وفي تلك اللحظة، وهي تبكي بين ذراعيه، أنه سيخاطر بأي شيء من أجله.

من أجل الحب.

همس غريغوري، وفكرة تبدأ في التشكل في ذهنه. كانت فكرة مجنونة، وسيئة، وغير مستحسنة تمامًا، لكنه لم يستطع الهروب من الفكرة الواحدة التي كانت تندفع عبر عقله.

لم تتمم زواجها بعد.

لا تزال لديهما فرصة.

– "لوسي."

سحبت نفسها بعيدًا:

– "يجب أن أعود. سيفتقدونني."

لكنه أمسك بيدها:

– "لا تعودي."

اتسعت عيناها:

– "ماذا تعني؟"

قال، وشعر بالدوار، والخطورة، وقليل من الجنون:

– "تعالي معي. تعالي معي الآن. أنتِ لستِ زوجته بعد. يمكنكِ إلغاء الزواج."

هزت رأسها وهي تسحب ذراعها منه:

– "أوه لا. لا يا غريغوري."

– "بلى. بلى."

وكلما فكر في الأمر، كلما بدا منطقيًا. لم يكن لديهما الكثير من الوقت؛ بعد هذا المساء سيكون من المستحيل عليها القول إنها لم تُمَس. أفعال غريغوري الخاصة قد ضمنت ذلك. إذا كانت لديهما أي فرصة ليكونا معًا، فيجب أن تكون الآن.

لم يستطع خطفها؛ لم تكن هناك طريقة لإخراجها من المنزل دون إثارة الإنذار. لكنه يستطيع شراء بعض الوقت لهما. ما يكفي ليرتب ما يجب فعله.

سحبها أقرب.

قالت وصوتها يرتفع:

- "لا."

بدأت حقًا في جذب ذراعها الآن، واستطاع رؤية الذعر ينمو في عينيها.

قال:

- "لوسي، بلى."

- "سأصرخ."

- "لن يسمعك أحد."

حدقت فيه بصدمة، وحتى هو لم يصدق ما كان يقوله.

سألت:

- "هل تهددني؟"

هز رأسه:

- "لا. أنا أنقذك."

ثم، وقبل أن تتاح له الفرصة لإعادة النظر في أفعاله، أمسكها من وسطها، وألقاها فوق كتفه، وركض خارجًا من الغرفة.





الفصل الرابع والعشرون

وفيه يترك بطلنا حبيبتنا في موقف محرج.



- "هل تربطني إلى مرحاض؟"

- "آسف."

قالها وهو يعقد وشاحين بعقد خبيرة لدرجة جعلتها تقلق تقريبًا من أنه قد فعل هذا من قبل.

- "لم أستطع تركك في غرفتك. هذا أول مكان سيبحث فيه أي شخص."

شد العقد، ثم اختبر قوتها.

- "لقد كان أول مكان بحثت فيه أنا."

- "لكن مرحاض!"

أضاف بشكل مفيد:

- "في الطابق الثالث. سيستغرق الأمر ساعات قبل أن يجدك أحد هنا."

أطبقت لوسي على فكها، محاولة بيأس احتواء الغضب الذي كان يتصاعد بداخلها.

لقد ربط يديها معًا. خلف ظهرها.

يا إلهي، لم تكن تعلم أنه من الممكن أن تكون غاضبة هكذا من شخص آخر.

لم يكن مجرد رد فعل عاطفي – بل ثار جسدها بالكامل غضبًا. شعرت بالحرارة والوخز، ورغم علمها بأن ذلك لن يجدي نفعًا، نترت ذراعيها ضد

أنابيب المرحاض، صارة على أسنانها ومطلقة أنّة محبطة عندما لم يفعل ذلك شيئًا سوى إصدار رنين مكتوم.

قال وهو يطبع قبلة على قمة رأسها:

– "أرجوك لا تقاومي. هذا سيتركك فقط متعبة وموجوعة."

نظر لأعلى، فاحصًا هيكل المرحاض.

– "أو ستكسرين الأنبوب، وبالتأكيد لا يمكن أن يكون ذلك مشهدًا صحيًا."

– "غريغوري، عليك أن تتركني أذهب."

جثم بحيث أصبح وجهه في مستوى وجهها. قال:

– "لا أستطيع. ليس طالما لا تزال هناك فرصة لنكون معًا."

توسلت:

– "أرجوك، هذا جنون. يجب أن تعيدني. سأكون مدمرة."

قال:

– "سأتزوجك."

– "أنا متزوجة بالفعل!"

قال بابتسامة ماكرة:

– "ليس تمامًا."

– "لقد قلت عهودي!"

– "لكنك لم تتمميها. لا يزال بإمكانك الحصول على فسخ."

صرخت وهي تقاوم بلا جدوى بينما وقف ومشى إلى الباب:

– "ليست هذه هي النقطة! أنت لا تفهم الوضع، وأنت تضع بأنانية احتياجاتك وسعادتك فوق احتياجات وسعادة الآخرين."

عند ذلك، توقف. كانت يده على مقبض الباب، لكنه توقف، وعندما استدار، كادت النظرة في عينيه تكسر قلبها.

سأل:

– "هل أنتِ سعيدة؟"

بهدوء، وبحب كبير لدرجة أنها أرادت البكاء.

همست:

– "لا، لكن..."

– "لم أر قط عروسًا تبدو حزينة هكذا."

أغمضت عينيها، وانكمشت. كان ذلك صدى لما قالته هيرميون، وعرفت أنه حقيقي. وحتى حينها، وهي تنظر إليه، وكتفاها تؤلمانها، لم تستطع الهروب من خفقات قلبها.

هي تحبه.

ستحبه دائمًا.

وكرهته أيضًا، لجعله إياها تريد ما لا يمكنها الحصول عليه. كرهته لحبه إياها كثيرًا لدرجة أنه سيخاطر بكل شيء ليكون معها. والأهم من ذلك كله، كرهته لتحويله إياها إلى الأداة التي ستدمر عائلتها.

حتى قابلت غريغوري، كان ريتشارد وهيرميون الشخصين الوحيدين في العالم اللذين تهتم بهما حقًا. والآن سيدمران، سيُحطَّان إلى مرتبة أدنى بكثير وإلى تعاسة أكبر مما يمكن لـ لوسي تخيلها مع هاسيلبي.

اعتقد غريغوري أن الأمر سيستغرق ساعات ليعثر عليها شخص ما هنا، لكنها كانت تعلم أفضل. لن يجدها أحد لأيام. لم تستطع تذكر آخر مرة تجول فيها أي شخص هنا. كانت في مرحاض المربية – لكن منزل فينسوورث لم يكن لديه مربية مقيمة منذ سنوات.

عندما يُلاحظ اختفاؤها، سيفحصون غرفتها أولًا. ثم سيجربون بضعة بدائل معقولة – المكتبة، غرفة الجلوس، مرحاض لم يكن مهجورًا لنصف عقد...

ثم، عندما لا يتم العثور عليها، سيُفترض أنها هربت. وبعد ما حدث في الكنيسة، لن يعتقد أحد أنها غادرت بمفردها.

ستكون مدمرة. وكذلك الجميع.

قالت أخيرًا، وصوتها هادئ، يكاد يكون مكسورًا:

– "إنها ليست مسألة سعادتي الخاصة. غريغوري، أتوسل إليك، أرجوك لا تفعل هذا. الأمر لا يتعلق بي فقط. عائلتي... سنكون مدمرين، جميعنا."

مشى إلى جانبها وجلس. ثم قال ببساطة:

– "أخبريني."

فعلت. لن يستسلم بخلاف ذلك، كانت متأكدة من هذا.

أخبرته بكل شيء. عن والدها، والدليل المكتوب على خيانته. أخبرته عن الابتزاز. أخبرته كيف كانت هي الدفعة النهائية والشيء الوحيد الذي سيمنع تجريد أخيها من لقبه.

حدقت لوسي إلى الأمام مباشرة طوال السرد، ولهذا، كان غريغوري ممتنًا. لأن ما قالته... هزَّه حتى الصميم.

طوال اليوم كان غريغوري يحاول تخيل أي سر فظيع يمكن أن يدفعها للزواج من هاسيلبي. ركض مرتين عبر لندن، أولًا إلى الكنيسة ثم إلى هنا، إلى منزل فينسوورث. كان لديه متسع من الوقت للتفكير، للتساءل. لكن أبدًا – ولا مرة – قاده خياله إلى هذا.

قالت:

– "لذا ترى، إنه ليس شيئًا شائعًا كطفل غير شرعي، ولا شيئًا فاضحًا كعلاقة خارج الزواج. والدي – إيرل في المملكة – ارتكب الخيانة. خيانة عظمى."

ثم ضحكت.

ضحكت.

بالطريقة التي يفعلها الناس عندما يكون ما يريدونه حقًا هو البكاء.

أنهت كلامها بصوت منخفض ومستسلم:

– "إنه شيء قبيح. لا مفر منه."

التفتت إليه لرد، لكنه لم يكن لديه رد.

خيانة. يا إلهي، لم يستطع التفكير في شيء أسوأ. كانت هناك طرق كثيرة – كثيرة جدًا – يمكن للمرء أن يُطرد بها من المجتمع، لكن لا شيء لا يغتفر

كالخيانة. لم يكن هناك رجل أو امرأة أو طفل في بريطانيا لم يفقد شخصًا بسبب نابليون. الجروح كانت لا تزال طازجة جدًا، وحتى لو لم تكن...

إنها خيانة.

الرجل النبيل لا يتخلى عن بلده.

كان هذا متأصلًا في روح كل رجل في بريطانيا.

إذا عُرفت الحقيقة عن والد لوسي، ستُلغى إيرلية فينسوورث. سيُترك شقيق لوسي مفلسًا. هو وهيرميون سيضطران بالتأكيد للهجرة.

ولوسي ستكون...

حسنًا، لوسي ربما ستنجو من الفضيحة، خاصة إذا تغير لقبها إلى بريدجيرتون، لكنها لن تسامح نفسها أبدًا. من ذلك، كان غريغوري متأكدًا.

وأخيرًا، فهم.

نظر إليها. كانت شاحبة ومرهقة، ويداها مضمومتان بإحكام في حجرها. قالت بصوت يرتجف بالعاطفة:

- "عائلتي كانت طيبة وصادقة. آل أبيرناثي كانوا مخلصين للتاج منذ أن نُصِّب أول إيرل في القرن الخامس عشر. ووالدي جلب العار لنا جميعًا. لا يمكنني السماح بكشف ذلك. لا يمكنني."

ابتلعت ريقها بشكل محرج ثم قالت بحزن:

- "يجب أن ترى وجهك. حتى أنت لا تريدني الآن."

قال، وكاد يصرخ بالكلمة:

- "لا. لا. هذا ليس صحيحًا. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا أبدًا."

أخذ يديها، أمسكهما بين يديه، متذوقًا شكلهما، قوس أصابعها والحرارة الرقيقة لجلدها.

- "أنا آسف. لم يكن ينبغي أن يستغرق الأمر مني كل هذا الوقت لأستجمع نفسي. لم أكن أتخيل الخيانة."

هزت رأسها:

- "كيف كان يمكنك؟"

- "لكن ذلك لا يغير ما أشعر به."

أمسك وجهها بين يديه، يتوق لتقبيلها لكنه يعلم أنه لا يستطيع.

ليس بعد.

- "ما فعله والدك... إنه أمر مستهجن. إنه..." شتم تحت أنفاسه.

"سأكون صادقًا معكِ. إنه يشعرني بالغثيان. لكن أنتِ... أنتِ يا لوسي... أنتِ بريئة. لم تفعلي شيئًا خاطئًا، ولا يجب أن تدفعي ثمن خطاياه."

قالت بهدوء:

- "وكذلك أخي لا يجب عليه، لكن إذا لم أكمل زواجي من هاسيلبي، فإن ريتشارد سيـ..."

- "ششششش."

ضغط غريغوري بإصبع على شفتيها.

- "اسمعيني. أنا أحبك."

امتلأت عيناها بالدموع.

- "أنا أحبك. لا يوجد شيء في هذا العالم أو العالم الآخر يمكن أن يجعلني أتوقف عن حبك أبدًا."

همست:

- "لقد شعرتَ بذلك تجاه هيرميون."

قال، وكاد يبتسم لسخافة الأمر كله الآن:

- "لا. كنت أنتظر طويلًا لأقع في الحب لدرجة أنني أردت الحب أكثر من المرأة. لم أحب هيرميون أبدًا، فقط فكرة حبها. لكن معكِ... الأمر مختلف يا لوسي. إنه أعمق. إنه... إنه..."

جاهد لإيجاد الكلمات، لكن لم تكن هناك كلمات. الكلمات ببساطة لم توجد لتشرح ما شعر به تجاهها. قال أخيرًا، مذهولًا من عدم أناقة التعبير:

- "إنه أنا. بدونك، أنا... أنا..."

همست:

- "غريغوري، لست مضطرًا لـ..."

قاطعها:

– "أنا لا شيء."

لأنه لم يكن ليسمح لها بإخباره أنه ليس مضطرًا للشرح.

– "بدونك، أنا لا شيء."

ابتسمت. كانت ابتسامة حزينة، لكنها كانت صادقة، وشعر وكأنه كان ينتظر تلك الابتسامة لسنوات. قالت:

– "هذا ليس صحيحًا. أنت تعلم أنه ليس كذلك."

هز رأسه:

– "مبالغة، ربما، لكن هذا كل شيء. أنتِ تجعلينني أفضل يا لوسي. تجعلينني أتمنى، وآمل، وأطمح. تجعلينني أرغب في فعل أشياء."

بدأت الدموع تسيل على خديها.

بوسادتي إبهاميه مسحهما بعيدًا.

– "أنتِ أروع شخص أعرفه، أكثر إنسان شريف قابلته في حياتي. تجعلينني أضحك. وتجعلينني أفكر. وأنا..."

أخذ نفسًا عميقًا.

– "أنا أحبك."

ومرة أخرى.

– "أنا أحبك."

ومرة أخرى.

– "أنا أحبك."

هز رأسه بعجز.

– "لا أعرف كيف أقولها بطريقة أخرى."

أشاحت بوجهها حينها، لافة رأسها بحيث انزلقت يداه من وجهها إلى كتفيها، وأخيرًا، بعيدًا عن جسدها تمامًا. لم يستطع غريغوري رؤية وجهها، لكنه استطاع سماعها – الصوت الهادئ والمكسور لتنفسها، الأنين الناعم في صوتها.

أجابت أخيرًا، ولا تزال لا تنظر إليه:

– "أنا أحبك. أنت تعلم أنني أفعل. لن أهين كلينا بالكذب بشأن ذلك. ولو كان الأمر يخصني وحدي، لفعلت أي شيء – أي شيء لأجل ذلك الحب. كنت لأخاطر بالفقر، بالدمار. كنت سأنتقل إلى أمريكا، كنت سأنتقل إلى أحلك بقاع إفريقيا لو كانت تلك الطريقة الوحيدة لأكون معك."

أطلقت زفيرًا طويلًا ومرتعشاً.

– "لا يمكنني أن أكون أنانية لدرجة إسقاط الشخصين اللذين أحباني جيدًا ولفترة طويلة."

– "لوسي..."

لم يكن لديه أي فكرة عما أراد إخبارها به، فقط أنه لم يردها أن تكمل. كان يعلم أنه لا يريد سماع ما كان لديها لتقوله.

لكنها قاطعته بـ:

– "لا تفعل يا غريغوري. أرجوك. أنا آسفة. لا أستطيع فعل ذلك، وإذا كنت تحبني كما تقول، ستعيدني الآن، قبل أن يدرك اللورد دافنبورت أنني مفقودة."

ضغط غريغوري أصابعه في قبضتين، ثم بسطهما واسعتين ومستقيمتين. كان يعلم ما يجب عليه فعله. يجب عليه إطلاق سراحها، وتركها تركض لأسفل إلى الحفلة. يجب عليه التسلل مرة أخرى من باب الخدم والتعهد بعدم الاقتراب منها مرة أخرى أبدًا.

لقد وعدت بأن تحب وتكرم وتطيع رجلًا آخر. كان من المفترض أن تتخلى عن الجميع سواه.

بالتأكيد، هو يقع تحت ذلك البند.

ومع ذلك لم يستطع الاستسلام.

ليس بعد.

قال، متحركًا إلى وضع القرفصاء بجانبها:

– "ساعة واحدة. فقط أعطني ساعة واحدة."

التفتت، وعيناها متشككتان ومندهشتان وربما – ربما – متأملتان قليلًا أيضًا. رددت:

– "ساعة واحدة؟ ماذا تعتقد أنك تستطيع..."

قال بصدق:

– "لا أعرف. لكنني سأعدك بهذا. إذا لم أستطع إيجاد طريقة لتحريرك من هذا الابتزاز في ساعة واحدة، سأعود من أجلك. وسأطلق سراحك."

همست:

– "للعودة إلى هاسيلبي؟"

وبدا صوتها...

هل بدت خائبة الأمل؟ ولو قليلًا؟

قال:

– "نعم."

لأنه في الحقيقة كان الشيء الوحيد الذي يمكنه قوله. بقدر ما رغب في رمي الحذر في مهب الريح، كان يعلم أنه لا يستطيع سرقتها بعيدًا. ستكون محترمة، حيث سيتزوجها بمجرد موافقة هاسيلبي على الفسخ، لكنها لن تكون سعيدة أبدًا.

وكان يعلم أنه لا يستطيع التعايش مع نفسه.

قال لها:

– "لن تتدمر سمعتكِ إذا اختفيتِ لمدة ساعة واحدة. يمكنكِ ببساطة إخبار الناس أنكِ كنتِ متعبة. رغبتِ في أخذ قيلولة. أنا متأكد من أن هيرميون ستؤيد قصتكِ إذا طلبتِ منها ذلك."

أومأت لوسي.

– "هل ستفك قيودي؟"

هز رأسه هزة صغيرة ووقف.

– "كنت سأأتمنكِ على حياتي يا لوسي، لكن ليس على حياتكِ أنتِ. أنتِ شريفة أكثر من اللازم لمصلحتكِ الخاصة."

– "غريغوري!"

هز كتفيه وهو يمشي إلى الباب.

– "ضميركِ سيتغلب عليكِ. أنتِ تعلمين أنه سيفعل."

– "ماذا لو وعدت..."

– "آسف."

امتدت زاوية من فمه في تعبير ليس اعتذاريًا تمامًا.

– "لن أصدقكِ."

ألقى نظرة أخيرة عليها قبل أن يغادر. وكان عليه أن يبتسم، وهو ما بدا سخيفًا، بالنظر إلى أن لديه ساعة واحدة لتحييد تهديد الابتزاز ضد عائلة لوسي واستخلاصها من زواجها. أثناء حفل زفافها.

بالمقارنة، بدا تحريك السماء والأرض احتمالًا أفضل بكثير.

لكن عندما التفت إلى لوسي، ورآها جالسة هناك، على الأرض، بدت...

مثل نفسها مرة أخرى.

قالت:

– "غريغوري، لا يمكنك تركي هنا. ماذا لو وجدك شخص ما وأخرجك من المنزل؟ من سيعرف أنني هنا؟ وماذا لو... وماذا لو... ثم ماذا لو..."

ابتسم، مستمتعًا بتطفلها أكثر من اللازم ليستمع فعليًا إلى كلماتها. كانت بالتأكيد نفسها مرة أخرى.

قال:

– "عندما ينتهي كل هذا، سأحضر لكِ شطيرة."

أوقفها ذلك فجأة.

– "شطيرة؟ شطيرة؟"

أدار مقبض الباب لكنه لم يسحب بعد.

– "أنتِ تريدين شطيرة، أليس كذلك؟ أنتِ دائمًا تريدين شطيرة."

قالت:

– "لقد جننت."

لم يصدق أنها توصلت للتو إلى هذا الاستنتاج. حذرها:

- "لا تصرخي."

تمتمت:

- "أنت تعلم أنني لا أستطيع."

كان ذلك صحيحًا. آخر شيء أرادته هو أن يتم العثور عليها. إذا لم ينجح غريغوري، فستحتاج للتمكن من التسلل مرة أخرى إلى الحفلة بأقل قدر ممكن من الجلبة.

قال:

- "وداعًا يا لوسي. أنا أحبك."

نظرت لأعلى. وهمست:

- "ساعة واحدة. هل تعتقد حقًا أنك تستطيع فعلها؟"

أومأ برأسها. كان ما احتاجت لرؤيته، وكان ما احتاج هو للتظاهر به.

وبينما كان يغلق الباب خلفه، كاد يقسم أنه سمعها تتمتم:

- "حظًا سعيدًا."

توقف لنفس عميق واحد قبل التوجه إلى الدرج. كان سيحتاج لأكثر من الحظ؛ كان سيحتاج لمعجزة دموية.

كانت الاحتمالات ضده. كانت الاحتمالات ضده للغاية.

لكن غريغوري كان دائمًا شخصًا يشجع الطرف الأضعف. وإذا كان هناك أي حس بالعدالة في العالم، أي إنصاف وجودي يطوف عبر الهواء... إذا كان "عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك" يقدم أي نوع من الجزاء، فبالتأكيد هو يستحق.

الحب موجود.

كان يعلم أنه موجود. وسيلعن إذا لم يكن موجودًا له.

كانت محطة غريغوري الأولى غرفة نوم لوسي، في الطابق الثاني. لم يستطع الدخول ببساطة إلى قاعة الرقص وطلب مقابلة أحد الضيوف، لكنه اعتقد أن هناك فرصة لأن يكون شخص ما قد لاحظ غياب لوسي وذهب

للبحث عنها. إن شاء الله سيكون شخصًا متعاطفاً مع قضيتهم، شخصًا يهتم فعلًا لسعادة لوسي.

لكن عندما تسلل غريغوري داخل الغرفة، كان كل شيء تمامًا كما تركه.

تمتم:

– "تبًا."

سائرًا بخطوات واسعة نحو الباب. الآن سيتعين عليه معرفة كيفية التحدث إلى أخيها – أو هاسيلبي، كما افترض – دون جذب الانتباه.

وضع يده على المقبض وسحب، لكن وزن الباب كان خاطئًا تمامًا، ولم يكن غريغوري متأكدًا أيهما حدث أولًا – صرخة المفاجأة الأنثوية أو الجسد الدافئ الناعم المتهاوي عليه.

– "أنت!"

– "أنتِ!" قال في المقابل. "الحمد لله."

كانت هيرميون. الشخص الوحيد الذي عرف أنه يهتم لسعادة لوسي فوق كل شيء آخر.

هسهست وهي تغلق باب الممر، وهي بالتأكيد علامة جيدة:

– "ماذا تفعل هنا؟"

– "كان علي التحدث مع لوسي."

– "لقد تزوجت اللورد هاسيلبي."

هز رأسه:

– "لم يُتمم الزواج."

سقط فكها حرفيًا.

– "يا إلهي، أنت لا تنوي..."

قاطعها:

– "سأكون صادقًا معكِ. لا أعرف ما أنوي فعله، غير إيجاد طريقة لتحريرها."

حدقت هيرميون فيه لعدة ثوانٍ. ثم، وكأنما من العدم، قالت:

– "هي تحبك."

– "أخبرتكِ بذلك؟"

هزت رأسها.

– "لا، لكن الأمر واضح. أو على الأقل مع الإدراك المتأخر هو كذلك."

مشت جيئة وذهابًا في الغرفة، ثم التفتت فجأة.

– "إذًا لماذا تزوجت اللورد هاسيلبي؟ أعرف أنها تشعر بقوة تجاه احترام الالتزامات، لكن بالتأكيد كان بإمكانها إنهاء الأمر قبل اليوم."

قال غريغوري بعبوس:

– "إنها تتعرض للابتزاز."

اتسعت عينا هيرميون جدًا.

– "بماذا؟"

– "لا أستطيع إخباركِ."

يُحسب لها أنها لم تضيع الوقت في الاحتجاج. بدلًا من ذلك، نظرت إليه، وعيناها حادتان وثابتتان.

– "ماذا يمكنني أن أفعل للمساعدة؟"

بعد خمس دقائق، وجد غريغوري نفسه في صحبة كل من اللورد هاسيلبي وشقيق لوسي. كان يفضل الاستغناء عن الأخير، الذي بدا وكأنه قد يقطع رأس غريغوري بابتهاج لولا وجود زوجته.

التي كانت تمسك ذراعه بقبضة حديدية.

سأل ريتشارد بحدة:

– "أين لوسي؟"

أجاب غريغوري:

– "إنها بأمان."

رد ريتشارد:

– "اعذرني إذا لم أطمئن."

قاطعته هيرميون وهي تسحبه للخلف بالقوة:

– "ريتشارد، توقف. السيد بريدجيرتون لن يؤذيها. هو يضع مصلحتها في الاعتبار."

مط ريتشارد شفتيه:

– "أوه، حقًا؟"

رمقته هيرميون بنظرة أكثر حيوية مما رآه غريغوري على وجهها الجميل من قبل. أعلنت:

– "إنه يحبها."

– "بالفعل."

اتجهت جميع الأنظار إلى اللورد هاسيلبي، الذي كان يقف عند الباب، يراقب المشهد بتعبير غريب من التسلية.

لم يبدُ أن أحدًا يعرف ماذا يقول.

تابع هاسيلبي، مستقرًا في كرسي بأناقة سهلة بشكل ملحوظ:

– "حسنًا، لقد أوضح ذلك بالتأكيد هذا الصباح. ألا توافقون؟"

أجاب ريتشارد:

– "إيه، نعم؟"

ولم يستطع غريغوري لومه حقًا على نبرته غير المؤكدة. بدا هاسيلبي وكأنه يأخذ هذا بطريقة غير مألوفة للغاية. هادئ. هادئ لدرجة أن نبض غريغوري بدا وكأنه يشعر بالحاجة للتسابق مرتين أسرع، فقط للتعويض عن قصور هاسيلبي.

أخبره غريغوري، وهو يضم يده في قبضة خلف ظهره – ليس استعدادًا للعنف، بل لأنه إذا لم يحرك جزءًا من جسده، فمن المحتمل أن يقفز من جلده:

– "هي تحبني. يؤسفني قول ذلك، لكن..."

قال هاسيلبي ملوحًا بيده:

– "لا، لا، على الإطلاق. أنا أدرك تمامًا أنها لا تحبني. وهو حقًا للأفضل، كما أنا متأكد أننا جميعًا نتفق."

لم يكن غريغوري متأكدًا مما إذا كان من المفترض أن يجيب على ذلك. كان ريتشارد يحمر خجلًا بجنون، وبدت هيرميون مرتبكة تمامًا.

سأل غريغوري:

– "هل ستطلق سراحها؟"

لم يكن لديه وقت للمراوغة حول الموضوع.

– "لو لم أكن مستعدًا لفعل ذلك، هل تعتقد حقًا أنني سأقف هنا أتحدث معك بنفس النبرة التي أستخدمها لمناقشة الطقس؟"

– "إيه... لا؟"

ابتسم هاسيلبي. قليلًا.

– "لن يكون والدي مسرورًا. وهي حالة تجلب لي عادة فرحًا عظيمًا، بالتأكيد، لكنها تمثل مجموعة من الصعوبات. سيتعين علينا المضي بحذر."

سألت هيرميون:

– "ألا يجب أن تكون لوسي هنا؟"

استأنف ريتشارد تحديقه الغاضب.

– "أين أختي؟"

قال غريغوري باقتضاب:

– "في الطابق العلوي."

مما قلص الاحتمالات إلى ثلاثين غرفة ونيف فقط.

صرّ ريتشارد:

– "في الطابق العلوي أين؟"

تجاهل غريغوري السؤال. لم يكن حقًا أفضل وقت للكشف عن أنها مربوطة حاليًا إلى مرحاض.

التفت مرة أخرى إلى هاسيلبي، الذي كان لا يزال جالسًا، وساق فوق الأخرى بشكل غير رسمي. كان يفحص أظافره.

شعر غريغوري بالاستعداد لتسلق الجدران. كيف يمكن للرجل اللعين أن يجلس هناك بهدوء هكذا؟ كانت هذه المحادثة المنفردة الأكثر أهمية التي سيجريها أي منهما على الإطلاق، وكل ما يمكنه فعله هو فحص طلاء أظافره؟

تمتم غريغوري بحدة:

– "هل ستطلق سراحها؟"

نظر إليه هاسيلبي ورمش.

– "قلت إنني سأفعل."

– "لكن هل ستكشف أسرارها؟"

عند ذلك، تغير سلوك هاسيلبي بالكامل. بدا جسده وكأنه يشتد، وأصبحت عيناه حادتين بشكل مميت. قال، وكل كلمة واضحة ومحددة:

– "ليس لدي أي فكرة عما تتحدث عنه."

أضاف ريتشارد مقتربًا:

– "ولا أنا."

التفت غريغوري قليلًا في اتجاهه.

– "إنها تتعرض للابتزاز."

قال هاسيلبي بحدة:

– "ليس... من قبلي."

قال غريغوري بهدوء:

– "اعتذاري." الابتزاز شيء قبيح. "لم أقصد التلميح."

قال هاسيلبي بهدوء:

– "كنت أتساءل دائمًا لماذا وافقت على الزواج مني."

تدخلت هيرميون:

– "تم ترتيبه من قبل عمها." ثم، عندما التفت الجميع إليها بدهشة خفيفة، أضافت: "حسنًا، أنتم تعرفون لوسي. إنها ليست من النوع المتمرد. تحب النظام."

قال هاسيلبي:

– "مع ذلك، كانت لديها فرصة درامية نوعًا ما للخروج من الأمر." توقف، مميلًا رأسه إلى الجانب. "إنه والدي، أليس كذلك؟"

ارتجفت ذقن غريغوري في إيماءة واحدة قاتمة.

– "هذا ليس مفاجئًا. إنه حريص نوعًا ما على تزويجي. حسنًا، إذًا..."

جمع هاسيلبي يديه معًا، شابكًا أصابعه وضغطها لأسفل. "ماذا سنفعل؟ نكشف خدعته، كما أتخيل."

هز غريغوري رأسه.

– "لا نستطيع."

– "أوه، هيا الآن. لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء. ماذا في الأرض يمكن أن تكون الليدي لوسيندا قد فعلت؟"

قالت هيرميون مرة أخرى:

– "يجب حقًا أن نحضرها." ثم، عندما التفت الرجال الثلاثة إليها مرة أخرى، أضافت: "كيف تحبون أن يتم مناقشة مصيركم في غيابكم؟"

وقف ريتشارد أمام غريغوري. قال:

– "أخبرني."

لم يتظاهر غريغوري بسوء الفهم.

– "إنه أمر سيء."

– "أخبرني."

قال غريغوري بصوت هادئ:

– "إنه والدك."

وشرع في سرد ما أخبرته به لوسي.

همست هيرميون بمجرد أن انتهى غريغوري:

– "لقد فعلت ذلك لأجلنا." التفتت لزوجها، ممسكة بيده. "لقد فعلت ذلك لإنقاذنا. أوه، لوسي."

لكن ريتشارد هز رأسه فقط. قال:

– "هذا غير صحيح."

حاول غريغوري إبعاد الشفقة عن عينيه وهو يقول:

– "هناك دليل."

– "أوه، حقًا؟ أي نوع من الدليل؟"

– "تقول لوسي إن هناك دليلًا مكتوبًا."

سأل ريتشارد:

– "هل رأته؟ هل ستعرف حتى كيف تميز إذا كان شيء ما مزورًا؟"

أخذ غريغوري نفسًا طويلًا. لم يستطع لوم شقيق لوسي على رد فعله. افترض أنه سيكون مثله، لو ظهر شيء كهذا عن والده.

تابع ريتشارد، لا يزال يهز رأسه:

– "لوسي لا تعرف. كانت صغيرة جدًا. والدي لم يكن ليفعل شيئًا كهذا. إنه أمر لا يمكن تصوره."

قال غريغوري بلطف:

– "أنت كنت صغيرًا أيضًا."

انفعل ريتشارد:

– "كنت كبيرًا بما يكفي لأعرف والدي، ولم يكن خائنًا. شخص ما خدع لوسي."

التفت غريغوري إلى هاسيلبي.

– "والدك؟"

أكمل هاسيلبي:

– "ليس بذلك الذكاء. كان سيرتكب الابتزاز بابتهاج، لكنه سيفعله بالحقيقة، وليس بكذبة. هو ذكي، لكنه ليس مبدعًا."

تقدم ريتشارد للأمام.

– "لكن عمي كذلك."

التفت غريغوري إليه بإلحاح.

– "هل تعتقد أنه كذب على لوسي؟"

قال ريتشارد بمرارة:

– "لقد قال لها بالتأكيد الشيء الوحيد الذي سيضمن عدم تراجعها عن الزواج."

سألت هيرميون:

– "لكن لماذا يحتاج منها أن تتزوج اللورد هاسيلبي؟"

نظروا جميعًا إلى الرجل المقصود.

قال:

– "ليس لدي أي فكرة."

قال غريغوري:

– "لابد أن لديه أسرارًا خاصة به."

هز ريتشارد رأسه.

– "ليست ديونًا."

لاحظ هاسيلبي:

– "إنه لا يحصل على أي أموال في التسوية."

التفت الجميع لينظروا إليه.

قال بلامبالاة:

– "ربما سمحت لوالدي باختيار عروسي، لكنني لم أكن لأتزوج دون قراءة العقود."

قال غريغوري:

– "أسرار، إذًا."

أضافت هيرميون:

– "ربما بالاتفاق مع اللورد دافنبورت." التفتت إلى هاسيلبي. "آسفة جدًا."

لوح بيده نافيًا اعتذارها.

– "لا تفكري في الأمر."

سأل ريتشارد:

– "ماذا يجب أن نفعل الآن؟"

أجابت هيرميون فورًا:

– "نحضر لوسي."

أومأ غريغوري بسرعة.

– "إنها محقة."

قال هاسيلبي ناهضًا على قدميه:

– "لا. نحن بحاجة لوالدي."

انفعل ريتشارد:

– "والدك؟ إنه بالكاد متعاطف مع قضيتنا."

– "ربما، وأنا أول من يقول إنه لا يُطاق لأكثر من ثلاث دقائق في المرة الواحدة، لكن سيكون لديه إجابات. وعلى الرغم من كل سمه، فهو غير مؤذٍ في الغالب."

رددت هيرميون:

– "في الغالب؟"

بدا أن هاسيلبي يفكر في ذلك.

– "في الغالب."

قال غريغوري:

– "نحن بحاجة للتصرف. الآن. هاسيلبي، أنت وفينسوورث ستجدان والدك وتستجوبانه. اكتشفا الحقيقة. الليدي فينسوورث وأنا سنحضر لوسي ونعيدها هنا، حيث ستبقى الليدي فينسوورث معها." التفت إلى ريتشارد. "أعتذر عن الترتيبات، لكن يجب أن تكون زوجتك معي لحماية سمعة لوسي في حال اكتشفنا أحد. لقد اختفت منذ ما يقرب من ساعة الآن. لا بد أن يلاحظ أحد."

أعطاه ريتشارد إيماءة مقتضبة، لكن كان من الواضح أنه غير سعيد بالوضع. ومع ذلك، لم يكن لديه خيار. شرفه يقتضي أن يكون هو من يستجوب اللورد دافنبورت.

قال غريغوري:

– "جيد. إذًا نحن متفقون. سأقابلكما في..."

توقف. باستثناء غرفة لوسي والمرحاض العلوي، لم تكن لديه معرفة بتخطيط المنزل.

وجهه ريتشارد:

– "قابلنا في المكتبة. إنها في الطابق الأرضي، تواجه الشرق."

خطا خطوة نحو الباب، ثم التفت عائدًا وقال لـ غريغوري:

– "انتظر هنا. سأعود في لحظة."

كان غريغوري تواقًا للانطلاق، لكن تعبير ريتشارد الجاد كان كافيًا لإقناعه بالبقاء في مكانه. وبالتأكيد، عندما عاد شقيق لوسي، بعد دقيقة بالكاد، كان يحمل معه مسدسين.

مد واحدًا لـ غريغوري.

يا إلهي.

قال ريتشارد:

– "قد تحتاج هذا."

قال غريغوري تحت أنفاسه:

– "لترأف بنا السماء إذا احتجته."

– "عذرًا؟"

هز غريغوري رأسه.

أومأ ريتشارد لـ هاسيلبي:

– "بالتوفيق، إذًا."

وغادر الاثنان، متحركين بسرعة عبر الردهة.

أشار غريغوري لـ هيرميون.

– "لنذهب."

قال وهو يقودها في الاتجاه المعاكس:

– "وحاولي ألا تحكمي عليّ عندما ترين إلى أين أقودك."

سمع ضحكتها وهما يصعدان الدرج. قالت:

– "لماذا أشك في أنني، إن حكمت، سأحكم عليك بأنك ذكي جدًا بالفعل؟"

اعترف غريغوري وهو يصعد الدرجات اثنتين في كل مرة:

– "لم أثق في بقائها في مكانها." عندما وصلا للقمة، التفت ليواجهها.

"كان تصرفًا قاسيًا، لكن لم يكن هناك شيء آخر يمكنني فعله. كل ما احتجته هو قليل من الوقت."

أومأت هيرميون.

– "إلى أين نحن ذاهبان؟"

اعترف:

– "إلى مرحاض المربية. لقد ربطتها إلى المرحاض."

– "ربطتها إلى... يا إلهي، لا أستطيع الانتظار لرؤية هذا."

لكن عندما فتحا باب المرحاض الصغير، كانت لوسي قد اختفت.

وكل المؤشرات كانت تدل على أنها لم تغادر بإرادتها.





الفصل الخامس والعشرون

وفيه نعلم ما حدث، قبل عشر دقائق فقط.



هل مرت ساعة؟ بالتأكيد مرت ساعة.

أخذت لوسي نفسًا عميقًا وحاولت تهدئة أعصابها المتسارعة. لماذا لم يفكر أحد في تركيب ساعة في المرحاض؟ ألم يكن ينبغي لأحد أن يدرك أنه في النهاية ستجد فتاة نفسها مربوطة بالمرحاض وقد ترغب في معرفة الوقت؟

حقًا، كانت مجرد مسألة وقت.

قرعت لوسي بأصابع يدها اليمنى على الأرض. بسرعة، بسرعة، من السبابة إلى الخنصر، من السبابة إلى الخنصر. كانت يدها اليسرى مربوطة بحيث تواجه وسائد أصابعها الأعلى، لذا ثنتها، ثم بسطتها، ثم ثنتها، ثم بسطتها، ثم...

– "إيييووووووو!"

أنّت لوسي بإحباط.

أنّت؟ بل تأوهت.

بل تأوهـ_أنّت.

يجب أن تكون كلمة.

بالتأكيد مرت ساعة. لا بد أنها مرت ساعة.

ثم...

خطوات.

انتفضت لوسي منتباهة، تحدق في الباب. كانت غاضبة. ومتأملة. ومرعوبة. ومتوترة. و...

يا إلهي، لم يكن مقدرًا لها أن تمتلك كل هذه المشاعر المتزامنة. شعور واحد في كل مرة هو كل ما يمكنها التعامل معه. ربما اثنان.

دار المقبض وانفتح الباب بعنف للخلف، و...

بعنف؟ كان لدى لوسي حوالي ثانية واحدة لتشعر بخطأ هذا. غريغوري لن يفتح الباب بعنف. كان سيفعل...

– "العم روبرت؟"

قال وصوته منخفض وغاضب:

– "أنتِ."

– "أنا..."

قاطعها بحدة:

– "أيتها العاهرة الصغيرة."

جفلت لوسي. كانت تعلم أنه لا يكن لها مودة كبيرة، لكن مع ذلك، آلمها الأمر.

اندفعت قائلة، لأنها لم تكن لديها أدنى فكرة عما يجب أن تقوله، ورفضت – رفضت تمامًا أن تقول: "أنا آسفة".

– "أنت لا تفهم."

لقد انتهت من الاعتذار. انتهت.

بصق الكلمات وهو يجثم لمستواها:

– "أوه، حقًا؟ ما الذي لا أفهمه بالضبط؟ الجزء المتعلق بهروبكِ من زفافكِ؟"

ردت بحدة:

– "لم أهرب. لقد اختُطفت! أم لم تلاحظ أنني مربوطة بالمرحاض؟"

ضاقت عيناه بتهديد. وبدأت لوسي تشعر بالخوف.

انكمشت للخلف، وأصبح تنفسها سطحيًا. لطالما خافت من عمها – جليد مزاجه، ونظرة ازدرائه الباردة والمستوية.

لكنها لم تشعر بالرعب قط.

سألها عمها بحدة:

– "أين هو؟"

لم تتظاهر لوسي بسوء الفهم.

– "لا أعرف."

– "أخبريني!"

احتجت:

– "لا أعرف! هل تعتقد أنه كان سيربطني لو كان يثق بي؟"

وقف عمها وشتم.

– "الأمر غير منطقي."

سألت لوسي بحذر:

– "ماذا تعني؟"

لم تكن متأكدة مما يحدث، ولم تكن متأكدة تمامًا من زوجة مَن ستكون في نهاية اليوم، لكنها كانت متأكدة إلى حد ما من أنه يجب عليها المماطلة لكسب الوقت.

وعدم الكشف عن شيء. لا شيء ذي أهمية.

بصق عمها:

– "هذا! أنتِ! لماذا يختطفكِ ويتركِكِ هنا، في منزل فينسوورث؟"

قالت لوسي ببطء:

– "حسنًا. لا أعتقد أنه كان بإمكانه إخراجي دون أن يرى أحد."

– "لم يكن بإمكانه الدخول إلى الحفل دون أن يرى أحد أيضًا."

– "لست متأكدة مما تعنيه."

سأل عمها بحدة، منحنيًا وواضعًا وجهه قريبًا جدًا من وجهها:

– "كيف أمسك بكِ دون رضاكِ؟"

أطلقت لوسي نفخة قصيرة من أنفاسها. كانت الحقيقة سهلة. وغير ضارة.

– "ذهبت إلى غرفتي لأستلقي. كان ينتظرني هناك."

– "عرف أي غرفة هي غرفتكِ؟"

ابتلعت ريقها.

– "على ما يبدو."

حدق فيها عمها للحظة طويلة بشكل غير مريح. تمتم:

– "بدأ الناس يلاحظون غيابكِ."

لم تقل لوسي شيئًا.

– "لا مفر من ذلك، رغم هذا."

رمشت. عما كان يتحدث؟

هز رأسه.

– "إنها الطريقة الوحيدة."

– "أنا... عذرًا؟"

ثم أدركت – لم يكن يتحدث إليها. كان يتحدث إلى نفسه.

همست:

– "العم روبرت؟"

لكنه كان يقطع قيودها بالفعل.

يقطع؟ يقطع؟ لماذا كان يحمل سكينًا؟

نخر:

– "لنذهب."

– "العودة إلى الحفلة؟"

أطلق ضحكة خافتة قاتمة.

– "تودين ذلك، أليس كذلك؟"

بدأ الذعر يتصاعد في صدرها.

– "إلى أين تأخذني؟"

سحبها لتقف على قدميها، وإحدى ذراعيه ملفوفة حولها كالملزمة.

– "إلى زوجكِ."

تمكنت من الالتفاف بما يكفي للنظر في وجهه.

– "زوجي... اللورد هاسيلبي؟"

– "هل لديكِ زوج آخر؟"

– "لكن أليس هو في الحفلة؟"

– "توقفي عن طرح الكثير من الأسئلة."

نظرت حولها بذعر.

– "لكن إلى أين تأخذني؟"

هسهس:

– "لن تفسدي هذا عليّ. هل تفهمين؟"

توسلت:

– "لا."

لأنها لم تفهم. لم تعد تفهم أي شيء.

جذبها بقوة نحوه.

– "أريدكِ أن تستمعي إليّ، لأنني سأقول هذا مرة واحدة فقط."

أومأت. لم تكن تواجهه، لكنها علمت أنه يستطيع الشعور بحركة رأسها ضد صدره.

قال، وصوته مميت ومنخفض:

– "هذا الزواج سيمضي قدمًا. وسأتأكد شخصيًا من إتمامه الليلة."

– "ماذا؟"

– "لا تجادليني."

– "لكن..."

غرزت كعبيها في الأرض بينما بدأ بسحبها نحو الباب.

تمتم:

– "بحق الله، لا تقاوميني. إنه ليس شيئًا لم يكن عليكِ فعله على أي حال. الفرق الوحيد هو أنه سيكون لديكِ جمهور."

– "جمهور؟"

– "أمر غير لائق، لكن سأحصل على دليلي."

بدأت تقاوم بجدية، وتمكنت من تحرير ذراع واحدة لفترة كافية لتلويحها بجموح في الهواء. قيدها بسرعة، لكن تحوله اللحظي في الوقفة سمح لها بركله بقوة في ساقيه.

تمتم وهو يلويها بقوة نحوه:

– "اللعنة. توقفي!"

ركلت مرة أخرى، موقعة وعاء ليليًا فارغًا.

– "توقفي!"

ضغط بشيء ما ضد ضلوعها.

– "الآن!"

سكنت لوسي فورًا. همست:

– "هل هذا سكين؟"

قال، وكلماته حارة وقبيحة ضد أذنها:

– "تذكري هذا. لا أستطيع قتلكِ، لكن يمكنني أن أسبب لكِ ألمًا عظيمًا."

ابتلعت نحيبًا.

– "أنا ابنة أخيك."

– "لا أهتم."

ابتلعت وسألت بصوت هادئ:

– "هل اهتممت يومًا؟"

دفعها نحو الباب.

– "أهتم؟"

أومأت.

للحظة ساد الصمت، وتُركت لوسي بلا وسيلة لتفسيره. لم تستطع رؤية وجه عمها، ولم تستشعر أي تغيير في وقفته. لم يكن بوسعها فعل شيء سوى التحديق في الباب، وفي يده وهو يمدها للمقبض.

ثم قال:

– "لا."

حصلت على إجابتها، إذًا.

أوضح:

– "كنتِ واجبًا. واجبًا أديته، ويسرني التخلص منه. الآن تعالي معي، ولا تنبسي بكلمة."

أومأت لوسي. كان سكينه يضغط بقوة أكبر ضد ضلوعها وبالفعل سمعت صوت قرقعة ناعمة وهو يثقب القماش الصلب لصدارها.

سمحت له بتحريكها على طول الممر ونزولًا عبر الدرج. غريغوري هنا، ظلت تخبر نفسها. هو هنا، وسيجدها. منزل فينسوورث كبير، لكنه ليس ضخمًا. هناك أماكن محدودة يمكن لعمها إخفاؤها فيها.

وهناك مئات الضيوف في الطابق الأرضي.

واللورد هاسيلبي – بالتأكيد لن يوافق على مثل هذا المخطط.

كانت هناك دستة أسباب على الأقل لعدم نجاح عمها في هذا.

دستة. اثنا عشر. ربما أكثر. وهي تحتاج لسبب واحد فقط – واحد فقط لإحباط مؤامرته.

لكن هذا كان عزاءً ضئيلًا عندما توقف وسحب عصابة فوق عينيها.

وأقل من ذلك عندما ألقاها في غرفة وربطها.

قال بحدة، تاركًا إياها جالسة على مؤخرتها في زاوية، مقيدة اليدين والقدمين:

– "سأعود."

سمعت خطواته تتحرك عبر الغرفة، ثم انفجرت من شفتيها – كلمة واحدة، الكلمة الوحيدة التي تهم:

- "لماذا؟"

توقفت خطواته.

- "لماذا يا عمي روبرت؟"

لا يمكن أن يكون الأمر مجرد شرف العائلة. ألم تثبت نفسها بالفعل في هذا الصدد؟ ألا ينبغي له أن يثق بها لذلك؟

سألت مرة أخرى، متمنية أن يكون لديه ضمير:

- "لماذا؟"

بالتأكيد لا يمكن أن يكون قد اعتنى بها وبـ ريتشارد لسنوات عديدة دون بعض الحس بالصواب والخطأ.

قال أخيرًا:

- "أنتِ تعرفين السبب."

لكنها عرفت أنه يكذب. لقد انتظر طويلًا جدًا قبل الإجابة.

قالت بمرارة:

- "اذهب، إذًا."

لم تكن هناك جدوى من تعطيله. سيكون من الأفضل بكثير لو وجدها غريغوري وحدها.

لكنه لم يتحرك. وحتى من خلال عصابتها استطاعت الشعور بريبته.

صرخت:

- "ماذا تنتظر؟"

قال ببطء:

- "لست متأكدًا."

ثم سمعته يستدير.

اقتربت خطواته.

ببطء.

ببطء...

ثم...



شهقت هيرميون:

– "أين هي؟"

دخل غريغوري الغرفة الصغيرة بخطوات واسعة، وعيناه تستوعبان كل شيء – القيود المقطوعة، الوعاء الليلي المقلوب. قال بعبوس:

– "شخص ما أخذها."

– "عمها؟"

– "أو دافنبورت. هما الوحيدان اللذان لديهما سبب لـ..." هز رأسه. "لا، لا يمكنهما إيذاؤها. يحتاجان لأن يكون الزواج قانونيًا وملزمًا. وطويل الأمد. دافنبورت يريد وريثًا من لوسي."

أومأت هيرميون.

التفت إليها غريغوري.

– "أنتِ تعرفين المنزل. أين يمكن أن تكون؟"

كانت هيرميون تهز رأسها.

– "لا أعرف. لا أعرف. إذا كان عمها..."

أمر غريغوري:

– "افترضي أنه عمها."

لم يكن متأكدًا أن دافنبورت رشيق بما يكفي لاختطاف لوسي، وإلى جانب ذلك، إذا كان ما قاله هاسيلبي عن والده صحيحًا، فإن روبرت أبيرناثي هو الرجل ذو الأسرار.

هو الرجل الذي لديه شيء ليخسره.

همست هيرميون:

– "مكتبه. هو دائمًا في مكتبه."

– "أين هو؟"

– "في الطابق الأرضي. يطل على الخلف."

قال غريغوري:

– "لن يخاطر بذلك. قريب جدًا من قاعة الرقص."

– "إذًا غرفة نومه. إذا كان ينوي تجنب الغرف العامة، فهذا هو المكان الذي سيأخذها إليه. ذلك أو غرفتها الخاصة."

أخذ غريغوري ذراعها وسبقها خارجًا من الغرفة. نزلوا طابقًا واحدًا من السلالم، وتوقفوا قبل فتح الباب الذي يؤدي من سلالم الخدم إلى بسطة الطابق الثاني.

قال:

– "أشيري إلى بابه لي، ثم اذهبي."

– "أنا لست..."

أمرها:

– "جدي زوجكِ. أحضريه هنا."

بدت هيرميون مترددة، لكنها أومأت وفعلت كما طلب.

قال بمجرد أن عرف وجهته:

– "اذهبي. بسرعة."

ركضت أسفل الدرج بينما تسلل غريغوري على طول الممر. وصل إلى الباب الذي أشارت إليه هيرميون وضغط أذنه بعناية عليه.

– "ماذا تنتظر؟"

كانت لوسي. مكممة خلف الباب الخشبي الثقيل، لكنها كانت هي.

جاء صوت ذكوري:

– "لا أعرف."

وأدرك غريغوري أنه لا يستطيع تحديد هويته. كان لديه القليل من المحادثات مع اللورد دافنبورت ولا شيء مع عمها. لم تكن لديه فكرة عمن يحتجزها رهينة.

حبس أنفاسه وأدار المقبض ببطء.

بيده اليسرى.

بيده اليمنى سحب مسدسه.

ليساعدهم الله جميعًا إذا اضطر لاستخدامه.

تمكن من فتح الباب شقًا صغيرًا – يكفي فقط للنظر للداخل دون أن يُلاحظ.

توقف قلبه.

كانت لوسي مقيدة ومعصوبة العينين، متكورة في الزاوية البعيدة للغرفة. وعمها يقف أمامها، ومسدس مصوب بين عينيها.

سألها بصوت يقشعر له الأبدان في نعومته:

– "ما الذي تخططين له؟"

لم تقل لوسي شيئًا، لكن ذقنها ارتجف، وكأنها تحاول جاهدة تثبيت رأسها.

سأل عمها بحدة:

– "لماذا ترغبين مني أن أغادر؟"

– "لا أعرف."

– "أخبريني."

اندفع للأمام، غارزًا مسدسه بين ضلوعها. وعندما لم تجب بسرعة كافية، نزع عصابتها، تاركًا إياهما أنفًا لأنف.

– "أخبريني!"

همست بصوت مرتجف:

– "لأنني لا أحتمل الانتظار. لأن..."

دخل غريغوري الغرفة بهدوء وصوب مسدسه نحو منتصف ظهر روبرت أبيرناثي.

– "أطلق سراحها."

تجمد عم لوسي.

شدت يد غريغوري حول الزناد.

– "أطلق سراح لوسي وابتعد ببطء."

قال أبيرناثي:

- "لا أعتقد ذلك."

واستدار بما يكفي ليرى غريغوري أن مسدسه الآن يستقر ضد صدغ لوسي.

بطريقة ما، ظل غريغوري ثابتًا. لن يعرف أبدًا كيف، لكن ذراعه ظلت ثابتة. يده لم ترتجف.

أمر عمها:

- "أسقط مسدسك."

لم يتحرك غريغوري. انتقلت عيناه إلى لوسي، ثم عادت إلى عمها. هل سيؤذيها؟ هل يستطيع؟ لم يكن غريغوري متأكدًا بعد من السبب الدقيق لحاجة روبرت أبيرناثي لتزويج لوسي من هاسيلبي، لكن كان من الواضح أنه يحتاج لذلك.

مما يعني أنه لا يستطيع قتلها.

صر غريغوري على أسنانه وشد إصبعه على الزناد.

قال وصوته منخفض وقوي وثابت:

- "أطلق سراح لوسي."

صرخ أبيرناثي:

- "أسقط مسدسك!"

وانطلق صوت اختناق مروع من فم لوسي بينما انحشرت إحدى ذراعيه لأعلى وتحت ضلوعها.

يا إلهي، إنه مجنون. كانت عيناه وحشيتين، تتنقلان حول الغرفة، ويده - تلك التي تحمل المسدس - كانت ترتجف.

سيطلق النار عليها. أدرك غريغوري ذلك في ومضة مقززة. مهما كان ما فعله روبرت أبيرناثي - كان يعتقد أنه لم يعد لديه شيء ليخسره. ولن يهتم بمن يسقط معه.

بدأ غريغوري بثني ركبتيه، دون أن يبعد عينيه عن عم لوسي.

صرخت لوسي:

- "لا تفعل ذلك. لن يؤذيني. لا يستطيع."

أجاب عمها وابتسم:

- "أوه، أستطيع."

تجمّد دم غريغوري. سيحاول - يا إلهي، سيحاول بكل ما لديه للتأكد من خروجهما كلاهما أحياء وغير مصابين، لكن إذا كان هناك خيار - إذا كان واحد منهما فقط سيخرج من الباب...

ستكون لوسي.

هذا، كما أدرك، هو الحب. كان ذلك الشعور بالصواب، نعم. وكان الشغف أيضًا، والمعرفة الجميلة بأنه يمكنه الاستيقاظ بجانبها بسعادة لبقية حياته.

لكنه كان أكثر من كل ذلك. كان هذا الشعور، هذه المعرفة، هذا اليقين بأنه سيعطي حياته من أجلها. لم يكن هناك سؤال. لا تردد. إذا أسقط مسدسه، فمن المؤكد أن روبرت أبيرناثي سيطلق النار عليه.

لكن لوسي ستعيش.

خفض غريغوري نفسه إلى وضع القرفصاء. قال بهدوء:

- "لا تؤذها."

صرخت لوسي:

- "لا تتركه! لن..."

انفعل عمها:

- "اخرسي!"

وضغطت فوهة مسدسه بقوة أكبر ضدها.

حذر غريغوري:

- "ولا كلمة أخرى يا لوسي."

لم يكن متأكدًا بعد كيف بحق الجحيم سيخرج من هذا، لكنه عرف أن المفتاح هو إبقاء روبرت أبيرناثي هادئًا وعاقلًا قدر الإمكان.

انفرجت شفتا لوسي، لكن بعد ذلك التقت عيناهما...

وأغلقتهما.

كانت تثق به. يا إلهي، كانت تثق به ليبقيها آمنة، ليبقيهما كلاهما آمنين، وشعر وكأنه محتال، لأن كل ما كان يفعله هو كسب الوقت، مبقيًا كل الرصاص في كل المسدسات حتى يصل شخص آخر.

قال غريغوري:

- "لن أؤذيك يا أبيرناثي."

- "إذًا أسقط المسدس."

أبقى ذراعه ممدودة، والمسدس الآن بوضعية جانبية بحيث يمكنه وضعه لأسفل.

لكنه لم يتركه.

ولم يرفع عينيه عن وجه روبرت أبيرناثي وهو يسأل:

- "لماذا تحتاج منها أن تتزوج اللورد هاسيلبي؟"

سخر:

- "ألم تخبرك؟"

- "أخبرتني بما أخبرتها به."

بدأ عم لوسي يرتجف.

قال غريغوري بهدوء:

- "تحدثت مع اللورد فينسوورث. كان مندهشاً نوعًا ما من وصفك لوالده."

لم يرد عم لوسي، لكن حلقه تحرك، وتفاحة آدم تصعد وتهبط في ابتلاع تشنجي.

تابع غريغوري:

- "في الواقع، كان مقتنعًا تمامًا بأنك لابد أن تكون مخطئًا."

أبقى صوته سلسًا، متساويًا. غير ساخر. تحدث كما لو كان في حفل عشاء. لم يرد الاستفزاز؛ أراد فقط التحدث.

رد عم لوسي:

– "ريتشارد لا يعرف شيئًا."

قال غريغوري:

– "تحدثت مع اللورد هاسيلبي أيضًا. كان مندهشاً أيضًا. لم يدرك أن والده كان يبتزك."

رمقه عم لوسي بنظرة غاضبة.

قال غريغوري بهدوء:

– "إنه يتحدث معه الآن."

لم يتكلم أحد. لم يتحرك أحد. كانت عضلات غريغوري تصرخ. كان في وضع القرفصاء لعدة دقائق، متوازنًا على مشطي قدميه. ذراعه، التي لا تزال ممدودة، ولا تزال تحمل المسدس بشكل جانبي ولكن ثابت، شعرت وكأنها تحترق.

نظر إلى المسدس.

نظر إلى لوسي.

كانت تهز رأسها. ببطء، وبحركات صغيرة. لم تصدر شفتاها صوتًا، لكنه استطاع تمييز كلماتها بسهولة.

اذهب.

و أرجوك.

بشكل مذهل، شعر غريغوري بنفسه يبتسم. هز رأسه، وهمس:

– "أبدًا."

سأل أبيرناثي بحدة:

– "ماذا قلت؟"

قال غريغوري الشيء الوحيد الذي تبادر إلى ذهنه:

– "أنا أحب ابنة أخيك."

نظر إليه أبيرناثي وكأنه قد جن.

– "لا أهتم."

جازف غريغوري قائلًا:

– "أحبها بما يكفي لأحفظ أسرارك."

شحب روبرت أبيرناثي. أصبح بلا دم تمامًا، وساكنًا كليًا.

قال غريغوري بهدوء:

– "كنتَ أنت."

التفتت لوسي:

– "العم روبرت؟"

انفعل:

– "اخرسي."

سألت، وصوتها يبدو مجروحًا تقريبًا:

– "هل كذبت عليّ؟ هل فعلت؟"

قال غريغوري:

– "لوسي، لا تفعلي."

لكنها كانت تهز رأسها بالفعل.

– "لم يكن والدي، أليس كذلك؟ كنتَ أنت. اللورد دافنبورت كان يبتزك بسبب آثامك الخاصة."

لم يقل عمها شيئًا، لكنهم جميعًا رأوا الحقيقة في عينيه.

همست بحزن:

– "أوه، يا عمي روبرت. كيف أمكنك؟"

هسهس:

– "لم يكن لدي شيء. لا شيء. فقط فضلات وبقايا والدك."

تحولت لوسي للون الرمادي.

– "هل قتلته؟"

أجاب عمها:

– "لا."

لا شيء آخر. مجرد لا.

قالت بصوت صغير ومتألم:

– "أرجوك. لا تكذب عليّ. ليس بشأن هذا."

أطلق عمها زفيرًا متوترًا وقال:

– "أعرف فقط ما أخبرتني به السلطات. وُجد بالقرب من وكر قمار، مصابًا بطلق ناري في الصدر ومسروقًا من كل مقتنياته الثمينة."

راقبته لوسي للحظة، ثم، وعيناها تفيضان بالدموع، أعطت إيماءة صغيرة.

نهض غريغوري ببطء على قدميه.

– "انتهى الأمر يا أبيرناثي. هاسيلبي يعرف، وكذلك فينسوورث. لا يمكنك إجبار لوسي على تنفيذ أوامرك."

أمسك عم لوسي بها بإحكام أكبر.

– "يمكنني استخدامها للهروب."

– "بالفعل يمكنك. عن طريق تركها تذهب."

ضحك أبيرناثي على ذلك. كان صوتًا مريرًا ولاذعًا.

قال غريغوري بحذر:

– "ليس لدينا ما نكسبه من كشفك. من الأفضل السماح لك بمغادرة البلاد بهدوء."

سخر عم لوسي:

– "لن يكون الأمر هادئًا أبدًا. إذا لم تتزوج ذلك المتأنق غريب الأطوار، فسيصرخ دافنبورت بالأمر من هنا إلى اسكتلندا. وستدمر العائلة."

هز غريغوري رأسه:

– "لا. لن يحدث. لم تكن الإيرل أبدًا. لم تكن والدهم أبدًا. ستكون هناك فضيحة؛ لا يمكن تجنب ذلك. لكن شقيق لوسي لن يفقد لقبه، وسينقضي كل شيء عندما يبدأ الناس في تذكر أنهم لم يحبوك أبدًا."

في طرفة عين، حرك عم لوسي المسدس من بطنها إلى رقبتها.

– "انتبه لما تقوله."

شحب غريغوري وتراجع خطوة للخلف.

ثم سمعوا جميعًا ذلك.

رعد خطوات. تتحرك بسرعة أسفل الممر.

قال غريغوري:

- "ضع المسدس. لديك لحظة فقط قبل..."

امتلأ المدخل بالناس. ريتشارد، هاسيلبي، دافنبورت، هيرميون – اندفعوا جميعًا للداخل، غير مدركين للمواجهة المميتة الجارية.

قفز عم لوسي للخلف، مشيرًا بمسدسه بجموح نحوهم جميعًا.

- "ابقوا بعيدًا. اخرجوا! كلكم!"

لمعت عيناه مثل حيوان محاصر، وتأرجحت ذراعه ذهابًا وإيابًا، تاركة لا أحد غير مستهدف.

لكن ريتشارد تقدم للأمام. هسهس:

- "أيها الوغد. سأراك في..."

انطلقت رصاصة.

راقب غريغوري برعب بينما سقطت لوسي على الأرض. انطلقت صرخة حنجرية من حلقه؛ وارتفع مسدسه الخاص.

صوب.

أطلق النار.

ولأول مرة في حياته، أصاب هدفه.

حسنًا، تقريبًا.

لم يكن عم لوسي رجلًا ضخمًا، ولكن مع ذلك، عندما هبط فوقها، كان الأمر مؤلمًا. أُجبر الهواء تمامًا على الخروج من رئتيها، تاركًا إياها تلهث وتختنق، وعيناها مغلقتان بقوة من الألم.

- "لوسي!"

كان غريغوري، ينتزع عمها من فوقها.

- "أين إصابتك؟"

كانت يداه في كل مكان، محمومة في حركتها وهو يبحث عن جرح.
– "أنا لم..." كافحت من أجل التنفس. "هو لم..."
تمكنت من النظر إلى صدرها. كان مغطى بالدم.
– "أوه يا إلهي."
قال غريغوري:
– "لا أستطيع العثور عليه."
أمسك بذقنها، واضعًا وجهها بحيث تنظر مباشرة في عينيه.
وكادت لا تتعرف عليه.
عيناه... عيناه العسليتان الجميلتان... بدتا تائهتين، فارغتين تقريبًا. وبدا الأمر وكأنه أخذ بعيدًا كل ما كان يجعله... هو.
قال وصوته مبحوح بالعاطفة:
– "لوسي، أرجوكِ. تحدثي إليّ."
تمكنت أخيرًا من القول:
– "لست مصابة."
تجمدت يداه.
– "الدم."
– "إنه ليس لي."
نظرت إليه ورفعت يدها إلى خده. كان يرتجف. أوه يا إلهي العزيز، كان يرتجف. لم تره هكذا أبدًا، لم تتخيل أبدًا أنه يمكن أن يصل إلى هذه النقطة.
النظرة في عينيه – أدركتها الآن. كانت رعبًا.
همست:
– "لست مصابة. أرجوك... لا... كل شيء بخير يا حبيبي."
لم تكن تعرف ما تقوله؛ أرادت فقط مواساته.
كان تنفسه مضطربًا، وعندما تحدث، كانت كلماته مكسورة، غير مكتملة.
– "ظننت أنني... لا أعرف ماذا ظننت."
لمس شيء رطب إصبعها، ومسحته برفق.

- "انتهى الأمر الآن. انتهى الأمر الآن، و..."

وفجأة أصبحت واعية ببقية الناس في الغرفة. قالت بتردد وهي تدفع نفسها إلى وضعية الجلوس:

- "حسنًا، أعتقد أنه انتهى."

هل مات عمها؟ علمت أنه أصيب بطلق ناري. بواسطة غريغوري أو ريتشارد، لم تعرف أيهما. كلاهما أطلق سلاحه.

لكن العم روبرت لم يُصب بجرح قاتل. كان قد سحب نفسه إلى جانب الغرفة وكان مسندًا على الحائط، ممسكًا بكتفه ومحدقًا للأمام بتعبير مهزوم.

عبست لوسي في وجهه:

- "أنت محظوظ لأنه ليس راميًا أفضل."

أصدر غريغوري صوتًا غريبًا نوعًا ما، يشبه النخر.

في الزاوية، كان ريتشارد وهيرميون يتشبثان ببعضهما البعض، لكنهما بدا كلاهما غير مصابين. كان اللورد دافنبورت يصرخ بشأن شيء ما، لم تكن متأكدة مما هو، واللورد هاسيلبي – يا إلهي، زوجها – كان يستند بكسل على دعامة الباب، يراقب المشهد.

التقطت عينه وابتسم. قليلًا فقط. بلا أسنان، بالطبع؛ لم يبتسم أبدًا بتلك السعة.

قالت:

- "أنا آسفة."

- "لا تتأسفي."

نهض غريغوري على ركبتيه بجانبها، وذراع واحدة ملفوفة بشكل وقائي حول كتفها. شاهد هاسيلبي اللوحة بتسلية واضحة، وربما بلمسة من السرور أيضًا.

سأل:

- "هل ما زلتِ ترغبين في ذلك الفسخ؟"

أومأت لوسي.

– "سأجعل الأوراق تُعد غدًا."

سألت لوسي بقلق:

– "هل أنت متأكد؟"

كان رجلًا لطيفًا، حقًا. لم ترد لسمعته أن تتأذى.

– "لوسي!"

التفتت بسرعة لـ غريغوري.

– "آسفة. لم أقصد... أنا فقط..."

لوح لها هاسيلبي.

– "أرجوكِ، لا تشغلي نفسكِ. كان هذا أفضل شيء يمكن أن يحدث. إطلاق نار، ابتزاز، خيانة... لن ينظر إلي أحد أبدًا كسبب للفسخ الآن."

قالت لوسي بإشراق:

– "أوه. حسنًا، هذا جيد."

وقفت على قدميها لأنه، حسنًا، بدا من الأدب فقط، بالنظر إلى مدى كرمه.

– "لكن هل ما زلت ترغب في زوجة؟ لأنني يمكنني مساعدتك في العثور على واحدة، بمجرد أن أستقر، أعني."

كادت عينا غريغوري تنقلبان في رأسه.

– "يا إلهي، يا لوسي."

راقبت وقوفه.

– "أشعر أنني يجب أن أصحح هذا. ظن أنه سيحصل على زوجة. بطريقة ما، ليس عدلًا تمامًا."

أغمض غريغوري عينيه للحظة طويلة. قال بإنهاك:

– "من الجيد أنني أحبك كثيرًا، وإلا، كنت سأضطر لتثبيت كمامة لكِ."

سقط فم لوسي مفتوحًا.

– "غريغوري!"

ثم:

– "هيرميون!"

قالت هيرميون، ويد واحدة لا تزال مصفقة على فمها لكتم ضحكتها:

– "آسفة! لكنكما متوافقان جيدًا."

تجول هاسيلبي داخل الغرفة وسلم عمها منديلًا.

– "ستحتاج لوقف ذلك."

ثم التفت مرة أخرى إلى لوسي.

– "لا أريد زوجة حقًا، كما أنا متأكد أنكِ تدركين، لكن أفترض أنني يجب أن أجد طريقة للإنجاب وإلا سيذهب اللقب لابن عمي البغيض. وهو ما سيكون عارًا، حقًا. مجلس اللوردات سيختار بالتأكيد الحل إذا قرر يومًا تولي مقعده."

نظرت إليه لوسي فقط ورمشت.

ابتسم هاسيلبي.

– "لذا، نعم، سأكون ممتنًا إذا وجدتِ شخصًا مناسبًا."

تمتمت:

– "بالطبع."

انفعل اللورد دافنبورت سائرًا للأمام:

– "ستحتاج لموافقتي أيضًا."

التفت إليه غريغوري باشمئزاز سافر.

– "أنت." قال بحدة. "يمكنك أن تخرس. فورًا."

تراجع دافنبورت بغضب.

– "هل لديك أي فكرة عمن تتحدث إليه، أيها الجرو الصغير؟"

ضاقت عينا غريغوري ونهض على قدميه.

– "إلى رجل في وضع محفوف بالمخاطر للغاية."

– "عذرًا؟"

قال غريغوري بحدة:

– "ستوقف ابتزازك فورًا."

أشار اللورد دافنبورت برأسه نحو عم لوسي.

– "كان خائنًا!"

– "وأنت اخترت عدم تسليمه. وهو ما أتخيل أن الملك سيجده مستهجنًا بنفس القدر."

ترنح اللورد دافنبورت للخلف وكأنه صُفع.

نهض غريغوري على قدميه، ساحبًا لوسي معه. قال لعم لوسي:

– "أنت. ستغادر البلاد. غدًا. لا تعد."

قال ريتشارد بحدة:

– "سأدفع تكاليف سفره. لا أكثر."

تمتم غريغوري:

– "أنت أكثر كرمًا مما كنت سأكون عليه."

قال ريتشارد بصوت مشدود:

– "أريده أن يرحل. إذا كان بإمكاني تعجيل رحيله، فأنا سعيد بتحمل التكلفة."

التفت غريغوري إلى اللورد دافنبورت.

– "لن تنبس ببنت شفة عن هذا أبدًا. هل تفهم؟"

ثم التفت إلى هاسيلبي.

– "وأنت. شكرًا لك."

اعترف به هاسيلبي بإيماءة كريمة.

– "لا أستطيع منع نفسي. أنا رومانسي." هز كتفيه. "يوقعني ذلك في المتاعب من وقت لآخر، لكن لا يمكننا تغيير طبيعتنا، أليس كذلك؟"

ترك غريغوري رأسه يهتز ببطء من جانب إلى آخر بينما بدأت ابتسامة عريضة تنتشر عبر وجهه.

تمتم وهو يأخذ يد لوسي:

– "ليس لديك أي فكرة."

لم يستطع تحمل الانفصال عنها في تلك اللحظة، ولا حتى بضع بوصات. تشابكت أصابعهما، ونظر إليها. كانت عيناها تلمعان بالحب، وتملك غريغوري رغبة غامرة وسخيفة في الضحك. فقط لأنه يستطيع.

فقط لأنه يحبها.

لكن بعد ذلك لاحظ أن شفتيها كانتا تشتدان أيضًا. حول الزوايا، كاتمة ضحكتها الخاصة.

وهناك تمامًا، أمام أغرب تشكيلة من الشهود، حملها بين ذراعيه وقبلها بكل قطرة أخيرة من روحه الرومانسية بشكل ميؤوس منه.

في النهاية – في النهاية جدًا – نال اللورد هاسيلبي جزاءه.

تظاهرت هيرميون بالنظر بعيدًا، وقال ريتشارد:

– "بخصوص ذلك الزفاف..."

بتردد كبير، ابتعد غريغوري. نظر لليسار. نظر لليمين. ونظر مرة أخرى لـ لوسي.

وقبلها مرة أخرى.

لأنه، حقًا، كان يومًا طويلًا.

وهو يستحق القليل من التدليل.

والله وحده يعلم كم سيستغرق الأمر قبل أن يتمكن من الزواج منها فعليًا.

لكن في الغالب، قبلها لأن...

لأن...

ابتسم، آخذًا رأسها بين يديه وتاركًا أنفه يستقر ضد أنفها.

– "أنا أحبك، تعرفين."

ابتسمت في المقابل.

– "أعرف."

وأدرك أخيرًا لماذا سيقبلها مرة أخرى.

هكذا فقط.



خاتمة

وفيه يُظهر بطلنا وحبيبتنا ذلك الدأب الذي عرفنا أنهما قادران عليه.



في المرة الأولى، كان غريغوري حطامًا.

وفي المرة الثانية كان أسوأ. ذكرى المرة الأولى لم تفعل شيئًا يذكر لتهدئة أعصابه. بل العكس تمامًا، في الواقع. الآن وقد أصبح لديه فهم أفضل لما يحدث (لم تدّخر لوسي أي تفاصيل، تبًا لروحها الدقيقة الصغيرة) كانت كل ضوضاء صغيرة تخضع لتدقيق وتكهنات مرضية.

كان أمرًا جيدًا للغاية أن الرجال لا ينجبون الأطفال. لم يخجل غريغوري من الاعتراف بأن الجنس البشري كان سينقرض قبل أجيال.

أو على أقل تقدير، لم يكن ليساهم في الدفعة الحالية من صغار آل بريدجيرتون المشاغبين.

لكن لوسي بدت وكأنها لا تمانع الولادة، طالما كان بإمكانها لاحقًا وصف التجربة له بتفاصيل لا هوادة فيها.

وقتما تشاء.

وهكذا بحلول المرة الثالثة، كان غريغوري أكثر تماسكًا قليلًا. كان لا يزال يجلس خارج الباب، ولا يزال يحبس أنفاسه عندما يسمع أنينًا مزعجًا بشكل خاص، لكن إجمالًا، لم يكن القلق ينهشه.

في المرة الرابعة أحضر كتابًا.

وفي الخامسة، مجرد جريدة. (بدا أن الأمر يزداد سرعة مع كل طفل. مريح، هذا).

أما الطفل السادس فقد باغته تمامًا. كان قد خرج لزيارة سريعة لصديق، وبحلول الوقت الذي عاد فيه، كانت لوسي جالسة والطفل بين ذراعيها، وابتسامة مرحة وغير متعبة ولو قليلًا على وجهها.

ومع ذلك، ذكّرته لوسي مرارًا وتكرارًا بغيابه، لذا حرص بشدة على أن يكون حاضرًا لوصول الرقم سبعة. وهو ما كان، طالما لم يخصم المرء نقاطًا لتركه موقعه خارج بابها بحثًا عن وجبة خفيفة في منتصف الليل.

عند سبعة، اعتقد غريغوري أنهما يجب أن ينتهيا. سبعة عدد جيد تمامًا من الأطفال، وكما أخبر لوسي، كان بالكاد يتذكر شكلها وهي ليست حاملاً.

أجابت لوسي بوقاحة:

– "حسنًا، بما يكفي لتتأكد من حملي مرة أخرى."

لم يستطع حقًا المجادلة في ذلك، لذا قبّلها على جبينها وذهب لزيارة هياسنث، ليشرح بالتفصيل الأسباب العديدة التي تجعل سبعة هو العدد المثالي للأطفال. (لم تكن هياسنث مستمتعة).

ولكن بعد ذلك، وبالتأكيد، بعد ستة أشهر من السابع، أخبرته لوسي بخجل أنها تنتظر طفلًا آخر.

أعلن غريغوري:

– "لا مزيد. بالكاد نستطيع تحمل تكاليف الذين نملكهم بالفعل." (لم يكن هذا صحيحًا؛ كان مهر لوسي سخيًا للغاية، واكتشف غريغوري أنه يمتلك عينًا ثاقبة للاستثمار).

ولكن حقًا، ثمانية يجب أن يكونوا كافين.

ليس أنه كان مستعدًا لتقليص أنشطته الليلية مع لوسي، ولكن كانت هناك أشياء يمكن للرجل القيام بها – أشياء ربما كان ينبغي عليه القيام بها بالفعل، لقول الحقيقة.



وهكذا، وبما أنه كان مقتنعًا بأن هذا سيكون طفله الأخير، قرر أنه قد يرى أيضًا ما يدور حوله الأمر كله، وعلى الرغم من رد فعل القابلة المذعور، بقي بجانب لوسي طوال الولادة (عند كتفها، بالطبع).

قال الطبيب، رافعًا الملاءة لإلقاء نظرة:

– "إنها خبيرة في هذا. حقًا، أنا زائد عن الحاجة في هذه المرحلة."

نظر غريغوري إلى لوسي. كانت قد أحضرت تطريزها.

هزت كتفيها:

– "الأمر يصبح أسهل حقًا في كل مرة."

وبالتأكيد، عندما حان الوقت، وضعت لوسي عملها جانبًا، وأصدرت نخرة صغيرة، و...

ووش!

رمش غريغوري وهو ينظر إلى الرضيع الصارخ، كله مجعد وأحمر. قال:

– "حسنًا، كان ذلك أقل تعقيدًا بكثير مما توقعت."

أعطته لوسي تعبيرًا متذمرًا:

– "لو كنت حاضرًا في المرة الأولى، لكنت... أوهههههه!"

التفت غريغوري بسرعة ليواجهها:

– "ما الأمر؟"

أجابت لوسي وعيناها تمتلئان بالذعر:

– "لا أعرف. لكن هذا ليس طبيعيًا."

قالت القابلة:

– "الآن، الآن، أنتِ فقط..."

قاطعتها لوسي بحدة:

– "أعرف ما يفترض أن أشعر به. وهذا ليس هو."

سلم الطبيب الطفل الجديد – فتاة، وسر غريغوري بمعرفة ذلك – إلى القابلة وعاد إلى جانب لوسي. وضع يديه على بطنها.

– "هممم."

ردت لوسي، وليس بقدر كبير من الصبر:

– "همممم؟"

رفع الطبيب الملاءة ونظر أسفلها.

أطلق غريغوري صوتًا مخنوقًا وهو يعود إلى كتف لوسي:

– "غاااه! لم أقصد رؤية ذلك."

طالبت لوسي:

– "ما الذي يحدث؟ ماذا تقصد... أوهههههه!"

ووش!

هتفت القابلة:

– "يا للسماء. هناك اثنان."

لا، فكر غريغوري، وهو يشعر بغثيان شديد، هناك تسعة.

تسعة أطفال.

تسعة.

إنه أقل بواحد فقط من عشرة.

الذي يمتلك رقمين. إذا فعل هذا مرة أخرى، فسيكون في خانة العشرات من الأبوة.

همس:

– "أوه يا إلهي العزيز."

قالت لوسي:

– "غريغوري؟"

– "أحتاج للجلوس."

ابتسمت لوسي بوهن:

– "حسنًا، والدتك ستكون مسرورة، على أقل تقدير."

أومأ برأسه، بالكاد قادر على التفكير. تسعة أطفال. ماذا يفعل المرء بتسعة أطفال؟

يحبهم، كما افترض.

نظر إلى زوجته. كان شعرها أشعث، ووجهها منتفخاً، والجيوب تحت عينيها تجاوزت اللافندر وكانت في طريقها إلى الرمادي الأرجواني.

رآها جميلة.

الحب موجود، قال لنفسه.

وهو عظيم.

ابتسم.

عظيم تسع مرات.

وهو عظيم جداً، بالفعل.

-تمت-

في الطريق إلى حفل الزفاف

جوليا كوين

آخر عزّاب عائلة "بريدجيرتون" يبدأ رحلة البحث عن فتاة أحلامه.

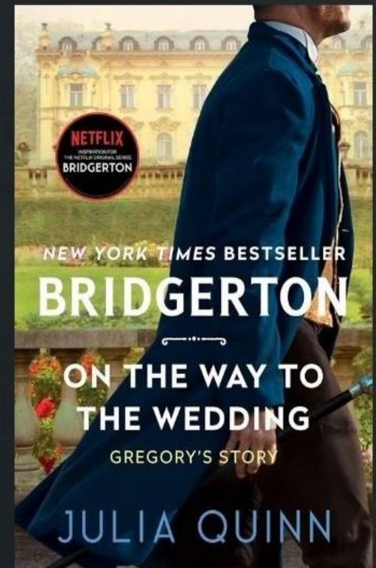
بصفته الشقيق الوحيد الذي لم يدخل القفص الذهبي بعد، وبطبيعته الحالمة التي تقدس الحب، يرفض "غريغوري" تماماً فكرة "زواج المصالح". لكن بوصلة قلبه تنحرف، فيقع في غرام المرأة الخطأ، بينما تغفل "لوسي أبيرناثي" -الفتاة الحذرة والرقيقة- عن مشاعره الحقيقية التي كانت تحوم حولها دون أن تدركها.

ثم تأتي الصحوة... ولكن هل فات الأوان؟ حين يستمع "غريغوري" أخيراً لنداء قلبه بصدق، يجد نفسه في سباق يائس مع الزمن؛ فـ "لوسي" تقف الآن على أعتاب الكنيسة، وتوشك أن تُزف إلى رجل آخر! في تلك اللحظات الحاسمة، لن يكون أمام "غريغوري" خيار سوى استجماع كل ما يملك من دهاء وشجاعة، وإلا خسر حب حياته إلى الأبد.

في هذا الجزء، تدعو "جوليا كوين" قراءها لحضور الفصل الأخير من ملحمة "بريدجيرتون" الشهيرة، مع خاتمة تفيض بالرومانسية، والفكاهة، والدفء. إنها تحفة مليئة بالحوارات الذكية، استحقّت الوصول لنهائيات جائزتين مرموقتين، لتكون مسك الختام الذي سيأسر قلوب عشاق السلسلة.







ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks